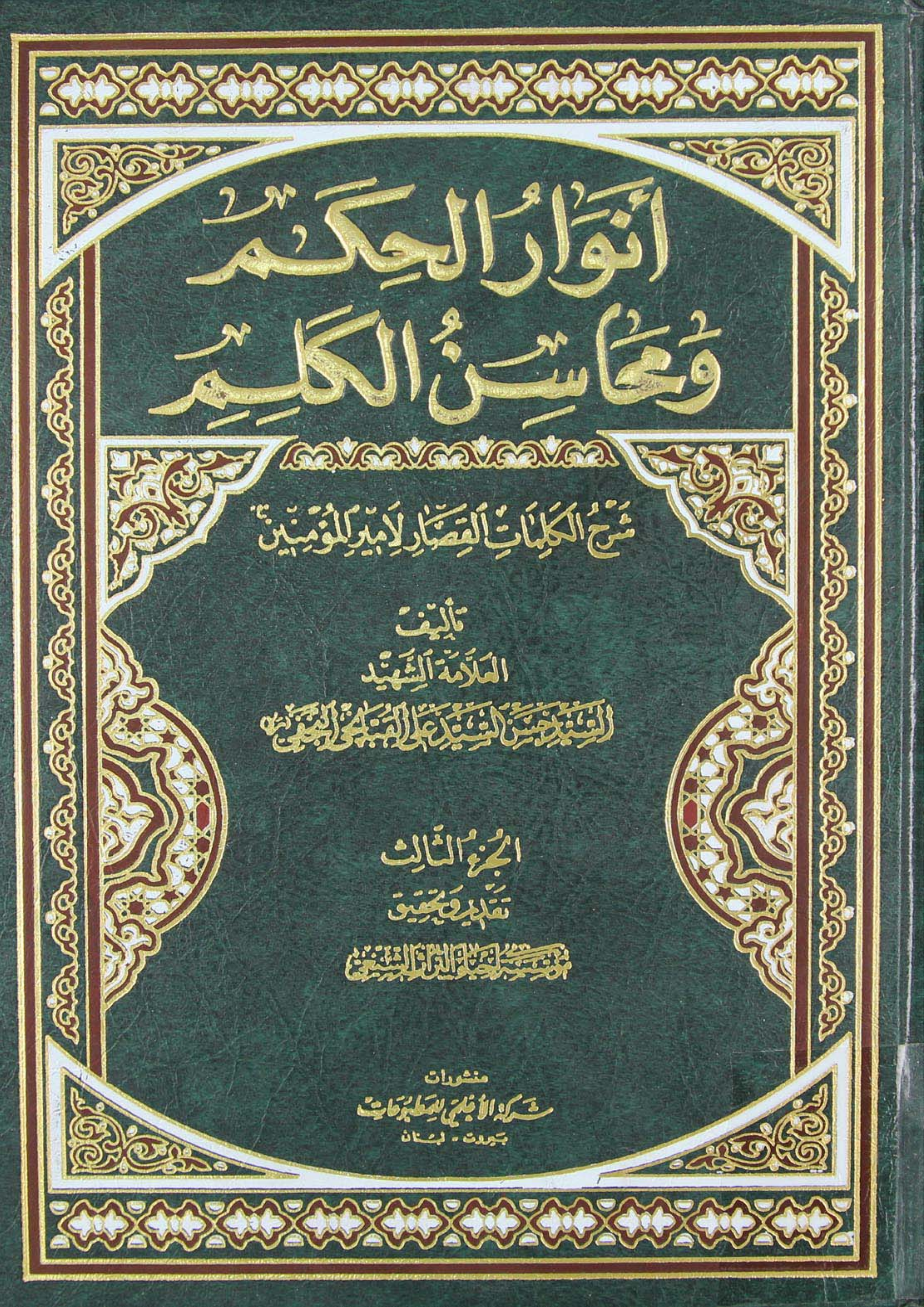
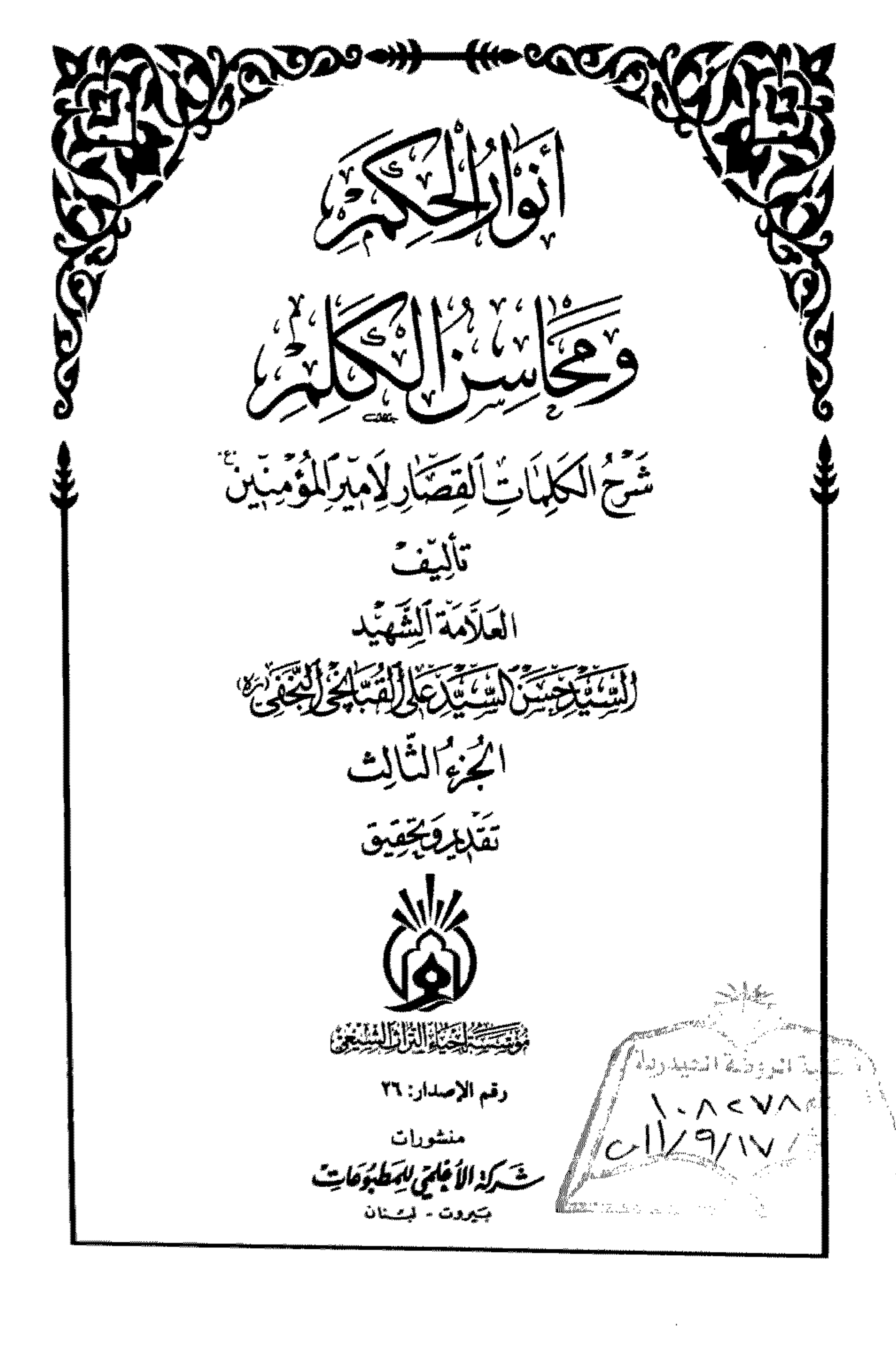

أنوار الحكم
ومحاسن الكلم
شرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين
تأليف
العلامة الشهيد
السيد حسن السيد علي القبانچي النجفي
الجزء الثالث
تقديم وتحقيق
مؤسسة إحياء التراث الشيعي
منشورات
شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان


مكتبة الروضة الحيدرية





أنوار الحكم ومحاسن الكلم

شرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين

تأليف

العلامة الشهيد

السيد حسن السيد علي القبانچي النجفي (ره)

الجزء الثالث

تقديم وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

رقم الإصدار: ٣٦

منشورات

شركة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م





شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - طريق المطار - قرب سنتر زعرور
هاتف:٤٥٠٤٢٦ / ٠١ - فاكس:٤٥٠٤٢٧ / ٠١
صندوق بريد:٧١٢٠

Published by Aalami Est.
Beirut Airport Road
Tel:01/450426 Fax:01/450427
P.O.Box.7120

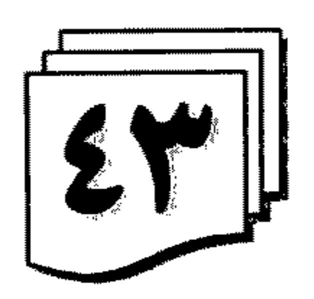
E-mail:alaalami@yahoo.com
http://www.alaalami.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة الدائمة على سيّد رسله وخاتم أنبيائه محمّد ﷺ نبي الرحمة وسيّد الأُمّة وعلى أهل بيته المعصومين الطاهرين النجباء قادة الحقّ وسادة الخلق الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

وبعد: فيقول العبد الجاني الراجي عفو ربّه ولطفه حسن السيد عليّ القبانجي: هذا هو المجلّد الثالث من كتابنا (أنوار الحِكَم ومحاسن الكَلِم) نسأله تعالى أن يوفّقنا لإتمامه وكماله.





قوله عليه السلام:

إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلاَّ أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

(نهج البلاغة ٤: ٤٧)



[أثر المعاشرة في الأخلاق والطباع]

قال ابن أبي الحديد:

التحلّم تكلّف الحلم، والذي قاله عليه السلام: صحيح في مناهج الحكمة، وذلك لأنّ من تشبه بقوم وتكلّف التخلق بأخلاقهم والتأدب بآدابهم، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل اكتسب رياضة قويّة وملكة تامة، وصار ذلك التكلف كالطبع له، وانتقل عن الخلق الأوّل، ألا ترى أنّ الأعرابي الجلف الجافي إذا دخل المدن والقرى وخالط أهلها وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذي نشأ عليه وتلطّف طبعه وصار شبيهاً بساكني المدن، وكالأجنبي عن ساكن المدر. وهذا قد وجدناه في حيوانات أخرى غير البشر، كالبازي والصقر والفهد التي تُراض حتّى تذل وتأنس وتترك طبعها القديم؛ بل قد شاهدناه في الأسد وهو أبعد الحيوان من الأنس.

وذكر ابن الصابي: أنّ عضد الدولة ابن بويه كانت له أسود يصطاد بها الصيد كالفهود فتمسكه عليه حتّى يدركه فيذكيه، وهذا من العجائب الطريفة.[1]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٧.

قال ابن ميثم البحراني:

أمر عليه السلام بتعلّم هذه الفضيلة، فإنّ مبادئ الملكات الخلقية حالات مكتسبة عن التعلّم، ورغّب في تعلّمها بضمير صغراه قوله: «فإنّه قلّ...» إلى آخره، والضمير في إنّه ضمير الشأن، وتقدير الكبرى، وكلّ من أوشك أن يكون من أهل الحلم بتعلّمه له فواجب أن يتعلّمه.(١)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

التصنع هنا والتكلّف حسن وممدوح، ومع التكرار تنشأ العادة وتنمو، وهي طبيعة ثانية.(٢)

* * *

[كيفية حصول الملكات النفسية]:

وقال مؤلف (منهاج البراعة):(٣)

حصول الملكات الفاضلة النفسانية على وجهين:

١ _ ما يكون موجوداً بالفطرة وجبلّة في الخلقة، كالجود لحاتم، أو العصمة للأنبياء والأوصياء المعصومين عليهم السلام.

٢ _ ما يحصل بالإكتساب والرياضة، وهذا هو الهدف والغاية للحكمة العملية، وطريق كسب الملكات الفاضلة النفسانية، هو التمرين عليها والتدريب بها، فالمقصود من التحلّم التشبه بالحليم في تحمّل ما

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٦٦.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٣٤٢.

(٣) ج ٢١: ٢٧٧.

يكره، هذا هو التمرين على صفة الحلم، فإذا تكرر وأديم عليه تحصل ملكة الحلم، فهذا معنى قوله عليه السلام: «أوشك أن يكون منهم».

* * *

أقول: جاء في (مجمع البحرين):[١]

والحلم: العقل والتؤدة، وضبط النفس عن هيجان الغضب، والجمع أحلام وحلوم. والحليم: من أسمائه تعالى وهو الذي لا يستفزه الغضب، وحلم يحلم حلماً ـ بضمتين وإسكان الثاني للتخفيف ـ إذا صفح وستر، فهو حليم.

* * *

وجاء في المجلد الرابع من (الخلق الكامل):[٢]

الحلم إمساك النفس عن الإستشاطة في الغضب، وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشر والسكون عند الأحوال المحركة للإنتقام، والتثبت في ترك تعجيل إنفاذ الحكم لما في عواقب ذلك من وقوع الندم، لاسيّما مع تمكّن القدرة، وتحكم القوَة، فإنّ ذلك آية الرحمة، وسعة الصدر، وعلوّ الهمّة، وإيثار مكارم الأخلاق، فما منع شيئاً من دواعي الفضل من طُبع عليه، ولا قصر عن أرفع مراتب الخير من وُفق إليه، كما أنه ما ترك شيئاً من الأحوال الذميمة وتأخر عن سبب من الأسباب المليمة من أنفذ غضبه، واستعجل عند القدرة انتقامه.

والحلم من أكرم الخلال، وأتمّ الخصال، وأفضل شمائل الرجال،

---

(١) ج ١: ٥٦٥.

(٢) لمؤلفه الباحث المصري محمّد أحمد جاد المولى (١٣٠٠ - ١٣٦٣هـ).

وأسنى مواهب الله المتعال. وهو أصل من أصول الدين، وركن من أركان الطاعة مكين، وحبل من حبال الشرع متين، وحصن من حصون الإيمان حصين، من استند إليه، وتمسّك به، واعتمد عليه ـ إستنارت له الظلم، وأمِنَ من عثار القدم، وعصم من مواقع الندم.

وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعد الهمم، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم، ومن تحلّى به واستعمله وأخذ به نفسه وامتثله ـ فقد استمسك من الصبر بكل سبب، واستولى على دواعي الخير ومساعي البر في كل أرب، فما زال يطفئ جمرة الغضب، ويسمو بصاحبه في الدارين إلى أرفع الرتب.

وهو اسم من أسماء الله سبحانه، وصفة من صفاته؛ لأنه (جل ذكره) يرى عصيان العاصين، ويطلع على خيانة الخائنين، ويشاهد جور الظالمين، ويحصي ذنوب الخاطئين، فلا يحتجب عنه عمل عامل، ولا يغيب عن علمه شيء في عاجل ولا آجل، وهو بحلمه لا يعجّل بالإنتقام مع القدرة، ولا يستفزه الغضب مع إمكان القوة، ولا تبعثه العجلة على إنفاذ حكمه مع وضوح الحجة؛ بل يؤثر الحلم والإمهال؛ ليكون له الفضل والمنّة. وحسبنا قوله عز من قائل: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾(١) وقوله تبارك اسمه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾(٢).

وقد أثنى الله تعالى بالحلم على أنبيائه، وخصّ به صفوة أوليائه، ومنحه من أراد كرامته من أهل الطاعته وأصفيائه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ

(١) الكهف: ٥٨.

(٢) النحل: ٦١.

إِبراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[1] وقال لرسوله ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ﴾.[2]

روي أنه قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام عند نزول هذه الآية: «ما هذا؟» قال: لا أدري حتّى أسأل العالِم، ثمّ عاد جبريل فقال: «يا محمّد إنّ ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وقال رسول الله ﷺ: «وجبت محبّة الله لمن أغضبَ فحلُم».

وقال ﷺ: «إذا غضبَ أحدكم وكان قائماً فليقعُد، وإن كان قاعداً فليضطجع» يريد بذلك تسكين الغضب عند استشاطة النفس. وأتاه رجل فقال: يا رسول الله أوصني، قال: «لا تغضب»، ثمّ أعاد عليه، فقال: «لا تغضب»، ثمّ عاد عليه، فقال: «لا تغضب».

وحكي عن بعض ملوك الفرس أنه كتب كتاباً دفعه إلى بعض وزرائه وقال له: إذا غضبت فناولنيه، وكان قد كتب فيه: ما لك وللغضب؟ وإنما أنت بشر، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. وكتب أبرويز لابنه: يا بني إنّ كلمة منك تسفك دماء، وكلمة تحقن دماء، وأمرك نافذ، وكلامك ظاهر، فاحترس في غيظك من قولك أن يخطئ، ومن لونك أن يتغيّر، ومن جوارحك أن تَخف، فإنّ الملوك تعاقب قدرة، وتعفو حلماً.

وقالت الحكماء: ليس الحليم من ظلم فحلم، حتّى إذا قدر انتصر، إنّ الحليم من إذا قدر عفا. وقيل: الحلم ترك المكافأة بالشر قولاً وفعلاً.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه، يحدّث

---

(١) هود: ٧٥.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

قومه، إذا برجل مكتوف، ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك هذا، فو الله ما قطع كلامه، ولا حلّ حبوته، ثمّ التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا ابن أخي أنت رميت نفسك بسهمك، قتلت ابن عمك، ثمّ قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمك، واحمل إلى أمك مائة ناقة دية عن ابنها فإنها غريبة!

والحلم يحسبه السفيه من ضعف السنة واحتمال الذلة، والعاقل يراه من كمال العزة وإسداء المنة، ولذا قال الأحنف: لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم، وتقلدَت السيوف، ولم تر الحلم ذلاً، ولا التراهب فيها بينها ضعة، كما قال:

لا يدرك المجد أقوام وإن كرموا ... حتّى يذلّوا وإن عزوا لأقوام

ويصفحوا عن كثير من إساءتهم ... لا صفح ذلٍ ولكن صفح أحلام

* * *

قال بعض الحكماء: الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علوّ الهمة.

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «أوّل ما يرى الحليم من بركة حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل».

وقال محمّد بن كنانة: إنّ أهل الجاهلية لم يكونوا يسوّدون رجلاً حتّى يكون حليماً، وإن كان أكرم الناس، وأشجع الناس، وأشرف الناس. وقال بعض العلماء: ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان: حلم يردّ به جهل الجاهل، وورع يكفه عن المحارم، وخلق حسن يداري به الناس.

ومن تمام أحكام الحلم وكمال أسبابه واجتماع معانيه، قبول

العذر، من صادق كان أو كاذب، فإنّ الإعتذار دليل الندم، والندم توبة، وقد يكون الإعتذار حياءاً من المعتذر، والحياء من الإيمان.

* * *

[الحلم وفضله في الحديث]:

وفي (جامع السعادات):[١]

الحلم أشرف الكمالات النفسية بعد العلم؛ بل لا ينفع العلم بدونه أصلاً، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم» وقال صلى الله عليه وآله: «خمس من سُنن المرسلين، وعدّ منها الحلم» وقال صلى الله عليه وآله: «ابتغوا الرفعة عند الله»، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتحلم عمن جهل عليك».

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم».

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ الله يحب الحيي الحليم، ويبغض الفاحش البذي».

وقال صلى الله عليه وآله: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكفّ به السفيه، وخلق يعيش به في الناس».

وقال صلى الله عليه وآله: «إذا جمع الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ أين أهل الفضل، فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعاً إلى الجنّة، فيقولون: نحن أهل الفضل، فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسيئ إلينا عفونا، وإذا جُهل علينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين».

---

(١) ج ١: ٢٦٣.

وقال ﷺ: «ما أعزّ الله بجهل قط، ولا أذل بحلم قط».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك».

وقال عليّ بن الحسين عليه السلام: «إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه».

وقال الصادق عليه السلام: «كفى بالحلم ناصراً».

وقال عليه السلام: «وإذا لم تكن حليماً فتحلّم».

وقال عليه السلام: «إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما: قلتَ وقلتَ وأنت أهل لما قلت، وستجزى بما قلت، ويقولان للحليم منها: صبرت وحلمت سيغفر لك إن أتممت ذلك»، قال عليه السلام: «فإن ردّ الحليم عليه ارتفع المكان».

وبعث عليه السلام غلاماً له في حاجة فأبطأ، فخرج على أثره فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروّحه حتّى انتبه فقال له: «يا فلان والله ما ذلك لك تنام الليل والنهار، لك الليل ولنا منك النهار».

وقال الرضا عليه السلام: «لا يكون الرجل عابداً حتّى يكون حليماً».

* * *

وفي كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

وقد اختلف في حقيقة الحلم، قيل: هو ترك المكافأة عند القدرة قولاً وفعلاً.

وقيل: هو السكوت عند الأحوال المحركة للانتقام.

وقيل: هو إمساك النفس عند الغضب مع القدرة على الإنتقام وهو

أصح التعاريف، لولا هيجان الغضب لا معنى للحلم، فهو كالسلب بانتفاء الموضوع، إن لم يكن هناك داع للحلم، فلا حلم.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحلم لا يظهر إلاّ عند الغضب، فمن أغضب ولم يحلم، فليس بحليم».

وفي هذا المعنى قال أحدهم:

ليست الأحلام في حال الرضا ... إنما الأحلام في حال الغضب

وقال أحدهم:

وليس يتم الحلم للمرء راضياً ... إذا كان عند السخط لا يتحلّم

وقال عبد الله بن مسعود: أنظر إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب وما علمك بأمانته إذا لم يطمع.

وقال آخر: لا تحكموا لمن ينتسب إلى الحلم بالحلم حتّى يظهر حلمه عند غضبه، ولا ينتسب إلى الأمانة حتّى تظهر أمانته عند طمعه.

ومن ذلك ما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من غضب على من لا يقدر على مضرته، طال حزنه وعذّب نفسه، فحينئذٍ لا يسمّى حليماً بل يسمّى عجزاً».

ومن ذلك ما يسمّى بالعجز، حيث عدم القدرة على الإنتقام، لقي النعمان بن المنذر سعد بن مالك، ومعه خيل بعضها يقاد، وبعضها أعراء مهملة، فلما انتهى إلى النعمان، سأله عنها، فقال سعد: إني لم أقد هذه لأمنعها، ولم أعر هذه لأضيعها، فسأله النعمان عن أرضه: هل أصابها غيث يحمد أثره ويروي شجره؟ فقال سعد: أما المطر فغزير، وأما الورق فشكير، وأما النافذة فساهرة، وأما الحازرة فشبعى نائمة، فقال النعمان بعد

ما حسده على ما رأى من ذرب لسانه: وأبيك إنك لمفوّه، فإن شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه، فقال: شئت إن لم يكن منك إفراط. فأمر النعمان وصيفاً فلطمه، وإنما أراد أن يتعدى في القول فيقتله، فقال: ما جواب هذه؟ فقال سعد: سفيه مأمور، فقال النعمان للوصيف: إلطمه أخرى، فلطمه فقال: ما جواب هذه؟ قال: لو نُهي عن الأولى لم يعد للأخرى، فقال النعمان: إلطمه أخرى، ففعل، فقال: ما جواب هذه؟ فقال: ربّ يؤدب عبده، قال: إلطمه أخرى، ففعل، فقال: ما جواب هذه؟ فقال: ملكت فأسجح، فقال النعمان: أصبت فاقعد، فمكث عنده ما مكث.

بيان: أما الورق فشكير أي صغير لم يكبر. أما النافذة فساهرة التي نفذت من الهزال، وأما الحازرة حزرة المال أي خياره، وأما فاسجح الإسجاح حسن العفو.

* * *

وفي سفينة البحار (ج ١ ص ٤٢٣):

روي عن جابر قال: سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يشتم قنبراً وقد رام قنبر أن يرد عليه، فناداه أمير المؤمنين عليه السلام: «مهلاً يا قنبر دع شاتمك مهاناً، ترض الرحمن وتسخط الشيطان، وتعاقب عدوك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت».

وفيه: فيما ناجى الله به موسى بن عمران عليه السلام قال: «إلهي ما جزاء من صبر على أذى الناس وشتمهم فيك؟» قال الله تعالى: «أعينه على أهوال يوم القيامة».

وفيه: إن نصرانياً قال للإمام الباقر عليه السلام: أنت بقر، قال عليه السلام: «لا، أنا باقر»، قال: أنت ابن الطباخة، قال عليه السلام: «تلك حرفتها»، قال: أنت ابن السوداء الزنجية البذية، قال عليه السلام: «إن كنت صدقت غفر الله لها، وإن كنت كذبت غفر الله لك»، قال: فأسلم النصراني.

وفيه: إنّ رجلاً كتب إلى سلطان العلماء والمحققين الأعظم خواجه نصير الدين والملة، ورقة من جملة ما كتب فيها: يا كلب ابن الكلب، فكان الجواب: أمّا قوله: يا كذا فليس بصحيح؛ لأن الكلب من ذوات الأربع، وهو نابح طويل الأظفار، وأما أنا فمنتصب القامة، بادي البشرة، عريض الأظفار، ناطق ضاحك، فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص، وأطال في نقض كل ما قاله، هكذا ردّ عليه بحسن طوية وتأنٍّ غير منزعج، ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة.

وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه الحلم والعلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنّ الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خمسة من سُنن المرسلين، وعدّ منها الحلم». وأما الباقي: الحياء والحجامة والسواك والتعطّر.

وفي (سفينة البحار): قيل: لما سمع المفضل من ابن أبي العوجاء بعض ما رشح منه من الكفر والإلحاد، لم يملك غضبه فقال: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري (جل قدسه) إلى آخر ما قال. فقال له ابن أبي العوجاء: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبتت لك الحجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك. وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل ذلك

يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدنا في جوابنا، وإنه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا، ويستعرف حجتنا، حتّى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أنا قد قطعناه، أدحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقوم من اليهود، فقالوا له شراً، فقال لهم خيراً، فقيل له: إنهم يقولون شراً، وأنت تقول خيراً، فقال: «كل ينفق ما عنده».

قال معاوية لعمر بن الهيثم: أي الرجال أشجع؟ قال: من ردّ جهله بحلمه، قال: أيّ الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه.

وعن (عيون الأخبار) عن عبد الله بن بكر المزني، قال: جاء رجل فشتم الأحنف بن قيس، فسكت عنه، فأعاد عليه وألحّ، والأحنف ساكت. فقال: وا لهفاه ما يمنعه من جوابي إلاّ هواني عليه.[1]

والأحنف ذو حلم وحكمة، وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يوم صفين، توفي بالكوفة سنة (٦٧هـ) ودفن بالثوّية.

وقال أحد الحكماء: إذا سكتّ عن الجاهل فقد أوسعته جواباً وأوجعته عقاباً. وللشعراء في هذا المعنى كثير.

قال أحدهم:

أرى الكف عن شتم السفيه تكرّماً   أضرّ له من شتمه حين يشتمُ

* * *

(١) عيون الأخبار: ١٨٩.

وقال آخر:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوتُ
فإن جاوبته فرّجت عنه ... وإن خلّيته كمداً يموتُ

* * *

وقول أبي العبّاس الناشئ:

وإذا بليت بجاهل متحامل ... حسب الأمور من المحال صوابا
أوليته مني السكوت وربما ... كان السكوت عن القبيح جوابا

* * *

وقال آخر:

لما تعرّض للسبّاب تركته ... وغفلت عنه أيّما إغفالِ
وعلمت أن الصمت عنه عقوبة ... والصمت فيه عقوبة الجهالِ

* * *

قيل للأحنف: من أين اقتبست هذه الحكم وتعلّمت هذا الحلم؟ قال: مِن حكيم عصره، وحليم دهره، قيس بن عاصم المنقري.

ولقد قيل لقيس: حلم من رأيت فتحلّمت، وعلم من رأيت فتعلّمت؟ فقال: من الحكيم الذي لم تنفد قط حكمته، أكثم بن صيفي التميمي.

ولقد قيل لأكثم: ممن تعلّمت الحكمة والرياسة، والحلم والسيادة؟ فقال: من حليف الحلم والأدب، سيد العجم والعرب، أبي طالب بن عبد المطلب سلام الله عليه، لأنه لا يكون حليماً حتّى يكون عاقلاً ومصطبراً، وعفّواً وكاظماً.

قال أحدهم: الحلم دفع السيئة بالحسنة، وهو دعامة العقل، وعقال الشر، ومن أشرف نعوت الإنسان.

قال معاوية لعرّابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرّابة؟ قال: كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصّر عني فأنا خير منه.

قال المأمون للرضا عليه السلام: هل رويت من الشعر شيئاً؟ فقال عليه السلام: «رويت منه الكثير»، قال أنشدني أحسن ما رويته في الحلم، قال عليه السلام:

إذا كان دوني من بليت بجهله

أبيت لنفسي أن تقابل بالجهل

وإن كان مثلي في محل من النهى

أخذت بحلمي كي أجلّ عن المثل

وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجى

عرفت له حق التقدّم والفضل

وقيل: الحلم عدة للسفيه، وجُنّة من كيد العدو، وحرز من حسد الحسود، فإنك لن تقابل سفيهاً بالإعراض عنه إلاّ فللت حدّه، وأذللت نفسه.

وفي المثل: (دبّرها حليم، وطلع من شرّها سليم)، يقال: إنّ رجلاً كان عنده عبد مملوك، دخل داره وجد عبده على زوجته، فستر أمرها وطلقها وباع العبد، ولما خرجت من العدة تزوجّت بآخر، فأمرته أن يشتري العبد فاشتراه لها، فرجعت على ما كانت عليه أوّلاً، دخل زوجها داره فرأى العبد عليها، فقتلها وقتل العبد، طالب أهلها بدمها، وقالوا: إنما قتلت العبد حتّى تتخلص من دمها وتكون لك الحجة، وعلينا تلك الفضيحة، جلسوا لذلك مجلساً، وكان من بينهم

زوجها الأوّل، فقال لهم بعد أن أرادوا الإستفسار منه: (دبّرها حليم، وطلع من شرها سليم)، فعلموا أنه كان ذلك منها عند زوجها الأوّل، فحلم الأوّل وستر عليها وعلى نفسه.

ومما ينسب لأمير المؤمنين عليه السلام:

فيا رب زدني اليوم حلماً فإنني   أرى الحلم لم يندم عليه حليم

* * *

وأيضاً مما ينسب إليه عليه السلام:

ولم أرَ مثل الحلم خيراً لصاحبي   ولا صاحباً للمرء شراً من الجهل

* * *

[حقيقة الحلم وموارده]:

ومما ورد في (الرياض الخزعلية):

وأما الحلم فله موارد يتأكد حسنه فيها، وموارد لا يكون الحلم فيها إلاّ مفسدة، وقبل بيان ذلك لا بدّ من تعريفه وبيان حقيقته، والفرق بينه وبين العجز، ثمّ بيان فضله وثمراته، ثمّ بيان موارد حسنه وموارد قبحه.

أما حقيقته: فقيل: هو ترك المكافأة عند القدرة قولاً وفعلاً. وقيل: هو السكون عند الأحوال المحركة للإنتقام. وهذان التعريفان لا يخلوان من وصمة عدم الإطراد والإنعكاس، وإن أردت تعريفه الجامع المانع، فهو إمساك النفس عند الغضب مع القدرة على الانتقام. هذا تعريفه الذي لا غبار عليه، ومنه يظهر أن شرطا هيجان الغضب والقدرة على الإنتقام وهما عبارة عن وجود الداعي للنقيض، وهو الإنتقام وفقدان المانع عنه.

ولعلَّ هذين الشرطين أعني بهما وجود الداعي، وفقدان المانع، لا نفس هيجان الغضب والقدرة على الإنتقام يطردانهما أو ما في معناهما في مفهوم كل خلق محمود، كالزهد والعفة قياساً على الحلم، وأما الحلم فلا يتحقق بدونهما. أما وجود الداعي وهو هيجان الغضب فلولاه لا معنى للحلم إذ هو كالسلب بانتفاء الموضوع.

وإنّ الله سبحانه ما مدح من لا يغضب، وإنما مدح من كظم غيظه، فقال سبحانه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحلم لا يظهر إلاّ عند الغضب، فمن أُغضب ولم يحلم فليس بحليم».

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

ليست الأحلام في حال الرضا　　　إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر أيضاً:

وليس يتمّ الحلم للمرء راضياً　　　إذا كان عند السخط لا يتحلّم

* * *

ومثل الحلم في عدم التحقق بدون وجود الداعي أمور كثيرة: كالعفة والأمانة، فما لا داعي له لا معنى له، قال عبد الله بن مسعود: أنظر إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع. وقال آخر: لا تحكموا لمن

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) الشورى: ٣٧.

ينتسب إلى الحلم بالحلم حتّى يظهر حلماً عند غضبه، ولا لمن ينتسب إلى الأمانة حتّى تظهر أمانته عند طمعه.

ومثل الحلم والأمانة في عدم التحقق بدون الداعي، الجود والشجاعة أيضاً، فقد قالت الحكماء: ثلاث لا يعرفون إلاّ في ثلاث مواطن: لا يعرف الجواد إلاّ في العسرة، والشجاع إلاّ في الحرب، والحليم إلاّ في الغضب. ومثل ذلك أيضاً ما قال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلاّ في ثلاثة: لا يعرف الحلم إلاّ عند الغضب، ولا الشجاع إلاّ عند الحرب، ولا الجواد إلاّ عند القلة، ومن هذا قول بعضهم:

ليس جود الجواد من فضل مال ... إنما الجود للمقلّ المواسي

وقال الآخر أيضاً:

وليس يتمّ الجود للمرء مؤسراً ... إذا كان عند العسر لا يتكلم

وقال الآخر:

جهد المقل إذا أعطاك نائلة ... ومكثر في الغنى سيّان في الجود

وقول ابن الرومي مثله أيضاً:

إنّ الذي يعطي خسيسة ماله ... إذ لا كريمة عنده لجواد

* * *

وأمّا عدم المانع، وهو القدرة فبدونها لا معنى للحلم أيضاً، فإنه حينئذٍ عجز لا حلم، وبذلك فرقوا بين الحلم والعجز، أن الأوّل عن قدرة، والثاني عن عدمها. وقالت الحكماء: ليس الحليم من إذا ظلم وعجز حلم حتّى إذا قدر انتصر؛ بل الحليم من قدر وعفى، ومن هذا المعنى قول أبي الطيب المتنبي:

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام

ومثل عدم تحقق الحلم بدون القدرة عدم تحقق الزهد أيضاً بدونها، فينقل من كلام أفلاطون: الحلم لا ينسب إلاّ من قدر على السطوة، وعفى، والزهد لا ينسب إلاّ إلى من ترك بعد القدرة.

ومن غرر الحكم وفيها رائحة باب مدينة العلم عليه السلام: «ليس الزاهد في الدنيا من زهد فيها وقد أعرضت عنه وابتنت منه ولم تمكنه من متاعها، وضاقت عليه مع اتساعها، وهو مضطرّ إلى ذلك لظهور عسرته ونفوذ يسرته، وإنما الزاهد في الدنيا من أقبلت عليه وحشدت فوائدها إليه، وحسنت له في ذاتها وأمكنته من لذاتها، فزوى بوجهه عنها وأثر الفرار منها».

ومن هذا قول أبي تمام:

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له ... بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وليس الزاهد في شيء والذام له مع عدم القدرة عليه، إلاّ كذم الثعلب للعنقود لما عجز عنه، وقال: إنه حامض على ما زعموا في الأمثال: إنّ الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلم ينله، فقال: هذا حامض، فصار يضرب به المثل لكل من عجز عن شيء وذمه، فيقال: أعجز عن الشيء من الثعلب عن العنقود. وحكى الشاعر ذلك فقال:

أيها العائب سلمى ... أنت عندي كثعاله

رام عنقوداً فلما ... أبصر العنقود طاله

قال هذا حامض ... لما رأى أن لا يناله

... وهذا ومثل الحلم في عدم التحقق بدون القدرة، التواضع أيضاً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «التواضع مع الرفعة كالعفو مع القدرة».[1]

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٨.

فقد تبين من هذا أن حقيقة الحلم أمران: وهما حال الغضب، وحال القدرة، ولا يتحقق إلاّ بهما معاً وإلاّ فمع الغضب بدون القدرة عجز، ومع القدرة بدون الغضب عدم، والحقيقي ما كان معهما هذا تعريفه.

[فضل الحلم في القرآن والسُنَة] :

وأما فضل الحلم بهذا المعنى فعظيم، وقد نطق بذلك القرآن الكريم في كثير من الآيات، وصرّحت به السُنّة على ألسن الرواة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾.[١]

وقال تعالى: ﴿وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.[٢]

وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[٣]

وقال تعالى: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.[٤]

وقال تعالى يخاطب نبيّه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾.[٥]

وقال تقدّس اسمه: ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.[٦]

وقال جل وعلا: ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.[٧]

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) النور: ٢٢.

(٤) آل عمران: ١٥٩.

(٥) الأعراف: ١٩٩.

(٦) الشورى: ٣٧.

(٧) الشورى: ٤٠.

وقال تبارك وتعالى مادحاً من اتصف بالحلم: ﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾.(١)

هذا ما تضمنته الآيات، وأما ما اشتملت عليه الروايات:

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث والذي نفسي بيده لو كنت حلافاً لحلفت عليهن: ما نقص مال من صدقة فتصدّقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلاّ زاده الله بها عزّاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر»(٢) ومثل ذلك أيضاً قوله ﷺ في حديث آخر: «التواضع لا يزيد العبد إلاّ رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، والعفو لا يزيد العبد إلاّ عزاً فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلاّ كثرة فتصدّقوا يرحمكم الله تعالى».(٣)

وروي أن عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدّم إليه صحيفة فيها طعام حار فصبها على رأسه ووجهه، فغضب، فقال له العبد: ﴿وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قال: «قد كظمت غيظي»، فقال: ﴿وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال: «قد عفوت»، فقال له: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال: «أنت حرّ لوجه الله تعالى، وقد نحلتك ضيعتي الفلانية».(٤)

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: «اكظم الغيظ، واحلم عند الغضب، وتجاوز عند القدرة، واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة».(٥)

---

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) مجمع الزوائد ٣: ١٠٥.

(٣) كنز العمال ٣: ١١٠/ ح ٥٧١٩.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٨: ٤٦.

(٥) نهج البلاغة ٣: ١٢٩، وفيه: «واكظم الغيظ، وتجاوز عند المقدرة، فاحلم عند الغضب، واصفح مع الدولة».

هـذه كانـت شـيمة رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشـيمة أميـر المـؤمنين عليه السلام وأولاده الطيبين الطاهرين.

أما شيمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فظفر بمشركي مكّة في عام الفتح وعفى عنهم. وأما شيمة أمير المؤمنين عليه السلام فظفر بأصحاب الجمل وقد شقوا عصى الإسلام عليه وطعنوا فيه وفي خلافته، فعفى عنهم مع علمه بأنهم يفسدون عليه أمره فيما بعد ويصيرون إلى معاوية إما بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم، وهذا أعظم من الصفح عن أهل مكّة؛ لأن أهل مكّة لم يبقَ لهم لما فُتحت قُبةٌ يتحيّزون إليها ويفسدون الدين عندها.

روى القطب الراوندي من طريق العامة عن الأصبغ، قال: صلينا مع أمير المؤمنين عليه السلام الغداة، فإذا رجل عليه ثياب (السفر) قد أقبل، فقال له عليه السلام: «من أين؟» قال: من الشام، قال: «ما أقدمك؟» قال: لي حاجة. قال عليه السلام: «أخبرني وإلاّ أخبرتك بقضيتك» قال: أخبرني بها يا أمير المؤمنين. قال عليه السلام: «نادى منادي معاوية يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا: من يقتل علياً فله عشرة آلاف دينار، فوثب فلان وقال: أنا، ولما انصرف إلى منزله ندم وقال: أسير إلى ابن عمّ رسول الله وأبي ولديه فأقتله، ثمّ نادى مناديه يوم الثاني: من يقتل علياً فله عشرون ألف دينار، فوثب آخر وقال: أنا فقال: أنت، ثمّ إنّه ندم واستقال معاوية فأقاله، ثمّ نادى منادي معاوية يوم الثالث: من يقتل علياً فله ثلاثون ألف دينار، فوثبت أنت، وأنت رجل من حمير»، قال: صدقت، قال عليه السلام: «فما رأيك تمضي إلى ما أمرت به أو ماذا؟» قال: لا ولكن أنصرف، قال: «يا قنبر أصلح له راحلته وهيئ له زاده وأعطه نفقته هذا».[1]

---

(١) أنظر: المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٩٧، وأما رواية الراوندي فلم يتوفر لنا مصدرها.

[ثمرات الحلم] :

وأما ثمرات الحلم وهو أقلها: التلذذ بالعفو، فقد قيل: لذة العفو أطيب من لذة التشفي؛ لأنّ لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي يلحقها ذمّ الندم، ومنه ما قيل: إياك والغضب فإنه يؤول إلى ذلّ الاعتذار، ومنه قول الشاعر:

فلربما كره العقوبة حازم ... كي ما يفوز بلذة الغفران

ومنها طول العمر: ففي بعض الكتب المنزلة، إنّ كثرة العفو زيادة في العمر، وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾.[1]

ومنها: الانتصار والعزة، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أوّل عوض الحليم (من حلمه) أنّ الناس أنصاره على الجاهل».[2]

ومنه قول المعري:

حلم الفتى عن سفيه القوم يكثر من ... أنصاره ويوقيه من الغيل

ومنها: وهو أجلها الإتصاف بصفات الله تعالى فإنّه الحليم الذي لا يعاقب، وإنما الناس يعاقبون أنفسهم بارتكاب المظالم بعضهم من بعض، والله هو العادل في حكمه.

وقيل لبعض الصوفية: لِمَ وصف الله سبحانه وتعالى بخير الرازقين؟ فقال: لأنه إذا كفر عبده لا يقطع رزقه. وروي أنه كان في بني إسرائيل ملك، ووصف له عالم من العباد، فأرسل إليه وأحضره وراوده على صحبته ولزوم بابه، فقال له العابد: إنّ قولك هذا حسن، ولكن لو دخلت

---

(١) الرعد: ١٧.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٤٧.

يوماً بيتك ورأيتني ألعب مع جاريتك ماذا تفعل؟ فغضب الملك وقال له: يا فاجر تجترئ عليّ بمثل هذا الكلام، فقال له العابد: إنّ لي رباً كريماً حليماً لو رأى مني سبعين ذنباً في اليوم ما غضب عليّ، ولا طردني عن بابه، ولا أحرمني من رزقه، فكيف أفارق بابه وألزم باب من غضب عليّ قبل وقوع الذنب مني، فكيف لو رأيتني في المعصية، ثمّ تركه ومضى.

وورد في الحديث: إنّ مجوسياً استضاف إبراهيم عليه السلام فقال له: بشرط أن تسلم، فمضى المجوسي، فأوحى الله إليه أنا أطعمه منذ خمسين سنة على كفره، فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه، فمضى إبراهيم على أثره فاعتذر إليه، فسأله المجوسي عن السبب فذكر له ذلك فأسلم.

هذه صفة من صفات الله، والسعيد من اتصف بها وجعلها رداءه.

[موارد تأكد حسن الحلم]:

وأما الموارد التي يتأكد فيها حسن الحلم من الإنسان، ويذمّ فيها الغضب والإنتقام فكثيرة، والذي يتعيّن علينا ذكره في هذا الموضع ثلاثة:

الأوّل منها: الإنسان الذي لا يرضيك إذا غضبت عليه، ولا تقدر على سوق المضرّة إليه، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من غضب على من لا يقدر على مضرته طال حزنه وعذّب نفسه» ومنه قول الخليل بن أحمد: لا تماش من لا يساويك، ولا تجالس من لا يشتهيك، ولا تتكلم فيما لا يعنيك، ولا تغضب على من لا يرضيك، ولا تشكو الفقر لمن لا يغنيك. ومنه قول بعض الملوك: ما غضبي على من أملك، وما غضبي على من لا أملك. أي إذا كنتَ مالكاً له فأنا قادر على الإنتقام منه فلم أغضب، وإن كنت لا أملكه ولا يضره غضبي فلم أدخل الغضب على نفسي.

الثاني: الإعتذار والاقرار، أما الاعتذار فيقبح معه العقاب؛ بل والعتاب عقلاً وشرعاً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من عاقب معتذراً كثرت إساءته». وفي بعض الحكم ما أذنب من اعتذر، ولا أعتب من اغتفر. وقالوا أيضاً: ما أذنب من اعتذر، ولا أساء من استغفر. ومن درر الكلم: لا يظهر الحلم إلاّ مع الإنتصار، ولا يبين العفو إلاّ عند الاعتذار. وللشعراء في هذا المعنى نظم بديع وقول وسيع، منه قول بعضهم:

ولا تنزل بمعتذر عقاباً ... فإنّ الذنب يغفره الكريم

ومنه قول الآخر:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً ... إليك ولم تغفر له فلك الذنب

وقال عليّ بن الجهم:

إنّ ذلّ السؤال والإعتذار ... خطة صعبة على الأحرار

ليس جهلاً بها تكفّلها ... الحرّ ولكن سوابق الأقدار

أرض للسائل الخضوع وللقا ... رف ذنباً مغاضة الإعتذار

وأما الإقرار والإعتراف فأعظم ايجاب لسقوط العقاب وحسن الحلم واجتناب العتاب، وليس من أذنب واحتج لنفسه وجادل عن ذنبه كمن اعترف بذنبه ولام نفسه وأقرّ بخطيئته، واعترف بجريرته، فإنه أقرب للعفو وأرجى للرحمة، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يستثمر العفو بالإقرار أكثر ما يستثمر بالاعتذار».[1]

وقال عليه السلام: «من اعترف بالجريرة استحق المغفرة».[2]

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٥٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣١.

وقال عليه السلام: «الندم استغفار، والإقرار اعتذار، والإنكار اصرار».[1]

ومنه ما يقال: توبة المذنب إقراره، وشفيع المجرم اعتذاره. ومن درر الكلم: المذنب المقر قد ولاّك عقوبته، فالعفو عنه أولى. ومن غرر الحكم: «الإعتراف يهدم الإقتراف، والعدل غاية الإنصاف» انتهى.

وللشعراء في هذا المعنى مجال تتسابق به فرسانهم، من ذلك قول بعضهم:

إذا اعتذر المسيئ إليك يوماً ... من التقصير عذر فتى مقرّ
فصنه عن عقابك واعف عنه ... فإنّ الصفح شيمة كل حرّ

* * *

وقال المتنبئ:

وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه ... محى الذنب كل المحو من جاء تائباً

* * *

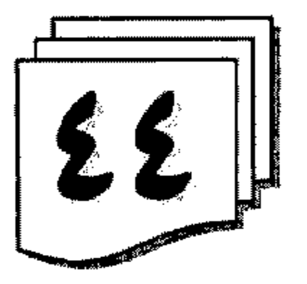
وقال آخر:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ... وتاب عما قد جناه واقترف
بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ... إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾

* * *

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ١١٨.





قوله عليه السلام:

مَا أحْسَنَ تَوَاضُعَ الأغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللّهِ وَأحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الأغْنِيَاءِ اتِّكَالاً عَلَى اللّهِ.

(نهج البلاغة ٤: ٩٥)



[صرف النظر عن غير الله]

قال ابن أبي الحديد:

قد تقدم شرح مثل هذه الكلمة مراراً، وقال الشاعر:

قنعت فأعتقت نفسي ولن ... أملّك ذا ثروة رقّها

ونزهتها عن سؤال الرجال ... ومنّة من لا يرى حقّها

وإنّ القناعة كنز اللبيب ... إذا ارتتقت فتقت رتقها

سيبعث رزق الشفاه الغرات ... وخمص البطون الذي شقها

فما فارقت مهجة جسمها ... لعمرك أو وفيت رزقها

مواعيد ربك مصدوقة ... إذا غيرها فقدت صدقها[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني في شرحه لنهج البلاغة:

تيه الفقراء على الأغنياء أصعب عليهم وأشق من تواضع الأغنياء لهم، إذ كان تيههم يستدعي كمال التوكل على الله، وهو درجة عالية في الطريق إليه، فلذلك كان أفضل وأحسن لقوله عليه السلام: «أفضل الأعمال أحمزها».[2]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٩.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦٢٩.

وقال الشيخ ابن مغنية:

التيه: التكبر، وإذا كان التواضع فضيلة لأنه خضوع وانقياد للحق، فالتكبر على الباطل والطغيان أيضاً فضيلة، بحكم التلازم العقلي والواقعي. هذا، إلى أنّ تكبّر الفقراء على الأغنياء ينطوي على التوكل والقناعة والرضا بما يسرّ الله، أما تواضع الأغنياء للفقراء فهو حسن، ما في ذلك ريب، لأن الغنى يبعث القسوة في القلوب، كما يشهد العيان وقول الله ورسوله وأهل بيته فإذا شذّ غني عن هذه القاعدة فمعنى ذلك أنه يسع الناس بأخلاقه، وانه تغلّب على هوى القلب وميوله.. ومع هذا فإن تيه الفقراء على الأغنياء أفضل وأكمل، لما أشرنا إليه من أنّ هذا التيه يدلّ على الإباء والقناعة والتوكل على الله تعالى.[١]

* * *

وفي (منهاج البراعة)[٢] قال الشارح:

ينقسم البشر بالغنى والفقر إلى طبقتين متفاوتتين متباعدتين، ومن هذا الإنقسام يتولّد مفاسد اجتماعية كثيرة من الظلم والطغيان والكبر والعصيان، ومن أهمّ مقاصد الإنسانية والدينية، وخصوصاً الدين الإسلامي محو المفارقات ونفي الطبقات وسوق البشر إلى جامعة أخويّة ملؤها المواساة والمساواة، فأشار عليه السلام إلى انّ تواضع الغني للفقير ينزله من ترفّعه الناشيء عن أثر غناه، فيساوي مع الفقير وتتحقق المساواة المطلوبة، وتندفع الإمتيازات المسمومة، فهو حسن جداً، وأحسن منه

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٤٥٢.

(٢) ج ٢١: ٤٨٧.

ترفّع الفقير تجاه الغني باتكاله على الله، فيرتفع الإمتياز ويحصل المطلوب، ولعلّ كونه أحسن باعتبار أنّ الفقراء أكثر بكثير من الأغنياء، فترفّعهم عليهم موجب لحصول مساواة أكثر، فتدبّر.

[تواضع الأغنياء للفقراء]:

صحيح أن تواضع الأغنياء للفقراء أحسن وأجمل ثمّ أنه يتسرى ويتصدى إلى غيرهم من أفراد البشر، فهو مطلوب ومراد من كل أحد؛ لأن فيه السمو والرفعة، وفيه الشرف والسؤدد؛ فهو صفة محمودة جذابة، والمتصف بها محبوب؛ لأنّه لم يغش الناس، ولم يخدعهم بالإتصاف بما ليس من صفاته، أما الذي يدعي ما ليس له من علم أو مال أو قوة، فإن شواهد الأحوال تكذبه، وحينئذ يحتقره الناس وينفرون منه. وخير للإنسان إذا كان فيه ما يدعو إلى الفخر، أن يدع ذلك للأيام فهي كفيلة بإظهار فضله، وإذاعة محامده.

وقد جاء في التواضع وهضم النفس شيء كثير، ومن ذلك الحديث المرفوع: «من تواضع لله رفعه، ومن تكبّر على الله وضعه الله».[1]

ويقال: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «إنما كلمتك لأن في أخلاقك خلقاً أحبه وهو التواضع».[2]

ورأى محمّد بن واسع ابنه يمشي الخيلاء، فناداه، فقال: ويلك أتمشي هذه المشية وأبوك أبوك وأمّك أمّك، أما أمّك فأمة ابتعتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا كثّر الله في الناس مثله.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٧: ١١١.

(٢) نفس المصدر.

سئل الجنيد عن التواضع، فقال: خفض الجناح ولين الجانب.

ابن المبارك: التكبّر على الأغنياء، والتواضع للفقراء من التواضع. وقيل لأبي يزيد: متى يكون الرجل متواضعاً؟ قال: إذا لم يرَ لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى أنّ في الخلق من هو شرّ منه. وكان يقال: التواضع نعمة لا يحسد عليها، والتكبّر محنة لا يرحم منها، والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده. وكان يقال: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة. يحيى بن معاذ: التواضع حسن في كل أحد؛ لكنه في الأغنياء أحسن، والتكبر سمج في كل حد ولكنه في الفقراء أسمج.

مرّ الحسن بن عليّ عليه السلام بصبيان يلعبون وبين أيديهم كسر خبز يأكلونها فدعوه، فنزل وأكل معهم، ثمّ حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم، وقال: الفضل لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر مما أطعمناهم.[1]

وفي حديث أبي سعيد الخدري: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعلف البعير ويُقمّ البيت، ويخصف النعل ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معها إذا أعيت، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى منزل أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلّم مبتدئاً ولا يحقّر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر، وكان هيّن المؤنة، ليّن الخلق، كريم السجية، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بَسّاماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير ذلّة، جواد من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً لكل مسلم، ما تجشّأ قط من شبع، ولا مدّ يده إلى طمع.[2]

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٩٨.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٢٠٩.

وقال الفضيل: أوحى الله إلى الجبال إني مكلم على واحد منكم نبياً، فتطاولت الجبال وتواضع طور سيناء فكلّم الله عليه موسى لتواضعه.

[فضيلة التواضع]:

فالتواضع هو الخلق الذي لا يضارعه في أدب النفس أي خلق.

هو الوقوف بصاحبه عند الحدود التي رسمها له الأدب.

هو الدمعة التي تترقرق في عين المحسن إذا رأى مناظر الحاجة والضعف والذلة والفاقة.

هو الرحمة الشاملة التي يفزع إليها المصدور، ويهرع إليها المفؤود، ويلجأ إليها المكروب، ويؤوب إليها المحروم.

هو الصلة القوية بين الظالم والمظلوم، والحاكم والمحكوم، والسيد والمسود، والرئيس والمرؤوس.

وعن أبي الفتح قال: رأيت عليّ بن أبي طالب في المنام، فقلت له: يا أبا الحسن علمني، فقال لي: «ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله ﷻ»[1]

فالتواضع إن شئت سميته خلقاً فاضلاً كريماً، وإن شئت سميته عبادة هادئة كاملة، وإن شئت طويت تحته ما تعرف من وفاء وكرم وعزة وشرف، وحكمة وأحكام، وأنعم به من خلق سما فشرف، وجمع فأوعى.

وليس التواضع أن تذل نفسك لمن فتنته دنياه بزخرفها الزائل، وبريقها اللامع، فأتبعها فاختطفته حتى ما يستطيع أن يتحول عنها خشية

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٤٣٢.

أن ينسى لوناً من ألوانها الزاهية الخلابة، أو يحرم نظرة في مرآة وجهها المغرية البراقة.

وليس التواضع أن تضع نفسك موضعاً يرضي سفيه القوم الذي أمات الغرور ضميره، وملأ الكبر جوانحه، فنظر بعين الشيطان وسوّلت له نفسه ما شاءت من قبيح الأقوال وسيّئ الأفعال.

وليس التواضع أن تموت حنقاً وغيظاً من هؤلاء وأولئك المفتونين المغرورين، إنما التواضع أن تعلمهم أو تشعرهم بأنك لست القنص الذي ترنو إليه أبصارهم، ولا الهدف الذي تحوم حوله سهامهم، ولا الفريسة التي تتلوى بين أسنة رماحهم، ولا الطائر الذي يرقص ألماً من وخز سلاحهم، فلا عليك إذن أن تتواضع في غير ضعف، رافعاً رأسك في غير كبر، حتّى تشعر نفسك وتشعر غيرك بفضل نعمة الله عليك أن آتاك نفساً قوية صافية، وقلباً طاهراً نقياً، ولساناً ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة، وضميراً يفيض بالإيمان والإخلاص والإحسان، تلك هي دائرة الخير للحياة الطيبة الرشيدة، التي إن شئت جعلت مركزها الحقيقي خلق التواضع القويم المتين، وقد قيل: رأس التواضع أن تضع نفسك عن من هو فوقك في الدنيا حتّى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

ومن الناس من يغرّك مظهره ويسوؤك مخبره، فيغريك بتواضعه الزائف وتملّقه الكاذب، وتكلفه الشائن، وهو الذليل المهين ذو النفس الضعيفة التي لا تعرف رفعة، ولا تتوطن على نعمة، ولم تتواضع عن جدارة واستحقاق.

قيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصرة عن قوة.

وفي الحق أن التواضع في شرف ورفعة وجاه وقدرة، خير منه في ضعة وضعف وعجز وافلاس، ذلك لأن النفس جبلت على حب الظهور والفخر إذا أحيطت بمظاهر الأبهة والعظمة، فإن هي قاومت جبلتها وغالبت فطرتها، وانتحت ناحية من نواحي الكمال في الرفعة والكرم في الجاه فقد جادت بأقصى ما تجود به المكارم، وفازت بما تفوز به أنفس الأبرار الأطهار.

* * *

قال النراقي في (جامع السعادات):[١]

التواضع هو إنكسار للنفس يمنعها من أن يرى لذتها مزية على الغير، وتلزمه أفعال وأقوال موجبة لاستعظام الغير وإكرامه، والمواظبة عليها أقوى معالجة لازالة الكبر، ولا بدّ من الإشارة إلى الأخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده تحريكاً للطالبين إلى السعي في تحصيله الموجب لإزالة ضده.

[**صفة التواضع في روايات أهل البيت عليهم السلام**] :

وهذه الأخبار كثيرة خارجة عن حدّ الإحصاء، فنكتفي بإيراد بعض منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله»، وقال صلى الله عليه وآله: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعه من غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة».

---

(١) جامع السعادات ١: ٣١١ - ٣١٤.

وروي أن الله سبحانه أوحى إلى موسى: «إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكفَّ نفسه عن الشهوات من أجلي».

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة». قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: «التواضع».

وقال ﷺ: «إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة».

وقال ﷺ: «إذا هدى الله عبداً للإسلام، وحسَّنَ صورته وجعله في موضع غير شائن له، ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله».

وقال ﷺ: «أربع لا يعطيهنّ الله إلاّ من يحبّه: الصمت وهو أوّل العبادة، والتوكل على الله، والتواضع، والزهد في الدنيا».

وقال ﷺ: «ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله، يدفع به الكبر عن نفسه».

وقال ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبّر خفضه، ومن اقتصد في معيشة رزقه الله، ومن بذّر حرمه الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله، ومن أكثر ذكر الله أظله الله في جنّته».

وروي أنه أتى رسول الله ﷺ ملك، فقال: إنّ الله تعالى يخيّرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً، أو ملكاً رسولاً، فنظر إلى جبرئيل عليه السلام وأومأ بيده أن تواضع، فقال: عبداً متواضعاً رسولاً، فقال الرسول ـ يعني الملك ـ مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: «طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم

الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة».

وقال صلى الله عليه وآله: «إن التواضع لا يزيد العبد إلاّ رفعة، فتواضعوا يرحمكم الله».

وأوحى الله إلى داود عليه السلام: «يا داود كما أن أقرب الناس إلى الله المتواضعون، كذلك أبعد الناس من الله المتكبّرون».

وروي أن سليمان بن داود عليه السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتّى يجيئ إلى المساكين فيقعد معهم، ويقول: «مسكين مع مساكين».

وروي أنه: ورد على أمير المؤمنين عليه السلام أخوان له مؤمنان، أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين أيديهما، ثمّ أمر بطعام فأحضر، فأكلا منه، ثمّ جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل، وجاء ليصب على يد الرجل، فوثب أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصبّ على يد الرجل، فتمرغ الرجل في التراب، وقال: يا أمير المؤمنين الله يراني وأنت تصبّ على يدي، قال: «اقعد واغسل فإن الله عز وجل يراك وأخوك الذي لا يتميّز منك ولا ينفصل عنك يخدمك؛ يريد بذلك في خدمته في الجنّة مثل عشرة أضعاف عدد أهل الدنيا»، فقعد الرجل، وقال له عليّ عليه السلام: «أقسمت عليك بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر»، ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإبريق محمّد بن الحنفية، وقال: «يا بني لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله عز وجل يأبى أن يسوّي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، لكن قد صبّ الأب على الأب، فليصب الابن على الابن»، فصبّ محمّد بن الحنفية على الابن.

وقال الصادق عليه السلام: «التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيّات العواقب، والتواضع ما يكون لله وفي الله وما سواه فكبر، ومن تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده، ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ﴾[1].

وأصل التواضع من إجلال الله وهيبته وعظمته، وليس لله عزّ وجلّ عبادة يقبلها ويرضاها إلاّ وبابها التواضع، ولا يعرف ما في حقيقة التواضع إلاّ المقرّبون من عباده المستقلين وحدانيته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾[2].

وقد أمر الله عزّ وجلّ أعزّ خلقه وسيد بريّته محمّداً صلى الله عليه وآله بالتواضع، قال عزّ وجلّ: ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع، والخشية والحياء، وإنهنّ لا يأتين إلاّ منها وفيها، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلاّ للمتواضع في ذات الله تعالى.

قال الإمام أبو محمّد الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام: «اعرف الناس بحقوق اخوانهم، وأشدهم قضاءاً لهم أعظمهم عند الله شأناً، ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين، ومن شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام».

* * *

---

(١) الأعراف: ٥.

(٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) الشعراء: ٢١٥.

ومما ورد في الجزء الثاني من كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

المتواضع من لا يدخل في قلبه الكبر ولا يتطاول على خلق الله، ويبدأ بالسلام على الصغير والكبير والشريف والوضيع، ولا يحبّ التزكية والمدحة، ويرى نفسه أقل الناس، وخصوصاً إذا تواضع لمن أقل منه شرفاً ورتبة، فمن تواضع لله رفعه الله، فالشخصية البارزة إذا اتصفت بهذه الصفة، فهي كفيلة بإظهار فضله، وإذاعة محامده؛ لأنّ التواضع صفة محمودة والمتصف بها محبوب.

جعل الله ثواب المتواضعين الجنّة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[١]

قال الطبرسي في (مجمع البيان):[٢]

المعنى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنّة ﴿نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ﴾ أي تجبّراً وتكبّراً على عباد الله واستكثاراً عن عبادة الله، ﴿وَلا فَساداً﴾ أي عملاً بالمعاصي. وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو دالّ يرشد الضالّ ويعين الضعيف ويمرّ بالبيّاع والبقّال فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً﴾، ويقول: «نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس».

وروى أبو سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً، قال: «إن الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ...﴾ الآية، يعني إنّ من تكبّر على غيره بلباس يعجبه، فهو ممن يريد ﴿عُلُوّاً فِي

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) ج ٧: ٤٦٤.

الأرض﴾، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والعاقبة الجميلة المحمودة من الفوز بالثواب للذين اتقوا الشرك والمعاصي».

وفي (سفينة البحار): من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «واعتمدوا وضع التذلل على رؤسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلة بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده، فإنّ من كل أمّة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمّه...»، إلى أن قال عليه السلام: «فلو رخّص الله في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصة أنبيائه ورسله، ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفّروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا أقواماً مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف ومخضهم بالمكاره».

وفيه: روي عن موسى بن جعفر عليه السلام إنه مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلّم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثمّ عرض عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت له، فقيل: يا بن رسول الله أتنزل إلى هذا ثمّ تسأله عن حوائجه وهو إليك أحوج؟ فقال عليه السلام: «عبد من عبيد الله، وأخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، يجمعنا وإيّاه خير الآباء آدم، وأفضل الأديان الإسلام، ولعلّ الدهر يردّ من حاجتنا إليه، فرآنا بعد الزهو متواضعين بين يديه».

قيل للمنصور: في حبسك محمّد بن مروان، فلو أمرت بإحضاره وسألته عما جرى بينه وبين ملك النوبة، فقال: صرت إلى جزيرة النوبة في آخر أمرنا، فأمرت بالمضارب فضربت، فخرج النوبة يتعجبون، وأقبل منهم، رجل طويل حافٍ عليه كساء، فسلّم وجلس على الأرض، فقلت: ما لك لا تقعد على البساط؟ قال: أنا ملك وحق لمن رفعه الله أن يتواضع إذا رفعه. ثمّ قال: ما بالكم تطؤون

الزرع بدوابكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم؟ فقلت: عبيدنا فعلوه بجهلهم. قال: فما بالكم تشربون الخمر وهي محرّمة عليكم في دينكم؟ قلت: أشياعنا فعلوه بجهلهم. قال: فما بالكم تلبسون الديباج وتتحلّون بالذهب وهي محرّمة عليكم على لسان نبيكم؟ قلت: فعل ذلك أعاجم من خدمنا كرهنا الخلاف عليهم. فجعل ينظر في وجهي ويكرر معاذيري على وجه الإستهزاء، ثمّ قال: ليس كما تقول يا بن مروان، ولكنّكم قوم ملكتم فظلمتم، وتركتم ما أمرتم فأذاقكم الله وبال أمركم، ولله فيكم نقم لم تبلغ، وإني أخشى أن ينزل بك وأنت في أرضي فيصيبني معك فارتحل عني.

لأبي العتاهية:

يا من تشرّف بالدنيا وبالدين	ليس التشرف رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم	فانظر إلى ملك في زي مسكين
ذاك الذي عظمت والله أمّته	وذاك يصلح للدنيا وللدين

[النجاشي وجعفر بن أبي طالب] :

في (الكافي):[1] عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت له جالس على التراب، وعليه خلقان الثياب، قال: فقال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما بنا وتغيير وجوهنا قال:

الحمد لله الذي نصر محمّداً وأقرّ عينه، ألا أبشركم؟ فقلت: بلى أيها الملك، فقال: إنه جاءني الساعة من نحو أرضكم عين من عيوني هناك، فأخبرني

---

(١) ج ٢: ١٢١/ (باب التواضع) ح١ و٦ و١٣.

أنّ الله ﷻ قد نصر نبيّه محمّداً وأهلك عدوّه، وأسر فلان وفلان، إلتقوا بوادٍ يقال له بدر كثير الأراك، لكأني أنظر إليه ـ من كلام العين ـ حيث كنت أرعى لسيدي هناك، وهو رجل من بني ضمرة. فقال له جعفر: أيها الملك فما لي أراك جالساً على التراب وعليك هذه الخلقان؟ فقال له: يا جعفر إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أنّ من حق الله على عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما يحدث لهم من نعمه، فلمّا أحدث الله ﷻ لي نعمةً بمحمّد ﷺ أحدثت لله هذا التواضع. فلما بلغ النبي ﷺ قال لأصحابه: إنّ الصدقة تزيد صاحبها كثرة فتصدقوا يرحمكم الله، وإنّ التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، وإنّ العفو يزيد صاحبه عزّاً فاعفوا يعزّكم الله».

وفيه: عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلّم على من تلقى، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً، وأن لا تحب تحمد على التقوى».

وقال أبو الحسن عليه السلام: «التواضع أن تعطي الناس ما تحب أن تعطاه» وسُئل عليه السلام عن حدّ التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً، فقال عليه السلام: «التواضع درجات: منها أن يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم، لا يحب أن يأتي إلى أحد إلاّ مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عافٍ عن الناس، والله يحبّ المحسنين».

وفي (الوسائل):[١] عن محمّد بن يعقوب، عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى بن محبوب، عن معاوية بن وهب، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار،

---

(١) وسائل الشيعة ١٥: ٢٧٤ و٢٧٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥٤.

وتواضعوا لمن تعلّمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقّكم».

وفيه (ومن عيون الأخبار): عن الحسن بن جهم قال: سألت الرضا عليه السلام فقلت له: جعلت فداك ما حدّ التوكل؟ فقال لي: «أن لا تخف مع الله أحداً»، وقال: قلت جعلت فداك فما حدّ التواضع؟ فقال: «أن تعطي الناس من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله»، قلت: جعلت فداك أشتهي أن أعلم كيف أنا عندك؟ فقال: «أنظر كيف أنا عندك».

المتواضع الذي استضاء بنور العقل، عرف نفسه أنّ أوّله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل ما يستقذره، فلما ينظر العاقل إلى تكوينه، ونتيجة آخره وما بعدهما من شر ونشر وحساب، من البعيد أن يتكبّر ويتجبّر، كما قال سلمان الفارسي حين تفاخرت قريش عنده، قال: لكني خلقت من نطفة قذرة، ثمّ أعود جيفة منتنة، ثمّ إلى الميزان فإن ثقل فأنا كريم، وإن خفّ فأنا لئيم.

وعليه أن يروّض نفسه بالأخلاق الفاضلة، والسجايا الجميلة، من طرق التواضع، وأن يكون كبير النفس بالترفّع عن الدناءة والتباعد عن الخساسة الباعثين إلى المذلّة.

فمن الدناءة الباعثة إلى المذلّة، التواضع إلى الغني لأجل غناه.

عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أتى ذا ميسرة فتخشّع له طلب ما في يديه ذهب ثلثا دينه».[1]

وفي (سفينة البحار): عن العالم أنه قال: اليأس مما في أيدي الناس

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٨٩.

عزّ المؤمن في دينه، ومروّته في نفسه، وشرفه في دنياه، وعظمته في أعين الناس، وجلالته في عشيرته، مهابته عند عياله، وهو أغنى الناس عند نفسه وعند جميع الناس، إلى أن قال: وروي سخاء النفس عما في أيدي الناس أكثر من سخاء البذل.

وفي (الكافي):[١] عن الصادق عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون إفتقارك إليهم في لين كلامك، وحسن بشرك، ويكون إستغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك».

وأما التخاسس الباعث إلى المذلّة، هو التواضع إلى المتكبّر، الذي يستعظم نفسه ويستحقر غيره، ويترفّع على العالم في المحافل وغيرها، إستجهالاً لهم واحتقاراً، ولذا كان التواضع له مذلّة على المتواضع، ويوجب أيضاً إضلاله وتقريره على تكبّره، وإذا لم يتواضع له الناس وتكبّروا عليه ربما تنبّه وترك التكبّر، إذ المتكبر لا يرضى بتحمّل المذلّة والإهانة من الناس. ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم المتواضعين من أمّتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبّروا عليهم، فإنّ ذلك لهم مذلّة وصغار».[٢]

وعلى كل فرد من أبناء النوع الإنساني أن يلزم العدل بالتواضع حتّى يعطي كل ذي حق حقه، فتواضع العالم لأمثاله ولأقرانه بحسبه، بتقديره واحترامه واستقباله وإخلاء المجلس له، والعدو خلفه عند توديعه، ولغيره بالسبق بالسلام، والبشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسعي في حاجته، وأمثال ذلك، ولا يرى نفسه خيراً منه نظراً على خطر الخاتمة.

---

(١) ج ٢: ١٤٩/ ح ٧.

(٢) جامع السعادات ١: ٣١٥.

وفي (روضة الواعظين):[1] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوحى الله إلى داود: يا داود كما لا تضيق الشمس على من جلس فيها، كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها، وكما لا تضرّ الطيرة من لا يتطيّر منها، كذلك لا ينجو من الفتنة المتطيّرون، وإنّ أقرب الناس مني يوم القيامة المتواضعون كذلك، وأبعد الناس مني يوم القيامة المتكبّرون».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا حسب كالتواضع، ولا وحدة أوحش من العجب، وعجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة».

وفيه: قال الصادق عليه السلام: «إنّ المتكبرين يجعلون في صورة الذر، فيطؤهم الناس حتّى يُفرغ من الحساب».

وفيه: قال الباقر عليه السلام: «أوصى النبي صلى الله عليه وآله إلى رجل من بني تميم: إياك وإسبال الأزار والقميص، فإنّ ذلك من المخيلة والله لا يحبّ المخيّلة».

قال الشاعر:

ويا صاحب الكبر الذي قد علا به … إذا كنت يوماً في التراب فما الكبرُ

ويا قوم لا يغروكم دار قلعة … بباطلها جدّوا فإنكم سفرُ

فهل يغفل الإنسان أو يؤمن الردى … إذا كان لا يدري متى ينزل الأمرُ

وفي (مجموعة ورّام): قال النبي صلى الله عليه وآله: «إن التواضع لا يزيد العبد إلاّ رفعة، فتواضعوا رحمكم الله».

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي، وألزم على قلبه خوفي، وقطع النهار بذكري، وكفّ عن الشهوات من أجلي».

---

(١) روضة الواعظين: ٣٨٢.

وقال عيسى عليه السلام: «طوبى للمتواضعين في الدنيا هم من أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينعمون يوم القيامة».

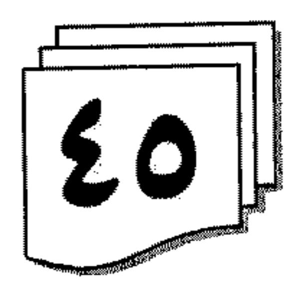
وقيل: إن رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعيم الدنيا، حتّى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمّن هو فوقك في نعيم الدنيا، حتّى تُعلمه أنه ليس له عليك بدنياه فضل.

وقال بعضهم: من أعطي مالاً أو جمالاً أو علماً، ثمّ لم يتواضع فيه، كان عليه وبالاً يوم القيامة.

وقيل: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله، إلاّ أعطاه الله رفعة في الدنيا، ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة، فلم يشكرها لله ولا تواضع بها لله، إلاّ منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقات من النار يعذبه بها إن شاء أو يتجاوز عنه.

قيل: دخل بعضهم على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ امرءاً آتاه الله جمالاً في خلقته، وموضعاً في حسبه، وبسط له في ذات يده، فعفّ في جماله، وواسى في ماله، وتواضع في حسبه، كتب في ديوان الله من خالصة الله، فدعا هارون بداوة وقرطاس فكتبه بيده...

* * *



قوله عليه السلام:

لا شَرَفَ أعْلَى مِنَ الإسْلام وَلا عِزَّ أعَزُّ مِنَ التَّقْوَى وَلا مَعْقِلَ أحْسَنُ مِنَ الْوَرَع وَلا شَفِيعَ أنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ...

(نهج البلاغة ٤: ٨٧)

[الإسلام شرف الإنسانية]

قال ابن أبي الحديد:

كل هذه المعاني قد سبق القول فيها مراراً شتّى، نأتي كل مرة بما لم نأتِ به فيما تقدم، وإنما يكررها أمير المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجة على المكلفين، كما يكرر الله سبحانه في القرآن المواعظ والزواجر.[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

قوله عليه السلام: «لا شرف أعلى من الإسلام» لاستلزامه شرف الدنيا والآخرة. وقوله عليه السلام: «ولا عزّ أعزّ من التقوى» لأن التقوى تستلزم جميع مكارم الأخلاق الجامعة لعزّ الدنيا والآخرة، فكان عزّها أكبر عزّاً من غيرها. وقوله عليه السلام: «ولا مَعقِلَ أحصنُ من الورع» واستعار له لفظ المعقل باعتبار تحصّن الإنسان به من عذاب الله، ولما كان عن لزوم الأعمال الجميلة، فلا مَعقِلَ أحصن منه. وقوله عليه السلام: «ولا شفيعَ أنجَحُ من التوبة» وذلك لاستلزامها العفو عن جريمة التائب قطعاً دون سائر الشفعاء بشفاعتهم، ولفظ الشفيع مستعار لها.[2]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٠١.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦١٨.

قال الشيخ ابن مغنية:

حدّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الإسلام بأنه (اسم سلامة) وجماع كرامة، والسلامة هي العيش بلا مشكلات، والكرامة هي حصانة الحرية وصيانتها من الاعتداء، ولا شرف فوق ذلك.. وأيضاً لا عزّ ولا ذلّ إلاّ بعد العرض على الله، وهو سبحانه لا يتقبّل إلاّ من المتقين، ولا حصن من عذابه إلاّ لأهل الورع عن حرامه، ولا وسيلة للعفو عن الذنوب إلاّ التوبة.[1]

* * *

وقال ميرزا حبيب الله الخوئي في (منهاج البراعة):[2]

عدّد عليه السلام في هذا الكلام محاسن السير وفضائل أخلاق البشر، وأشار إلى أصول الرذائل ومصدر مساوي الخصائل، فعدد الأوّل في خصال فاضلة.

بدأ فيها بالإسلام، وصرّح بأنه أعلى شرف للإنسان، ثمّ أشار إلى التقوى كثمرة لهذا الشرف الأعلى، وبيّن أنه الغاية القصوى للعزّة والكرامة عند الله وعند الناس. والورع حصن حصين عن مكائد الشيطان والنفس الأمّارة، ومن ابتلي بالمعصية، ويدور وراء الشفيع، فأنجح الشفعاء التوبة والإنابة...

* * *

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٤٣١.

(٢) ج ٢١: ٤٥٧.

بحث في التوبة:

أقول: جاء في (مجمع البحرين)[1] في مادة (توب):

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ...﴾ الآية. التوبة هنا من تاب الله عليه، إذا قبل توبته، أي إنما قبول التوبة لهؤلاء واجب أوجبه الله سبحانه على نفسه بقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[2] وكتب بمعنى أوجب ـ كما نص عليه بعض المفسرين ـ.

وعن بعض المحققين: المراد بقبول التوبة، إسقاط العقاب بها، وهو مما أجمع عليه علماء الإسلام، وإنما الخلاف في أنه هل يجب على الله القبول حتّى لو عاقب بها بعد التوبة كان ظلماً، أو هو تفضل منه وكرم لعباده ورحمة لهم؟ المعتزلة على الأوّل، والأشاعرة على الثاني، وإليه ذهب الشيخ أبو جعفر الطوسي في كتاب الإنتصار، والعلامة في بعض كتبه الكلامية، وتوقف الطوسي في التجريد، انتهى كلامه.

وهل يجوز التوبة عن بعض دون بعض؟ قال ميثم: وأكثر الأمّة على الجواز ـ خلافاً لأبي هاشم ـ حجتهم: أن اليهود إذا غصب حبة ثمّ تاب عن اليهودية مع إصراره على غصب تلك الحبة تقبل توبته والعلم به ضروري من الدين. ثمّ ذكر رحمه الله حجة أبي هاشم وأجاب عنها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[3] التوّاب يتوب على عباده، واللفظة من

---

(١) ج ١: ٢٩٩.

(٢) الأنعام: ٥٤.

(٣) النصر: ٣.

صيغ المبالغة، أي رجّاع عليهم بالمغفرة، يقال: تاب الله عليه، غفر له وأنقذه من المعاصي.

والتوّاب من الناس: الراجع إلى الله تعالى، من تاب من ذنبه يتوب توبة وتوباً، أقلع منه.

قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾[1] التائبون من الذنب، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الذين لا يعبدون إلاّ الله ولا يشركون به شيئاً، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله على كل حال في الشدة والرخاء. ﴿السَّائِحُونَ﴾ وهم الصائمون. ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ الذين يواظبون على الصلوات الخمس، الحافظون لها والمحافظون عليها بركوعها وسجودها في الخشوع فيها وفي أوقاتها. ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بعد ذلك والعاملون به. ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والمنتهون عنه، كذا روي عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي التوبة، والهاء في التوبة قيل: لتأنيث المصدر، وقيل: للوحدة كضربة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[2] أي رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي. ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ منهم بأنك لا تُرى، كذا روي عن الرضا عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[3] أي مرجعي ومرجعكم. (والتوب والتوبة) الرجوع من الذنوب، وفي اصطلاح أهل العلم: الندم على الذنب لكونه ذنباً.

---

(١) التوبة: ١١٢.

(٢) غافر: ٣.

(٣) الرعد: ٣٠.

وفي الحديث: «الندم توبة».

وفيه عن عليّ ﷺ: «التوبة يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وللفرائض الإعادة، وردّ المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم أن لا تعود، وأن تربّي نفسك في طاعة الله كما ربّيتها في معصية الله، وأن تذيقها مرارات الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية».

* * *

قال النراقي: (التوبة) هي الرجوع من الذنب القولي والفعلي والفكري، وبعبارة أخرى، هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب.

وبعبارة أخرى ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الإستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير.

ويمكن أن يقال: إن التوبة هو الرجوع عن الذنب، وهو من ثمرات الخوف والحب، فإنّ مقتضى الحب أن يُمتثل مراد المحبوب ولا يعصي في شيء مما يريده ويطلب من المحب.

ويمكن أن يقال: إنّ التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب، وكونها حجاباً بينه وبين الله، والندم الحاصل منه، والقصد المتعلق بالترك حالاً واستقبالاً، والتلافي للماضي والندم والقصد بالترك...

وتوضيح حقيقة التوبة: أنه إذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابّه، ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب وصار متأسفاً على ما صدر عنه من الذنوب سواءاً كانت أفعالاً أو تروكاً للطاعات. ويسمى تألمه بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه ندماً.

وإذا غلب هذا الندم على القلب انبعثت منه حالة أخرى تسمى إرادةً وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابساً له، وبالإستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوّت لمحبوبه إلى آخر عمره، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء.

فالعلم أعني اليقين بكون الذنوب سموماً مهلكة هو الأوّل وهو مطلع البواقي، إذ مهما أشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب فيتألم به القلب، حيث ينظر بإشراق نور الإيمان واليقين أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب، فيرى محبوبه قد شرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث بتلك النيران إرادته للإنتهاض للتدارك.

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال، والتلافي للماضي، ثلاثة معانٍ مترتبة في الحصول يطلق اسم (التوبة) على مجموعها وربما أطلقت التوبة على مجرّد الندم، وجعل العلم كالسابق، والمقدّمة، والترك كالثمرة، والتابع للمتأخر، وإلى هذا الاعتبار يشير قوله ﷺ: «الندم توبة» إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، أو عن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه _ أعني ثمرته ومثمره _، وبهذا الإعتبار قيل في حدّها: أنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، أو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب، وربما أطلقت على مجرد ترك الذنوب حالاً، والعزم على تركها إستقبالا، وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وانها تبديل الحركات الذمومة بالحركات المحمودة، أو إنها ترك اختيار الذنب حالاً، وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود إليه استقبالاً.

قال الصادق عليه السلام: «التوبة حبل الله ومدد عنايته»، ولا بدّ للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الإشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره وذلك يطول شرحه هنا.

وأما توبة العامي فإن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والإعتراف بجنايته دائماً، واعتقاد الندم على ما مضى والخوف على ما بقي من عمره، ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل ويديم البكاء والأسف على ما فاته من طاعة الله، ويحبس نفسه عن الشهوات، ويستغيث إلى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته، ويعصمه عن العود إلى ما سلف، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة، ويقضي عن الغوائب من الفرائض، ويردّ المظالم، ويعتزل قرناء السوء، ويسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتفكر دائماً في عاقبته، ويستعين الله سائلاً منه الإستقامة في سرّائه وضرّائه، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوابين، فإنّ ذلك طهارة من ذنوبه، وزيادة في عمله، ورفعة في درجاته، قال الله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾.[1]

في وجوب التوبة:

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة بالإجماع والنقل والعقل: أما الإجماع فلا ريب في انعقاده، وأما النقل فكقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ

---

(١) العنكبوت: ٣.

جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٢].

ومعنى النصوح الخالص لله خالياً عن شوائب الأغراض من مال أو جاه أو خوف من سلطان، أو عدم أسباب، والأمر للوجوب، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين.

وأما العقل: فهو أن من علم معنى الوجوب، ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها.

بيان ذلك: أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الأبد، والنجاة من هلاك السرمد ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة على سعادة الأبد. ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلاّ في لقاء الله والأنس به. فكل من كان محجوباً عن اللقاء والوصال محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال، فهو شقي لا محالة، محترق بنار الفراق ونار جهنم. ثمّ لا مبعّد عن لقاء الله إلاّ اتّباع الشهوات النفسية والغضب والأنس بهذا العالم الفاني، والإكباب على حبّ ما لا بدّ من مفارقته قطعاً، ويُعبّر عن ذلك بالذنوب، ولا مقرّب من لقاء الله إلاّ قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام الذكر والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته.

ولا ريب في أن الإنصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذي هو السعادة ولا يتم ذلك إلاّ بالتوبة التي

---

(١) النور: ٣١.

(٢) التحريم: ٨.

عبارة عن العلم والندم والعزم، ولا يتم الواجب إلاّ به، فهو واجب فالتوبة واجبة قطعاً...

فضيلة التوبة:

التوبة أوّل مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى ربّ العالمين، ومدحها عظيم وفضلها جسيم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له».

وقال الباقر عليه السلام: «إنّ الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها».

وقال عليه السلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ».

وقال الصادق عليه السلام: «إنّ الله يحب من عباده المفتن التوّاب» يعني كثير الذنب كثير التوبة.

وقال عليه السلام: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه» فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه، ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب».

وقال الصادق عليه السلام: «إنّ الله تعالى أعطى التائبين ثلاث خصال، لو

(١) البقرة: ٢٢٢.

أعطي خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها، قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ...﴾ إلى آخره. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾، إلى قول: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[1] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.[2]

وقال أبو الحسن عليه السلام: «أحب العباد إلى الله المنيبون التوابون»، انتهى ما اخترناه من (جامع السعادات).[3]

* * *

[أقسام الناس في الآخرة]:

وفي كتاب (ورثة الفردوس) لمؤلفه الشيخ عبد الصاحب المظفر:

إن التائبين العاملين هم الفائزون: وذلك أن الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: الهالكون، والمعذّبون، والناجون، والفائزون، ومثاله من الدنيا، أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم من الهالكين، ويعذّب بعضهم فلا يقتلهم فهم من المعذبين، فيخلّي بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون. فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم

---

(١) غافر: ٧ – ٩.

(٢) الفرقان: ٦٨ – ٧٠.

(٣) جامع السعادات٣: ٣٨ – ٥٢.

كذلك إلا بالإستحقاق، فلا يقتل معانداً له في الملك، ولا يعذب إلاّ من قصّر في خدمته مع الإعتراف بملكه، ولا يخلّي إلاّ معترفاً له بالدولة لكنه لم يخدمه ليخلع عليه، ولا يخلع إلاّ على من خدمه، وكل واحد من هذه الدرجات الأربع متفاوتة، وذلك لتفاوت أنواع العذاب والفوز.

الرتبة الأولى: الهلاك، وهم الآيسون من الرحمة الصادرة منه سبحانه، وهم المعاندون المكذّبون.

الرتبة الثانية: المعذّبون، وهذه رتبة من تحلّى بأصل الإيمان ولكن قصّر في الوفاء بمقتضاه، وهو أنه قد تابع هواه وشهواته وإرادته.

الرتبة الثالثة: الناجون، وهي السلامة دون السعادة، ولعلّ هذه الرتبة هي رتبة المجانين والبلهاء ونحوهم.

الرتبة الرابعة: الفائزون، وهم العارفون العاملون، فهؤلاء هم السابقون، وهم الذين كان قصدهم هو سبحانه لا طلب جنّة ولا خلاصاً من النار.

الإصرار على الذنوب:

إنّ موجبات الإصرار أربعة:

الأوّل: عن العقاب الموعود غائب ليس بحاضر، والنفس جبلت على عدم التأثر بالأجل، وهذا لا يكون إلاّ من ضعف الإيمان.

الثاني: إنّ اللذّات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ـ أي غالبة عليه ـ، وهي آخذة بالمخنق، وقد قوى واستولى بسبب الإعتياد، والعادة طبيعة خامسة، والرجوع عن العاجل إلى الآجل شديد على النفس، كما قال سبحانه: ﴿كَلاَّ بَل تُحِبُّونَ العاجِلَةَ وَ تَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[1].

---

(١) القيامة: ٢٠.

الثالث: إنه ما من مؤمن إلاّ والغالب على عزمه التوبة وتكفير السيئات بالحسنات، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير فمن حيث رجائه توفيق التوبة وبما يقدم عليه مع الإيمان.

الرابع: إنّ المؤمن يعتقد أنّ عفو الله تعالى مباح للمذنبين، فيذنب إعتماداً عليه.

وأما علاج هذه الأمور الأربعة: فهو الفكر في كل واحد منها:

أما الأوّل: أن تتفكر وتقول: إنّ ما هو آتٍ يأتي، وما أقرب (غداً) للناظرين والموت أقرب منه.

وأما الثاني: وهي اللذات الناجزة _ أي الغالبة عليه _، فعليه أن يتفكر ويقول: إنّ هذه اللذات الفانية في أيام قلائل في دنياً لا تدوم، إذا لم أقدر على تركها فكيف أدرك النعيم الدائم في الآخرة والفوز في الجنان التي أعدها الله لعباده الصالحين.

وأما الثالث: تسويف التوبة، فعلاجه بالفكر، وذلك أنّ المسوّف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعلّه لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على التوبة لغلبة الشهوة، والشهوة لا تفارقه بل تقوى كل يوم وهو يضعف، فإذا وقت قوته وضعفها لا يقدر عليها فكيف يقدر إذا انعكس عليه الأمر، فيكون مثاله مثل من احتاج إلى قلع شجرة صغيرة لا تنقلع إلاّ بشقة شديدة، فقال: أؤخرها ثمّ أعود إليها، وهو يعلم أنها كلما بقيت إزداد رسوخها، وكلما زاد عمره ضعفت قوته.

وأما الرابع: وهو انتظار عفو الله، فعلاجه الفكر في أنّ العفو ليس بواجب على الله، فهو كمن أنفق جميع ماله وترك نفسه وعياله فقراءاً، فينتظر أنّ الله سيطلعه على كنز من كنوز الأرض الخربة، وهذا من الحماقة.

قال الشاعر:

سَوفّت بالتوبة إذ لم تشب ... والآن قد شبت فما تنتظر

أيعد شيب الرأس لا ترعوي ... وبعد فوت العمر لا تنزجر

يا عجباً إنك ذو خبرةٍ ... تعلم ما تلقى ولا تزدجر

* * *

وقال آخر:

لا والذي سمك السماء بأيده ... والأرض صيّر للأنام مهادا

إنّ المصرّ على الذنوب لهالك ... صدّقت قولي أم أردت عنادا

* * *

وقيل: اغسل أربع خصال بأربع خصال: اغسل وجهك بماء العين، واغسل لسانك بالإستغفار، واغسل قلبك بالتفكّر، واغسل ذنبك بالتوبة.[1]

وفي العيون:[2] عن الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مثل المؤمن عند الله كمثل ملك مقرّب، وإنّ المؤمن عند الله لأعظم من ذلك، وليس شيء أحبّ إلى الله تعالى من مؤمن تائب، ومن مؤمنة تائبة».

وفي الأنوار: روي أنه كان في بني إسرائيل شاب، عَبَدَ الله عشرين سنة، ثمّ عصاه عشرين سنة، ثمّ نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة، وعصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك تقبلني؟ فسمع قائلاً

---

(١) روضة الواعظين: ٤٨٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣/ ح ٣٣.

يقول: أجبتنا فأجبناك، وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأهملناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.[١]

وفي (جواهر الأخبار): روي أنّ رجلاً أتى إلى الصادق عليه السلام فقال له: انّ جماعة من مواليك وشيعتك قد انهمكوا في المعاصي فما حالهم في القيامة؟ فقال عليه السلام: «يتوبون بعد المعصية فيغفر الله لهم»، فقال: ربما لم يتوبوا، فقال عليه السلام: «إن الله يبتليهم بالأوجاع والأمراض، ونقص الأموال والأولاد ليكون كفارة لذنوبهم»، فقال الرجل: ربما لم يبتلوا بهذا، فقال عليه السلام: «يبتلون بسلطان جائر يؤذيهم فيكون كفارة لذنوبهم»، فقال: ربما لم يكن ذلك، فقال عليه السلام: «فإن لم يكن ذلك السلطان يؤذيهم فيكون كفارة لذنوبهم، فيبتلون بامرأة سوء تؤذيهم فيكون إيذاء تلك الزوجة كفارة لذنوبهم»، فقال الرجل: ربما لم يكن ذلك، فغضب عليه السلام فقال: «إذا لم يكن واحد من هذا كله أدركتهم شفاعتنا ونجّتهم من أهوال يوم القيامة رغماً على أنفك».

* * *

وفي المجلد الثاني من (المستطرف)[٢] قال:

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسُنّة وإجماع الأمّة، على وجوب التوبة، وأمر الله بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣] ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾.[٤]

---

(١) أنظر: جامع السعادات ٣: ٥٤.

(٢) ج ٢: ٥٥٥ – ٥٥٩.

(٣) النور: ٣١.

(٤) الشورى: ٢٥.

وفتح باب الرجاء فقال: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

روى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم»، فقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ قال: وأنا سمعته يقول: «إنّ الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم»، فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعته يقول: «إنّ الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة» أو قال: «بضجعة»، فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم: قال: وأنا سمعته يقول: «إنّ الله يقبل (توبة) العابد ما لم يغرغر».

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتّى تطلع الشمس من مغربها».

وعن أبي سعيد الخدري، إن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب، فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمّل به المائة، ثمّ سأل عن أعلم أهل الأرض؟ فدلّ على رجل عالم فأتاه وقال له إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم ومن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً

---

(١) الزمر: ٥٣.

يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتّى كان نصف الطريق أدركه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكّموه بينهم، فقال: قيسوا بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو أقرب لها، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.

وعن أبي نَجيد عمران بن الحصين الخزاعي: إنّ إمرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا، فقالت: يا رسول الله أصبت حداً فأقمه عليَّ. فدعا نبي الله فشُدّت عليها ثيابها، ثمّ أمر بها فرجمت ثمّ صلّى عليها، فقال عمر: يا رسول الله تصليّ عليها وقد زنت، قال: «لقد تابت توبة لو قسّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ﷻ».

وحكي أن نبهان التمار أتته امرأة حسناء تشتري تمراً، فقال لها: هذا التمر ليس بجيّد، وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتقِ الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالذِينَ إِذا فعَلوا فاحِشَةً...﴾[1] إلى آخر الآية.

[الأثر التكويني في التوبة]:

قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام حتّى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى عليه السلام في بني إسرائل وكانوا سبعين رجلاً

---

(١) آل عمران: ١٣٥.

من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى، قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم، وقرّبوا قربان تذلّلهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدود هم ثلاثة أيام فلم تمطر لهم، فقال موسى: اللهم أنت القائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إنّ فيهم من غذاؤه حرام، وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة، وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي وأنت تطلب لهم الرحمة، كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب. فقال موسى: ومن هم يا رب حتّى نخرجهم من بيننا؟ فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتّاك ولا نمّام، ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بإنعامي عليكم، فنادى منادي موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه السلام بما أوحى الله إليه والعصاة يسمعون فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله ﷻ وقالوا: إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالبين فارحمنا يا أرحم الراحمين، فما زالوا كذلك حتّى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين عليَّ»، ولقد أحسن من قال:

أسيء فيجزي بالإساءة إفضالا	وأعصي فيوليني براً وإمهالا
فحتّى متى أجفوه وهو يبرّني	وأبعد عنه وهو يبدل إيصالا
وكم مرة قد زغت عن نهج طاعة	ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

* * *

[شروط التوبة]:

قال الديلمي في الإرشاد: الباب الحادي عشر في التوبة وشروطها:

قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾[١] يعني بالنصوح لا رجوع فيها إلى ذنب.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.[٢] قوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ يعني بمواقع العقاب، وقيل: بعظمة الله وأخذه للعبد بعصيانه حال المواقعة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.[٣] نفى سبحانه قبول التوبة عند مشاهدة الموت من المعاصي والكافر، وإنما هي مقبولة ما لم يتيقّن الموت فإنه تعالى وعد قبوله بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[٤] وبقوله عن نفسه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.[٥]

فالتوبة واجبة في نفسها عن القبيح، وعن الإخلال بالواجب.

ثمّ إن كانت التوبة عن حق الله تعالى مثل ترك الصلاة والصيام والحج والزكاة وسائر الحقوق اللازمة للنفس والبدن أو لأحدهما، فيجب على التائب الشروع فيها مع القدرة، والعزم عليها مع عدم القدرة

(١) التحريم: ٨.

(٢) النساء: ١٧.

(٣) النساء: ١٨.

(٤) الشورى: ٢٤.

(٥) غافر: ٣.

عليها في وقت القدرة، والندم على الإخلال بما في الماضي، والعزم على ترك العود.

وإن كانت التوبة عن حق الناس يجب ردّه إليهم إن كانوا أحياءاً، وإلى ورثتهم بعد موتهم، إن كان ذلك المال بعينه وإلاّ فمثله، وإن لم يكن لهم وارث، تصدّق به عنهم إن علم مقداره، وإلاّ فيما يغلب على ظنّه مساواته، والندم على غصبه والعزم على ترك العود إلى مثله، ويستغفر الله تعالى على تعدّي أمره وأمر رسوله وتعدّي أمر إمام زمانه، فلكل منهم حق في ذلك يسقط بالإستغفار.

وإن كانت توبته عن أخذ عرض أو نميمة أو بهتان عليهم بكذب فيجب انقياده إليهم، وإقراره على نفسه بالكذب عليهم والبهتان فليستبرء لهم عن حقهم إن نزلوا أو ترضّيهم بمايرضوا به عنه، وإن كان عن قتل نفس عمداً أو جراح أو شيء في أبدانهم، فينقاد إليهم للخروج من حقوقهم على الوجه المأمور به من قصاص أو جراح أو دية عن قتل النفس عمداً إن شاؤا ورضوا بالدية، وإلاّ فالقتل بالقتل.

وإن كانت التوبة عن معصية من زنا أو شرب خمر وأمثاله، فالتوبة عنه الندم على ذلك الفعل والعزم على ترك العود إليه، وليست التوبة قول الرجل: استغفر الله ربّي وأتوب إليه، وهو لا يؤدّي حقه ولا حق رسوله ولا حق إمامه ولا حق الناس، فقول الرجل هذا من دون ذلك استهزاء بنفسه ويجرّ عليها ثانياً ذنباً بكذبه، كما روي أنّ أحد الناس اجتاز على رجل وهو يقول: أستغفر الله وهو يشتم الناس ويكرّر الاستغفار ويشتم، فقال السامع له: تستغفر الله من هذا الإستغفار وترجع، بل أنت تهزأ بنفسك.

وقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس توبوا إلى الله توبة نصوحاً قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وأصلحوا بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا من الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تحصنوا، وانهوا عن المنكر تنصروا، يا أيها الناس إنّ أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وإنّ أحزمكم أحسنكم استعداداً له، وإنّ من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوّد لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور» وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اغفر لي كل ذنب عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم».

وقيل: إنّ إبليس لعنه الله قال: وعزّتك لا أزال أغوي وأدعو ابن آدم إلى المعصية ما دامت الروح في بدنه. فقال الله تعالى: «بعزتي وجلالي لأمنحه التوبة حتّى يعزب بروحه». وما يقبض الله عبداً إلاّ بعد أن يعلم منه أنه لا يتوب لو أبقاه، كما أخبر سبحانه عن جواب أهل النار في قولهم: ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً﴾[1] فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾[2].

وكان رسول الله ﷺ يستغفر الله في كل يوم سبعين مرة، يقول: استغفر الله ربّي وأتوب إليه، وكذلك أهل بيته عليهم السلام وصالحو أصحابه لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[3].

وقال رجل: يا رسول الله أني أذنبت، فقال: «إستغفر الله»، فقال: إني أتوب ثمّ أعود، فقال: «كلما أذنبت استغفر الله»، فقال: إذن تكثر ذنوبي،

---

(١) فاطر: ٣٧.

(٢) الأنعام: ٢٨.

(٣) هود: ٩٠.

فقال له: «عفو الله أكثر، فلا تزال تتوب حتّى يكون الشيطان هو المدحور».

وقال ﷺ: «ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهّر وصلّى ركعتين واستغفر الله إلاّ غفر له، وكان حقّاً على الله أن يقبله لأنه سبحانه قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1]».

وقال ﷺ: «إنّ العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنّة»، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يكون نصب عينيه لا يزال يستغفر منه ويندم عليه، فيدخله الله به الجنّة، ولم أرَ أحسن من حسنة حدثت بعد ذنب قديم ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[2]».

وقال ﷺ: «إذا أذنب العبد كان نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه منها، وإن هو لم يتُب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتّى يغمر القلب فيموت بكثرة غطاء الذنوب عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3] يعني الغطاء».

والعاقل يحسب نفسه قد مات، ويسأل الله الرجعة ليتوب ويقلع ويصلح، فأجابه الله فيجد ويجتهد، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[4] قال: المصائب في المال والأهل والولد والنفس دون العذاب الأكبر، والعذاب الأكبر عذاب

---

(١) النساء: ١١٠.

(٢) هود: ١١٤.

(٣) المطففين: ١٤.

(٤) السجدة: ٢١.

جهنم، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني عن المعصية، وهذا لا يكون إلاّ في الدنيا.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إحذر أن آخذك على غرّة فتلقاني بغير حجة»، يريد التوبة.

وروي أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه فتاب عليه، قوله تعالى: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.[1] وروي أنّه وزوجته حوّاء رأيا على باب الجنّة: محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين صفوتي من الخلق، فسألا الله بهم فتاب عليهما.

وقال بعضهم: كن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك، وكيف نلومهم على تضييع وصيّتك وقد ضيّعتها أنت في حياتك.

قال الشاعر:

أمسك الماضي شهيداً معدّلاً ... وأصبحت في يوم عليك شهيد

وإن كنت بالأمس اقترفت إساءة ... فثن بإحسان وأنت حميد

ولا ترجُ فعل الصالحات إلى غدٍ ... لعلّ غداً يأتي وأنت فقيد

وقال آخر:

تمتّع إنما الدنيا متاع ... وإن دوامها لا يستطاع

وقدّم ما ملكت وأنت حيّ ... أمير فيه متّبع مطاع

ولا يغررك من توصي إليه ... فقصر وصية المرء الضياع

ومالي أن أملك ذاك غيري ... وأوصيه به لولا الخداع

---

(١) الأعراف: ٢٣.

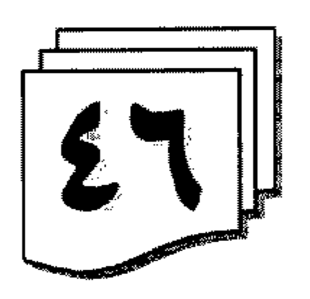
وقال آخر:

إذا ما كنت متخذاً وصياً فكن فيما ملكت وصيّ نفسك
ستحصد ما زرعت غداً وتجني إذا وضع الحساب ثمار غرسك

وفي المجلد السابع من (المحجة البيضاء) بحث واسع عن التوبة وفوائدها وشروطها فراجعه ولا تغفل عنه.

وجاء البحث عنها في تفسير مواهب الرحمن (ج ٧ ص ٣٧٧).

* * *



قوله عليه السلام:

مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أخْلاقِهِمْ أمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ.

(نهج البلاغة ٤: ٩٤)

[حسن المخالطة والمعاشرة بين الناس]

قال ابن أبي الحديد:

إلى هذا نظر المتنبي في قوله:

وخلــة فــي جلــيس أتقيــه بهــا　　　كمـا يـرى أننـا مـثلان فـي الـرهن

وكلمـة فـي طريـق خفـت أعربهـا　　　فيهتدي لي فلم أقدر على اللحن

وقال الشاعر:

ومــا أنــا إلاّ كالزمــان إذا صــحا　　　صـحوت وإن مـاق الزمـان أمـوقُ

وكان يقال: إذا نزلت على قوم فتشبّه بأخلاقهم، فإنّ الإنسان من حيث يوجد لا من حيث يولد، وفي الأمثال القديمة: من دخل ظفار حمر، قال الشاعر:

أحامقــه حتّــى يقــال ســجيّة　　　ولـو كـان ذا عقـل لكنـت أعاقلـه[1]

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

الغايلــة: الحقــد، وذلــك أنّ مباعــدة النــاس فــي أخلاقهــم يســتلزم منــافرتهم وعــداوتهم وأحقــادهم، فالعــدول عنهــا إلــى المقاربــة والمشــاكلة لأخلاقهم تستلزم الأمن من ذلك منهم.[2]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦٢٨.

وقال ابن مغنية:

الغوائل: جمع الغائل أو الغائلة ـ أي الشر ـ، والمعنى أن الناس يريدون منك ما تريده منهم، وهو كفّ الأذى عنهم، والجري في المعاملات على أخلاقهم وعاداتهم، ومن ألزم نفسه بذلك أمن شرّ الناس وغدرهم.. ومن البداهة أن الإمام عليه السلام يريد مداراة الناس وموافقتهم فيما يجيزه الشرع ولا يأباه العقل.[1]

* * *

وقال الخوئي في (منهاج البراعة):[2]

المباعدة في الأخلاق يوجب النفور والوحشة، وتورث العداوة والحقد، فالمقاربة في الأخلاق توجب الأنس والألفة، وتصير سبباً للوداد والمحبّة، وإذا تباعد الناس عن أحد يضمرون له الحقد ويكيدون له المكائد، والناس إلى أشباههم أميل، وكلّ جنس يميل إلى جنسه.

ولعلّه أشار عليه السلام إلى ما ناله العمران من النفوذ والمطاعيّة بين المسلمين في الصدر الأوّل، ولم يكيدوا لهما كيداً ولا نالوا منهما باعتبار مقاربة أخلاقهما للعرب الجاهلين وموافقتهما أميالهم، والجدّ في تحقيق آمالهم.

* * *

قال الحوماني في المجلد الخامس من كتابه دين وتمدين (ص ٦٩):

... إن كلمة الإمام هذه تدعونا إلى أن نحمل قوله عليه السلام على أن مجاراة الناس في أخلاقهم، يعني الأخلاق التي تتلاءم والحق، وهي

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤ : ٤٤٩/ ح ٣٩٥.

(٢) ج ٢١: ٤٨٣.

السجايا القائمة على الفضيلة، ويشهد له بذلك قوله عليه السلام: «جالس أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم». فلو كان المقصود بقوله: «مقاربة الناس في أخلاقهم أمن من غوائلهم».

أقول: لو كان يقصد مجرّد الأخلاق سيئة أو قبيحة، لسقطت عدالته وانتفت عنه العصمة التي يقول بها في الرسول وأهل بيته، عمدة المسلمين حتّى اليوم، ولو قصد غير هذا لما أطلق عليه فحول البلاغة أنه أوّل مجدد في الآداب والعلوم على عهد الخلفاء الراشدين، وذلك قائم في كتابه (نهج البلاغة).

وليس في قول الإمام عليه السلام هذا خروج على تعاليم القرآن فيما نقمه الله تعالى به من تسفيه العادات أو التقاليد القائمة على الباطل في سير المجتمع البشري واتجاهه في الحياة.

أقول: ليس في قول الإمام ردّ على ذلك كما تشعرنا كلمته: «مقاربة الناس في أخلاقهم أمنٌ من غَوائلهم»؛ لأن القرآن عزّ منزله لم ينقم على الجاهلية أخلاق أهلها وسجاياها مطلقاً وإنما قيّد السيئ منهم بحدود لا يتعداها إلى غيره من نواحي الخير، فالكرم الذي كان من أخلاق العرب العريقة التي أقرها الدين الإسلامي ومدحها الرسول بذمّ البخل الذي هو نقيضها، قال الله تعالى يمدح الكرم ويذم الحرص: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[1] وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾[2] وهو غاية في إثبات أن النفوس مجبولة على البخل والله يدعو إلى استئصالها بمراس الكرم والتغلّب على البخل.

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) النساء: ١٢٨.

وفي هذا أيضاً برهان على أن السجايا مهما أعرقت في الإنسان يستطيع استئصالها بتربية الخير في نفسه، وهكذا يصل إلى قوله عز من قائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١) ففي هذا الكفاية لمن أراد أن يعلم مبلغ ما يعزز الكتاب عنصر الكرم في الإنسان، هذا من الأخلاق التي يشير بها الإمام عليه السلام في كلمته التي هي عنوان بحثنا هذا.

ولقد كان الإمام لا تأخذه في الله لومة لائم، ونهجه القويم حافل بأشد نقماته على ذوي الأخلاق السيئة القائمة على الجشع والأنانية والنفاق الذي هو من أعرق السجايا في المنحرفين من بني الإنسان، فمن كانت هذه أسمى خلاته فكيف يشرع لنا التقارب من ذوي الأخلاق السيئة؟ ولقد ثبت أن حرمانه من الخلافة أولاً وآخراً إنما قام على مجابهة الرؤوس النكراء من أعيان قريش، وعلى مفارقتهم في أخلاقهم القائمة على الجور عن الحق في سبيل طموحهم إلى السيادة بالباطل، على أن المقاربة في الأخلاق ربما أداها التأويل بطريقة غير هذه الطريقة فيقال:

إنّ المقاربة قد تعني المسالمة وحسن التفاهم كقوله تعالى وهو يشرّع لرسوله ذلك في مناظرته للكفار إذ قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.(٢) ففي هذه الآية من التسامح والتلطف بالزائغين عن الحق ما يشعرنا بأن ذلك مقاربة من الرسول لهم ابتغاء كسبهم وأمن

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) سبأ: ٢٤.

غوائلهم، وكثيراً ما يكون معنى المجاملة والتسامح مأخوذاً من تعاليم الكتاب الكريم بقوله عز من قائل: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2] وهل هنالك غائلة يتحاماها الواعظ الموجِّهِ، أبلغ من العداوة في الموعوظ؟ ثمّ هل هنالك أبلغ دعوة إلى الحق من الجدال والعظة بالحسنى؟ فليست المقاربة وقفاً على الموافقة وإنما هي طريق سهل السلوك إلى الردع والإرشاد».

* * *

أقول: قال الطريحي في (مجمع البحرين):[3]

والخلق: السجية.

ومنه: «وأكره أن أتخذ ذلك خلقاً» أي عادة وطبعاً.

والخلق: كيفية نفسانية تصدر عنها الأفعال بسهولة.

وفيه: «من صفات أهل الدين حسن الخلق».

وفيه: «ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق».

هو بضم لام وسكونها: الدين والطبع والسجية. وفسّر في الحديث بأن تلين جناحك، وتطيب كلامك وتلقى أخاك ببشر.

وعن بعض الشارحين: حقيقة حسن الخلق، إنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) ج ١: ٦٩٣.

الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكرر مدح حسن الخلق وذم سوءه في الأحاديث.

* * *

[**الخلق عماد الدين**]:

جاء (في الخلق الكامل)[1] تحت عنوان (الخلق عماد الدين):

أودع الله سبحانه وتعالى نفوس جماعات البشر روحاً خلقية، وجعلها مناط سعادتهم وشقائهم، وأقسط الموازين للدلالة على انحطاطهم وارتقائهم، حتّى قال بعض علماء الاجتماع: إنما تتفاضل الأمم في حال البداوة بالقوة البدنية، فإذا ارتقت تفاضلت بالعلم، ثمّ إذا بلغت من الإرتقاء غايته تفاضلت بالأخلاق.

ومن أجل ذلك كانت الأخلاق الركن المتين في الشرائع السماوية، والسبب الأكبر في ظهور أمرها وبقاء سلطانها، قول النبي ﷺ: «إنّ حسن الخلق نصف الدين» وقال ﷺ: «إنّ الخلق وعاء الدين» وهذا يدلّ على أن نسبة الخلق الحسن إلى الدين، كنسبة الوعاء إلى الماء المستقر فيه، فكما أن الماء لا يقوم بنفسه من دون وعاء يضم أجزاءه ويصونها عن التفرق والضياع، كذلك أحكام الدين وتعاليمه لا تقوم بنفسها، ولا يدوم سلطانها، ما لم يكن للمتدينين أخلاق ثابتة تحوط

---

(١) لمؤلفه محمّد أحمد جاد المولى، باحث مصري (١٣٠٠ - ١٣٦٣هـ)، له عدّة مؤلفات، منها: (الخلق الكامل) طبع في أربعة أجزاء.

أحكام الدين وتحفظها من الضياع والإضمحلال. تأمل قوله ﷺ: «إن الله حفَّ الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال».

وقد جعل ﷺ الغاية من بعثته الشريفة إلى الخلق نشر مكارم الأخلاق فيهم، إذ قال: «إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق» ولما أراد الله تعالى أن يثني على نبيّه في القرآن، وصفه بحسن الخلق فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] على أن الإسلام قرر في غير موضع أن الأعمال الخلقية من ضروب الإيمان، تأمل قوله ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» ومعنى إماطة الأذى عن الطريق، تنحية الحجر والشوك وكل عاقول يؤذي الناس في طريقهم، فانظر كيف جعل إماطة الأذى عن الطريق من خصال الإيمان، وليست هي سوى جزء من الواجبات الإجتماعية، وإذا كانت إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان كانت شعبه وخصاله التي لها علاقة بالواجبات الشخصية والاجتماعية مما يفوق الحصر ويتجاوز كل حدّ، وقد فسّر بعض أهل الحقيقة الدنو في الحديث بالقرب، وإماطة الأذى بتطهير النفس.

وتأمل الأحاديث الشريفة الآتية تجد الأخلاق الشخصية والاجتماعية دعامة عظيمة من دعائم الإسلام. قال ﷺ: «أشرف الإيمان أن يأمنك الناس، وأشرفُ الإسلام أن يسلم الناس من لسانك ويدك»، «المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»، و«أفضل الإيمان أن تحبّ للناس ما تحبّ لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيراً أو تصمت»، «من سرّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن» والحديث الصريح في أنّ المؤمن من كان له ضمير يوبخه على صنيعه، ويبكته على ما اجترح من السيئات،

---

(١) القلم: ٤.

«ليس بمؤمنٍ من لم يأمن جاره غوائله»، «أحسنكم إيماناً أحسنكم خلقاً».
هذه الأحاديث ناطقة بأن الأخلاق الشخصية والاجتماعية من خصال الإيمان وأجزائه المتممّة له، وأن المؤمنين يتفاضلون بما يتم لهم من هذه الأخلاق والخصال، فليزدد المؤمن الموفق من ذلك.

ولا أدل على قوة ارتباط الأخلاق بالإيمان في نظر الإسلام مما ورد عن سفانة بنت حاتم الطائي:

أسرتها خيلُ رسول الله ﷺ وأتوه بها، فقالت: هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلّ عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإنّ أبي كان سيّد قومه، يفكّ العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، يعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فردّه خائباً، أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها ﷺ: «يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، خلوا عنها. فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق»، ثمّ أسلمت هي وأخوها (عدي بن حاتم).

* * *

قال البستاني في(دائرة المعارف):

الخلق في اللغة: العادة والطبيعة والدين والمروّة. وفي عرف العلماء: ملكة راسخة للنفس تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية. فغير الراسخ من صفات النفس: كغضب الحليم لا يكون خلقاً، وكذا الراسخ الذي يكون مبدءاً للأفعال النفسية بعسر وتأمل كالبخيل إذا حاول الكرم، وكالكريم إذا قصد باعطائه الشهرة، ولا يقال عمن تكلف السكوت عند الغضب بجهد أن خلقه الحلم، ثمّ إن كانت الهيأة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة شرعاً

وعقلاً سميّت خلقاً حسناً، وإن كانت تصدر عنها الأفعال القبيحة شرعاً وعقلاً سميت خلقاً سيئاً.

والفضيلة في الخلق مبدأ لما هو كمال، والرذيلة مبدأ لما هو نقصان. وكل قسم من الفضيلة والرذيلة قد يكون للإنسان ذاتياً دون سعي منه في تحصيله. وقد يكون مكتسباً أي إنه يكرر فعله مرات كثيرة منه، فصارت عادة له إذا لم يكن للإنسان خلق يمكنه أن يحصله لنفسه.

وفائدة الأخلاق الحسنة عظيمة، وفي الحديث أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن. وسوء الخلق ذنب لا يغفر، وإن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم، فمن جمع كل الفضائل من حسن الأخلاق أو أجلها يستحق أن يكون ملكاً مطاعاً بين الناس ليقتدي به الخلق كلهم...

* * *

قال العلامة موسى السبيتي، في كتابه (أخلاق آل محمّد):

إنّ بواعث الأعمال، وأساس الأفعال الإنسانية قد تكون غريزة وقد تكون عاطفة، وهذه لا نعدها في الأخلاق الإنسانية، فالخلق عمل صادر عن إرادة وتفكير، وغرض متصور.

الغرض لا بدّ أن يكون حسنه لذاته وجماله لذاته، والذاتي لا يعلل ونفعه للفرد نفسه، كالصدق والشجاعة، وقد يتصدى الفرد وقد يكون متمحضاً نفعه للمجتمع كالعدل والأمانة، والوفاء، ونقدر أن نجمل الإشارة إلى الخلق بأنه طريق السعادة للفرد الإنساني أو المجتمع الإنساني، وإن الإشارة قد توضح المعنى أكثر من التحديد المنطقي؛ لأن الحدود والرسوم قد توقع المعنى في عسر، والناظر في ضيق، فيضيع الغرض المقصود امام صناعة لفظية.

في الأمّة الإسلاميّة طرأت تغيرات على مفاهيم الأخلاق، فعلى عهد الرسول وآله وصحابته، كان الخلق يدل على مفهوم يعين على الحياة الفاضلة، هو طريق السعادة الإنسانية، ويدلّ على معنى ايجابي ذي صدى بعيد في تكوين الحياة العاملة الطاهرة، ولما جاء دور الإنحطاط، وشاع التصوف، وذهب الأمر من العرب إلى قوم آخرين، كالترك، والتتر، ضاع المفهوم الإيجابي، وحلت النواحي السلبية، فبعدت الأخلاق عن الحياة الاجتماعية، وأصبحت الأخلاق أداة من أدوات الانحلال، والإنكماش، والإنعزالية، وأصبحت أمهات الفضائل: الزهد والتوكل والتسليم والرضا والقناعة، وهذه هي التي ذكرها السبزواري في منظومته.

وكانت هذه أخلاق المتصوفة الذين أقصى هممهم في الحياة الفناء، حتّى السعادة التي يطلبها هؤلاء الناس لم تعد سعادة توجد على الأرض وفي دار الدنيا؛ بل انحصر وجودها في أنظارهم في العالم الأخروي، وأصبح إصلاح الحياة، رقي الحياة، الرفاهية في الحياة، شيئاً ممقوتاً وعملاً مبعَداً من الله، وعمران الدنيا من عمل أهل الدنيا، الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق ولا في مرضاة الله من نصيب.

فكان لنا مؤلفات في الأخلاق: كالاحياء، وجامع السعادات ومن حذا حذوهما، كتب تعلّم الناس كيف يموتون، لا كيف يعيشون، وجديرة بأن ينظر فيها من بلغ الستين لا أن تكون هدى للشباب الحائر ومشجّعاً للناشئ الخائف، ولا موجّهاً للرجل المتطلع الطامح.

إن كتب الأخلاق عند اليونان، وكتب الأخلاق في أوربا، تعلّم الناس كيف يعيشون في مجتمع فيه منافع وشهوات، وفيه رذائل وجرائم، وترشد الشباب إلى أقرب طريق السعادة، وتوجههم إلى الإحتفاظ

بنزاهتهم وطهارتهم في أجواء فيها قذارة وفيها رجاسة، تعلّمهم لتكون روابطهم بالمجتمع أوثق وبأوطانهم أشد، وتعلّمهم الاحتفاظ بشخصياتهم فلا تذوب ولا تنحل، ولا يطغى عليها جانب عاصف من جوانب الحياة، ولا يتساقطون إذا مارت الأرض تحت أقدامهم.

إنّ المأثور عن أهل البيت عليهم السلام ثروة عظيمة تعلّم الناس كيف يكونون سعداء، وكيف يكونون فضلاء، وكيف يتصلون بمجتمعاتهم إتصالاً لا يخشى عليه أن ترث حباله، أو تقطع أوصاله أو يعفي عليه الزمن.

إن التعاليم الأخلاقية الإسلاميّة التي انتهت إلينا من الرسول وآله وصحبه لا تحول بيننا وبين العلم الذي هو أساس حضارتنا، ولا تمنعنا الثروة التي هي جزء من حياتنا، ولا تباعد بيننا وبين السعادة التي هي غاية كل مفكّر، وهدف كل عاقل: ومثالية كل طامع؛ بل التعاليم تأخذ بأيدينا في مفترق هذه الطرق، وتقينا التيارات المتضاربة العنيفة، وتلفتنا إلى المزالق التي يكمن فيها الخطر.

إنّ تقدّم الإنسان ماديّاً يبعث على الدهشة، فقد عرف من ألوان الرفاهية والنعيم ما يشبع نهمه ويروي غرائزه، ومع هذا التقدم المادي، فالفلاسفة وأقطاب السياسة، والمصلحون لا يزالون يعلنون: أن حقوق الإنسان مقدسة، يجب المحافظة عليها، والسياسة مهما سمت ديمقراطيتها وتقدّمت مبادؤها في المحافظة على الأفراد والشعوب، فلا تعدو أن تحقق العدل في توزيع الحقوق، والأموال، وتهيئة وسائل السعادة للأمم، وإفساح المجال للحرية بأنواعها المختلفة، لتظهر العقول مقدرتها، والرجال عبقريتها في مختلف الميادين، ولاستيفاء المظلوم حقه في القاضي، فالسياسة تتجه نحو المنفعة ولا تمسّ روحية الإنسان

وتهذيب طبعه. والأخلاق هي التي تتولى ذلك، وأثر أعمال الفلاسفة أصبح واضحاً ملموساً، فالإنسانية بدأت تتقدم في التحلي بالفضيلة تقدماً نحسّ أثره ونسمع صداه، والأمل يزداد يوماً فيوماً في تقدّم الإنسان نفسياً وتهذيبه روحياً، وإن كان التقدم بطيء الخطى فاتر السير.

وآل محمّد عليهم السلام كانوا يبثون تعاليم ترشدنا إلى السعادة التي هي حلم كل حالم، وأمل كل عامل، بل أكثر من هذا نستطيع أن نستفيد من الأخلاق التي علمها الرسول وآله، أن المتحلي بها، والذي يصوغ نفسيته على قالبها، ويكيّف شخصيته بشكلها، يصل إلى مرتبة فوق السعادة، بأن تكون نفسه في قواها الخيرة وملكاتها النيرة، ومواهبها السمحة وجبلتها الصافية، شبيهة بنفوس الأنبياء وروحانيتهم.

قال الصادق عليه السلام: قال النبي صلى الله عليه وآله: «ألا أخبركم بأشبهكم بي؟»، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أحسنكم خُلقاً، وألينكم كنفاً، وأبركم بقرابته، وأشدّكم حباً لإخوانه، وأصبركم على الحق، وأكظمكم للغيظ، وأحسنكم عفواً، وأشدكم من نفسه إنصافاً في الرضا والغضب».[1]

قال الصادق عليه السلام: «إنّا لنحب من كان عاقلاً، فهماً، فقيهاً، حليماً، مدارياً، صبوراً، صدوقاً، وفياً، إن الله عزّ وجلّ خص الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله وليسأله إيّاها».[2]

روى المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام أنه قال: «عليكم بمكارم

---

(١) الكافي ٢: ٢٤١/ ح ٣٥.

(٢) الكافي ٢: ٥٦/ ح ٣.

الأخلاق فإنّ الله يحبها، وإياكم ومذام الأفعال فإن الله سبحانه وتعالى يبغضها».[١]

وقال عليه السلام: «إن الله خص رسوله بمكارم الأخلاق فامتحنوا أنفسكم فإن كانت فيكم فاحمدوا الله وارغبوا إليه في الزيادة منها، فذكرها عشرة: اليقين، والقناعة، والصبر، والشكر، والحلم، وحسن الخلق، والسخاء، والغيرة، والشجاعة، والمروّة».[٢]

حدّث الباقر عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام من جملة حديث: «عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، عليك بمساوئ الأخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومنّ إلاّ نفسك».[٣]

كان بعض الفلاسفة يقول: إنّ القوى الخيرة مبعثرة في العالم، فمن حاز أكبر قسم منها فهو أكثر إنسانية.

والصادق عليه السلام كان يقول: «المكارم عشر فإن استطعت أن تكون فيك فلتكن، فانها تكون في الرجل ولا تكون في ولده، وتكون في الولد ولا تكون في ابنه، وتكون في العبد ولا تكون في الحر؛ صدق البأس، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، وإطعام السائل، والمكافاة على الصنائع، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، ورأسهنّ الحياء».[٤]

جاء رجل إلى الصادق عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله أخبرني عن

---

(١) أمالي الصدوق: ٤٤٠/ ح ١٠/٥٨٦.

(٢) الكافي ٢: ٥٦/ ح ٢.

(٣) الكافي ٨: ٧٩/ ح ٣٣.

(٤) الخصال: ٤٣١/ ح ١١.

مكارم الأخلاق، فقال عليه السلام: «العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك، وقول الحق ولو على نفسك»[(١)].

قال الصادق عليه السلام: «إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه ويروح»[(٢)].

إنّ الأخلاق التي تحيا عليها المجتمعات، وتأمر بها الأديان، وترشد إليها الفلسفة: هي الفضائل التي تعين على تهذيب النفس وتزيد الإنسان علاقة بالمجتمع، وقياماً بالحقوق والواجبات، وكلما كان حظ الإنسان أكثر من الفضائل كانت الإنسانية فيه أظهر، وكلما قلّ نصيب الإنسان من حيازة الفضائل والتحلّي بها كان حظه من الوحشية أغزر. الأديان بتعاليمها المختلفة، والفلسفة ببحوثها الشيّقة الصعبة، كلها تقدم الوسائل لأن يكون أعرق في الإنسانية، وأكثر تحلياً بالفضيلة، وأوفر حظاً من السعادة، وإن الفضيلة تحافظ على الجسد كما تعنى بتهذيب النفس، والسعادة تكون باكتمال أدوات خير الجسد والروح.

قال أرسطو: الخير هو فاعلية النفس بإرشاد الفضيلة، فإنّ الإنسان يتكون من شخصية، أظهر ما فيها مدارك وغرائز ومشاعر وعواطف وتراث اجتماعي، ويتكون من خلق، ويتكون من سلوك، فقد تكون الشخصية رائعة، والخلق مستقيماً، لكن السلوك سيئ مذموم كغادة الكاميليا قديسة النفسية والخلق، فاجرة السلوك. هكذا قضى عليها المجتمع.

وقد تكون الشخصية عبقرية ولكن الأخلاقية متداعية مفككة لا تثبت، نظير بيرون الشاعر الانكليزي وتيمور لنك. وقد تكون الشخصية

---

(١) معاني الأخبار: ١٩١/ ح ١.

(٢) الكافي ٢: ١٠١/ ح ١٢.

عبارة عن تقليد وانطباع وانعكاس كما نجد أمثلة كثيرة لهذا النوع من سائر الناس يقع تحت نظرك منهم يومياً العدد الكثير، والأخلاق تحاول أن تجعل الشخصية والخلق والسلوك منسجمة متمازجة في نفسها ليكون المجتمع مسيّراً بإرشاد الفضيلة، مستضيئاً بأشعتها الثابتة، التي لا يخشى عليها الضعف ولا الإنطفاء والخمود.

لقد أخذنا بأخلاق محمّد وآله وأصحابه أوّل أمس، فكنا أسياداً وقادة للعالمين، وأهملناها أمس، فصرنا أرقاء مستعبدين، فهل نأخذ بها اليوم، ونهتدي بهداها اليوم؟ علم ذلك عند الله وإن كنت من المتفائلين.

[رذيلة سوء الخلق]:

هذه مكارم الأخلاق، وهذه آثارها، فكيف يكون سوء الخلق؟ بمقدار ما يكون حسن الخلق هو روح الأديان، وهو الشكل الجميل الذي تتخذه الشخصية الإنسانية لها صورة وثوباً تتزين به، وتتحلّى برونقه وبهائه، يكون سوء الخلق هو الشكل المخيف الذي إذا تحلّت به الشخصية الإنسانية، واتخذته ثوباً ومظهراً يكون مخوفاً مرعباً، وباعث شقاء وعناء للفرد في نفسه، وللمجتمع في كيانه، ماذا يقال فيمن ساء خلقه؟ إذا عامل الناس ظلم، وإذا وعد أخلف، وإذا حدّث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا أمكنته الفرصة وثب، بعيد عن الخير، قريب من الشر، فارس في الفتنة، عاجز في اجتماع الكلمة والوحدة، لذلك كان الرسول صلى الله عليه وآله يقول:

«أبى الله لصاحب الخلق السيء بالتوبة»، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم».[1]

---

(١) الكافي ٢: ٣٢١/ ح ٢.

قال الصادق عليه السلام: «من ساء خلقه عذّب نفسه».[1]

وقال عليه السلام: «إن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل».[2]

ولا يكتفي بأن سوء الخلق يفسد الأعمال حتّى أبان أن سوء الخلق قد تتعدى مضاره وموبقاته إلى النفس البشرية فيفسد معتقدها، ويهدم مبادئها التي اعتنقتها، وإذا تهدّمت العقيدة ينتج من ذلك الشك والقلق، وينمحي الرجاء والأمل، ويستقرّ اليأس والتشاؤم من مصائر الحياة، كما يستقر الريب والشك في مصادرها.

* * *

قال النراقي في (جامع السعادات):[3]

إنّ الحياة الحقيقية للإنسان تتوقف على تهذيب الأخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة، تعرف أنها أشرف العلوم وأنفعها؛ لأن شرف كل علم إنما هو بشرف موضوعه أو غايته، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة، بقدر شرف بدن الإنسان وإصلاحه على جلود البهائم، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الإنسان ولبّه، وهو أشرف الأنواع الكونية، كما برهن عليه في العلوم العقلية، وغايته إكماله وايصاله من أول أفق الإنسان إلى آخره، ولكونه ذا عرض عريض متصلاً أوّله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة، لا يكاد

---

(١) الكافي ٢: ٣٢١/ ح ٤.

(٢) الكافي ٢: ٣٢١/ ح ١.

(٣) جامع السعادات ١: ٤٩.

يوجد التفاوت الذي بين أشخاص هذا النوع في أفراد سائر الأنواع، فإن فيه أخس الموجودات، ومنه أشرف الكائنات كما قيل:

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتّى عُدّ ألفٌ بواحد

وإلى ذلك التفاوت يشير قول سيد الرسل ﷺ: «إني وُزنت بأمّتي فرجحت بهم» ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف في الأخلاق والصفات، لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها.

وهذا العلم هو الباعث للوصول إلى أعلى مراتبهما، وبه تتم الإنسانية، ويعرج من حضيض البهيمية إلى ذرى الرتب الملكية، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخسّ الموجودات إلى أشرفها، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حيقيقة إلاّ عليه ويسمونه بالإكسير الأعظم، وكان أوّل تعاليمهم، ويبالغون في تدوينه وتعليمه والبحث عن اجماله وتفصيله، ويعتقدون أن المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم، وكما أن البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته فقد زدته شراً، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلاّ فساداً، ولذا ترى أكثر المتشبهين بزي العلماء أسوأ حالاً من العوام، مائلين عن وظائف الإيمان والإسلام، إمّا لشدة حرصهم على جمع المال غافلين عن حقيقة المآل، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب ظناً منهم أنه ترويج للدين والمذهب، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة لكثرة الشك والشبهة، أو لشوقهم إلى المراء والجدال في أندية الرجال، إظهاراً لتفوقهم على الأقران والأمثال. أو لإطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر العلماء وأعاظم الحكماء.

ولعدم تعبّدهم برسوم الشرع والملّة ظناً منهم أنه مقتضى قواعد الحكمة،

ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال، ولم يتفطنوا قول نبيهم ﷺ: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسّك» ولم يتذكروا قوله ﷺ: «البلاهة أدنى إلى الإخلاص من فطانة بتراء». وكل ذلك ليس إلاّ لعدم سعيهم في تهذب الأخلاق وتحسينها، وعدم الإمتثال لقوله سبحانه:

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها﴾.[1]

* * *

قال السيد عبد الله شبر في كتابه (الأخلاق):

الخلق ـ بالضم ـ عبارة عن الصورة الباطنة، كما أن الخلق ـ بالفتح ـ عبارة عن الصورة الظاهرة؛ يقال: فلان حسن الخلق والخلق، أي الظاهر والباطن، ولكل منهما هيأة وصورة إمّا قبيحة وإما جميلة.

فالخُلقُ عبارة عن هيأة للنفس راسخة تصدر عنا الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كان الصادر عن تلك الهيأة أفعالاً جميلة محمودة عقلاً وممدوحة شرعاً، سُميّت تلك الهيأة (خُلقاً حسناً) وإن كان الصادر منها أفعالاً قبيحة سُميّت (خُلقاً سيئاً).

وإنما اشترط فيها الرسوخ؛ لأن من يصدر عنه بذل المال مثلاً على الندرة لحاجة عارضة لا يقال: (خلقه السخاء) ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ.

وإنما شرطنا السهولة؛ لأن من يكلف بذل المال لا يقال: (خلقه السخاء).

---

(١) البقرة: ١٨٩.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فربّ شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع آخر، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء، ولا عبارة عن القدرة؛ لأنّ نسبة القدرة إلى الضدين واحدة، ولا عن المعرفة فإنّ المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد؛ بل هو عبارة عن هيأة النفس وصورتها الباطنة.

[**الأركان الأساسية لحسن الخلق**]:

وكما أنّ حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد؛ بل لا بدّ من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك لا بدّ في الباطن من أربعة، لا بدّ من الحسن في جميعها حتّى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق، وهي قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث: (أما قوة العلم): فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل لها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الإعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا تحصلت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة التي هي رأس الأخلاق الحسنة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[(١)].

(وأما قوة الغضب والشهوة) فحسنهما في أن يقتصر انقباضهما وانباسطهما على حدّ ما تقتضيه الحكمة والدين.

(وأما قوة العدل) فهي ضبط قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير، وقوته القدرة، ومنزلتها منزلة المنفّذ الممضي لإشارته، والغضب والشهوة تنفذ فيهما الإشارة.

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

ومثال الغضب مثال كلب الصيد، فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتّى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان النفس. والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد، فإنها تارة تكون مروضاً مؤدباً، وتارة تكون جموحاً، فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعضه فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة، كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون البعض.

وحسن القوة الغضبية واعتدالها، يعبّر عنه بالشجاعة، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبّر عنه بالعفة، فإن مالت قوة الغضب عن الإعتدال إلى طرف الزيادة سمّي ذلك تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان سمّي جبناً وخوراً، وان مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة سمّي شرهاً، وإن مالت إلى النقصان سمّي خموداً.

والمحمود هو الوسط، وهو العدل والفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفان بزيادة ونقصان؛ بل له ضد واحد وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمّى إفراطها عند الإستعمال في الأغراض الفاسدة خبّاً وجريرة، ويسمّى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

فإذاً أمّهات الأخلاق الحسنة والجميلة وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفّة، والعدل.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربعة إلاّ رسول الله ﷺ، ولهذا أثنى الله عليه قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[١] والناس بعده يتفاوتون في القرب والبعد، فينبغي أن يقتدى به، فإنه ﷺ قال: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين، فقال تعالى:

---

(١) القلم: ٤.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.[1] فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحدّ الإعتدال، وقد وصف الله تعالى به قوماً فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾،[2] إشارة إلى أنّ للشدة موضعاً، وللرحمة موضعاً، وليس الكمال بالشدة في كل حال، ولا في الرحمة بكل حال.

* * *

قال أحمد أمين المصري في كتابه (الأخلاق):

الفائدة من دراسة علم الأخلاق:

كثيراً ما يرد على الذهن هذا السؤال: هل في استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين أخياراً؟

والجواب: أن هذا العلم ليس في استطاعته أن يجعل كل الناس أخياراً؛ بل هو بمنزلة الطبيب، فالطبيب يستطيع أن يخبر المريض بضرر شرب المسكرات، ويصف له تأثيرها في العقل والجسم، ثمّ المريض بعدُ بالخيار، إن شاء ترك لتحسن صحته، وإن شاء تعاطى، وليس في استطاعة الطبيب منعه، كذلك علم الأخلاق ليس في مقدوره أن يجعل

---

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) الفتح: ٢٩.

كل إنسان صالحاً، ولكن يفتح عينيه ليريه الخير والشر وآثارهما، فهو لا يفيدنا ما لم تكن لنا إرادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه.

نعم، يُمَكّن مَنْ لم يدرس الأخلاق أن يحكم على الأشياء بأنها خير أو شر، ويمكنه أن يكون صالحاً حسن الخلق، ولكن مَثَل دارس الأخلاق ومن لم يدرس كتاجر الصوف الخبير به، ومن ليس كذلك إذا أراد كلاهما أن يشتري نوعاً من الصوف، كلٌ يقع نظره على ما يقع عليه نظر الآخر، وكلٌ يلمس ويمتحن، ولكن ممارسة الأوّل وكثرة تجاربه تجعله أصدق حكماً وأحسن تقويماً.

كل علم يمنح دارسه عيناً ناقدة في دائرة الأشياء التي يبحث عنها العلم، وكذلك الشأن في علم الأخلاق، فدارسه أقدر على نقد الأعمال التي تعرض عليه، وتقويمها تقويماً مستقلاً غير خاضع في أحكامها إلى إلف الناس وتقاليدهم؛ بل هو يستمدّ آراءه من نظريات العلم وقواعده ومقاييسه.

وشيء آخر وهو أنه ليس غرض علم الأخلاق مقصوراً على معرفة النظريات والقواعد، بل من أغراضه أيضاً التأثير في إرادتنا وهدايتنا، وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة، ونحصّل خيرنا وكمالنا ومنفعة الناس وخيرهم، فهو يشجّع الإرادة على عمل الخير، ولكن ليس ينجح في ذلك دائماً، فهو إنما يؤثر أثره إذا طاوعته طبيعة الإنسان وفطرته.

قال أرسطو فيما يتعلق بالفضيلة: لا يكفي أن يعلم ما هي بل يلزم زيادة على ذلك رياضتها على حيازتها واستعمالها، أو إيجاد وسيلة أخرى، لتصيّرنا فضلاءً وأخياراً، ولو كانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخياراً لاستحقت _ كما كان يقول تيوغنيس _ أن يطلبها كل الناس، وأن تشترى

بأغلى الأثمان؛ ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادئ في هذا الصدد: هو أن تشدّ عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة، وفيّاً بعهدها.

* * *

قال السيد محمّد صفي الدين الحسيني العاملي في كتابه (مناهل الأشواق):

في الإنسان جوهر استعدادي لتحقيق مظهر خاص من الإنسان، لا يشاركه فيه واحد من العوالم الموجودة بأسرها، علوية كانت تلك العوالم أو سفلية؛ لأن جميع ما خلقه الله سبحانه لم تجتمع فيه الصفات التي وجدت في الإنسان. فالأفلاك والنيرات والعناصر، ليست مورداً للتكاليف الربانية المنافية لما هي عليه، فليست كالإنسان وإن عمّ نفعها وعظم جوهرها.

والملائكة ليس فيها ما في الإنسان من عجائب التراكيب من العناصر التي استحال معها وجود الإنسان بغير غذاء وشهوات عامة نفسية، فهي عن مخالفته سبحانه في حدّ ذاتها أبعد.

والحيوان وإن شارك الإنسان في أكثر ضرورياته، إلاّ أن ما فيه من نقص الإدراك للكليات المعقولة جعله بعيداً عن الإنسان وإن كان قريباً منه، جعله محروماً من فوائد التكاليف الربانية.

والجان وإن احتف بالشهوات النفسية، وتحمّل التكاليف الربانية، فهو في منتهى البعد عن كرامة الإنسان في حقيقة ذاته وأصل عنصره، وإن كان هذا هو الغاية القصوى لفخره، والعلة الوحيدة لتكبر إبليس وكفره، ولذلك أجاب عن معصيته لربه فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ

طِينٍ﴾[1] حيث خلق الله آدم من طين وأمر الملائكة والجان بالسجود له، لما فيه من أنوار هي علل الايجاد، ولولا تلك الأنوار ما خلق الله سماءاً مبنية ولا أرضاً مدحيّة، فسجد الملائكة كلهم وتكبّر إبليس وكفر، فجعله الله من الصاغرين وجعل عليه اللعنة إلى يوم الدين.

إنّ هذا الجوهر الإستعدادي موجود في الإنسان، وبسببه يقدر الإنسان على أن يتحقق منه ذلك المظهر، فإذا بزغت شموس ذلك المظهر الخاص من الإنسان كان أشرف من كل مخلوق سواه حتّى الملائكة في طاعتها والأفلاك والنيرات والعناصر في عظيم منفعتها ودقائق صنعتها.

ليس هذا المظهر الخاص بالإنسان الذي عرفت أنه عين الوجود ومدار الشرف فعلاً واحداً إيجادياً من أفعال الإنسان فيوجده، أو أمراً واحداً عدمياً فيتركه؛ بل هو أفعال وتروك كلها تحت اختيار الإنسان وقدرته يجمعها عنوان واحد.

فأسعد العالم وأشرفه من تمّ فيه ذلك العنوان، والسعيد من أخذ منه الشطر الوافر، وبعده: فالسعادة مراتب على مقدار الإستعداد يكون الاكتساب من ذلك المظهر من ذلك العنوان.

المظهر الخاص هو مكارم الأخلاق:

مكارم الأخلاق أفضل السجايا.

إنّ جميع أحكام الدين الإسلامي وقوانينه جواهر عِقْد مكارم الأخلاق.

---

(١) الأعراف: ١٢.

نعم، سطعت أنوار الشرع الإسلامي على النوع الإنساني، فكانت لصاحب الدعوة الإسلاميّة والشريعة الربانية جواهر عقد مكارم الأخلاق مجتمعة في قوله وفعله، بحيث فاق من تقدم عليه، ولا يدانيه من تأخر عنه، وأبان جوهره الإستعدادي تفوقه على جميع أفراد نوعه، حتّى قال ﷺ: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقد مدحه الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.(١)

ولم تكن هذه المدحة من الله سبحانه لغيره ممن سبق عليه.

الدين الإسلامي ومكارم الأخلاق:

للدين الإسلامي قانون أساسي يدور الإنتماء إليه، ولا يقبل العقل الخدشة فيه، هو أساس مكارم الأخلاق، هو الغاية من وجود النوع البشري الذي كرّمه الله سبحانه على جميع العوالم وسخرها له، فأخدمه الأفلاك بحركاتها، والشمس والقمر والنجوم بأنوارها، والهواء والنار والمال بمنافعها، والأرض وما أقلّت بجواهرها. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾.(٢)

هو أساس السعادة في المبدأ والمعاد، هو سبب الفوز للعباد، ولذلك خلقهم، فهو الغاية من وجودهم.

﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾.(٣)

العنوان الجامع لمكارم الأخلاق:

هو تحسين الحسن لذاته، وتقبيح القبيح لذاته.

لا ريب في أن تحسين الحسن لأنه حسن، وتقبيح القبيح لأنه قبيح، مما يحكم به العقل السليم والطبع المستقيم، هذا هو روح مكارم

---

(١) القلم: ٤.

(٢) إبراهيم: ٣٤؛ والنحل: ١٨.

(٣) الذاريات: ٥٦.

الأخلاق، هذا الذي تدور مكارم الأخلاق بأسرها عليه، وترجع بجميع جهاتها إليه.

إن الإيجاد بعد العدم نعمة، واستدامة فيوض الإنعام على الموجود لحفظ وجوده هو تمام النعمة، فالله سبحانه أوجد الإنسان بعد العدم، وخصّه من بين الموجودات بالعقل والعلم، وسخّر له ما سخّر، وأخدمه ما أخدم، وأدام عليه النعمة، فوجب بحكم العقل على الإنسان شكر المنعم ليزيد في إنعامه.

فشكر المنعم حسن وواجب، وهو المرتبة الأولى من تحسين الحسن، فهو المرتبة الأولى من مكارم الأخلاق.

المرتبة الأولى من مكارم الأخلاق شكر المنعم:

القانون الأساسي للدين الإسلامي شكر المنعم.

إنّ القانون الأساسي للدين الإسلامي هو شكر المنعم، وبالضرورة العقلية توقف شكر المنعم على معرفته، وبدون معرفة المنعم لا يتحقق الشكر له، وإنما يعرف بصفاته.

فالمنعم على جميع الموجودات بالوجود، فضلاً عن الإنسان المميّز عليها بالعقل والعلم وتسخيرها له.

المنعم هو الله سبحانه الكائن قبل الموجودات، والمكوّن لها بقدرته وحكمته، فهي حادثة بقدرة قديم أزلي، والحادث يعتوره الفناء والتغيّر.

المنعم هو الله الباقي بعد تغيّر الموجودات وفنائها بانقطاع فيوضاته عنها على وفق ما سبق في علمه وعجيب حكمته.

المنعم هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، لم يكن له كفواً أحد، وكيف يكون المخلوق كفواً للخالق.

المنعم هو الله الحكيم العليم، العدل، لا يصدر منه القبيح، ولا يترك الحسن، ولا يظلم عباده، فلا يكلّفهم بما لا يقدرون عليه، ولا يجبرهم على المعصية ثمّ يعاقبهم عليها.

المنعم هو الله الرؤوف الرحيم اللطيف بعباده، فلا يُخلّ بواجب اقتضاه لطفه، من بعثة الرسل لخلقه بما فيه سعادتهم، ونصب حجج بعد رسله على عباده لطفاً منه بهم، ورأفة منه عليهم لتكون له سبحانه الحجة البالغة من العقل والنقل، وبذلك تتم الوظيفة المولوية الربانية، فيلزم على الإنسان القيام بوظيفة العبودية.

المنعم هو الله الخبير العليم، يأمر عباده ويبعثهم إلى ما فيه سعادتهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم، ويزجرهم وينهاهم عما فيه شقاؤهم واختلال نظام وجودهم واجتماعهم، ويوعدهم بالمثوبة على طاعته، ويتوعدهم بالعقوبة على معصيته في الدار التي أعدّ نعيمها الدائم للمطيعين، وعذابها الخالد للعاصين، فهو يبدأ الخلق، ثمّ يعيده إكمالاً لما قضت به حكمته من حفظ أكوان عباده، وصونها عن الفساد، وإلاّ أفضى وجودها إلى العدم، ولذلك أسست الشرائع وحسن التكليف.

إن الصفات التي يجب أن يتصف بها المنعم سبحانه، وتسمّى بالصفات الثبوتية، والصفات التي يجب أن ينزّه سبحانه عنها ولا يجوز أن يتصف بها، وتسمّى بالصفات السلبية لكثيرة تُذكر إن شاء الله في باب الاعتقادات الواجبة على كل إنسان بالغ عاقل.

أما الصفات التي ذكرناها للتوصل إلى شكر المنعم الواجب شكره سبحانه، فهي كافية في قصر الشكر عليه ورجوعه إليه.

فالصفة الأولى: أن الله واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد.

والصفة الثانية: أنّ الله عادل لا يظلم عباده، ولا يفعل القبيح، ولا يترك فعل الحسن.

والصفة الثالثة: أنّ الله لطيف بعباده، ولشدة لطفه بهم يرسل إليهم الأنبياء، وينصب فيهم بعد الرسل الأوصياء الأئمّة الخلفاء، لتكون له سبحانه الحجة البالغة على عباده.

والصفة الرابعة: أنه يعيد عباده بعد فنائهم إلى الدار الآخرة، فيثيب المطيعين ويدخلهم في جنّته ورحمته، ويعاقب العاصين فيدخلهم في ناره وغضبه.

هذه الصفات لواجب الوجود، وهو الله المنعم سبحانه، هي القانون الأساسي للدين الإسلامي، فهي بالحقيقة والبرهان خمسة: التوحيد، والعدل، والنبوّة، والإمامة، والمعاد. وعند غيرنا ثلاثة: التوحيد، والنبوّة، والمعاد، بناءاً منهم على سقوط صفة العدل التي هي عبارة عن تنزيهه سبحانه عن ظلم العباد وفعل القبيح وترك الحسن، وسقوط صفة اللطف المقتضية لإرسال الرسل الملازمة لنصب الخلفاء الأوصياء من الله على عباده.

القانون الرباني، والناموس الفرقاني للدين الإسلامي:

قانون (عبادي) (صحي) (أخلاقي) (اجتماعي) (سياسي):

إن هذا القانون الرباني، والمعجز الفرقاني للدين الإسلامي قد حارت في دقائقه أفكار البلغاء، وتصاغرت لعظمته جماهير العرفاء، أقر باعجازه ملوك الفصاحة والبلاغة من قريش وهم سادات العرب، واعترفوا بالعجز عن مباراة آية من آياته.

لم تزل فلاسفة العالم الإنساني في القرون الماضية من المسلمين

والنصارى واليهود والوثنيين والبراهمة والبوذية، وجميع أرباب الأديان والطبيعيين تنظر إلى هذا القانون الرباني والمعجز القرآني نظر الفكرة والتدبر، والحيرة والإستفهام حتى طاشت الألباب وحارت الأفهام فيه.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾.[1]

وقد رجعوا إلى ما كانوا عليه ولم يجدوا لنسبته إلى كلام الآدميين سبيلاً، ولن يقدر العالم الإنساني على أن يأتي بمثله، اجتمع أو تفرق؛ بل لو اجتمعت الإنس والجن كان ذلك خارجاً عن قدرتهم، قال سبحانه في هذا القرآن المجيد:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.[2]

والمعنى: أنه لو توافقت الإرادة من كل فرد من الإنس والجن، واتحد قصدهم على أن يأتوا بكتاب مثل هذا الكتاب لا يقدرون على ذلك حتّى لو أعان كل فرد منهم الآخر؛ لأنّ المخلوق لا يصنع صنع الخالق.

كيف وقدرة المخلوق محدودة، والخالق قادر على كل شيء.

الأحكام الربانية في القانون الإسلامي، تدوم بدوام الإنسان، تلائمه في كل زمان ومكان.

القسم العبادي من القانون الإسلامي:

هو الصلاة بما لها من الشرائط. وهي عمود الدين، والصوم، والحج، والزكاة، والخمس وما أشبهها، وكلها مظاهر شكر المنعم سبحانه، وشعار العبد

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) الإسراء: ٨٨.

لأداء شكر مولاه المتفضل بالنعم التي لا تحصى، وقد أوجب العقل شكر المنعم بلا تفاوت بين أفراد الإنسان وزمانه ومكانه.

القسم الصحي من القانون الإسلامي:

بالضرورة أنّ حفظ الصحة واستقامة المزاج، يناط قبل كل شيء بما يؤكل ويشرب، فالنافع ما سلم من الضرر، وقد منع القانون الإسلامي الصحّي من أكل الخبائث كلها، وشرب المسكرات والخبائث، وكل مزيل للعقل ولو في حال شربه، فحرّم الميتة والدم ولحم الكلب والخنزير، وجملة من الحيوانات وغيرها مما يشابهها في الخباثة والقذارة، وكلها بعد الفحص والاختبار يغلب ضررها على نفعها، ولولا اعتياد بعض الأفراد من النوع الإنساني على أكل بعضها، كانت سمّيتها فعلية، لكن من اعتاد على السم لا يؤذيه، ومن أدمن على الخبيث لا يرى خبثاً فيه.

وحرّم شرب المسكر لما فيه من تبدل حال الشارب منه، وذهوله المفضي إلى قتله لغيره أو لنفسه، أو اتلافه لأثمن ما يوجد لديه في بعض الأحوال لبعض الأفراد، كما هو مشاهد بالوجدان، وهذا يوجب الخلل في انتظام وجود الإنسان، فلو كانت المسكرات نافعة لبعض الأفراد ففي ضررها العام لسائر العباد كفاية في المنع والتحريم من الحكيم العالم بخواص الموجودات، ولقد تنبّه جملة من الحكماء والفلاسفة فيما تقدم إلى ما فيها من الضرر، فمنعوا من شربها، وقد اشتهر انتباه جماعة من حكماء الأميركان في هذا القرن إلى ما في المسكرات من الضرر، فأذاعوا المنع من شربها، وكان ذلك لهم عند من لم يطلع على الدين الإسلامي من المكتشفات الجديدة بالفخر، ونحن نشكرهم لعلمهم ومعرفتهم بما كشف عنه القانون الإسلامي.

وحرّم الأكل والشرب من الأواني التي وجد فيها أحد الأعيان النجسة ـ أي أحد الخبائث ـ، مثل البول والغائط من الإنسان ومن بعض الحيوانات، وكذلك الدم من كل حيوان له نفس سائلة، وأما دماء الحشرات الأرضية مثل العقرب ونحوه فإنها لا تقذّر ما تلاقيه، وهل تجد أحداً لا يستقذر البول والغائط الخارجين من الإنسان وبعض الحيوانات، إلاّ أن يكون مسلوب الإدراك، كما أنك لا تجد أحداً يستقذر البول والغائط من الغنم والماعز والظباء وجملة من الحيوانات وجملة من الطيور؛ بل نجد من أنفسنا إذا وقع بعر الظباء أو الغنم في آنية الماء ونحوه عدم قذارة الماء، فالنجاسة هي القذارة، والنظافة هي الطهارة، والذي نص عليه القانون الإسلامي مانعاً من ارتكابه هو النجاسة لقذارة النجاسة وخباثتها، وأمرنا بالطهارة وهي النظافة، وهذا لعمري هو قانون الصحة عند جميع العقلاء، لا يفرّق فيه بين زمان ومكان.

النظرة الخفية في قانون الصحة في الديانة الإسلاميّة:

مهما تفكر علماء الصحة وأساتذة الطب، لا يمكنهم الجزم بوجود ضرر في ريق الكلب ولعابه المتصل بلسانه، وأنه بماذا يدفع ذلك الضرر وبما تذهب تلك السمية، وقد نصّ القانون الإسلامي مبيّناً لتلك السمية وكاشفاً عن مزيلها بما له من الخاصية، وهو التراب الخالص من القذارة بإدارته في الإناء الذي تسمم بولوغ الكلب فيه، ويُعرف بتعفير الإناء من ولوغ الكلب لتتحقق طهارة ذلك الإناء، والعارف يجد ذلك عملية لطيفة هيّنة أرشدتنا إليها الشريعة الإسلاميّة لإزالة النجاسة والقذارة.

وبعد بيان القانون الإسلامي دقق بعض فلاسفة الطب الحديث المتتبعين لخصائص القانون الإسلامي، فجزم بوجود المكروب في ريق الكلب وأنه يزول بالتراب، والمتتبع الحاذق العارف بنتائج الحكمة تنكشف لديه أسرار القانون

الصحي الإسلامي، ولا يسعني الآن بيان ما اعترف به فلاسفة الطب من الحقائق الراهنة في القانون الصحي الإسلامي.

القسم الأخلاقي في القانون الإسلامي:

إنّ روح الحياة الإنسانية المميزة للإنسان عن بقية الحيوانات في الحركات بعد وجود القوة العقلية فيه، هي الأخلاق الفاضلة، وبدونها يتساوى الإنسان والحيوان غالباً إلاّ في انتصاب القامة.

الأخلاق الفاضلة عند العقلاء هي مكارم الأخلاق.

تتحقق الأخلاق الفاضلة بفعل أمور متعددة، وقد نصّ القانون الإسلامي على فعل كل ما تتحقق بفعله الأخلاق الفاضلة وعلى ترك كل ما تتحقق بتركه الاخلاق الفاضلة، ونحن نذكر المهمّ مما نص القانون الإسلامي على فعله، وهوعشرة، والمهمّ مما نص على تركه وهو عشرة:

الأوّل: إطاعة الأبوين:

نصّ القانون الإسلامي على إطاعة الوالدين، وجعلها على الولد واجبة كطاعته تعالى، فقال سبحانه:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾[1].

فانظر كيف قرن سبحانه طاعته الواجبة على عباده بإحسان الولد لأبويه، وجعل ذلك أمراً مقضيّاً مبرماً في سابق قضائه على عباده.

وتدبّر معنى قوله تعالى: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ حيث أنّ أضعف مراتب تأثر

---

(١) الإسراء: ٢٣.

الولد من أبويه إظهاره أضعف آثار الأذية، وهو التأوّه في وجه الأبوين، ويُعرف بظهور أثره وهو (أفّ) تلك الكلمة الخفيفة، فإذا منع الله سبحانه منها وحرّم على الولد صدورها منه لأحد أبويه، كان بحكم الضرورة العقلية تحريم بقية أنواع الأذية بطريق الأولوية العقلية؛ لأنها من مراتب الأذية الشديدة.

وقد منع من إدخال الأذية على الوالدين وإن كانا مشركين، وألزما الولد بالشرك والكفر بالله وجاهداه على أن يشرك بالله، فقال سبحانه:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[1]

هذا منتهى ما يمكن إمتثاله من الأمر بحفظ حق الأبوين، قد قدّره الله سبحانه وأمر عباده به، فأحد الأبوين وإن كان مشركاً بالله، وجاهد ولده وألزمه بالشرك والكفر بالله، لم يجعل الله لولده عليه سلطة ولم يمنعه عن القيام بحقه؛ بل ألزمه بالإحسان إليه، هذا هو الحكم الرباني الذي لا سبيل إلى معارضته، ولا يرضي العقل سواه بديلاً، فالسعادة بخدمة الأبوين والتوفيق برضاهما.

الثاني: صلة الرحم:

نصّ القانون الإسلامي على صلة الرحم بما لا مزيد عليه، حيث جعل قاطع رحمه بعيداً عن رحمته سبحانه، مهدّداً له بأنواع البلاء من الصمم والعمى، قال سبحانه:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ * أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ * أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾.[2]

---

(١) العنكبوت: ٨.

(٢) محمّد: ٢٢ – ٢٤.

قيل: المقصود من توليتم كون الولاية والسلطة لكم، فإذا كانت السلطة لكم ذهبتم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم، فمن كان كذلك فقد لعنه الله وأصمّه وأعمى بصره...

وقيل: المقصود من توليتم، أنكم أعرضتم عن أمر الله تعالى، ولم تعملوا بطاعته، وآل أمركم إلى الإفساد في الأرض، وقطع أرحامكم. فتكون الآية عامة لكل من قطع رحمه.

وقال سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾[(١)]

وفي هذه الآية ما فيها من تعظيم حقّ الرحم فيما لو تزاحمت جهات فعل الإحسان وتردد من يفعله بين مستحقيه. فالآية دلّت على أن ذوي الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم.

وقال صاحب الدعوة الإسلاميّة الرسول الأمين محمّد ﷺ: «إنّ الرحم لها ملائكة معلقة (بساق) العرش، تقول ربي صل من وصلني، واقطع من قطعني».[(٢)]

فالسعيد من وصله الله برحمته، وهو من يصل رحمه، والشقي من قطعه الله عن رحمته، وهو من قطع رحمه.

وقال ﷺ: «إنّ أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم، حتّى أنّ أهل البيت ليكونون فجّاراً فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم».[(٣)]

الثالث: الرأفة بالفقراء والضعفاء:

نصّ القانون الإسلامي على الرأفة بالفقراء والضعفاء، وجعل لهم سهماً في مال الأغنياء، وعدّهم ممن يستحق الواجب من الزكاة الواجبة

---

(١) الأنفال: ٧٥؛ والأحزاب: ٦.

(٢) الكافي ٢: ١٥٠/ باب صلة الرحم/ ح ٧ وح ١٠، وليس فيه: (بساق).

(٣) كنز العمال ٣: ٣٦٤/ ح ٦٩٥٧.

في الأموال، وقدّمهم على غيرهم في الذكر إهتماماً بهم وإشفاقاً عليهم، قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.(١)

فالصدقة الواجبة هي الزكاة، وهي من قواعد القانون الإسلامي، قد قرن الله ذكرها بالصلاة، وجعلها من أهمّ الواجبات بعد الصلاة، حفظاً للفقراء والضعفاء، وإشفاقاً عليهم، والقيام بهذا الواجب يُحقق ما قاله بعض العلماء:

لو أنفق الناس زكاة المال ... لم يبقَ في الأرض فقير الحال

وقد مدح الله سبحانه أهل العطف والإشفاق والرأفة على الفقراء، وأثنى عليهم، وبيّن ما هم عليه إذا خلصت أعمالهم لوجه الله تعالى، لا يريدون ممن أعانوه وقدّموه على أنفسهم جزاءاً ولا شكوراً، أولئك أهل بيت النبوّة ومعدن الفضل ومهبط الوحي، أولئك هم الأبرار بنصّ الله على رسوله، قال سبحانه في سورة (هل أتى):

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾.(٢)

روى الخاص والعام اختصاص هذه الآيات من قوله: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾، بعليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وذكروا سبب نزول الآيات:

---

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) الإنسان: ٥ – ٩.

وحاصله إن الحسن والحسين أصابهما مرض، فجاء رسول الله ﷺ ومعه وجوه العرب لعيادتهما، فقالوا لأبيهما: يا أبا الحسن لو نذرت عن ولديك نذراً، فنذر صوم ثلاثة أيام إن شفاهما الله، ونذرت فاطمة كذلك، ونذرت فضة خادمتهم كذلك، فبرئ الحسنان فجاء عليّ بثلاثة أصواع من شعير، فصاموا اليوم الأوّل، وفيه طحنت فاطمة صاعاً وخبزته، وبعد الصلاة وضعوه بين أيديهم، فجاءهم مسكين وسألهم فأعطوه ما عندهم، ولم يذوقوا إلاّ الماء وأصبحوا صائمين، وفي اليوم الثاني، طحنت صاعاً وخبزته وقدّمته في مسائه لعليّ عليه السلام، فإذا يتيم في الباب يستطعمهم فأعطوه ما عندهم ولم يذوقوا إلاّ الماء، وأصبحوا صائمين، وفي الثالث طحنت صاعاً وخبزته وقدّمته لعليّ عليه السلام عند المساء فإذا أسير بالباب يستطعمهم فأعطوه ما عندهم ولم يذوقوا إلاّ الماء.

ولما كان اليوم الرابع وقد قضوا نذرهم، أتى عليّ ومعه الحسن والحسين إلى النبي ﷺ والضعف ظاهر عليهم، فبكى رسول الله ﷺ فنزل جبرائيل بسورة (هل أتى).[1]

تتلى سورة (هل أتى وسورة الناس) إلى يوم القيامة بفضل أهل بيت رسول الله ﷺ مرشدة العالم الإنساني إلى فضيلة الرأفة بالفقراء والضعفاء، فالعارف المتدبر حقارة الدنيا بما فيها من النعم عند تلك الدرجات العالية والمراتب السامية المعدّة جزاءاً لذوي الإشفاق على الفقراء والضعفاء المدخرة لمن آثروا على أنفسهم فبذلوا ما عندهم للمسكين واليتيم والأسير، هم أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ﴿وَيُؤْثِرُونَ

(١) أنظر: مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٢٠٩.

عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾ لا يرتاب ذو وجدان بأنّ من الإحسان إعانة الضعفاء والفقراء، وأنّ الرافة بهم وقضاء حوائجهم من القادرين على ذلك، ترفعهم إلى مراتب السعادة، وترشّحهم إلى نيل السيادة، وتغرس لهم في القلوب أكيد المحبة حتّى ممن لا يصدر له ولا منه في حياته ذلك الفعل الجميل.

إنك تجد حسن هذا الفعل الجميل من المسلّمات البديهية والقضايا الضرورية عند جميع العقلاء، ولو سألت من يتركه مع قدرته عليه لأجاب بعدم القدرة أو بمانع آخر، وهو مع ذلك في غاية الإطناب بأنواع الثناء على من اتصف بهذه الصفة الحسنة والسجية الغراء.

كلنا أبناء الإنسان الأوّل، كلنا في مهد الإنسانية سواء، كلنا ننتعش من فيض واحد رباني، ولولا أن الحياة الإنسانية في هذا الكون الفاني لا يتم انتظامها إلاّ بتفاوت أفراد الإنسان، لجعل الله جميع أفراده في مرتبة واحدة، وهل تجد أحداً يخدم العاجز والمريض، أو يعمل الأعمال الشاقة، أو يقوم بالمهلك من الصناعات والإختراعات فيما إذا تساوت أفراد الإنسان، هيهات هيهات، فالموجد للعالم الإنساني حكيم عالم بالمصالح، خلقنا وفضّل بعضنا على بعض في المال والبنين، والقوة والصحة، والعقل والعلم، والإدراك والفهم، وما رضي أحد بما قسم له إلاّ بالعقل، وبذلك تم انتظام الإنسان في كونه الأوّل.

إن من اطلع على سيرة الأنبياء والخلفاء والحكماء والعلماء، في القرون السالفة، وجدهم أشدّ الناس خدمة للفقراء والضعفاء، وأسرعهم لقضاء حوائجهم، وجد الصحف ناطقة بحثهم على هذا العمل الجميل، وجد لصاحب الدعوة الإسلاميّة، ولخلفائه وأوصيائه ﷺ أفعالاً وأقوالاً كانت ثروة الفقراء في

فقرهم، وقوة الضعفاء في ضعفهم، الرأفة على الضعفاء والفقراء لها في القانون الإسلامي أهمية عظيمة، فمن الإهتمام بها النهي عن ضدها وهو القسوة، قال سبحانه في توبيخ ذوي القلوب القاسية:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ﴾[1].

ولا يخفى ما في تشبيه قلب الإنسان بالحجر من الخساسة والرداءة، فضلاً عن تفضيل الحجر عليه، حيث يخرج منه الماء ويتصدّع من خشية الله.

ومن الإهتمام بالرأفة في القانون الإسلامي، أنه أمر بالسخاء الملازم للقناعة والتوكل والمساواة والشهامة؛ لأن هذه الصفات تبعث من اتصف بها على الرأفة بالفقراء، وتحركه على اعانة الضعفاء، قال سبحانه:

﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

إلى آخر ما ورد في هذا الباب من الآيات الصريحة بالحث على السخاء والإلزام به، وتهديد البخلاء بما سمعت من العذاب الأليم، وذمهم على بخلهم، وفي هذه الآيات ما فيها من تحريك عاطفة القادرين على الرأفة بالضعفاء والفقراء والمساكين، وكلمات صاحب الدعوة الإسلاميّة وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم كأفعالهم ملأت الصحف،

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) آل عمران: ١٨٠.

تارة بلسان الأمر بالسخاء وحب أهله، وتارة بلسان الثناء على ذوي السخاء وذم البخلاء، وتارة بأنّ أهل السخاء قريبون من رحمة الله ومن الجنة والناس، وبعكس ذلك البخلاء.

الرابع: الصدق:

لعلّ من أبرز مظاهر العدالة الكونية، في عالم الجماد وعالم الحياة، وفي كل ما يتصل بطبيعة الوجود وخصائص الموجودات هو الصدق، الخالص المطلق.

فعلى الصدق مدارُ الأرض والفلك والليل والنهار.

وبالصدق وحده تتلاحق الفصول الأربعة ويسقط المطر وتسطع الشمس.

وبه كذلك تفي الأرض بوعدها حين تُنبت ما عليها كلاً في حينه لا تقديم ولا تأخير، وبه تقوم نواميس الطبيعة وقوانين الحياة، والريح لا تجري إلاّ صادقة، والدماء لا تطوف العروقَ إلاّ بصدق، والأبناء لا يولدون إلاّ بقانون صادق أمين.

هذا الصدق الخالص المطلق الذي تدور عليه قاعدةُ البقاء، هو الينبوع الأوّل والأكبر الذي تجرى منه عدالة الكون وعليه تعود.

الصدق مع الذات، ومع كل موجود مادّي أو معنوي، هو المحور الذي يدور عليه التهذيب، كما رأيناه محور العدالة الكونية.

وبذلك ينتفي من التهذيب السليم كثير من القواعد التي تواطأ عليها البشر دونما نظر في نواميس الوجود الكبرى، وهم يحسبون أنها قواعد تهذيبيّة لمجرد اتفاقهم عليها.

وبذلك أيضاً ينتفي من التهذيب السليم كل ما يخالف روحَ الحق وروح الخير وروح الجمال.

والتهذيب على غير أصوله الكبرى تواطؤ سطحيّ على الكذب القبيح، وهو على أصوله البعيدة إحساسٌ عميق بالصدق الجميل، ممّا يجعله اندماجاً خالصاً بثوريَة الحياة الجارية الفاتحة.

نصّ القانون الإسلامي على الصدق:

الصدق ضد الكذب، وهو من صفات الأقوال، ويتصف به اللسان لأنه آلة النطق، فيقال: لسان صادق، وصادق اللهجة، وصادق القول.

والحق في معنى الصدق أنه الكلام الصادر عن علم بوقوع مؤداه، والكذب هو الكلام الصادر بدون علم، فكل من أخبر بشيء مطابقاً لعلمه كان صادقاً، وإن لم يكن ذلك الشيء كما علم به وأخبر عنه.

وكل من أخبر بشيء بدون علم به كان كاذباً، وان كان ذلك الشيء كما أخبر به.

وقيل: معنى الصدق ما طابق الواقع، والكذب ما لا يطابق الواقع، وقيل: غير ذلك والحق ما قلناه.

الصدق حسن في حدّ ذاته بحكم العقل والعقلاء، والكذب قبيح في حدّ ذاته بحكم العقل والعقلاء.

الصدق روح الكلام وحياته السارية، وعينه الباصرة، وأذنه الواعية.

الصدق في الكلام يرفعه إلى أوج الكرامة، ويعطيه صفة البلاغة، وإن كان خالياً عنها.

والكذب آفة الكلام وبه يبلغ مراتب الإنحطاط، وإن كان بليغاً في حدّ ذاته.

الصدق في القانون الإسلامي واجب، والكذب حرام، وقد مدح الله الصادقين فقال سبحانه:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.[(١)]

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾.[(٢)]

وقال سبحانه مرشداً لعباده في مقام الحيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.[(٣)]

أي اتبعوا الصادقين وكونوا معهم أينما كانوا، فإن ذلك بعد شكر الله وتقواه سبب السعادة.

وقال سبحانه معلماً لعباده وخاصته من رسله إبراهيم الخليل عليه السلام:

﴿وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.[(٤)]

ولا نرتاب بأنه لو ساد الصدق في العالم الإنساني، إنسدّت أبواب الفساد، فلا غش ولا نميمة ولا سرقة، ولا عدوان ولا احتيال، ولا خيانة ولا بغي ولا رياء، ولا قطيعة ولا انتقام، ولا يكون شيء من أسباب الشقاء والهلكة في العالم الإنساني؛ لأنّ جميع الصفات الخسيسة يأبى الإنسان أن يتصف بها، فلو كان الصدق ضرورياً في طبع الإنسان بحيث يمتنع منه الكذب، كان من المستحيل صدور الأعمال الخسيسة منه؛ لأن طبعه يأباها ولا يمكنه الكذب لو سئل عن صدورها منه إذا نسب إليه فعلها، فلا ينقاد إلى شهواته ولا ينهمك في لذاته، ألا ترى أنه لو كان يُكتب بين عيني السارق سارق، وبين عيني المنافق منافق، وهكذا لم يكن في العالم سارق ولا منافق مثلاً.

---

(١) مريم: ٥٤.

(٢) مريم: ٤١.

(٣) التوبة: ١١٩.

(٤) الشعراء: ٨٤.

وقد نقل أنه جاء رجل إلى نبينا محمّد ﷺ فأسلم على يديه بعد أن بيّن أنه يرتكب أموراً ثلاثة: السرقة وشرب الخمر والكذب، وأنه لا يقدر على ترك الثلاثة دفعة واحدة، فقال له النبي ﷺ: أترك الكذب ففيه كفاية. فخرج مسروراً بذلك، ولما توجّه على عادته إلى سرقة أموال العباد، تفكر في أنه لو سئل بماذا يجيب فإن صدق في قوله قطعت يده، وإن كذب فقد خالف عهده مع النبي ﷺ، فرجع من حيث جاء، وكذلك حاله حين توجه لشرب الخمر حيث دار أمره بين الجلد أو خالف العهد، فامتنع عن فعله، ولما أصبح رجع إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله قد منعتني من الثلاثة حيث منعتني من الكذب، وقصّ عليه ما كان من أمره، فوعظه النبي بما أثبت في قلبه دعائم الإيمان حتّى كان ذلك الرجل من خيار الصحابة.

الخامس: الصبر:

غرس الإسلام مما غرس، الصبر في قلوب أبنائه، وكان الناس في الجاهلية إذا مات لهم عزيز شقّوا الجيوب ولطموا الخدود، ودعوا بدعاء الجاهلية، فجاء الإسلام محرماً لكل هذا، وبشر الصابرين بالأجر العظيم فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] وسمع الناس قوله تعالى في حق الصابرين: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[2].

وقد حث الله عباده على التثبت عند نزول النوائب والشدة والمصائب، وبيّن لهم بطرق الإشارة أن كل بلاء أصاب الإنسان وأن عظم ففوقه ما هو أعظم

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) البقرة: ١٥٧.

منه، فمن سلّم أمره لله ورضي بقضائه وقدره، وترك الجزع وقال ما يرضي الله، فلم يخمش وجهاً ولم يشق جيباً نال أجر الصابرين، وفاز مع الفائزين.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.(١)

والصبر من خواص الإنسان ولا يتصور حصوله من البهائم؛ لأنها ناقصة، ولا يتصور أيضاً من الملائكة لأنهم ليسوا مشغولين بشهوة تصرفهم عن خدمة من خلقهم، وتمنعهم عن الإستغراق في ملكوت حضرته.

وأما الإنسان فإنه في صباه بمنزلة البهيمة ليس له إلاّ شهوة الغذاء، ثمّ شهوة النكاح، لكنه إذا بلغ الحلُم حصل له مع الشهوة الباعثة على اللذات العاجلة، عقل يدعوه إلى الإعراض عنها والإقبال على تحصيل السعادات الباقية، فيصير واقفاً بين داعية العقل وداعية الشهوة، وبينهما ضدّية ونفور هو الذي يسمى صبراً.

وقد خلق الله للملائكة عقولاً بلا شهوات، وخلق البهائم بشهوات بلا عقول.

وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة.

ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم.

فإن قيل: أي الصبرين أحب إلى الله، صبر من يصبر على أوامره، أم صبر من يصبر على محارمه؟ قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس، فقالت طائفة الصبر عن المخالفات؛ لأنه أشق وأصعب، فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يصبر على المخالفات إلاّ الصديقون، والصبر على

---

(١) البقرة: ١٥٦.

المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شيء وأفضله، فالمروءة والفتوة كلها في الصبر، والفتوة ترك ما تهوى لما يخشى، فمروءة العبد وقدرته بحسب هذا الصبر.

أما الصبر مع الله تعالى فهو ثبات القلب بالإستقامة معه وهو ألا يروغ عنه روغان الثعلب هاهنا وهاهنا. فحقيقة هذا هو الإستقامة إليه وعكوف القلب عليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾.[2]

والعبد إذا كان لله هان عليه كل شيء، ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلاً، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه كان لقلبه وروحه وجود آخر، وشأن آخر غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق، وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيماً وقرة عين.

ومن حسن التوفيق وإمارات السعادة الصبر على الملمّات والرفق عند النوازل، وبه نزل الكتاب وجاءت به السنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] وفي الحديث: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وليس لمن قلّ صبره على طاعته حظ من بر ولا نصيب من صلاح، ومن لم يرَ لنفسه صبراً يكسبها ثواباً، ويدفع عنها عقاباً كان مع سوء الإختيار بعيداً عن الرشاد، حقيقياً بالضلال، وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

أراك امرءاً ترجو من الله عفوه ... وأنت على ما لا يحبّ مقيمُ

تدل على التقوى وأنت مقصّر ... فيا من يداوي الناس وهو سقيمُ

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) الزمر: ١٠.

وبالتالي، الصبر حبس النفس، وله معنى واسع باعتبار ما يقع عليه، فتارة يصبر الإنسان على امتثال أمر الله ونهيه، فيفعل ما أمره الله به صابراً على ما يلحقه من التعب والنصب، ويترك ما نهاه الله عنه صابراً على ترك شهواته وملذّاته، وتارة يصبر على البلاء في جسمه من مرض أو ألم جراحة أو نحو ذلك، وتارة يصبر على ما يكابده من فقره وضيق معاشه، وتارة يصبر على ما يلحقه من ظلم ظالم له في ماله أو عرضه، وتارة يصبر على هضم حق له بقول أو فعل، وتارة يصبر على فقد قريب أو صديق له، وتارة يصبر على فقد إحدى حواسه أو أحد أعضائه، وتارة يصبر على فقد الكمالات النفسية والمعارف العلمية، فهذه أقسام ثمانية تصورناها للصبر، ويمكن تصوّر الصبر على غيرها، إلاّ أنه يرجع لدى الحقيقة والبرهان إليها، والصبر في محله حسن بجميع أقسامه...

يقول المؤلف حسن السيد علي القبانچي: قد مرّ الحديث عن الصبر في المجلد الأوّل من هذا الكتاب فراجعه. فلا حاجة إلى الإعادة.[١]

السادس: التوكل على الله تعالى:

نصّ القانون الإسلامي على التوكل في جميع الأمور على الله، وهو السبب لتحقيق الرضا والتسليم، وأثره ترك الجشع والعدوان، فهو من مكارم الأخلاق.

التوكل هو إظهار العجز والإنقطاع إلى من يتوكل عليه، فإذا أظهر الإنسان عجزه عن فعل من الأفعال لإنسان مثله وانقطع إليه، كان متوكلاً عليه، ولا ريب في أنه يسعى له في قضاء فعله، إذا كان ذلك الفعل تحت قدرته، وكانت صفات

---

(١) راجع ج ١/ الحديث رقم (٤)/ ص ١١٣.

الإنسانية كاملة في ذلك الإنسان، وإن لم يكن تحت قدرته يعتذر إليه، ولم يكن ذلك الإتكال مصادفاً لمحله.

أما التوكل على الله سبحانه القادر على كل شيء، المنزّه عن ظلم عباده لإستغنائه عنهم وقدرته عليهم، والظلم من شأن المحتاج الضعيف، فإنّ العقل السليم حاكم برجحانه.

وإنّ التوكل على الله وإن لم يرد به نص من الله في كتابه الكريم، فهو لازم على الإنسان؛ لأن وظيفة العبد الإتكال على مولاه في تدبير أموره، فالإنسان يتوجه بحسب إرادته ورغبته إلى ما يرتضيه من الأعمال، ويسعى بمقدار قدرته وهو متوكل على الله في نجاح سعيه وإتمام عمله، فإن كان صلاحه في إتمامه أقدره الله عليه وإلاّ رجع عنه بعد أن كان تحت قدرته وفي قبضته بحسب ما يراه، وربما أنه يرى أن لا يمنعه منه أحد، فإذا رجع عنه قد يظهر له بلا مهلة عدم حسن ذلك الفعل، ويمكن ظهوره بعد زمان طويل، كما يمكن استمرار جهله بحسنه وعدمه، فالعارف بالله المؤمن به لا يتكل على إنسان مثله في قضاء عمل له، نعم، له أن يطلب منه قضاءه وهو متوكل على الله بأن يقدره عليه بتوسط ذلك الإنسان أو غيره من العباد، وهذا الذي ينطبق عليه نص القانون الإسلامي، وهو الذي ساعد عليه الوجدان والنص، قال سبحانه: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾.[1]

هذه الآية صريحة بالنهي منه سبحانه لعباده عن الإتكال والإعتماد في شيء من أمورهم على أحد من العباد، إذ لا يمكن أن يقضي أحد حاجة أحد إلاّ بالإقدار والتوفيق من الله سبحانه، فالذي يحسن أن يتخذه الإنسان وكيلاً ومعتمداً

---

(١) الإسراء: ٢.

هو الله، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.(١)

أي من يعتمد على الله في أموره فالله يكفيه ولا يلجؤه إلى أحد سواه. وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.(٢)

إنّ في هذه الآية الشريفة لمن تدبرها وعرف المراد منها، نعمة نفسية وحياة قلبية يكفيانه في الحياة الدنيوية، وفيها الكفاية في باب التوكل، تعطيك هذه الآية معنى التوكل بجوهره، وتعرب لك عن لبانه؛ لأنه بكل صراحه نصّها ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ولم يكن نصها وعلى الله فليتوكل العباد أو الإنسان أو العقلاء، فالمتوكلون جمع واحده متوكل،وهو هنا بمعنى المتيقن فهو عبارة عن المتوكل على الله عن يقين ثابت، وهو التوكل على الله حق توكله، وذلك بأن يجزم بأن كل رزق وعطاء ونعمة وسعادة من الله سبحانه، ثم يسعى في الطلب على الوجه الجميل بحيث يخاف من الله وحده ولا يطمع في أحد سواه، وربما يتوهّم البسطاء أنّ التوكل على الله هو عبارة عن ترك التكسب والسعي في أمر المعاش، وهذا توهّم فاسد، وتفسير قد منع الشارع منه.

ومن التدبّر في الآيات الربانية والآثار الوجدانية، تعلم بأن التوكل له مراتب، فأضعفه ما كان توكلاً بسيطاً لا يقين معه، وأرقى منه ما كان معه يقين يتخلله الشك في موارد التوكل، والمرتبة العليا هي التوكل على الله عن يقين ثابت بحيث لا يعترضه الشكّ في موارد التوكل، وهذا القسم هو المراد من هذه الآية الشريفة، ولا ينافي هذا القسم فضلاً عما تقدمّه أن يكون لمن توكل على الله في أموره حق التوكل سعي تام وحركة عقلائية وأسباب عادية للتوصل إلى

(١) الأنفال: ٤٩.

(٢) إبراهيم: ١٢.

مطلوبه؛ لأن الله سبحانه أمر بالسعي وجعل لكل شيء سبباً، فإذا كان كذلك في أحواله كان جارياً على ما هو تكليفه وتحت قدرته.

روي في (الكافي):[١] عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يردّه كراهية كاره، ولو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت»، ثمّ قال عليه السلام: «إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط».

ونحن وكل مؤمن عرف حقيقة الإيمان، لا نرتاب بأن حسن اليقين بالله والإتكال عليه من كمال الإيمان، وفيه ما فيه من التسليم والرضا، وهما السبب في ارتياح النفس واطمئنانها، وتجردها عن البغي والجشع، وهيهات هيهات بعد تحقق هذه المرتبة الأخلاقية أن ينازع الإنسان من فوقه بالمعصية، أو من يساويه ومن دونه بالغلبة، وفي ذلك سلامة الإنسان في أكوانه من العبث والفساد والظلم والإلحاد، وبذلك ينال السعادة في الدارين، ولذلك حسن اندراج التوكل على الله تحت عنوان مكارم الأخلاق.

ورد في تفسير (مواهب الرحمن) للحجة السيد عبد الأعلى السبزواري، (مج ٧ ص ١٧):

التوكل فضيلة من الفضائل السامية، وخلق كريم من مكارم الأخلاق، وخصلة جميلة، ومنزل شريف من منازل الإيمان، ومقام رفيع

---

(١) الكافي ٢: ٥٧/ باب فضل اليقين/ ح ٢.

من مقامات الموقنين؛ بل أفضل مقامات الإنسانية الكاملة.

به يظهر المؤمن صدق إيمانه وثبات اعتقاده، ويجتمع فيه كثير من الفضائل والخصال الحميدة.

فهو قرين الصدق والعز والاستعانة بالله العظيم وغيرها.

وبه ينتظم العلم والحال والعمل. وكفى به فضلاً ومنقبة إن الله تعالى يحب المتوكلين، وهو من أخلاق الأنبياء العظام، ولمكانته السامية فقد أمر به ﷻ نبيّه الكريم ﷺ بالتحلّي به في عدة مواطن من كتابه الكريم، وقد ورد في فضل التوكل ومدحه والترغيب إليه من الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة الشيء الكثير، ونحن نذكر في هذا البحث ما ورد في التوكل من الفضل، ومعنى التوكل، وحقيقته، وشروطه وآثاره.

فضل التوكل:

قد ورد في مدح التوكل وفضله والترغيب إليه، والحث على التحلي به في الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة ما يبهر منه العقول.

التوكل في الكتاب الكريم:

وردت مادة (توكل) في القرآن المجيد على ما يناهز السبعين موضعاً، وغالب استعمالاتها تدل على مدحه والترغيب إليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٠)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقد ورد قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠)، في عدة مواضع، وكذا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ١٢)، وقال تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣)، ويستفاد منه إن الإيمان منوط بالتوكل، وقال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى: ٣٦).

وهذه الآيات المباركة تبين حقيقة التوكل على ما ستعرف.

ويستفاد من الآيات الواردة في شأن الأنبياء أن التوكل كان من سيرتهم، وأنه فضيلة مشتركة بينهم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام والذي معه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤)، وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: ٦٧)، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس آية: ٨٤ و٨٥)، وقال تعالى حكاية عن شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف: ٨٩)، وقال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦)، وقال تعالى حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (يونس: ٧١).

وقد تحدّث سبحانه وتعالى عن جمع من الرسل عليهم السلام وحكى عن

شأنهم، وذكر أن التوكل من عمدة صفاتهم ومن سيرتهم، وهو والصبر قرينان لديهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ١١ و١٢) ويكفي في فضله إن الله تعالى قد أمر به نبيّه الكريم ﷺ في مواضع كثيرة من كتابه الكريم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء: ٨١).

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

والمستفاد من جميع ذلك أن التوكل فضيلة سامية، وأنه من أعلى مقامات التوحيد، وهو يدل على كمال إيمان المؤمنين، ولذا كان من صفات الأنبياء الكرام والمؤمنين المخلصين؛ بل هو توحيد عملي يكشف عن درجة الإيمان وشدة اعتمادهم على الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢)، ويستفاد منه أن التوكل أجلى برهان وأحكم علامة على ثبات عقيدة المؤمن ورسوخ التوحيد في قلبه؛ لأنه لا يرى لغيره ﷻ سلطة وشأناً، فهو خاضع له يطلب منه وحده تهيئة الأسباب وتدبيرها، قال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

التوكل في السُنَة الشريفة:

وردت أحاديث كثيرة عن نبينا الأعظم ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام تدل على فضل التوكل على الله وجميعها ـ سواء القولية والفعلية ـ تحكي سيرتهم التي تدل على شدة اعتمادهم على الله تعالى وتفويضهم الأمر إليه، وتحريض الناس عليه ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها».

وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وقال ﷺ: «من سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده».

وروي عن الصادق عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى داود: ما اعتصم عبد من عبادي بي من خلقي عرفت ذلك من نيته ثمّ تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلاّ جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلاّ قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه وأسخت الأرض من تحته ولم أبالِ بأي وادٍ هلك».

وعنه عليه السلام: «إن الغنى والعز يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا».

وعن الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] وقال: «التوكل على الله على درجات منها أن تتوكل على الله

---

(١) الطلاق: ٣.

في أمورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه وثِق به وفي غيرها».

وقال الصادق عليه السلام: «من أعطي ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً: من أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية»، ثمّ قال: «أتلوت كتاب الله عز وجل؟ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]». إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الدالة على فضل التوكل ومدحه والترغيب إليه، وانه خلق كريم يجب على المؤمن التحلي به، ويدل عليه العقل أيضاً.

معنى التوكل:

التوكل مشتق من الوكالة، يقال وكّل فلان الأمر إلى غيره، أي فوّضه إليه واكتفى به لاعتماده عليه إنه ينجزه ووثق به، ويسمّى المفوَّض إليه متّكلاً ومتوكلاً عليه، وأما الوكيل فإنه (فعيل) يأتي بمعنى المفعول، وهو الذي يوكَل الأمر إليه أو موكول إليه الأمر، ويأتي بمعنى الفاعل فيكون بمعنى الحافظ والناصر والرقيب والمطلع؛ لأنه الذي يرعى الأمور ويحفظها ويتعهدها، وينصر من يركن إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، لأنه هو الذي يتعهد الأمور التي وكلت إليه من عباده وناصره وحافظه، والاسم التكلان (بضم التاء)

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) غافر: ٦٠.

وإذا رجعنا إلى اللغة نرى أن التوكل تارة يطلق ويراد منه التولي للغير، يقال توكلت لفلان إذا صرت وكيلاً منه وتوليت له، ومنه الوكالة (بفتح الواو) أو (بالكسر على لغة) وهي الوكالة المعروفة في الفقه.

ويطلق أخرى ويراد به الاعتماد على الغير والوثوق به، والتوكل على الله تعالى هو تفويض الأمر إليه ﷻ والاكتفاء به، ويشبه التوكل التفويض من هذه الجهة، فهما يشتركان في تسليم الأمر إليه ﷻ قال تعالى حكاية عن شعيب: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ (غافر: ٤٤)، أي أسلم الأمور إليه ﷻ فهو الذي يكفيكها، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهم إني أسلمت نفسي وفوضت أمري إليك» لكن التوكل يزيد على التفويض في أنه يتضمن طلب النصرة منه والوثوق بأنه ينجزها ويحفظ من يكِل إليه أمره والرضاء بفعل الله ﷻ بعد الاعتراف بالعجز والقصور أمام عظمته وكبريائه.

حقيقة التوكل:

التوكل على الله تعالى هو الاعتماد عليه ﷻ قلباً، واطمئنان النفس به والوثوق بأنه لم يهمله بعد الاعتراف بعجز الإنسان أمام قدرته وعلمه واحاطته وقيموميته، والاعتماد بأنه تعالى هو الفاعل لا غيره وأن لا رب غيره، فيعلم علماً قطعياً بأنه لا حول ﴿وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾،[1] يضع الأشياء في مواضعها بحكمته، وهو القادر على كل شيء في السماوات والأرض.

---

(١) الكهف: ١٩.

ومن ذلك يظهر السر في ذكره ﷻ العزة والحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] لأن الاعتقاد بأنه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، وعزيز قادر لا يمتنع عليه شيء إذا أراد فلا محالة يذعن المؤمن بأنه تعالى ناصره ومعينه وهو حسبه وكافيه، ويحصل له الاعتقاد بأن كل ما يسوقه إليه ربه هو طيب وكريم وحسن وخير، ويعتمد عليه في جميع أموره، وتحصل الثقة بالله العظيم فيتوكل عليه ﷻ.

فالتوكل إنما هو ارتباط عالم الشهادة المتناهية من كل جهة بعالم الغيب غير المتناهي كذلك، ولذا نرى أنه والتوحيد قرينان لا يتحقق أحدهما من دون الآخر، فمن لا توحيد له لا توكل له، ومن لا توكل له لا إيمان له، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2] بل يمكن أن يقال بأن التوكل طريق لمعرفة إيمان المؤمن؛ بل هو محقق له لأنه لا يرى لغير الله تعالى أثراً، فالجميع مسخّر تحت إرادته وإنما جعل لها نظاماً معيناً أقام أمور العالم به فتجري وفق قانون الأسباب والمسببات خاضعة له لا تتخلف عنه.

إلاّ أنها عاجزة عن أي نفع وضرر، لأنها لا تفعل شيئاً إلاّ بإرادته ومشيته ﷻ، والمؤمن يذعن بهذا النظام الذي أقام الله تعالى هذا العالم به، ويطلب كل شيء من طريق سببه ويعمل، ويكافح على إيجاد الأسباب الظاهرية المنوطة بها المسببات، ويطلبها وفق ما أمره الله تعالى طلباً تكوينياً أو تشريعياً، ولكنه يعترف بالعجز أمام قدرة الله تعالى، ويذعن بالجهل أمام المقادير التي قدرها ﷻ، ويعلم بأن الأسباب الظاهرية التي عمل لأجلها شيء، والمقادير والقضاء والقدر والأسباب الخفية التي

---

(١) الأنفال: ٤٩.

(٢) المائدة: ٢٣.

يجهلها شيء آخر، وجميعها خاضعة له ﷻ مسخرة أمام إرادته ومشيته، وهو عاجز عنها فيوكل أمره إليه معتقداً بأنه حسبه وناصره ومعينه.

ومن جميع ذلك يعلم بأن التوكل لا ينافي الأسباب الظاهرية، بل الاعتقاد بها والعمل عليها من جملة أساسيات فضيلة التوكل، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى: ٣٦).

ويستفاد من هذه الآية الشريفة أمران:

الأوّل: إن الإنسان لا يمكن له التغاضي عن متاع الحياة الدنيا الذي هو من نِعَم الله تعالى عليه، فهو الذي يقضي به مآربه ويحقق مقاصده ويعيش عليه في هذه الحياة الدنيا، وأما ما عند الله فهو خير من هذا المتاع القليل في الكميّة والكيفية، وإنما جعل الله هذه الدنيا وسيلة لنيل ما هو أعظم منها، ولا يمكن تحصيل هذا المتاع إلاّ باسباب خاصة معروفة يجري عليها نظام هذا العالم، فالتوكل على الله تعالى والاعتماد على الأسباب الظاهرية قرينان؛ بل هي من طرق تحصيل التوكل عليه ﷻ كما عرفت، ويدلّ عليه قوله ﷺ: «إعقلها وتوكل».[1]

الثاني: إن التوكل من شروط الإيمان الصحيح؛ بل هو من أعلى مقامات التوحيد، فإنه التوحيد العملي الذي اعتنى به الله تعالى في كتابه الكريم، واهتم به الأنبياء والمرسلون، فهو يبين الجانب العملي في الإيمان، لأن التوكل وظيفة من وظائف القلب، فإن به تطمئن النفس ويسكن القلب، وبه يدخل المؤمن تحت الآية المباركة: ﴿يا أَيَّتُها النَّفْسُ

---

(١) مشكاة الأنوار: ٥٥١.

الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٣٠).

وبالجملة: لما كان هذا العالم متقوماً بالأسباب والمسببات الطولية والعرضية ولا بدّ من انتهاء تلك إلى سبب غيبي وربوبية عظمى لا يعقل فوقها ربوبية وقيمومية كبرى ليس وراءها قيم أصلاً، فيكون الجميع مسخراً تحت إرادته ومشيته التامة، فلا الماديات تعوق مشيته ولا التكثرات تمتنع قهاريته، ولا ريب في تحقق ما ذكر في هذا النظام الأحسن، وآثار عظمته وإبداعه ووحدانيته ظاهرة في كل شيء، والتوحيد عبارة عن الاعتقاد بهذه الحقيقة، والتوكل هو الاعتماد على مدبر هذا العالم وخالقه وصانعه، فان طابق الاعتقاد مع الواقع على ما هو عليه تتجلّى حقيقة التوكل وإلاّ فلا توكل.

ومن ذلك يظهر السر في ما ورد عن الأئمّة عليهم السلام: «إن قول القائل لولا أن فلاناً لهلكت شرك»، قيل له عليه السلام: فكيف نقول؟ قال عليه السلام: «تقول لولا أن منّ الله عليّ بفلان لهلكت» كما يظهر السر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، فالتوكل الحقيقي هو الاعتقاد باستناد الكل إليه عزّ وجلّ، وانبعاث الجميع منه تعالى، ويستلزم ذلك الاعتقاد بتسبب الأسباب والسعي في تحصيلها، فإنّ التوكل بدون ذلك لا ثمرة فيه بل هو لغو وباطل، فترجع حقيقة التوكل إلى إرجاع الأمور ـ لا يتعلق بها عقولنا من تحصيل المقتضيات ـ إلى الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب ومسهل الأمور الصعاب.

ومن ذلك كله يظهر أن التوكل عنوان التوحيد وهو داع إليه، فهما متلازمان، وبه ينتظم حال الإنسان وعلمه وعمله، وبما ذكرناه يرتفع الغموض من

حيث أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتباعد عنها خلاف طريقة العقل والشرع، والتوكل يرفع الغموض والعسر عن ذلك كله.

شروط التوكل:

للتوكل على الله تعالى شروط لا يتحقق إلاّ بها، تظهر من التمعن في ما ذكرناه في حقيقة التوكل وهي:

الأوّل: الاعتقاد بالله تعالى وأنه الرب القيوم المدبر لجميع ما سواه، وإنه العزيز لا يمنعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها وفق إرادة وعلم بجميع الخصوصيات.

الثاني: الاعتقاد بأنه لا فاعل في هذا العالم إلاّ الله تعالى، وأن ما سواه مربوب له ومقهور تحت قهاريّته العظمى، فهو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الثالث: الإذعان بأن هذا العالم ينتظم بقانون خاص لا يمكن التخلف فيه، وأن الله تعالى هو الذي جعل هذا القانون ـ وهو قانون الأسباب والمسبّبات ـ، ولا يمكن فيه التغيير والتبديل ولا التخطّي عنه.

الرابع: تحصيل الأسباب والمعدات والمقتضيات التي تقع تحت تصرف الإنسان والسعي في تهيئتها واعدادها، وأما غيرها من الأمور الخفية التي لا يعلمها إلاّ الله تعالى فلا بدّ من الرجوع فيها إليه تعالى والتضرع لديه في تحقيقها كما عرفت.

الخامس: حسن الظن بالله تعالى واستسلام القلب له ﷻ والخضوع لديه في رفع الموانع والعوائق في ترتب النتيجة على المقدمات والمسبب على الأسباب.

السادس: أن يكون التوكل على من يكون قادراً على جميع الأمور ومستجمعاً لجميع الشرائط، وهو ينحصر في الله تعالى، قال ﷻ في عدة موارد من كتابه الكريم: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الأحزاب: ٣)، وقال تعالى محكياً عن المؤمنين: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، فينحصر التوكل عليه ﷻ قال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء: ٧١).

السابع: تفويض الأمر إلى الله تعالى وتوكيله في جميع الأمور والشؤون، فإنه القادر على تحقيقها يضعها وفق حكمته المتعالية؛ لأنه العالم بحقائق الأمور وجميع خصوصياتها.

وإذا تحققت جميع هذه الشروط، تحصل للإنسان راحة نفسية واطمئنان قلبي، فتحصل له حالة التوكل عليه ﷻ، ويدخل في زمرة المتوكلين الذي يحبهم الله تعالى، كما ورد في جملة من الآيات الشريفة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

درجات التوكل:

للتوكل درجات ومنازل تختلف حسب شدة اليقين وضعفه، وحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلّتها وهي:

الأولى: أن يكون المتوكل على درجة كبيرة من اليقين والثبات في العقيدة والخضوع والطاعة لله تعالى بحيث لا يرى شيئاً إلا يرى الله تعالى معه، يثق بكرمه وعنايته.

ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكل خاص الخاص، وفي

هذا المنزل يفوض المتوكل جميع أموره إلى الله تعالى، ويرضى بحكمه فيكون بين يديه تعالى كالميت الملقى بين يدي الغاسل، ولعلّ الآية المباركة تشير إلى هذه الدرجة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق: ٣)، فان من اتقى الله تعالى ووثق به ﷻ وتوكل في جميع أموره عليه ﷻ اطمأنت نفسه بأن الله ناصره وهو حسبه، وهذه المرتبة عزيزة الوجود في الناس تختص بالأنبياء وأولياء الله تعالى المخلصين له، وقد حكى الله جلّ شأنه عن الأنبياء والمرسلين في كتابه الكريم ما يشهد لذلك.

الثانية: أن لا يكون على الدرجة من اليقين والثبات في العقيدة والاطمئنان بما قسمه الله تعالى لعباده، ولكن يعتمد في أموره على الله تبارك وتعالى، يفزع إليه ويعتمد عليه ولا يترك الدعاء والتضرع في كل مسألة وأمر، مثل الصبي الذي يفزع إلى أمّه ويتعلق بها، وقد فنى في أمّه ولا يرى غيرها، وفي هذه الحالة يفني المتوكل في الموكل عليه ولا يلاحظ الواسطة، ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكل الخواص.

وتفترق هذه الدرجة عن الدرجة السابقة في أن المتوكل في الأولى لا يرى شيئاً إلاّ الله تعالى قد وثق بكرمه ولطفه وعنايته، فربما يترك الدعاء والمسألة وثوقاً منه ﷻ في قضاء الحوائج كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» وفي هذه الدرجة لا يترك الدعاء والمسألة والتضرع، وإلى هذه الدرجة يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، فقد توكلوا في جميع أمورهم عليه ﷻ وأفنوا جميع حيثياته في حيثياتهم في الله تعالى وقد أعرضوا عن غيره.

الثالثة: أن يكون كثير الاعتناء بالأسباب، فيرى التدبير والاختيار في تهيئة

الأمور الأثر الكبير، ولكن لا يترك التوكل عليه ﷻ وهو يعتمد على توكله ويلتفت إليه دائماً في أموره، لا يغض النظر عنه، وهذا هو الشغل الصارف عن الموكل إليه، ولأجل ذلك اختلفت هذه الدرجة عن سابقتها في أن المتوكلين في الدرجة الثانية يعتمدون على المتوكل عليه وحده كما يعتمد على التضرع لديه بالدعاء والإبتهال إليه ﷻ، وإلى هذه الدرجة يشير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠) وتختلف أيضاً عن السابقة في أن هذه الحالة قد تدوم أياماً كثيرة أو في جميع الحالات لدى المؤمنين، بينما في الدرجة الثانية لا تدوم إلاّ أياماً قليلة.

وقد عبّر بعض العلماء رحمهم الله عن هذه الدرجة بتوكل العامي، وربما يكون توكلهم في جميع الأمور وربما يكون في بعضها.

وبالجملة: إن درجات التوكل تختلف باختلاف قوة الإيمان بالله ﷻ والاعتقاد به تعالى وتفويض الأمور إليه والتسليم بقضائه وقدره، والرضا بما قسمه على عباده، كما أنها تختلف باختلاف تفويض جميع الأمور أو بعضها، وشدة الاعتماد على الأسباب، وقوة الاعتقاد بها.

آثار التوكل:

إذا حصل التوكل على الله تعالى فإنه يخلف آثاراً كبيرة على المتوكل، نحن نذكر بعضاً منها:

الأوّل: التوكل يحقق معنى الإيمان ويزيد فيه ويثبت دعائمه في المؤمن ويثبت عقيدة التوحيد في قلبه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

الثاني: التوكل سبب على النصر والفوز بالمراد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣).

الثالث: التوكل يفتح أمام صاحبه طريقاً إلى الجنّة فيدخل ويرزق فيها بغير حساب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٩).

الرابع: إن التوكل يورث محبة الله تعالى والرضاء الإلهي للمتوكل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكفى بذلك فخراً.

الخامس: التوكل يجعل كل ما يسوقه الله تعالى إلى العبد حسناً طيباً وخيراً.

السادس: التوكل يورث الإطمئنان في قلب المتوكل والراحة في نفسه.

هذا موجز ما أردنا أن نذكره في هذه الفضيلة الكبيرة، وهو غيض من فيض، فان كل ما يقال في هذا الخلق الكريم قليل وكفى بذلك داعياً في التخلق بهذه الفضيلة والمسارعة إلى هذا الخير العظيم.

السابع: الشكر:

قد مرّ موضوع الشكر في المجلد الأوّل من هذا الكتاب فلا حاجة للإعادة.[1]

الثامن: الصفح:

وقد مرّ البحث عن الصفح في المجلد الأوّل من هذا الكتاب فلا نحتاج أن نعود إليه.[2]

---

(١) راجع ج ١/ الحديث رقم (١٣)/ ص ٥٧١.

(٢) راجع ج ١/ الحديث رقم (١١)/ ص ٥١٥.

التاسع: حفظ الأمانة:

الأمانة تتحقق بائتمان شيء من أحد الناس عند آخر برضاهما، بلا فرق بين كون الشيء من الأعيان أو غيرها.

الأمانة العينية لها أقسام:

الأوّل: الأمانة العينية المنقولة، وهذه إنما تكون أمانة بتسليمها من مالكها أو وليّه أو وكيله إلى شخص آخر، ومصداقها أحد الحيوانات المملوكة، والأمتعة والنقود وما أشبه ذلك.

الثاني: الأمانة العينية غير المنقولة، كالأرض والأشجار والبناء ونحو ذلك، وهذه يصدق كونها أمانة بتسليط مالكها أو وليه أو وكيله لشخص آخر على التصرف فيها، وتسمى الأمانة في هذين القسمين أمانة مالكية شرعاً؛ لأن المالك بنفسه أو بوليّه أو بوكيله جعلها أمانة عند شخص آخر.

الثالث: الأمانة الشرعية شرعاً، وتتحقق بوجود أحد الأعيان بلا فرق بين المنقولة وغيرها تحت يد أحد بلا إذن من المالك أو وليّه أو وكيله، كما في الأعيان الملتقطة ونحوها، فإذا وُجدت تحت يد أحد يأمره الله سبحانه بحفظها وأدائها إلى مالكها، فكأنه هو سبحانه أمّنها عند من وُجدت تحت يده، فلذلك سُمّيت أمانة شرعية، نسبة إليه سبحانه؛ لأنه هو أسّس الأحكام وشرّعها.

الأمانة من غير الأعيان:

يتحقق الإئتمان على غير الأعيان بلا شبهة في صدق الأمانة عليه، ولها أقسام:

الأوّل: العهود والنذورات والأيمان الصحيحة الصادرة من أهلها

في محلّها على فعل شيء أو تركه، لا ريب في كونها أمانة عند من صدرت منه، فمن عاهد الله سبحانه أن يعين الفقراء، أو يترك ظلم العباد، كان ذلك العهد أمانة لله سبحانه عنده حتى يفي به، ومن نذر أن يفعل خيراً أو يترك شراً فكذلك حكمه عقلاً وشرعاً، وكلها من باب الأمانة، وربما كانت أعظم من الأمانة العينية.

الثاني: الأمانة في الحديث الذي يمكن إبداؤه:

الحديث أمانة عند من سمعه، فإن كلّفه من حدّثه به بنقله لأحد وقبله على نحو الإيصال إليه كان أمانة عنده إلى أن يوصله كما تحمّله بما له من المقدمات والخصوصيات بلا زيادة ولا نقيصة، وإن أخلّ بشيء منه كان خلاف الأمانة، نعم إذا كان ممن يُحسن النقل والتصرف فيه، وقصد بترك بعضه أو بعض خصوصياته إصلاحاً ونفعاً لمن حدّثه كان له لاسيّما إذا كان في موارد التخاصم والنزاع فإنه إصلاح وإحسان.

الثالث: الحديث الذي لا يمكن نقله:

الحديث يختلف حاله باختلاف موضوعه، فليس كل حديث يصدر يُقصد إبداؤه، فقد يحدّثك صديقك في حالة غضبه من أخيه أو غيره وهو لا يرضى بإذاعة ذلك الحديث، وإنما حداه على ذكره لك غضبه وضيق صدره فأبداه لك ترويحاً لفكره وتنفيساً لصدره، فهذا الحديث أمانة عندك لا يجوز إبداؤه ولا يحسن إفشاؤه، هذا ما تصورناه من أقسام الأمانة والقانون الإسلامي نص بكل صراحة على وجوب حفظ الأمانة بجميع أقسامها، والعقل حاكم بوجوب حفظها وعلى ذلك عمل ذوو الهمم والشيم والنفوس الأبية من العقلاء حتّى من لا يعترف بالشرائع الربانية والقوانين السماوية.

جاء النص في القانون الإسلامي على حفظ الأمانة، قال سبحانه:

﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.(١)

هذه الآية الشريفة تعمّ جميع أقسام الأمانة سوى القسم الأخير فإنه لا يتحقق فيه الأداء؛ لأنّ إئتمانه بحفظه، فالواجب فيه التحفظ عليه بعدم الإذاعة، وفيما عداه فالآية صريحة بوجوب أداء الأمانة، ويلزمه عقلاً وجوب التحفظ عليها إلى أن يؤديها. وقال سبحانه:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.(٢)

في هذه الآية الشريفة تحذير وإنذار وإتمام للحجة على العباد بما سبق منه سبحانه، حيث عرض الأمانة على أهل السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان بلا إشفاق على نفسه غير متثاقل من عظيم التبعات ودرك الخيانة.

قيل: إنّ الأمانة مطلق الطاعة، وقيل أنّها خصوص العبادة لله سبحانه، روي أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل، فقال له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على أهل السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها»، ولا يخفى أن المراد من الآية الشريفة إنما يُعلم بشرح تركيبها وتحليل غامضها وهو في أمور:

الأوّل: إنّ الغرض هو التعريف والتفهيم والإبلاغ، فقد يقدّم لك عبدك ما يريده منك مسجلاً في بطاقة بيده فإن أجبته عليه كان منك

(١) البقرة: ٢٨٣.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

إحساناً وفضلاً، وإن لم تجبه عليه فليس له إلزامك به، وقد تقدّم أنت لعبدك ما توجبه عليه من الخدمة مسجلاً في دفتر ليعلم ما يرضيك مما يؤذيك، وليس له أن يراجعك فيما ألزمته به، فالتفهيم والإبلاغ والعرض فيهما على نحو واحد، مع أنك لك الإمتناع وليس له الإمتناع.

الثاني: بما أن السماوات والأرض والجبال من الجمادات فلا بدّ أن يكون العرض على أهلها لا عليها نفسها، فحذف المضاف وهو أهل وأقيم المضاف إليه مقامه، فكأنه قال سبحانه: إنا عرضنا الأمانة على أهل السماوات والأرض والجبال من الملائكة والإنس والجن.

الثالث: إن إباء أهل السماوات والأرض والجبال والملائكة والجن عن الحمل إن أبقيناه على ظاهره من الإباء عن حمل الأمانة التي عرفت أنها الإيمان بالله وإطاعته، فهو صريح بعصيان الملائكة وتمرّدهم ونكولهم عما أمرهم الله به، ولم تكن الآية الشريفة مسوقة لذلك؛ بل هي بصدد ظلم الإنسان لنفسه، ونزاهة الملائكة عن هذا الظلم، فلا بدّ من التصرف في المحمول في قوله سبحانه: ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾[1] بأن يكون المراد فأبين أن يحملن ترك أداء الأمانة المستلزم للعقاب وأليم العذاب، ولذلك قال بعدها: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي أشفقن على أنفسهن من المعصية الموجبة للعذاب، وحمل الإنسان ترك أدائها، ولم يخرج من عهدتها فكان ظلوماً لنفسه بارتكاب المعصية، جهولاً بموقع الأمانة في استحقاق العذاب على ترك أدائها، ولم يكن في لفظة الإنسان في هذه الآية سعة تعمّ جميع أفراده؛ لأنه أريد منه النوع القابل للإنطباق على البعض، وأكثر

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

أفراد الإنسان متصف بالظلم والجهل، والسعداء قليل ما هم أدّوا الأمانة لله سبحانه وعلموا الحق فعملوا به أولئك هم الفائزون. وقال سبحانه:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾(١).

هذه الآية في مقام بيان مدحة بعض من كان في ذلك الزمن من أهل الكتاب، أو ربما يوجد في غيره مدح الله سبحانه ذلك البعض بما هم عليه من أداء الأمانة مهما عظمت وجلّت، وكانت لعظمها أدعى للخيانة كالقنطار من الذهب والفضة أو غيرهما محا له أهمية بنظر العقلاء، فمع ذلك كله يؤدي ذلك البعض هذه الأمانة، ثمّ بيّن خيانة البعض الآخر وخساستهم وعدم أدائهم للأمانة مهما كانت حقيرة غير مرغوب ولا مطموع فيها، كالدينار أو ما بلغت قيمته الدينار، فمع كونه مما لا تتزاحم فيه الرغبات ولا تتغلغل فيه الشهوات لا يؤديه ذلك البعض حيث أبت الدناءة والخساسة أن تفارق أهلها.

وبالجملة فالأمانة يحبّها حتّى أهل الخيانة، ويرغب بالإنصاف بها كل عاقل، ولولا غلبة الشهوات والخساسة في ذوي الخيانة ما عرف أحدٌ غير الأمانة.

العاشر: فعل المعروف والأمر بالمعروف:

المعروف اسم جامع لكل فعل يُعرف حسنه بالعقل والشرع.

المعروف اسم جامع لما عُرف من طاعة الله سبحانه، والإحسان إلى الناس في الواجب والمندوب.

المعروف ضد المنكر في معناه ومصداقه، والتباين بين المنكر

---

(١) آل عمران: ٧٥.

والمعروف بنحو السلب الكلي من الطرفين فلا شيء من المنكر بمعروف، ولا شيء من المعروف بمنكر.

المعروف صفة شريفة معروفة، والمنكر صفة رديئة منكرة.

يختص المعروف بالأفعال الواجبة والمندوبة شرعاً وعقلاً، ولا يدخل فعل المباحات شرعاً وعقلاً في فعل المعروف لأنه خلو من الرجحان، وما لا رجحان فيه لا خير فيه، والمعروف كله خير، ويختص المنكر بالمحرمات شرعاً وعقلاً، فكل ما منع الشرع والعقل من فعله، ففعله منكر.

وأما ما منع منه الشرع والعقل على نحو التنزيه عن فعله بدون إلزام بالمنع وهو المكروه، فلا ريب في خروجه عن دائرة المعروف، وهو أشدّ خروجاً من المباح، والمباح لا يدخل في المنكر، وأما المكروه فربما كان بعض المكروهات من المنكرات إذا تكرر فعله، وتفصيل ذلك ما ذكرناه في المباحث الفقهية.

يمتاز أهل المعروف بمعروفهم، ولهم مكانة معروفة، وفي الحديث الشريف: «من بذل معروفه آتاه الله جزاء معروفه» وفيه أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة. ومعناه أن أهل المعروف في الدنيا يصنعون المعروف في الآخرة، أو أنهم معروفون في الآخرة. وفي حديث عن ابن عبّاس قال: يأتي أهل المعروف يوم القيامة فيغفر لهم لمعروفهم، وتبقى حسناتهم تامة فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته فيغفر له فيدخلون الجنّة، فيجتمع لهم الإحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة.

هذا الحديث ينطبق على الأولياء والنقباء وأهل الإخلاص في ذات الله الذين بذلوا أنفسهم وما لديهم في مرضاة الله سبحانه، وفي الحديث ليس شيء أفضل من المعروف إلاّ ثوابه. وفيه ليس كل من

يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه.

فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والإذن تمت السعادة للطالب والمطلوب إليه.

وفي هذا الحديث دلالة على أن الأعمال الخيرية تحتاج إلى التوفيق من الله سبحانه بعد الرغبة والقدرة. وفي الحديث: «صنائع المعروف تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان»، وهذا يدل على أن فعل الإحسان إلى الناس والرفق بهم سبب للوقاية من موارد الذل والهوان.

إن من المعروف الأمر بالمعروف:

لا نرتاب بأن الأمر بالمعروف من أهله في محلّه ربما كان أعظم من فعل المعروف؛ لأن فيه حفظ النظام بين أفراد النوع الإنساني، وبه اكتساب الفضائل الدينية والعقلية، وإزالة الأخلاق الفاسدة، والعمل بما فيه الحياة في الدارين، ولا أراك تشك بأن التهذيب والتعليم والإلزام لشخص بما فيه ظهور كماله وجميل صنعه وحسن سيرته خير له من إعطائه ألف دينار يتنعّم بها في معاشه، مع تلوّثه باقذار المفساد وتهوره في هوة الجهالة.

الأمر بالمعروف وفعل المعروف واجبان بحكم العقل والشرع وجوباً كفائياً على كافة العقلاء، ولا شرط لوجوب فعل المعروف سوى القدرة عليه.

إنّ تأثير الأمر بالمعروف له شروط يتوقف تحريك خطابه للمكلفين عليها.

الأوّل: القدرة على الأمر بالمعروف، وغير القادر لا يجب عليه.

الثاني: العلم أو الظن أو إحتمال التأثير فيمن يأمره بالمعروف.

الثالث: أن يكون الآمر بالمعروف عاملاً به والاّ لم يكن أهلاً لأن يأمر به؛ لأن (فاقد الشيء لا يعطيه) نعم فاقد الشيء لا يعطيه، إذ كل شيء تتصوره وترى أنك تفقده يستحيل أن تعطيه لمن يطلبه منك، فالمرتكب للمنكر نجد من المنكر نهيه عنه فضلاً عن كونه لا يؤثر نهيه بأحد، والتارك للفعل الحسن مع قدرته عليه لا يحسن منه أن يأمر به، ولا يؤثر أمره بأحد، كل ذلك لأن (فاقد الشيء لا يعطيه).

جاء النص في القانون الإسلامي على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال سبحانه:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.(١)

دلت هذه الآية الشريفة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصرّحت بانحصار الفلاح فيمن قام بهما، والعقل يحكم بلزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حفظاً للنظام وسداً لأبواب الفساد.

ومن ظاهر الآية عرفنا أن الوجوب كفائي، حيث قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ ولو كان الوجوب عينيّاً لكان الخطاب بغير هذا البيان، وقال سبحانه في صفة من آمن بالله حقيقة الإيمان:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فانظر كيف قرن إيمانهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تنبيهاً على أهمية وجوبهما وأثرهما.

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

قال صاحب الدعوة الإسلاميّة الرسول الأمين محمّد ﷺ: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه».

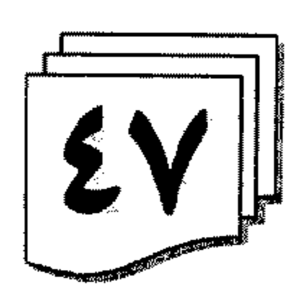
وقال ﷺ حين سئل عن خير الناس: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم».

وقال ﷺ: «لتأمرنّ بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجلّ كبيركم ولا يرحم صغيركم، ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون وتستغيثون فلا تغاثون».

وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان لئن يكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر».

وربما يقال: أنه يوجد في كل زمان من يتباعد ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يتباعد عن جيفة الحمار، فكيف يصحّ تعليق ذلك على زمان خاص؟ والحقيقة أن الكلمات الحكمية لا تنظر إلى فرد من النوع؛ بل المقصود منها انطباقها على أغلب أفراد النوع وأكثرها، ولعلّ مصداق ذلك في هذا الوقت، أعاذنا الله من بلائه ووفقنا لفعل المعروف والأمر به، وترك المنكر والنهي عنه.

* * *



قوله عليه السلام:

تَوَقَّوُا الْبَرْدَ فِي أوَّلِهِ وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ فَإنَّهُ يَفْعَلُ فِي الأبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي الأشْجَارِ أوَّلُهُ يُحْرِقُ وَآخِرُهُ يُورِقُ.

(نهج البلاغة ٤: ٣٠)

[أثر المناخ في الصحة]

قال ابن أبي الحديد:

هذه مسألة طبيعية قد ذكرها الحكماء، قالوا: لِمَ كان تأثير الخريف في الأبدان، وتوليد الأمراض، كالزكام والسعال وغيرهما أكثر من تأثير الربيع، مع أنهما جميعاً فصلا الإعتدال.

وأجابوا بأنّ برد الخريف يفجأ الإنسان، وهو معتاد للحر بالصيف فينكأ فيه ويسدّ مسام دماغه؛ لأن البرد يكثف ويسدّ المسام فيكون كمن دخل من موضع شديد الحرارة إلى خيش بارد، فأما المنتقل من الشتاء إلى فصل الربيع فإنه لا يكاد برد الربيع يؤذيه ذلك الأذى؛ لأنه قد اعتاد جسمه برد الشتاء فلا يصادف من برد الربيع إلاّ ما قد اعتاد ما هو أكثر منه، فلا يظهر لبرد الربيع تأثير في مزاجه.

فأما لِماَ أورقت الأشجار وأزهرت في الربيع دون الخريف؟ فلِما في الربيع من الكيفيتين اللتين هما منبع النمو والنفس النباتية، وهما الحرارة والرطوبة، والخريف خال من هاتين الكيفيتين ومستبدل بهما ضدهما، وهما البرودة واليبس المنافيان للنشوّ وحياة الحيوان والنبات. فأما لِمَ كان الخريف بارداً يابساً، والربيع حاراً رطباً مع أن نسبة كل واحد منهما إلى الفصلين الخارجين عن الإعتدال، وهما الشتاء والصيف

نسبة واحدة، فإنّ تعليل ذلك مذكور في الأصول الطبية والكتب الطبيعية، وليس هذا الموضع مما يحسن أن يشرح فيه مثل ذلك.[١]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني في شرحه لنهج البلاغة:

إنما وجب اتقاؤه في أوله، وهو أوّل الخريف؛ لأن الصيف والخريف يشتركان في اليبس فإذا ورد البرد حينئذٍ ورد على أبدان استعدت بحرارة الصيف ويبسه للتخلخل وتفتح المسام والجفاف فاشتدّ انفعال البدن عنه وأسرع تأثيره في قهر الحرارة الغريزية فيقوى بذلك في البدن قوتا البرد واليبس اللتان هما طبيعة الموت، فيكون بذلك يبس الأشجار واحتراق الأوراق وانحسارها، وضمور الأبدان وضعفها.

وأما أمره عليه السلام بالتقائه في آخره، وهو آخر الشتاء وأوّل زمان الربيع؛ فلأن الشتاء والربيع يشتركان في الرطوبة ويفترقان بأن الشتاء البارد والربيع حار، فالبرد المتأخر إذا امتزج بحرارة الربيع وانكسرت سورته بها لم يكن له بعد ذلك نكاية في الأبدان، فقويت لذلك الحرارة الغريزية فيها وانتعشت، فكان من اعتدالها بالبرد مع الرطوبة استعداد المزاج وهو طبيعة الحياة، وكان منه النمو وقوة الأبدان وبروز الأوراق والثمار.

وقوله عليه السلام: «فإنه...» إلى آخره، صغرى ضمير نبّه به على توقّيه وتلقّيه وتقدير كبراه وكل ما كان كذلك فإنه يجب توقّي

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣١٩.

أوّله وتلقي آخره، وقوله: «أوّله يحرق وآخره يورق» وهو وجه التشبيه.[1]

* * *

وقال الشيخ محمّد جواد مغنية عند شرح هذه الفقرة:

يتكيف جسم الإنسان تبعاً للجو وأحواله، برودة وحرارة واعتدالاً. وهذا شأن كل جسم حي نباتاً كان أم حيواناً، وأخبر الإمام بهذه الحقيقة، ونصح بالوقاية من أوّل البرد دون آخره، كأي عالم مخبر وناصح.[2]

* * *

وجاء في (منهاج البراعة):[3]

المستفاد من هذا الكلام دستور صحّي لزمن الانتقال من حرّ الصيف والخريف إلى برد الشتاء، فالبدن يعتاد الحرارة في طول أيام الحرّ، فإذا جاء البرد يؤثر فيه، ويسبب أمراضاً كثيرة، فيلزم حينئذٍ توقّي البرد ودفعه بالوسائل المعدّة لذلك من اللباس والمنزل الدافئ.

ولكن بعد مرور الشتاء وحلول فصل الربيع اعتاد البدن بالبرد، واستعد لتحمّله، فالتعرض له وتلقيه بتخفيف اللباس، والخروج إلى البساتين والمتنزهات غير مضرّ؛ بل نافع للبدن موجب لنشاطه وتقويته وتجديد قواه، كما أشار إليه عليه السلام بأنّه يورق وينفخ روح الحياة في الأشجار.

وقد أعطى الله هذا الأثر الحيوي للربيع بوسيلة الأمطار النازلة من

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٥: ٣١١.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٩٨.

(٣) ج ٢٦: ١١٢.

السماء، كما أشار إليه في غير واحد من آي القرآن الشريفة، مثل قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فإذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.(١)

* * *

أقول: قال البستاني في (دائرة المعارف):

الطب لغة علاج الجسم والنفس والمرفق والسحر. وفي الاصطلاح علم بأصول تعرف بها أحوال أبدان البشر من جهةالصحة وعدمها، لتُحفظ حاصلة وتحصل غير حاصلة.

وقد يقال بالإختصار: هو علم دفع الداء واجتنابه. وقال الأقدمون: علم الشفاء. وهو بلا ريب أوّل علم سعى الإنسان إلى تحصيله على أثر سعيه وراء الغذاء والكساء والمأوى. على أن هذا السعي لم يكن يتناول في أوّل الأمر إلاّ ما برح بظاهر الجسم من جرح وكسر وصدع وما أشبه؛ لأن الأدواء والأوبئة والعلل الباطنية لم تكن في نظر الإنسان لأوّل عهده إلاّ عقوبات يقتص بها الخالق من المخلوق، أو فواعل روح خبيثه، أو عين شريرة فيلجأ لدفعها إلى الكهانة والرقية والنذر والقربان؛ لأنها لا تتأتى عن سبب محسوس، فلا يمكن دفعها بعلاج محسوس، حالة كون الجرح وما هو من قبيله إن لم يكن ناشئاً عن فعل يد بشرية، فالفاعل فيه سبب مشهود لا مانع من معالجته بيد البشر.

ولهذا سارت الجراحة شوطاً بعيداً أمام فروع الطب؛ بل بلغت مبلغاً مذكوراً من الإتقان عند القدماء، وهم لا يكادون يعرفون شيئاً من علاج الأمراض. وليس لدينا في التاريخ ما يرشدنا إلى كيفية تدرج

---

(١) الحج: ٥.

الأمم القديمة في مراقي التقدم بهذا الفن، ولاسيّما ما غمض تأريخها منهن، كقدماء الصينيين والهنود. ونخال أقرب الوسائل لبلوغ تلك الغاية منهجاً ينهجه أهل بابل، إذ جاء في أثرهم أنهم كانوا يأتون بالمرضى وذوي العاهات فيلقونهم في الشوارع والأزقة حتّى إذا مرّ بهم من اعترته علتهم وشفي منها بعلاج، سواء وصفه لنفسه أو استوصفه من غيره أنبأهم به فجرّبوه، وإن نجع بهم وصفوه لمن أُصيب بمثل ذلك الداء.

فعرفوا بالتجربة والاستقراء أدوية شتى، وكانوا إذا تحققوا فائدة دواء أو عرفوا خاصته كتبوا اسمه في لوح وعلّقوه في هيكل معبود الطب على مرأى الخاصة والعامة.

وقد بالغ بعض الأثريين في ارتقاء فن الطب في بلاد بابل وآشور، حتّى لقد زعموا أن الآشوريين اتخذوا المنظار المعظم للبحث في دقائق الجسد، واستدلوا على ذلك باكتشاف كتابات محفورة حفراً خفياً لا تقرأ بالعين المجردة، فذهبوا إلى وجود المنظار في تلك الأزمان، وإلى أن وجوده يقضي باستعماله لتحقق الأدواء. وكل هذا من باب الحدس والتخمين فلا يصلح حجة ودليلاً.

مهما يكن من إلمام البابليين والآشوريين والفرس ومن عاصرهم بهذا الفن، فلم تنبغ أمّة فيه في القدم نبوغ المصريين، فإن في شعر هوميروس وفي التوراة قبل عهد هوميروس وبعده ثناءاً طيباً على المصريين، وإطناباً بمعارفهم الطبية...

تاريخ الطب ومبدأ ظهوره:

ذكر الطبيب الفاضل العالم الأديب ـ محمّد الخليلي ـ في كتابه طب الإمام الصادق عليه السلام:

لقد تضاربت أقوال المؤرخين، واختلف الحكماء والأطباء، في ذكر بدء ظهور هذا العلم الجليل، وكيفية حدوثه في العالم، مما أوقف الباحث موقف الحيرة والشك، فلا يدري كيف يبدي الحقيقة، وكيف يظهر للقارئ بمظهر الكاتب الأمين، والمؤلف المنصف.

فقد نسب البعض اكتشافه أو اختراعه أوّلاً إلى الكلدانيين، وآخرون إلى سحرة اليمن، وغيرهم إلى كهنة بابل، وأكثرهم إلى قدماء اليونانيين.

قال ابن أبي أصيبعة الطبيب المؤرخ في كتاب (عيون الأنباء):

إن اختراع هذا الفن لا يجوز نسبته إلى بلد خاص، أو مملكة معيّنة، أو قوم مخصوصين، إذ من الممكن وجوده عند أمة قد انقرضت، ولم يبق من آثارها شيء، ثمّ ظهر عند قوم آخرين، ثمّ انحط عندهم حتّى نسي، ثمّ ظهر على أساس هؤلاء لدى غيرهم فنسب إليهم اختراعه أو اكتشافه. انتهى.

وقال غيره من المؤرخين: إن الطب من جملة العلوم التي وضع أساسها الكلدان وكهنة بابل، وأنهم هم أول من بحث في علاج الأمراض، فكانوا يضعون مرضاهم في الأزقة ومعابر الطرق، حتّى إذا مرّ بهم أحد قد أصيب بذلك الداء وشفي أعلمهم بسبب شفائه، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها في الهياكل، فلذلك كان التطبب عندهم من جملة أعمال الكهنة وخصائصهم، ومن الكلدان أخذته سائر الأمم القديمة، ومن جملتها العرب، ولذا تراه متشابهاً عند أكثر الأمم في مصر وفينيقية وآشور، ثمّ تناولته الأمّة اليونانية، فأتقنوه إحكاماً وأحكاماً، ورتبوا أبوابه وفصوله حتّى جعلوه علماً له ابتداء وله انتهاء، ثمّ أخذته عنهم الفرس والروم.

الطب عند العرب:

أما العرب الذين كانوا معاصرين لتلك الدول، فقد اقتبسوا منهم بحكم المجاورة والمخالطة شيئاً من الطب أضافوا إلى ما حصلوه من الكلدان وإلى ما استنبطوه هم أنفسهم بالفطرة والذكاء والتجارب.

وقد ذكر التاريخ: أن أوّل من تعاطى الطب من العرب بعد الكهنة هم جماعة ممن خالطوا الروم والفرس في القرن السادس الميلادي، وقبل ظهور الإسلام بقليل وأخذوا العلم عنهم، وكان أشهرهم يومذاك رجل من تيم الرباب يقال له (ابن حذيم) وهو الذي ضرب به المثل في الحذاقة والطب، فقيل فيه: أطب من ابن حذيم، وقال فيه الشاعر: أوس بن حجر:

فهل لكم فيها إلي فإنني   بصير بما أعيى النطاسي حذيما

ثمّ جاء بعده ـ الحارث بن كلدة الثقفي ـ طبيب العرب الشهير المتوفى سنة (٥٠ هـ) وهو خريج مدرسة (جنديسابور) المعروفة في خوزستان الفرس، والشهير عند العرب (بمعهد الطب الإسلامي) فقد كانت العرب تعرف هذه المدرسة وتقدرها، لاسيّما بعد فتح الإسلام لبلاد الفرس على عهد الخليفة الثاني سنة (١٩هـ) وقد كان الحارث هذا يتعاطى الطب في الطائف بشهرة واسعة، وقد أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان النبي ﷺ يأمر من كانت به علة أن يأتيه ويستوصفه.

ثمّ كان بعده (ابن رومية) الجراح التميمي، ثمّ النضر بن الحارث بن كلدة الذي يعد من أقدم من اشتغل من العرب في العلوم الدخيلة من طب وغيره، وكان هو في عصر النبي ﷺ أيضاً، ولكنه لما كان يجاري أبا سفيان بعداوة النبي ﷺ لأنه ثقفي وبنو ثقيف حلفاء بني أمية، أمر

النبي ﷺ عندما أسره المسلمون في بدر بقتله، فقتل وذهب بموته علمه وطبّه، ولم يكن له مؤلف أو نقل يعلمنا بمبلغ علمه وطبّه.

ثمّ ذهب الطب من العرب، وخفي عنهم ردحاً من الزمن، وذلك منذ ظهور الدعوة الإسلاميّة، حتّى شطر من الدولة الأموية، إذ المسلمون كانوا حينذاك يعتقدون، أن الإسلام يهدم ما قبله، ولا ينبغي أن يتلى غير القرآن، أو أن يدرس غير العلوم القرآنية، فذهلوا عن سائر العلوم بما فيها الطب، لإنشغالهم بإنشاء الدولة الإسلاميّة، ونشر الدعوة المحمّدية وقمع الشرك، وإعلاء كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة عليها.

ولكن لما اتسع نطاق الإسلام، وعلا سلطانه، وبلغ الدين الحنيف ذروته التي خضعت لها الأمم، وذلّت لها الملوك لم يقتنع المسلمون ببسط سلطانهم على شرق البسيطة وغربها دون أن يلجوا أبواب العلوم، فيأخذوا من كل قطر محاسنه، ويستلبوا كنوزه العلمية. وقد كان للطب عندهم أوفر نصيب من تلك العناية وذلك الاهتمام، حيث اقتبسوه أوّلاً، ورغبوا إليه قبل سائر العلوم الدخيلة التي دخلت الجزيرة العربية يومذاك.

وقد ذكر لنا التاريخ وأخبرتنا التراجم، أن أوّل من فطن إلى ذلك، وأوّل من اشتغل في نقل الطب وسائر العلوم الدخيلة الأخرى، مثل الكيمياء والنجوم إلى اللغة العربية، بعد تلك الفترة الطويلة، هو خالد بن يزيد بن معاوية الأموي، المدعو عند العرب (بحكيم آل مروان) والمتوفى سنة (٨٥هـ) فإنه بعد ما غلبه بنو مروان على الخلافة بعد أخيه معاوية، وقد كان رجلاً طموحاً ذكياً، انصرف إلى اكتساب المعالي عن طريق العلم، ولأجل ذلك فقد استقدم جماعة من علماء الروم، منهم الراهب الرومي (موريانوس) وطلب إليه أن يعلمه الكيمياء، ولما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية، فنقلها له رجل يدعى (إصطفن). فكان هذا أوّل نقل

في الإسلام من لغة إلى لغة، ثمّ جاء بعد إصطفن (ماسرجويه) فنقل كتباً كثيرة من الطب والفلسفة، فكان لبني أمية بعض الآثار العلمية في الإسلام.

ثمّ أصاب الطب بعد خالد فترة دامت إلى أواخر الأمويين وإلى عصر السفاح من بني العبّاس، حتّى إذا ما أفضت الخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور سنة (١٣٦هـ) بانت له طلائع، وظهرت لقدومه بشائر.

فلقد كان المنصور كلفاً بأعمال التنجيم، شغوفاً بالعمل بأقوال المنجمين في خلافته وقبلها حتّى لم يكن يعمل عملاً إلاّ بعد إستشارة منجّمه الخاص (نوبخت) الفارسي وابنه (أبي سهل)، ولقد ترجموا له كثيراً من كتب التنجيم والفلك، ثمّ ازدادت رغبة المنصور لطلب العلوم الدخيلة، وبحكم المثل المشهور (الناس على دين ملوكها) رغب كثير من الناس إلى طلب تلك العلوم، وتوسعوا في درسها والبحث عنها وفيها، حتّى طلب المنصور من ملك الروم أن يبعث إليه ببعض كتب التعاليم، فبعث إليه بجملة كتب في علوم شتى، ومن جملتها كتاب (إقليدس) في الهندسة، وبعض كتب الطبيعيات والمجسطي وكثير من كتب الطب، فاهتم العرب بنقلها إلى العربية، وأخذوا يتهافتون عليها تهافت الفراش، ويردون مناهلها ورود الظمآن إلى الماء الزلال.

وقد كان علم الطب من بين تلك العلوم أكثرها اهتماماً وعناية لديهم، وقد ساعد على هذا الأمر يومذاك أن المنصور أصيب بمرض في معدته انقطعت من أجله شهوته للطعام ولم ينفعه العلاج، بالرغم من عناية أطباء مصره، واهتمامهم في أمره، فطلب إلى وزيره الربيع أن يفحص له عن طبيب حاذق يرجع إليه في علاج ما كان يجده من ألم، ولما أخذ الربيع عما طلب إليه الخليفة أرشد إلى الطبيب (جورجيس)

النصراني رئيس مارستان أو مدرسة (جنديسابور) وكان ماهراً حاذقاً في الطب كثير التأليف والتصنيف فيه باللغة السريانية، فبعث إليه المنصور من أحضره له، بعد أن خلف ولده (بختيشوع) مكانَه، ولما ورد على الخليفة أكرمه، ووقع عنده موقعاً حسناً لما رأى فيه من الوقار ورزانة العقل، لاسيّما وقد أبل عن مرضه إبلالاً سريعاً، وشفي من علته شفاءاً عاجلاً كاملاً بعلاجه.

ولما أراد الرجوع إلى بلده ووطنه منعه الخليفة، وأغدق عليه الأموال والعطايا الوافرة طمعاً في إبقائه، فبقي في بغداد يطبب المرضى مدة طويلة، ثمّ ترجم إلى العربية كثيراً من كتبه الطبية ومن كتب غيره في الطب.

هذا ما توصل إليه الخليلي من أدوار الطب وتنقلاته في الأمم على سبيل الإجمال، إلاّ أن ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء) أوضح ذلك وضوحاً تاماً وأفادنا أكثر من غيره حيث قال:

... ولنذكر حينئذٍ أقساماً في مبدئية هذه الصناعة بقدر الممكن فنقول:

القسم الأوّل:

إنّ أحد الأقسام في ذلك، أنه قد يكون حصل لهم شيء منها عن الأنبياء والأصفياء عليهم السلام، بما خصّهم الله تعالى به من التأييد الإلهي، روى ابن عبّاس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «كان سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيسألها ما اسمك فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت».

وقال قوم من اليهود: إن الله عزّ وجلّ أنزل على موسى عليه السلام سفر الأشفية، والصابئة تقول إن الشفاء كان يؤخذ من هياكلهم على يد كهانهم وصلحائهم، بعض بالرؤيا وبعض بالإلهام. ومنهم من قال: إنه

كان يوجد مكتوباً في الهياكل لا يعلم من كتبه. ومنهم من قال إنها كانت تخرج يد بيضاء مكتوب عليها الطب.

ونقل عنهم أن شيث أظهر الطب وأنه ورثه عن آدم عليه السلام.

فأما المجوس فإنها تقول: إن زرادشت الذي تدّعي أنه نبيّهم، جاء بكتب علوم أربعة، زعموا أنها جلّدت باثني عشر ألف جلد جاموس، ألف منها طب. وأما نبط العراق والسريانيون والكلدانيون والكسدانيون وغيره من أصناف النبط القدم، فيدّعى لهم أنهم اكتشفوا مبادئ صناعة الطب، وأن هرمس الهرامسه المثلث بالحكمة إمامهم أو رئيسهم ويعرف علومهم، فخرج حينئذٍ إلى مصر وبثّ في أهلها العلوم والصنائع، والأهرام والبرابي، ثمّ انتقل العلم منهم إلى اليونانيين.

وقال الأمير أبو الوفاء المبشر بن فاتك في كتاب (مختار الحكم ومحاسن الكلم): إن الاسكندر لما تملك مملكة دارا، واحتوى على فارس، أحرق كتب دين المجوسية وعمد إلى كتب النجوم والطب والفلسفة، فنقلها إلى اللسان اليوناني وأنفذها إلى بلاده، وأحرق أصولها.

وقال الشيخ أبو سليمان المنطقي: قال لي ابن عدي: إن الهند لهم علوم جليلة من علوم الفلسفة، وإنه وقع إليهم العلم من ثمّ وصل إلى اليونانيين. وقال الشيخ أبو سليمان: ولست أدري من أين وقع له ذلك وقال بعض علماء الإسرائيليين: إنّ الذي استخرج صناعة الطب بوقال بن لامخ بن متوشا... الخ.

القسم الثاني:

أن يكون قد حصل لهم شيء منها بالرؤيا الصادقة، مثل ما حكى جالينوس في كتابه في الفصد، من فصده للعرق الضارب الذي أمر به،

وذلك أنه قال: إني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب الذي بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى، فلما أصبحت فصدت هذا العرق وتركت الدم يجري إلى أن انقطع من تلقاء نفسه، لأني كذلك أمرت في منامي، فكان ما جرى أقل من رطل، فسكن عني بذلك على المكان وجع كنت أجده قديماً في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب.

وكنت في وقت ما عرض لي هذا غلاماً. قال: وأعرف إنساناً بمدينة فرغامس، شفاه الله تعالى من وجع مزمن كان به في جنبه، بفصد العرق الضارب من كفه، والذي دعا ذلك الرجل إلى أن يفعل ذلك رؤيا رآها.

وقال في المقالة الرابعة عشرة من كتابه في حيلة البرء: قد رأيت لساناً عظم وانتفخ حتّى لم يسعه الفم، وكان الذي أصابه ذلك رجلاً لم يعتد اخراج الدم قط، وكان من أبناء ستين سنة، وكان الوقت الذي رأيته في أوّل مرة الساعة العاشرة من النهار، فرأيت أنه ينبغي لي أن أسهله بهذا الحب الذي قد جرت العادة باستعماله، وهو الحب المتخذ بالصبر والسقمونيا وشحم الحنظل، فسقيته الدواء العشاء، وأشرت عليه أن يضع على العضو العليل بعض الأشياء التي تبرد، وقلت له افعل هذا حتّى انظر ما يحدث، فأقدر المداواة على حسبه، ولم يساعدني على ذلك رجل حضره من الأطباء، فبهذا السبب أخذ الرجل ذلك الحب، وتأخر النظر في أمر ما يداوى به العضو نفسه إلى الغد، وكنا نطمع جميعاً أن يكون قد تبين فيه حسن أثر الشيء الذي يداوى به ونجرّبه عليه، إذ كان فيه يكون البدن قد استفرغ كله، والشيء المنصب إلى العضو قد انحدر إلى أسفل، ففي ليلته رأى في حلمه رؤيا ظاهرة بينة، فحمد

مشورتي واتخذ مشورتي مادة في ذلك الدواء. وذلك أنه رأى النائم آمراً يأمره بأن يمسك في فيه عصارة الخس فاستعمل هذه العصارة كما أمره وبرأ برءاً تاماً، ولم يحتج معها إلى شيء آخر يتداوى به.

وقال في شرحه لكتاب الإيمان لأبقراط:

وعامة الناس يشهدون على أن الله تبارك وتعالى هو الملهم لهم صناعة الطب، من الأحلام والرؤيا التي تنقذهم من الأمراض الصعبة.

من ذلك إنا نجد خلقاً كثيراً ممن لا يحصى عددهم، آتاهم الشفاء من عند الله تبارك وتعالى، بعضهم على يد سارافس، وبعضهم على يد اسقليبيوس بمدينة أفيداروس ومدينة قوّ، ومدينة فرغامس، وهي مدينتي، وبالجملة فقد يوجد في جميع الهياكل التي لليونانيين وغيرهم من سائر الناس، الشفاء من الأمراض الصعبة التي بالأحلام بالرؤيا، وأريباسيوس يحكي في كتابه الكبير: أن رجلاً عرض له في المثانة حجر عظيم، قال: وداويته بكل دواء مستصلح لتفتيت الحجر، فلم ينتفع ألبتة وأشرف على الهلاك، فرأى في النوم كأن إنساناً أقبل عليه وفي يده طائر صغير الجثة، وقال له: إن هذا الطائر اسمه صفراغون، ويكون بمواقع السباحات والآجام، فخذه واحرقه وتناول من رماده حتّى تسلم من هذه العلة، فلما انتبه فعل ذلك، فأخرج الحجر من مثانته متفتتاً كالرماد، وبرأ برءاً تاماً.

ومما حصل أيضاً من ذلك بالرؤيا الصادقة: أن بعض خلفاء المغرب مرض مرضاً طويلاً وتداوى بمداواة كثيرة فلم ينتفع بها، فلما كان في بعض الليالي رأى النبي ﷺ في نومه وشكى إليه ما يجده، فقال له ﷺ: ادهن بلا وكل لا تبرأ، فلما انتبه من نومه بقي متعجباً من ذلك ولم يفهم ما معناه، فسأل المعبّرين عنه فكل منهم عجز عن تأويله،

ما خلا عليّ بن أبي طالب القيرواني، فإنه قال: يا أمير المؤمنين إن النبي ﷺ أمرك أن تدهن بالزيت وتأكل منه فتبرأ، فلما سأله من أين له معرفة ذلك؟ قال: من قول الله ﷻ: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ﴾.[1] فلما استعمل ذلك صلح به وبرأ برءاً تاماً.

ونقلت من خط عليّ بن رضوان، في شرحه لكتاب جالينوس في فرق الطب ما هذا نصه: قال: وقد كان عرض لي منذ سنين صداع مبرّح عن امتلاء في عروق الرأس، ففصدت فلم يسكن، وأعدت الفصد مراراً وهو باقٍ على حاله، فرأيت جالينوس في النوم، وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء، فقرأت عليه منها سبع مقالات فلما بلغت إلى آخر السابعة، قال: فنسيت ما بك من الصداع، وأمرني أن أحجم القمحدوة من الرأس، ثمّ استيقظت فحجمتها، فبرأت من الصداع على المكان.

وقال عبد الملك بن زهر في كتاب التيسير: إنني كنت قد اعتل بصري من قيء بحراني أفرط عليّ، فعرض لي انتشار في الحدقتين دفعة، فشغل بذلك بالي، فرأيت فيما يرى النائم من كان في حياته يعني باعمال الطب فأمرني في النوم بالإكتحال بشراب الورد، وكنت في ذلك الزمان طالباً قد حذقت، ولم تكن لي حنكة في الصناعة، فأخبرت أبي فنظر في الأمر ملياً ثمّ قال لي: استعمل ما أمرت به في نومك فانتفعت به، ثمّ لم أزل أستعمله إلى وقت وضعي هذا الكتاب في تقوية الأبصار.

أقول: ومثل هذا أيضاً كثير مما يحصل بالرؤيا الصادقة، فإنه قد يعرض

---

(١) النور: ٣٥.

أحياناً لبعض الناس أن يروا في منامهم صفات أدوية ممن يوجدهم إياها، فيكون بها برؤهم، ثمّ تشتهر المداواة بتلك الأدوية فيما بعد.

القسم الثالث:

أن يكون قد حصل لهم شيء منها أيضاً بالإتفاق والمصادفة، مثل المعرفة التي حصلت لانـدرومافس الثاني في إلقائه لحوم الأفاعي في الترياق، والذي نشطه لذلك وأفرد ذهنه لتأليفه، ثلاثة أسباب جرت على غير قصد، وهذا كلامه.

قال: أما التجربة الأولى، فإنه كان يعمل عندي في بعض ضياعي في الموضع المعروف ببورنوس، حراثون يحرثون الأرض للزرع، وكان بيني وبين الموضع نحو فرسخين، وكنت أبكّر إليهم لأنظر ما يعملون، وأرجع إذا فرغوا، وكنت أحمل لهم معي على الدابة التي تحت الغلام زاداً وشراباً لتطيب أنفسهم، ويتجلّدوا على العمل، فما زلت كذلك إلى أن حملت الغداء في بعض الأيام، وكنت قد أخرجت إليهم بستوقة خضراء، فيها خمر، مطيّنة الرأس، لم تفتح مع زاد، فلما أكلوا الزاد قدّموا البستوقة وفتحوها، فلما أدخل أحدهم يده مع كوز ليغرف منها الشراب، وجد فيها أفعى قد تهرأ، فأمسكوا عن الشراب وقالوا: إنّ هاهنا في هذه القرية رجلاً مجذوماً تمنى الموت من شدة ما به، فنسقيه من هذا الشراب ليموت، ويكون لنا في ذلك أجر إذ نريحه من وصبه. فمضوا إليه بزاد وسقوه من ذلك الشراب، متيقنين إنه لا يعيش يومه ذلك، فلما كان قريب الليل انتفخ جسمه نفخاً عظيماً، وبقي إلى الغداة ثمّ سقط عنه الجلد الخارج، وظهر الجلد الداخل الأحمر، ولم يزل حتّى صلب جلده

وبرأ وعاش دهراً طويلاً من غير أن يشكو علة، حتّى مات الموت الطبيعي الذي هو فناء الحرارة الغريزية. فهذا دليل على أن لحوم الأفاعي تنفع من الأوصاب الشديدة والأمراض العتيقة في الأبدان.

وأما التجربة الثانية: فإن أخي أبولونيوس كان ماسحاً من قبل الملك على الضياع، وكان كثيراً ما يخرج إليها في الأوقات المختلفة الطرقات، الوعرة الرديئة في الصيف والشتاء، فخرج ذات يوم إلى بعض القرى على سبعة فراسخ، فنزل يستريح عند أصل شجرة، وكان الزمان شديد الحر، وإنه نام فاجتاز به أفعى فنهشته في يده، وكان قد ألقى يده على الأرض من شدة تعبه، فانتبه بفزع وعلم الآفة قد لحقته، ولم يكن به على القيام طاقة ليقتل الأفعى، وأخذه الكرب والغشي، فكتب وصية وضمنها اسمه ونسبه، وموضع منزله وصفته، وعلق ذلك على الشجرة، كي إذا مات واجتاز به إنسان، ورأى الرقعة يأخذها ويقرأها ويعلم أهله، ثمّ استسلم للموت. وكان بالقرب منه ماء قد حصل منه فضلة يسيرة، في جوبة في أصل تلك الشجرة التي علق عليها الرقعة، وكان قد غلبه العطش، فشرب من ذلك الماء شرباً كثيراً، فلم يلبث الماء في جوفه حتّى سكن ألمه، وما كان يجده من ضربة الأفعى، ثمّ برأ فبقي متعجباً ولم يعلم ما كان في الماء. فقطع عوداً من الشجرة وأقبل يفتش به الماء، لأنه كره أن يفتشه بيده لئلاً يكون فيه أيضاً شيء يؤذيه، فوجد فيه أفعيين قد اقتتلا ووقعا جميعاً في الماء وتهرءا، فأقبل أخي إلى منزلنا صحيحاً سالماً أيام حياته، وترك ذلك العمل الذي كان فيه، واقتصر بملازمتي، وكان هذا أيضاً دليلاً على أن لحوم الأفاعي تنفع من نهش (الأفاعي) والحيات والسباع الضارية.

وأما التجربة الثالثة: فإنه كان للملك يبولوس غلام، وكان شريراً

غمازاً خماناً فيه كل بلاء، وكان كبيراً عند الملك يحبه لذلك، وكان قد آذى أكثر الناس، فاجتمع الوزراء والقواد والرؤساء على قتله، فلم يتهيأ لهم ذلك لمكانته عند الملك، فاحتال بعضهم وقال: اذهبوا فاسحقوا وزن درهمين افيوناً وأطعموه إياه في طعامه، واسقوه في شرابه، فإن الموت السريع يلحق الناس كثيراً، فإذا مات حملتموه إلى الملك وليس به جراحة ولا قلبه، فدعوه إلى بعض البساتين، فلم يتهيأ لهم أن يفعلوا ذلك في الطعام فسقوه في الشراب، فلم يلبث إلاّ قليلاً أن مات، فقالوا: نتركه في بعض البيوت ونختم عليه، ونوكل الفعلة بباب البيت، حتّى نمضي إلى الملك نعلمه أنه قد مات فجأة ليبعث ثقاته ينظرونه، فلما صاروا بأجمعهم إلى الملك نظر الفعلة إلى أفعى قد خرجت من بين الحجر، ودخل إلى البيت الذي فيه الغلام، فلم يتهيأ لهم أن يدخلوا خلفه ويقتلوه لأن الباب كان مختوماً، فلم يلبثوا إلاّ ساعة والغلام يصيح بهم لم قفلتم عليّ الباب؟ أعينوني قد لسعني أفعى! ومدّ الباب من داخل وأعانه قوّام البستان من خارج فكسروه فخرج وليس به قلبة، وكان هذا أيضاً دليلاً على أن لحوم الأفاعي تنفع من شرب الأدوية القتاله المهلكة. هذا من جملة ما ذكره أندروماخس.

ومثل هذا أيضاً أعني ما حاصل بالإتفاق والمصادفة، أنه كان بعض المرضى بالبصرة، وكان قد استسقى، ويئس أهله من حياته وداووه بصفات كثيرة من أدوية الأطباء، فيئسوا منه وقالوا: لا حيلة في برئه، فسمع ذلك من أهله، فقال لهم: دعوني الآن أتزود من الدنيا وآكل كلّ ما عنّ لي ولا تقتلوني بالحمية، فقالوا له: كل ما تريد! فكان يجلس بباب الدار فمهما جاز اشترى منه وأكل، فمرّ به رجل يبيع جراداً مطبوخاً

فاشترى منه شيئاً كثيراً، فلما أكله انسهل بطنه من الماء الأصفر في ثلاثة أيام، ما كاد به أن يتلف لافراطه، ثمّ أنه عندما انقطع القيام زال كل ما كان في جوفه من المرض، وثابت قوته فبرأ، وخرج يتصرف في حوائجه، فرآه بعض الأطباء فعجب من أمره، وسأله عن الخبر فعرّفه، فقال: إنّ الجراد ليس من طبعه أن يفعل هذا فدلّني على بائع الجراد فدله عليه، فقال له: من أين تصطاد هذا الجراد؟ فخرج به إلى المكان فوجد الجراد في أرض أكثر نباتها المازريون، وهو من دواء الاستسقاء، وإذا دفع إلى مريض منه وزن درهم أسهل اسهالاً ذريعاً لا يكاد أن يضبط، والعلاج به خطر، ولذلك ما تكاد تصفه الأطباء، فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة، ونضجت في جوفه، ثمّ طبخ الجراد ضعف فعلها وأكل الجراد فعوفي بسببها.

ومثل هذا أيضاً أي مما حصل من طريق المصادفة والإتفاق، أنه كان بأفلو من سليلة استقليبيون ورم حار في ذراعه، مؤلم ألماً شديداً، فلما شفي منه، ارتاحت نفسه إلى الخروج إلى شاطئ نهر كان عليه النبات المسمّى حيّ العالم، وأنه وضعها عليه تبرداً به، فخف بذلك ألمه، فاستطال وضع يده عليه، وأصبح من غد فعمل مثل ذلك فبرأ برءاً تاماً، فلما رأى الناس سرعة برئه علموا أنه إنما كان بهذا الدواء، وهو على ما قيل أوّل ما عرف من الأدوية، وأشباه هذه الأمثلة التي قد ذكرها كثيرة.

القسم الرابع:

أن يكون قد حصل شيء منها أيضاً بما شاهده الناس من الحيوانات، واقتدى بأفعالها وتشبّه بها، وذلك مثل ما ذكره الرازي في كتاب الخواص، إن الخطاف إذا وقع بفراخه اليرقان مضى فجاء بحجر

اليرقان، وهو حجر أبيض صغير يعرفه، فجعله في عشه فيبرؤوا، وأن الإنسان إذا أراد ذلك الحجر طلى فراخه بالزعفران، فيظن أنه قد أصابهم اليرقان، فيمضي فيجيئ به، فيؤخذ ذلك الحجر ويعلق على من به اليرقان، فينتفع به.

وكذلك أيضاً من شأن العقاب الأنثى، إنه إذا تعسر عليها بيضها وخروجه، وصعب حتّى تبلغ الموت؛ ورأى ذكرها ذلك طار وأحضر حجراً يعرف بالقلقل؛ لأنه إذا حرّك تقلقل في داخله، فإذا كسر لم يوجد فيه شيء، وكل قطعة منه إذا حرّكت تقلقلت مثل صحيحه، وأكثر الناس عرفه بحجر العقاب، ويضعه فيسهل على الأنثى بيضها، والناس يستعملونه في عسر الولادة على ما استنبطوه من العقاب.

ومثل ذلك أيضاً أن الحيات إذا أظلمت أعينهن لكمونهنّ في الشتاء في ظلمة بطن الأرض، وخرجن من مكانهنّ في وقت ما يدفأ الوقت طلبن نبات الرازيانج، وأمررن عيونهن عليه فيصلح ما بها. فلما رأى الناس ذلك وجربوه وجدوا من خاصيته إذهاب ظلمة البصر إذا اكتحل بمائه.

وذكر جالينوس في كتابه في الحقن عن أرودوطس: أنّ طائراً يدعى أيبس هو الذي دلّ على علم الحقن، وزعم أن هذا الطير كثير الإغتذاء لا يترك شيئاً من اللحوم إلاّ أكله، فيحتبس بطنه لاجتماع الأخلاط الرديئة وكثرتها فيه، فإذا اشتد ذلك عليه توجه إلى البحر، فأخذ بمنقاره من ماء البحر ثمّ أدخله في دبره، فيخرج بذلك الماء الأخلاط المحتقنة في بطنه، ثمّ يعود إلى طعامه الذي عادته الإغتذاء به.

القسم الخامس:

أن يكون حصل منها شيء أيضاً بطريق الإلهام كما هو لكثير من الحيوانات، فإنه يقال إن البازي إذا اشتكى جوفه عمد إلى طائر معروف يسميه اليونانيون ذويفوس، فيصيده ويأكل من كبده فيسكن وجعه على الحال.

وكما تشاهد أيضاً عليه السنانير، فإنها في أوقات الربيع تأكل الحشيش، فإن عدمت الحشيش عدلت إلى خوص المكانس فتأكله، ومعلوم أن ذلك ليس مما كانت تغتذي به أوّلاً، وإنما دعاها إلى ذلك الإلهام لفعل ما جعله الله تعالى سبباً لصحة أبدانها، فإذا أكلته تقيأت أخلاطاً مختلفة قد اجتمعت في أبدانها، ولا تزال كذلك إلى أن تحسّ بالصحة المأنوس إليها بالطبع، فتكف عن أكله. وكذلك أيضاً متى نالها أذى من بعض الحيوانات المؤذية ذوات السموم، وأكلت شيئاً منها فإنّها تقصد إلى السيرج وإلى مواضع الزيت فتنال منه، وعندئذٍ يسكت عنها سورة ما تجده.

ويحكى أن الدواب إذا أكلت الدفلي في ربيعها أضرّ ذلك بها، فتسارع إلى حشيشة هي بادزهر للدفلي فترتعيها، ويكون بها برؤها.

ومما يحقق ذلك حالة جرت من قريب، وهي أن بهاء الدين بن نفادة الكاتب، حكي أنه لما كان متوجهاً إلى الكرك، كان في طريقه بالطليل وهي منزلة كثيرة نبات الدفلي، فنزل هو وآخر في مكان منها وإلى جانبهم هذا النبات، فربط الغلمان دوابهم هنالك، وجعلت الدواب ترعى ما يقرب منها وأكلت من الدفلي، فأمّا دوابه فإن غلمانه غفلوا عنها فسابت ورعت من مواضع متفرقة، وأما دواب الآخر فانها بقيت في موضعها لم تقدر على التنقل منه، ولما أصبحوا وجدت دوابه في عافية ودواب الأخر قد ماتت بأسرها في ذلك الموضع.

وحكى ديسقوريدس في كتابه: أن المعزى البرية باقريطس إذا رميت بالنبل، وبقيت في أبدانها، فانها ترعى النبات الذي له المشكطرامشير، وهو نوع من الفوتنج، فيتساقط عنها ما رميت به، ولم يضرها شيء منه.

وحدّثني القاضي نجم الدين عمر بن محمّد الكرندي، إن اللقلق يعشش في أعلى القباب والمواضع المرتفعة، وإن له عدواً من الطيور يتقصّده أبداً، ويأتي إلى عشّه ويكسر البيض الذي للقلق فيه، قال: وإن ثمّ حشيشة من خاصيتها أن عدو اللقلق إذا اشتم رائحتها يغمى، فيأتي بها اللقلق إلى عشه ويجعلها تحت بيضه، فلا يقدر العدوّ عليها.

وذكر أوحد الزمان في المعتبر: أن القنفذ لبيته أبواب يسدها ويفتحها عند هبوب الرياح التي تؤذيه وتؤفقه، وحُكي أن إنساناً رأى الحبارى تقاتل الأفعى، وتنهزم عنها إلى بقلة تتناول منها، ثمّ تعود لقتالها، وإن هذا الإنسان عاينها فنهض إلى البقلة فقطعها عند اشتغال الحبارى بالقتال، فعادت الحبارى إلى منبتها ففقدتها وطافت عليها فلم تجدها فخرت ميتة، فقد كانت تتعالج بها.

قال: وابن عرس يستظهر في قتال الحية بأكل السذاب، والكلاب إذا دوّدت بطونها أكلت السنبل وتقيأت واستطلقت، وإذا جرح اللقلق داوى جراحه بالصعتر الجبلي. والثور يفرّق بين الحشائش المتشابهة في صورها، ويعرف ما يوافقه منها فيرعاه، وما لا يوافقه فيتركه، مع نهمه وكثرة أكله وبلادة ذهنه.

ومثل هذا كثير. فإذا كانت الحيوانات التي لا عقول لها ألهمت مصالحها ومنافعها، كان الإنسان العاقل المميّز المكلف الذي هو أفضل

الحيوان أولى بذلك. وهذا أكبر حجة لمن يعتقد أن الطب إنما هو إلهام وهداية من الله سبحانه لخلقه. انتهى.

* * *

[مرض القلوب ومرض الأبدان]:

قال ابن قيّم الجوزية: في كتاب (طب النبي ﷺ):

أما بعد: فهذه فصول نافعة في هديه ﷺ، في الطب الذي تطبّب به، ووصفه لغيره. نبيّن ما فيه من الحكمة التي تعجز عقول أكبر الأطباء، عن الوصول إليها، فنقول: وبالله نستعين، ومنه نستمد الحول والقوة.

(فصل) المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن:

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغيّ. وكلاهما في القرآن.

قال الله تعالى في مرض الشبهة: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾[2] وقال تعالى في حق من دُعي إلى تحكيم القرآن والسنّة، فأبى وأعرض: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[3] فهذا مرض الشبهات والشكوك.

---

(١) البقرة: ١٠.

(٢) المدثر: ٣١.

(٣) النور: ٤٨ – ٥٠.

وأما مرض الشهوات، فقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[(١)] فهذا مرض شهوة الزنا.

(فصل) وأما مرض الأبدان: فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[(٢)] وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء، لسرّ بديع، يبيّن لك عظمة القرآن، والإستغناء به لمن فهمه وعَقَله، عن سواه. وذلك أن قواعد طبّ الأبدان ثلاث: حفظ الصحة، والحميّةُ عن المؤذي، واستفراغُ المواد الفاسدة، فذكر سبحانه هذه الأصول ثلاثة، في هذه المواضع الثلاثة؛ فقال في آية الصوم:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[(٣)] فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلباً لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذي يخلّف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف. فأباح للمسافر الفطر، حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.[(٤)] فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه من قمل أو حِكةٍ أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام، استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه، باحتقانها تحت الشعر،

---

(١) الأحزاب: ٣٢.

(٢) النور: ٦١؛ الفتح: ١٧.

(٣) البقرة: ١٨٤.

(٤) البقرة: ١٩٦.

فإذا حلق رأسه ففتحت المسام، فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الإستفراغ يقاس عليه كل إستفراغ يؤذي إنحباسه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمنَيُ إذا تتابع، والبول، والغائط، والريح، والقيئ، والعطاس، والنوم، والجوع، والعطش، وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواب بحبسه، وقد نبّه سبحانه باستفراغ أدناها ــ وهو البخار المحتقن في الرأس ــ على استفراغ ما هو أصعب منه؛ كما هي طريقة القرآن التنبيهُ بالأدنى على الأعلى.

وأمّا الحمية، فقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1].

فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب: حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج.

فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة، ومجامع قواعده.

ونحن نذكر هَديَ رسول الله ﷺ في ذلك، ونبيّن أن هديه فيه أكمل هدي.

فأما طبّ القلوب فمسلّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلاّ من جهتهم وعلى أيديهم، فإنّ صلاح القلوب أن تكون عارفة بربّها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مؤثرةً لمرضاته ولمحابّهِ، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحّة لها ولا حياةً البتة إلاّ بذلك، ولا سبيل إلى تلقّيه إلاّ من جهة الرسل.

---

(١) المائدة: ٦.

وما يُظنّ ـ من حصول صحة القلب بدون اتّباعهم ـ فغلط ممن يظن ذلك، وإنما ذلك حياةُ نفسه البهيمية الشهوانية وصحّتها وقوّتها، وحياةُ قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل.

ومن لم يميز بين هذا وهذا، فليبكِ على حياة قلبه: فإنه من الأموات؛ وعلى نوره فإنه منغمس في بحار الظلمات.

(فصل) وأما طب الأبدان، فإنه نوعان: نوعٌ قد فطر الله عليه الحيوانَ ناطقَه وبهيمَه؛ فهذا لا يُحتاج فيه إلى معالجة طبيب: كطب الجوع والعطش والبرد والتعب بأضدادها وما يزيلها.

والثاني ما يحتاج إلى فكر وتأمل: كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة في المزاج، بحيث يخرج بها عن الاعتدال: إما إلى حرارة أو برودة أو يبوسة أو رطوبة أو ما يتركب من الاثنين منها، وهي نوعان: إما مادية وإما كيفية، أعني إمّا أن يكون بانصباب مادة، أو بحدوث كيفية، والفرق بينهما: أن أمراضَ الكيفية تكون بعد زوال المواد التي أوجبتها، فتزول موادها ويبقى أثرها كيفية في المزاج، وأمراض المادة أسبابها معها تمدها، وإذا كان سبب المرض معه فالنظر في السبب ينبغي أن يقع أولا ثمّ المرض ثانياً، ثمّ الدواء ثالثاً.

فالطبيب هو الذي يفرق ما يضر بالإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه، أو ينقصُ منه ما يضرُّه زيادتُه، أو يزيد فيه ما يضره نقصه، فيجلبُ الصحة المفقودة، أو يحفَظها بالشكل والشبه، ويدفعُ العلةَ الموجودة بالضد والنقيض ويخرجها أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية، وسترى هذا كله في هَدي رسول الله ﷺ شافياً كافياً بحول الله وقوته، وفضله ومعونته.

(فصل) فكان من هديه ﷺ فعلُ التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله أو أصحابه، ولكن لم يكن من هديه ولا هَدي أصحابه، استعمال هذه الأدوية المركبة التي تسمى: اقرأ بإذني، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات، وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه، أو يكسر سَورته. وهذا غالبُ طب الأمم على اختلاف أجناسها، من العرب والترك، وأهل البوادي قاطبة، وإنما عُني بالمركبات الروم واليونان، وأكثر طب الهند بالمفردات.

وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء لا يُعدل إلى الدواء، ومتى أمكن بالبسيط لا يُعدل إلى المركب، قالوا: وكل داء قُدر على دفعه بالأغذية والحمية، لم يحاول دفعُه بالأدوية، قالوا: ولا ينبغي للطبيب أن يولَعَ بسقي الأدوية، فإنّ الدواء إذا لم يجد في البدن داء يحلله، أو وجد داء لا يوافقه، أو وجد ما يوافقه فزادت كميتُه عليه أو كيفيته، تشبث بالصحة وعبث بها.

وأربابُ التجارِب من الأطباء طبّهُم بالمفردات غالباً، وهم أحد فِرَق الطب الثلاث.

والتحقيق في ذلك: أنّ الأدوية من جنس الأغذية، والأمّة والطائفة التي غالب أغذيتها المفردات، أمراضها قليلة جداً وطبّها بالمفردات، وأهل المدن الذي غلبت عليهم الأغذية المركّبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة. وسبب ذلك أن أمراضهم في الغالب مركّبة، فالأدويةُ المركبة أنفع لها، وأمراض أهل البوادي والصحاري مفردةٌ، فيكفي في مداواتها الأدوية المفردة. فهذا برهان بحسب الصناعة الطبية.

ونحن نقول: إنّ ههنا أمراً آخرَ نسبة طب الأطباء إليه، كنسبة طبّ

الطرقية والعجائز إلى طبهم، وقد اعترف به حُذاقهم وأئمّتهم، فإن ما عندهم من العلم بالطب (منهم) من يقول: هو قياس؛ (ومنهم) من يقول: هو تجربة؛ (ومنهم) من يقول: إلهامات، ومنامات وحدس صائبٌ؛ (ومنهم) من يقول: أخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية، كما نشاهد السنانير إذا أكلت ذواتِ السموم تعمد إلى السراج فتلغ في الزيت تتداوى به، وكما رؤيت الحيات إذا خرجت من بطون الأرض وقد غشيت أبصارها تأتي إلى الرازيانج فتمرّ عيونها عليها. وكما عُهد من الطير الذي يحتقن بماء البحر عند انحباس طبعه. وأمثال ذلك مما ذكر في مبادئ الطب.

وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضرّه؟ فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي: كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء؛ بل ههنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتدِ إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم، من الأدوية القلبية والروحانية، وقوّة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه، والإلتجاء إليه، والإنطراح والإنكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة والدعاء، والتوبة والإستغفار، والإحسان إلى الخلق، واغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم، على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء، ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولا تجربته ولا قياسه. وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية؛ بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة الأدوية الطرقية عند الأطباء، وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية، ليس خارجاً عنها، ولكن

الأسباب متنوعة، فإن القلب متى اتصل برب العالمين، وخالق الداء والدواء، ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يُعانيها القلب البعيد منه، المعرض عنه، وقد عُلم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة، تعاونا على دفع الداء وقهره، فكيف يُنكر لمن قويت طبيعته ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها بها، وحبّها له، وتنعّمها بذكره، وانصرافِ قواها كلها إليها، وجَمعِها عليه، واستعانتها به، وتوكّلها عليه، أن يكونَ ذلك لها من أكبر الأدوية، وتُوجبَ لها هذه القوةُ دفع الألم بالكلية؟! ولا ينكر هذا إلاّ أجهل الناس وأعظمهم حجاباً، وأكثفُهم نفساً، وأبعدُهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية، فهذان نوعان من الطب النبوي، نحن ـ بحول الله ـ نتكلم عليهما بحسب الجهد والطاقة، ومبلغ علومنا القاصرة، ومعارفنا المتلاشية جداً، وبضاعتنا المزجاة، ولكننا نستوهبُ من بيده الخير كله، ونستمد من فضله، فإنه العزيز الوهاب.

(فصل) من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل داء دواء، فإذا أصيبَ دواءُ الداء برأ بإذن الله ﷻ».

وقال ﷺ: «ما أنزل الله من داء، إلاّ أنزل له شفاء».

وعن أسامة بن شريك، قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «نعم، يا عباد الله تداووا فإن الله ﷻ لم يضع داءاً إلاّ وضع له شفاءاً، غير داء واحد»، فقالوا: ما هو؟ قال: «الهرم».

وعن ابن مسعود يرفعه: «إنّ الله ﷻ لم ينزل داءاً، إلاّ أنزل له شفاءاً، عَلِمَه مَن علمه وجهله من جهله».

فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها.

قوله ﷺ: «لكل داء دواء» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله، تعلّق قلبه بروح الرجاء، وبرد من حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القُوى التي هي حاملة لها فقهرت المرض ودفعته، وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه.

وقال ﷺ في الإحتماء من التخم والزيادة في الأكل على قدر الحاجة، والقانون الذي ينبغي مراعاته في الأكل والشرب: «ما ملأ آدميٌ وعاءاً شرّاً من بطن، بحَسَب ابن آدم لُقيمات يُقِمنَ صلبه، فإن كان لا بدَّ فاعلاً: فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

(فصل) الأمراض نوعان: أمراض مادية تكون عن زيادة مادة أفرطت في البدن حتّى أضرت بأفعاله الطبيعية، الأمراض الأكثرية، وسببها: إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأوّل، والزيادة في القدر الذي يحتاج إليه البدن، وتناول الأغذية القليلة النفع، البطيئة الهضم، والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة فإذا ملأ الآدميُ بطنه من هذه الأغذية، واعتاد ذلك، أورثته أمراضاً متنوعة، منها بطيء الزوال أو سريعه، فإذا توسط في الغذاء، وتناول منه قدر الحاجة، وكان معتدلاً في كميته وكيفيته، كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير.

ومراتب الغذاء ثلاثة:

(أحدها): مرتبة الحاجة، (والثانية): مرتبة الكفاية، (والثالثة): مرتبة الفضلة. فأخبر النبي ﷺ أنه يكفيه لقيماتٌ يقمن صلبه، فلا تسقط قوته ولا تضعف معها فان تجاوزها فليأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثالث للنفَس، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا أورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض له الكرب والتعب، وصار محمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل. هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب وكلّ الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع.

فامتلاء البطن من الطعام مضرٌ للقلب والبدن، هذا إذا كان دائماً أو أكثرياً. وأما إذا كان في الأحيان فلا بأس به، فقد أكل الصحابة بحضرته مراراً حتّى شبعوا، والشبع المفرط يُضعف القُوى والبدن وإن أخصبه. وإنما يَقوى البدنُ بحسب ما يقبل من الغذاء لا بحسب كثرته.

ولما كان في الإنسان جزءٌ أرضيّ، وجزء هوائيّ، وجزء مائيّ قسّم النبي ﷺ طعامه وشرابه ونفسه، على الأجزاء الثلاثة.

[معالجة النبي ﷺ نفسه من المرض]:

(فصل) وكان علاجه ﷺ للمرض، ثلاثة أنواع: (أحدها) بالأدوية الطبيعية. (والثاني) بالأدوية الإلهية. (والثالث) بالمركب من الأمرين.

ونحن نذكر الأنواع الثلاثة من هديه ﷺ؛ فنبدأ بذكر الأدوية الطبيعية التي وصفها واستعملها، ثمّ نذكر الأدوية الإلهية.

وهـذا إمـا يشـير إليـه إشـارة: فـإن رسـول الله ﷺ إنمـا بُعـث هاديـاً، وداعيـاً إلـى الله وإلـى جنّتـه، ومعرّفـاً بـالله، ومبيّنـاً للأمّـة مواقـع رضـاه وآمـراً لهـم بهـا، ومواقـع سـخطه وناهيـاً لهـم عنهـا، ومخبّـرهم أخبـار الأنبيـاء والرسـل وأحـوالهم مـع أممهـم، وأخبـار تخليـق العـالم، وأمـر المبـدأ والمعـاد، وكيفيـة شقاوة النفوس وسعادتها، وأسباب ذلك.

وأمـا طـب الأبـدان، فجـاء مـن تكميـل شـريعته، ومقصـوداً لغيـره، بحيـث إنمـا يُستعمل عنـد الحاجـة إليـه، فـإذا قـدر الإسـتغناء عنـه، كـان صـرفُ الهمـم والقُـوى إلـى عـلاج القلـوب والأرواح، وحفـظ صـحتها ودفـع أسـقامها ممـا يفسـدها هـو المقصـود بالقصـد الأوّل. وإصـلاح البـدن بـدون إصـلاح القلـب لا ينفـع، وفسـاد البـدن مـع إصـلاح القلـب مضـرّتُه يسيرة جـداً، وهـي مضرّة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة. وبالله التوفيق.

ما ورد عنه ﷺ في علاج الحمى:

عـن نـافع، عـن ابـن عمـر، أنّ النبـي ﷺ قـال: «إنمـا الحمّـى أو شـدة الحمّى من فَيح جهنم، فأبردوها بالماء».

وقـد اعتـرف فاضـل الأطبـاء (جـالينوس): بـأن المـاء البـارد ينفـع فيهـا ـ أي فـي الحمـى ـ قـال فـي المقالـة العاشـرة مـن كتـاب (حيلـة البـرء): ولـو أنّ رجـلاً شـاباً، حَسَـنَ اللحـمِ خصـبَ البـدن فـي وقـت القـيظ، وفـي وقـت منتهـى الحمـى ولـيس فـي أحشـاءه ورم، اسـتحمم بمـاء بـارد، أو سـبح فيـه لانتفـع بذلك. ونحن نأمر بذلك بلا توقف.

وقـال الـرازي: فـي كتابـه الكبيـر: إذا كانـت القـوة قويـة، والحمـى حـادّة جـداً والنضـجُ بـيّنٌ، ولا وَرَمَ فـي الجـوف ولا فتـق، ينفـع المـاء البـارد شـرباً،

وإن كان العليل خِصبَ البدن، والزمان حارٌ وكان معتاداً لاستعمال الماء البارد من خارج فليؤذن فيه.

وقال ﷺ: «إذا حُمَ أحدكم فليرشَ عليه الماء البارد ثلاثَ ليالٍ من السَّحر».

وقال ﷺ: «الحمى من كِير جهنم فنحوّها عنكم بالماء البارد».

وقال ﷺ: «الحمى قطعة من النار فأبردوها عنكم بالماء البارد».

وكان ﷺ: «إذا حُمّ دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه، فاغتسل».

وذُكرت الحمى عنده ﷺ فسبّها رجل، فقال ﷺ: «لا تسبّها، فإنها تَنفِي الذنوبَ كما تَنفي النار خَبَثَ الحديد».

لما كانت الحمى يتبعها حميةٌ عن الأغذية الرديئة، وتناول الأغذية والأدوية النافعة، وفي ذلك إعانةٌ على تنقية البدن، ونفي أخباثه وفضوله، وتصفيته من مواده الرديئة، وتفعل فيه كما تفعل النار في الحديد في نفي خبثه وتصفية جوهره، كانت أشبه الأشياء بنار الكير التي تصفي جوهر الحديد. وهذا القدر هو المعلوم عند أطباء الأبدان.

وأما تصفيتُها القلب من وسخه ودرنه، وإخراجها خبائثه فأمرٌ يعلمه أطباء القلوب ويجدونه كما أخبرهم به نبيّهم رسول الله ﷺ ولكن مرض القلب إذا صار ميؤوساً من برءه لم ينفع فيه هذا العلاج.

في علاج استطلاق البطن:

عن أبي سعيد الخدري: أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فقال ﷺ: «أسقِهِ عسلاً»، فذهب ثمّ رجع، فقال: قد سقيتُهُ

فلم يُغن عنه شيئاً، وفي لفظ: فلم يزده إلاّ إستِطلاقاً، مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول له: اسقِهِ عسلاً، فقال له في الثالثة أو الرابعة: «صدق الله وكذَبَ بطنُ أخيك».

والعسل فيه منافع عظيمة: فإنه جلاءٌ للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلل للرطوبات أكلاً وطلاءاً، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم، ومن كان مزاجه بارداً رطباً، وهو مغذّ مليّن للطبيعة، حافظ لقُوى المعاجين ولما استُودِع فيه، مذهبٌ لكيفيات الأدوية الكريهة، منق للكبد والصدر، مدرّ للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شُرب حاراً بدهن الورد نفع من نهش الهوام وشرب الأفيون، وإن شُرب وحده ممزوجاً بماء نفع من عضة الكلب الكَلِب، وأكل الفُطُر القتال، وإذا جعل فيه اللحم الطريّ حفظ طراوته ثلاثة أشهر.

وكذلك إن جُعل فيه القثاء والخيار والقرع والباذنجان، ويحفظ كثيراً من الفاكهة ستة أشهر. ويحفظ جثة الموتى، ويسمّى الحافظ الأمين، وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر قتل قمله وصئبانه وطوّل الشعر وحسّنه ونعّمه، وإن اكتحل به جلا ظلمة البصر، وإن استنّ به بيّض الأسنان وصقّلها، وحفظ صحتها وصحةَ اللثة، ويفتح أفواه العروق ويُدر الطَمثَ، ولَعقُه على الريق يُذهب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخنها تسخيناً معتدلاً، ويفتح سددها، ويفعل ذلك بالكبد والكِلى والمثانة، وهو أقل ضرراً لسَدَد الكبد والطحال من كل حلو.

وهو مع هذا كله مأمون الغائلة، قليل المضار، مضرّ بالعرض للصفراويين، ودفعُها بالخل ونحوه فيعود نافعاً له جداً.

وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب من الأشربة،

وحلو مع الحلو، وطلاء مع الأطلية، ومفرّح مع المفرّحات، فما خُلق لنا شيء في معناه أفضَل منه ولا مثلُهُ ولا قريب منه، ولم يكن معوّل القدماء إلاّ عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسّكّر البتة، ولا يعرفونه؛ فإنه حديث العهد، حدث قريباً.

وكان النبي ﷺ يشربه بالماء على الريق، وفي ذلك سَرّ بديع في حفظ الصحة. لا يدركه إلاّ الفِطن الفاضل. إذا عرف هذا فهذا الذي وصف له النبي ﷺ العسل، كان استطلاق بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء، فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة في نواحي المعدة والأمعاء، فإن العسل فيه جلاء ودفعٌ للفضول، وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة تمنع استقرار الغذاء فيه للزوجتها، فإن المعدة لها خمل كخمل المنشفة، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة أفسدتها وأفسدت الغذاء، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط، والعسل جلاءٌ، والعسل من أحسن ما عولج به هذا الداء، لاسيّما إن مُزج بالماء الحار.

وفي تكرار سقيه العسلَ معنى طبّي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمّية بحسب حال الداء، إن قصر عنه لم يُزله بالكلية، وإن جاوزه أوهن القُوى فأحدث ضرراً آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل سقاه مقداراً لا يفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرر تردادَه إلى النبي ﷺ أكّد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء برئ بإذن الله، واعتبارُ مقادير الأدوية وكيفياتها، ومقدارِ قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب.

وفي قوله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك» إشارةٌ إلى تحقيق نفع هذا

الدواء، وإنّ بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفسه، ولكن لكذبِ البطن وكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمره بتكرار الدواء لكثرة المادة.

وليس طبّه ﷺ كطب الأطباء، فإن طبّ النبي ﷺ متيقن قطعيّ إلهيٌّ صادر عن الوحي ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطبُّ غيره أثره حدس وظنون وتجارب، ولا يُنكَر عدمُ انتفاع كثير من المرضى بطب النبوّة، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول واعتقاد الشفاء له، وكمال التلقي له، بالإيمان والإذعان.

فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور، إن لم يُتلقّ هذا التّلقي له، لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلاّ رجساً إلى رجسهم، ومرضاً إلى مرضهم. وأين يقع طبّ الأبدان منه؟! فطبّ النبوّة لا يناسب إلاّ الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلاّ الأرواحَ الطيبة والقلوب الحية، فإعراض الناس عن طب النبوّة إعراضهم عن الإستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع. وليس ذلك لقصور في الدواء ولكن لخبث الطبيعة، وفساد المحل وعدم قبوله، والله الموفق.

في معالجة المرضى بترك إعطائهم ما يكرهونه من الطعام والشراب وأنهم لا يكرهون على تناولهما:

عن عقبة بن عامر الجُهني، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله ﷻ يُطعمهم ويُسقيهم».

قال بعض فضلاء الأطباء: ما أغزر فوائد هذه الكلمة النبوية، المشتملة على حكم إلهية؛ لاسيّما للأطباء ولمن يعالج المرضى وذلك

أن المريض إذا عاف الطعام أو الشراب، فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهِدة المرض، أو لسقوط شهوته أو نقصانها، لضعف الحرارة الغريزية أو خمودها، وكيفما كان، فلا يجوز حينئذٍ إعطاء الغذاء في هذه الحالة.

واعلم أن الجوع إنما هو طلب الأعضاء للغذاء، لتخلق الطبيعة به عليها عوض ما يتحلل منها، فتجذب الأعضاء القصوى من الأعضاء الدنيا، حتّى ينتهي الجذب إلى المعدة، فيحسّ الإنسان بالجوع فيطلب الغذاء.

وإذا وجد المرض اشتغلت الطبيعة بمادته وإنضاجها وإخراجها عن طلب الغذاء أو الشراب، فإذا أكره المريض على استعمال شيء من ذلك، تعطلت به الطبيعة عن فعلها، واشتغلت بهضمه وتدبيره عن إنضاج مادة المرض ودفعه، فيكون ذلك سبباً لضرر المريض، ولاسيّما في أوقات البُحارين، أو ضعف الحار الغريزي، أو خموده، فيكون ذلك زيادة في البلية، وتعجيل النازلة المتوقّعة.

ولا ينبغي أن يستعمل في هذا الوقت والحال إلاّ ما يحفظ عليه قوّته ويقويها. من غير استعمال مزعج للطبيعة البتة، وذلك يكون بما لَطُف قوامه، من الأشربة والأغذية. واعتدالَ مزاجه، كشراب اللينوفر، والتفاح والورد الطري، وما أشبه ذلك، ومن الأغذية أمراق الفراريج العتدلة المطيبة فقط، وانعاش قواه بالأراييج العطرة الموافقة، والأخبار السارة، فإن الطبيب خادم الطبيعة ومعينها لا معيقها.

واعلم إن الدم الجيد هو المغذي للبدن، وأن البلغم دم فج قد نضج بعض النضج، فإذا كان بعض المرضى في بدنه بلغم كثير وعُدم الغذاء، عطفت الطبيعة عليه وطبخته وأنضجته وصيرته دماً وغذت به الأعضاء واكتفت به عما سواه، والطبيعة هو القوة التي وكّلها الله سبحانه

بتدبير البدن وحفظه وصحته، وحراسته مدة حياته، واعلم أنه قد يُحتاج في الندرة إلى أجبار المريض على الطعام والشراب، وذلك في الأمراض التي يكون معها أخلاط العقل.

وعلى هذا فيكون الحديث من العام المخصوص، أو من المطلق الذي قد دلّ على تقييده دليل، ومعنى الحديث أن المريض قد يعيش بلا غذاء أياماً، لا يعيش الصحيح في مثلها.

وفي قوله ﷺ: «فإنّ الله يُطعمهم ويُسقيهم»: معنى لطيف زائد على ما ذكره الأطباء، لا يعرفه إلاّ من له عناية بأحكام القلوب والأرواح، وتأثيرها في طبيعة البدن وانفعال الطبيعة عنها، كما تنفعل هي كثيراً عن الطبيعة. ونحن نشير إليه إشارة، فنقول:

النفس إذا حصل لها ما يشغلها ـ من محبوب، أو مكروه، أو مَخوف ـ اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب، فلا تُحس بجوع ولا عطش؛ بل ولا حر ولا برد؛ بل تشتغل به عن الإحساس بالمؤلم الشديد الألم فلا تحسّ به. وما من أحد إلا وقد وجد في نفسه ذلك أو شيئاً منه. وإذا اشتغلت النفس بما دهمها وورد عليها لم تُحسّ بألم الجوع.

فإن كان الوارد مفرّحاً قويّ التفريح قام لها مقامَ الغذاء فشبعت به وانتعشت قواها وتضاعفت وجرت الدموية في الجسد حتى تظهر في سطحه فيشرق وجهه وتظهر دمويته، فإن الفرح يوجبُ انبساطَ دم القلب، فينبعث في العروق فتمتلئُ به فلا تطلبُ الأعضاء معلومَها من الغذاء المعتاد، لاشتغالها بما هو أحبّ إليها وإلى الطبيعة منه. والطبيعة إذا ظفرت بما تحبّ آثرته على ما هو دونه.

وإن كان الوارد مؤلماً أو محزناً اشتغلت بمحاربته ومقاومته

ومدافعته عن طلب الغذاء. فهي في حال حربها في شغل عن طلب الطعام والشراب، فإن ظفرت في هذه الحرب انتعشت قواها، وأخلفت عليها نظير ما فاتها من قوة الطعام والشراب، وان كانت مغلوبة مقهورة، انحطت قواها بحسب ما حصل لها من ذلك. وإن كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سِجالاً فالقوة تظهر تارة وتخفى أخرى.

وبالجملة فالحرب بينهما على مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقابلين؛ والنصر للغالب والمغلوب إما قتيل، وإما جريح وإما أسير.

فالمريض له مدد من الله سبحانه يغذيه به زائداً على ما ذكره الأطباء، من تغذيته بالدم، وهذا المدد بحسب ضعفه وانكساره وإنطراحه بين يدي ربه ﷻ، فيحصل له من ذلك ما يوجب له قرباً من ربه، فإن العبدَ أقرب ما يكون من ربه إذا انكسر قلبه، ورحمة ربه قريبة منه، فإن كان ولياً له حصل له من الأغذية القلبية ما تقوى به قُوى طبيعته وتنتعشُ به قواه أعظمَ من قوتها وانتعاشها بالأغذية البدنية، وكلما قَويَ إيمانه وحبُّه لربه وأنسه به وفرحه به، وقوي يقينه بربه، واشتد شوقه إليه ورضاه به وعنه وجد في نفسه من هذه القوة ما لا يعبّر عنه، ولا يُدركه وصف طبيب ولا يناله علمه.

من غَلُظ طبعه وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به؛ فلينظر حال كثير من عشّاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحب ما يعشقونه من صورة أو جاهٍ أو مال أو علم. وقد شاهد الناس من هذا عجائبَ في أنفسهم وفي غيرهم.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: أنه كان يواصل في الصيام (الأيام) ذواتِ العدد وينهى أصحابه عن الوصال، ويقول: «لستُ كهيئتِكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني». ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذي يأكله الإنسانُ بفمه، وإلاّ لم يكن

مواصلاً، ولم يتحقق الفرق؛ بل لم يكن صائماً، فإنه قال: «أظل يُطعمني ربي ويسقيني» وأيضاً: فإنه فرق بينه وبينهم في نفس الوصال وأنه يقدر منه على ما لا يقدرون عليه، فلو كان يأكل ويشرب بفمه: لم يقل: «لستُ كهيئتكم» وإنما فهم هذا من الحديث، من قلّ نصيبه من غذاء الأرواح والقلوب، وتأثيره في القوة وإنعاشِها واغتذائها به، فوق تأثير الغذاء الجسماني. والله الموفق.

[طب أهل البيت عليهم السلام] :

ولنسر الآن في قافلة أهل بيت النبوة الذين هم معدن العلم ومصدر الحِكم وينبوع الفيوضات الإلهية وما ورد عنهم من الطب الروحاني والجسماني، فنقول وبالله التوفيق.

أما النبي صلى الله عليه وآله فقد مرّ اليسير من وصفاته الطبية عليك.

وأما صنوه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فإليك نبذاً موجزة مما يتمّ عنه من اعتنائه البالغ بهذا الشأن قوله المشهور:

«العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان».(١)

وقوله بلفظ ابن شعبة في تحف العقول: «العلم ثلاثة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان».(٢)

وقوله بلفظ الكراجكي في جواهره: «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفةُ الأزمان».(٣)

---

(١) هذا الحديث يؤثر عن النبي صلى الله عليه وآله. أنظر: معدن الجواهر: ٢٥.

(٢) تحف العقول: ٢٠٨.

(٣) معدن الجواهر: ٢٥.

قال الشيخ الخليلي: وله عليه السلام كلمات قيمة في جوامع علم الأبدان، كقوله عليه السلام:

«اكسروا الحمى بالبنفسج والماء البارد».

وقول: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء».

وقوله عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «يا بني ألا أعلّمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب؟» فقال عليه السلام: بلى، قال: «لا تجلس على الطعام إلاّ وأنت جايع، ولا تقم عن الطعام إلاّ وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء، فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب».

وقوله عليه السلام: «من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء، وليؤخر العشاء، ويقلّ غشيان النساء، وليخفف الرداء» يعني (الدين).

وقال عليه السلام: «إن في القرآن لآية تجمع الطب كله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾».

وقال عليه السلام أربع كلمات في الطب، لو قالها بقراط وجالينوس لقدّم أمامها مئة ورقة، ثمّ زيّنها بهذه الكلمات، وهي قوله: «توقوا البرد في أوّله، وتلقوه في آخره، فإنّه يفعل في الأبدان كفعله بالأشجار، أوّله يحرق، وآخره يورق».

وقال عليه السلام: «لا صحة مع النهم».

وقال الباقر عليه السلام: «طب العرب في سبعة: شرطة الحجامة، والحقنة، والحمام، والسعوط، والقيء، وشربة عسل، وآخر الدواء الكي، وربما يراد فيه النورة».

وقال الصادق عليه السلام: «لو اقتصد الناس في المطعم لاستقامت أبدانهم».

وقال عليه السلام أيضاً: «ثلاث يسمّن، وثلاث يهزلن، فأما التي يسمّن: فإدمان الحمام، شمّ الرائحة الطيبة، ولبس الثياب الليّنة، وأما التي يهزلن: فإدمان أكل البيض، والسمك، والضلع»، أي امتلاء البطن من الطعام.

وحدث أبو هفان ـ ويوحنا بن ماسويه الطبيب النصراني حاضر ـ، إن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: «الطبائع أربع: الدم وهو عبد وربما قتل العبد سيّده، والريح وهو عدو إذا سدّدت له باباً أتاك من آخر، والبلغم وهو ملك يدارى، والمرة وهي الأرض إذا رجفت رجفت بما عليها»، فقال ابن ماسويه: أعد عليَّ فو الله ما يحسن جالينوس أن يصف هذا الوصف.

وقال الصادق عليه السلام: «إن المشي للمريض نكس، إنّ أبي كان إذا اعتل جعل في ثوب فحمل لحاجته ـ يعني الوضوء ـ وذاك أنه كان يقول: إن المشي للمريض نكس».

وقال الكاظم عليه السلام: «ادفعوا معالجة الأطباء ما اندفع الداء عنكم، فإنه بمنزلة البناء قليله يجر إلى كثيره».

وقال أيضاً: «الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعوّد بدناً ما تعوّد».

وقال أبو الحسن عليه السلام: «ليس من دواء إلاّ ويهيج داءاً، وليس شيء في البدن أنفع من إمساك البدن إلاّ عما يحتاج إليه».

وقالوا عليهم السلام: «اجتنب الدواء ما احتمل بدنك الداء، فإذا لم يحتمل الداء فالدواء».

إلى غير ذلك مما يدلنا ما لديهم من العناية بالصحة.

ولقد ظهر في الناس من تعاليمهم وإرشاداتهم ما دل على كامل معرفتهم وتمام اطلاعهم على مختلف العلوم، لاسيّما علم الطب، حتّى جمع غير واحد من العلماء جملة من أقوالهم فألفها كتباً قيمة باسم طب النبي، وطب الأئمّة وطب

الرضا، إلى غيرها مما ملأت الكتب وتواترت به الأحاديث الصحيحة، وفي مقدمتها _ الرسالة الذهبية أو المذهبة، التي ألّفها الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بطلب من المأمون الخليفة العبّاسي منه، وفيها فوائد جمة من قواعد الطب وأصول الصحة، وقد أمر المأمون أن تكتب بالذهب، ولذلك سمّيت بالذهبية أو المذهبة، ولم يكن للخليفة عنها غنى برجال الفن المتصلين به، نظير حنا بن ماسويه وجبرائيل ابن بختيشوع، وصالح ابن سلامة الهندي وغيرهم من أطباء البلاط العبّاسي.

وكيف ما كان فإن أهل البيت عليهم السلام قد فاقوا في هذا الفن وامتازوا على جميع أطباء عصرهم لاسيّما الإمام الصادق عليه السلام فقد كان عصره عصر ابتداء النهضة العلمية في الجزيرة، حيث اتجهت الأفكار نحو طلب العلوم، وأقبل الناس على اكتساب المعارف، وكان الوقت ملائماً والظروف مساعدة على بث ما لديه من تلكم الكنوز العلمية الموروثة عن جده الرسول محمّد صلى الله عليه وآله.

لذلك فقد ظهر من أقواله الحكيمة وآرائه الصائبة وأحاديثه العلمية ما طبق الأرجاء وأنار القلوب، وهدى النفوس التائهة، حتّى قصده القاصي والداني بين مستشفٍ بواسطة إرشاداته الطبية القيمة، ومغترف من منهله العلمي العذب النمير.

وها نحن الآن نقدّم للقارئ إضمامة من هاتيك الكنوز العلمية الطبية ما يخص موضوعنا هذا مما ورد عنه عليه السلام في علم الطب خاصة.

الدورة الدموية:

جاء في كتاب (توحيد المفضّل)، وهو جملة محاضرات ألقاها الإمام عليه السلام على تلميذه (المفضل بن عمر) في إثبات التوحيد، من

المسائل الطبية الجليلة ما لم يحلم بها الأطباء في ذلك العصر، ولم يدركوها إلاّ بعد اثني عشر قرناً، عندما ظهر الأستاذ الدكتور (هارفي) الطبيب الشهير المعروف لدى الأطباء (بمكتشف الدورة الدموية)، واكتشف ذلك الإكتشاف الذي افتخر به الغرب حتّى جعله من معجزات عصر الإختراعات، والذي قلّب الطب ظهراً على عقب.

وهو في الحقيقة، ولدى التأمل، اكتشاف كان قد ذكره الإمام الصادق عليه السلام في طي كلامه مع المفضل، فلو نظرت إليه وتأملته لعلمت علم اليقين، أن هذا المكتشف العظيم لم يأتِ بشيء جديد، ولم يكن إلاّ عيالاً على ما قاله أبو عبد الله الصادق عليه السلام قبل عدة قرون، تأمل قوله عليه السلام حيث يقول:

«فكّر يا مفضّل في وصول الغذاء إلى البدن، وما فيه من التدبير، فإنّ الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه، وتبعث صفوه إلى الكبد في عروق رقاق واشجة بينهما، وقد جُعلت كالمصفى للغذاء، لكيلا يصل إلى الكبد منه شيء فينكأها، وذلك أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف، ثمّ أن الكبد تقبله فيستحيل فيها بلطف التدبير دماً، فينفذ في البدن كله في مجار مهيأة لذلك بمنزلة المجاري التي تهيأ للماء حتّى يطرد في الأرض كلها، وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مغايض أعدت لذلك، فما كان منه من جنس المرة الصفراء جرى إلى المرارة، وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال، وما كان من جنس البلة والرطوبة جرى إلى المثانة، فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء منه مواضعها، واعداد هذه الأوعية فيه لتحمل تلك الفضول، لئلا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه، فتبارك من أحسن التقدير وأحكم التدبير»[1] انتهى.

---

(١) توحيد المفضل: ١٩.

أقول: هكذا ورد عنه عليه السلام وهو صريح في بيان كيفية الدورة الدموية على حسب ما وصل إليه الطب الحديث بعدما يناهز الإثنى عشر قرناً، مضافاً إلى ما لوّح فيه إلى وظائف الجهاز الهضمي والجهاز البولي، وإلى وظيفة المرارة والطحال والكبد والمثانة، كما أنه عليه السلام أشار أيضاً بقوله: «لئلا ينتشر في البدن فيسقمه وينهكه» إلى ما أثبته القرن العشرين من التسمم البولي الحاصل من رجوع البول من المثانة إلى الدم عندما لم يخرج منها فينتشر بواسطة الدم في جميع أعضاء البدن فيسمه ويسقمه، وإلى التسمم المعدي الحاصل من تعفن الفضلات المعدية غير المندفعة منها والتي تحدث برجوعها متعفنة إلى البدن إلتهابات توجب تسممه وانتهاكه، فتأمل.

وصفاته عليه السلام الطبية:

ليس الإمام عليه السلام سوى ما اختاره الله بلطفه العام على العباد، خلفاً عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله ليرجع الخلق إليه في جميع مهمّاتهم، ويهرع الناس نحوه في كل حادث، لا يرون منه ملجأ إلاّ لديه، سواءاً كانت تلك المهمة روحية أم بدنية، أخروية أم دنيوية؛ لأنه هو الكفيل بإرشادهم إلى صالح معادهم ومعاشهم، لذلك فقد كانوا يردون على الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام من كل فج وقطر ليسألوه عن مشكلة في الدين أو ملمة في الدنيا، فيجدون عنده الجواب الكافي والعلاج الشافي، وكثيراً ما كان الوفاد تستشفي بوصفاته النافعة وتستوصفه في كل ما يعتريها من الأسقام والأمراض وهو عليه السلام يجيبهم بما يجدون به الشفاء العاجل والنفع الآجل.

أجل وكيف لا يكون كذلك، وهو طبيب النفوس والأرواح، وهادي الأمّة إلى الصلاح والإصلاح، وها إني أذكر لك بعض وصفاته

الطبية في علاج ما يُسأل عنه من الأمراض، لتعلم أنه عليه السلام الطبيب العالم والإمام المرشد، وإليك ذلك.

١ ـ الصداع:

عن سالم بن إبراهيم عن الديلمي عن داود الرقي قال: حضرت أبا عبد الله الصادق عليه السلام وقد جاءه خراساني حاج، فدخل عليه وسلم، وسأله عن شيء من أمر الدين، فجعل الصادق عليه السلام يفسّره له، ثمّ قال له: يا ابن رسول الله، ما زلت شاكياً منذ خرجت من منزلي من وجع الرأس، فقال له عليه السلام: «قم من ساعتك هذه، فادخل الحمام، ولا تبتدأن بشيء حتّى تصب على رأسك سبعة أكف ماء حار، وسم الله تعالى في كل مرة، فإنك لا تشتكي بعد ذلك منه أبداً»، ففعل ذلك وبرئ من ساعته.[1]

٢ ـ الزكام:

شكا إليه بعض أصحابه الزكام، فقال عليه السلام: «صنع من صنع الله، وجند من جنوده بعثه إلى علتك ليقلعها، فإذا أدت قلعه، فعليك بوزن دانق شونيز، ونصف دانق كندس، يدق وينفخ في الأنف، فإنه يهذب الزكام، وإذا أمكنك أن لا تعالجه بشيء فافعل، فإن فيه منافع كثيرة».[2]

٣ ـ ضعف البصر:

شكا بعض أصحابه فتاة له ضعف بصرها، فقال له عليه السلام: «اكحلها بالمر والصبر والكافور أجزاء سواء»، قال: فكحلتها فانتفعت به.[3]

---

(١) طب الأئمة: ٧١.

(٢) طب الأئمة: ٦٤.

(٣) أنظر: الفصول المهمة ٣: ١٣٨.

٤ ــ بياض العين:

في طب الأئمّة: شكا إلى أبي عبد الله عليه السلام رجل بياضاً في عينه، فأمره أن يأخذ فلفلاً أبيض، ودار فلفل، من كل واحد درهمين، ونشادر صافي جيد وزن درهم، فيسحقها كلها، ثمّ ينخلها ويكتحل بها في كل عين ثلاث مراود، وأن يصبر عليها ساعة، فإنه يقطع البياض، وينقي لحم العين، ويسكن الوجع بإذن الله، ثمّ يغسل عينيه بالماء البارد، ثمّ يتبعه بالأثمد اكتحالاً.[١]

٥ ــ وجع البطن واسهالها:

وجاءه رجل فقال له: يا بن رسول الله إنّ ابنتي ذبلت، وبها البطن، فقال له عليه السلام: «ما يمنعك من الأرز مع الشحم»، ثمّ علّمه طريقة طبخه، ففعل ذلك كما أمره، فشفيت ابنته به.[٢]

٦ ــ الإسهال:

عن عبد الرحمن بن كثير، قال: مرضت بالمدينة، وأطلق بطني، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام وأمرني أن آخذ سويق الجاورس، وأشربه بماء الكمون (أو السكمون)، ففعلت فأمسك بطني.[٣]

٧ ــ قراقر البطن مع الألم:

شكا ذريح قراقر في بطنه إليه عليه السلام فقال له: «أتوجعك؟» قال: نعم، فقال له عليه السلام: «ما يمنعك من الحبة السوداء والعسل»، فاستعمله فنفعه.[٤]

---

(١) أنظر: طب الأئمة: ٨٧.

(٢) أنظر: الكافي ٦: ٣٤١.

(٣) أنظر: الكافي ٦: ٣٤٥.

(٤) أنظر: طب الأئمّة: ١٠١.

٨ ـ الرياح الموجعة:

كتب جابر بن حسان الوصفي إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال: يا بن رسول الله، منعتني ريح شابة شبكت بين قرني إلى قدمي، فادعُ الله لي، فدعا له وكتب إليه: «عليك بسعوط العنبر والزئبق، تعافى إن شاء الله». ففعل ذلك فعوفي.[١]

٩ ـ ضعف البدن:

قال له رجل: إني أجد الضعف في بدني، فقال له عليه السلام: «عليك باللبن فإنه ينبت اللحم ويشد العظم»، فقال له آخر: إني أكلت لبناً فضرني. فقال له عليه السلام: «ما ضرك قط، ولكنك أكلته مع غيره فضرك الذي أكلته معه، فظننت أن ذلك من اللبن».[٢]

١٠ ـ حمى الربع:

عن عبد الله بن بسطام عن كامل عن محمّد بن إبراهيم الجعفي عن أبيه قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال لي عليه السلام: «مالي أراك شاحب الوجه؟» قلت: إن بي حمى الربع يا سيدي، فقال عليه السلام: «أين أنت عن المبارك الطيب، اسحق السكر ثمّ خذه بالماء واشربه على الريق عند الحاجة إلى الماء»، قال: ففعلت ذلك فما عادت الحمى بعد.[٣]

١١ ـ المبطون مع الألم:

عن خالد بن نجيح قال: شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام وجع بطني، فقال لي: «خذ الأرز فاغسله ثمّ رضه وخذ منه قدر راحة ـ راحة

---

(١) أنظر: طب الأئمة: ٧٠.

(٢) أنظر: الكافي ٦: ٣٣٦.

(٣) أنظر: الكافي ٨: ٢٦٥.

اليد ـ في كل غذاء»، ثمّ قال: «أطعموا المبطون خبز الأرز، فما دخل جوف مبطون شيء أنفع منه، أما إنه يدبغ المعدة ويسلّ الداء سلاً».[١]

١٢ ـ الوضح والبهق:

شكا رجل ذلك إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال له عليه السلام: «ادخل الحمام وخذ معك الحنا بالنورة واطل بهما، فإنك لا تعاين بعد ذلك شيئاً»، قال: فو الله ما فعلت ذلك غير مرة واحدة حتّى عافاني الله تعالى.[٢]

١٣ ـ البلغم الكثير:

قال عليه السلام: «خذ من علك الرومي وجزءاً من الكندر وجزءاً من الصعتر وجزءاً من النانخواه وجزءاً من الشونيز ودق كل واحد على حدة دقاً ناعماً ثم ينخل ويُعجن بالعسل، ويؤخذ منه كل ليلة قدر البندقة فإنه نافع إن شاء الله».[٣]

١٤ ـ شدة البول:

عن الفضل قال: شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام إني ألقى من البول شدة، فقال عليه السلام: «خذ من الشونيز آخر الليل» فأخذت منه مراراً فعوفيت.[٤]

١٥ ـ قلة الولد:

شكا عمر بن أبي حسنة الجمال إليه عليه السلام قلة الولد، فقال له: «استغفر الله وكل البيض والبصل»، وعنه عليه السلام: «من عدم الولد فليأكل البيض وليكثر».[٥]

---

(١) أنظر: الكافي ٦: ٣٤٢.

(٢) أنظر: طب الأئمة: ٧١.

(٣) أنظر: بحار الأنوار ٥٩: ٢٠٤.

(٤) أنظر: بحار الأنوار ٥٩: ٢٢٩.

(٥) أنظر: الكافي ٦: ٣٢٤.

١٦ ـ ضعف الباه:

في طب الأئمّة: قال رجل لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: سيدي إني أشتري الجواري وأحب أن تعلمني شيئاً أتقوى به عليهن، فقال عليه السلام: «خذ البصل الأبيض فقطعه واقله بالزيت، ثمّ خذ بيضاً وأنفذه في قسعة وذر عليه شيئاً من الملح، ثمّ اكببه على البصل والزيت، واقله، وكل منه.» فقال الرجل: ففعلته، فكنت لا أريد منهم شيئاً إلاّ نلته.[1]

إلى كثير وكثير غير ذلك لا تسعه هذه الصفحات الوجيزة.

أضف إلى ذلك كله ما ورد عنه عليه السلام في الفواكه والحبوب والألبان والأدهان والأشربة والاستشفاء بها:

أقواله عليه السلام في خواص بعض النباتات:

لقد أصبح الطب الحديث ـ كما تشهد به الصحف الطبية والمجلات الصحية العلمية ـ يتراجع عند بعض النطس من الأطباء إلى عصر الأعشاب والنباتات، وينظر إليها نظر المقدر لمنافعها الصحية، والمعتبر لنجاح أثرها الطبيعي في معالجة الأدواء المختلفة والأمراض الكثيرة، كما أصبحت الأطباء في مختلف الظروف والمناسبات تحث مرضاها على استعمالها، ذلك لما وجدت فيها من بساطة الإستعمال، ونجاح الأثر، وعدم الضرر أو قلته.

ولا عجب، فإن تقدم الفكر البشري، والسعي وراء طلب الحقيقة لا بدّ وأن يصلا بالباحث من ذوي العقول السليمة والأفكار الصافية، إلى كنه بعض ما أودع الخالق الحكيم في تلك النباتات الطبيعية من المنافع والآثار، التي خلقت هي لأجلها، ونبتت للإستثمار بها.

---

(١) أنظر: طب الأئمّة: ١٣٠.

فإذا ما غفل أولئك الفطاحل من الأطباء والعلماء عن ذكر فوائدها أو ذهل المجربون عن استعمالها في مواضعها طيلة هذه المدّة المديدة.

فإن علماء القرآن وأئمة الدين الحنيف لم يغفلوها؛ بل ذكروا من فوائدها وخواصها، ما ملأ الكتب، واستفاضت به الأحاديث الصحيحة المروية عنهم.

أنظر إلى كتاب طب النبي وطب الأئمّة، وطب الرضا عليه السلام، وكتاب كشف الأخطار، وكتاب البحار وغيرها من الكتب تجد فيها ما يغنيك ويغنينا عن الإطالة في هذا المقام.

[**طب الإمام الصادق عليه السلام المقارن**] :

ولكي لا نخرج عن موضوعنا، وهو البحث عن طب الإمام الصادق عليه السلام فإنا نذكر لك بعض أقواله الطبية وإرشاداته الصحية في النباتات التي لم تدرك الأطباء منافعها إلاّ بعد ردح من الزمن، ثمّ نرجئ باقي أقواله الكثيرة فيها إلى مفصلات الكتب.

وإليك بعضها مع ذكر أقوال الأطباء المطابقة لها في هذا العصر، نقدمها كنموذج لما أردناه:

١ ــ الثوم:

قال الإمام عليه السلام: «تداووا بالثوم ولكن لا تخرجوا إلى المسجد».[(١)]

وقال عليه السلام: قال النبي صلى الله عليه وآله: «كلوا الثوم فإنه شفاء من سبعين داء».[(٢)]

كلمة ألقاها الإمام عليه السلام على أصحابه مرشداً لهم ولكن أتراهم عرفوا

---

(١) أنظر: مكارم الأخلاق: ١٨٢.

(٢) نفس المصدر.

الأدواء التي يشفيها هذا النبات العجيب؟ اللهم لا، حتّى كشفها اليوم علم القرن العشرين، وأظهر مغزى قوله وما أراد بقوله ﷺ، بعد أن كان مختفياً على الكثير، ولقد نشرت الصحف الفرنسية مقالاً للدكتور (ريم) عربته محكمة الحكمة النباتية تحت عنوان (هنيئاً لمن يحب الثوم) جاء فيه:

ويسرك أن تعلم أن علماء الطب، قد أعادوا الآن إلى هذا النبات مكانه اللائق به في (الفارماكوبيا) الحديث وذكروا أن العمال الذين شادوا هرم خوفو سنة (٤٥٠٠ ق م) كانوا يكثرون من أكل الثوم، لتقوية أبدانهم ووقايتهم من الأمراض.. وجاء في محل آخر من المجلة قوله:

وقد أظهرت تجارب الأطباء المشهورين مثل (سالين) و(بيروت) و(لوثر) و(دوبريه) وغيره: أن الثوم يذيب البللورات التي تجتمع في البنية فتسبب تصلب الشرايين، ويخفض ضغط الدم في الشرايين أيضاً.

وعلى هذا فقد ثبت في الطب الحديث: أن الثوم منشط للعضلات القلبية، وبهذا التنشيط تنتظم الدورة الدموية، وهو منقٍّ فعال للدم، وبهذا النقاء يتغلب البدن على أمراض فساد الدم، كعسر الحيض عند النساء، وكالشيخوخة المبكرة والبواسير، الروماتزم، وهو مطهر للمسالك التنفسية والشعبية، وبهذا التطهير يفيد الربو (ضيق النفس) ويشفي بعض أنواع السل الرئوي، لاسيّما إذا كان الثوم ممزوجاً مع اللبن، وذلك لتأثيره على ميكروب (كوخ) سبب السل المباشر، وهو موجد للمناعة في البدن ضد كثير من الأمراض، مثل الأنفلوانزا، وحمى الضنك وغيرهما.

وهو محسن للون البشرة، محمّر للوجه، ومطهر للأمعاء من التعفّنات لاسيّما في الأطفال، وبذلك يكون واقياً من الإصابة بالتيفوئيد ومفيداً للخناق (ديفتريا)، ومسكناً للسعال الديكي، إلى غير ذلك.

وقد قيل: إن البلاد التي يكثر فيها استعمال الثوم لا بدّ وأن تطول أعمار أهلها، وأن يتمتعوا بصحة جيدة.

مضافاً إلى ما فيه من تطهير التعفنات الداخلية، والإلتهابات المعوية والقروح المعدية، مزمنة كانت أو حادة، كما أنه يدر الحيض والبول وينفع الحصى في الكلى، والديدان الخيطية في الأطفال.

هذا بعض ما وقفنا عليه مما وصل إليه الأطباء من فوائد هذا النبات النافع، وقد أرجأنا معرفة باقي السبعين داءاً المشار إليها في الحديث إلى مفصلات الكتب الطبية، فانظر إلى جوامع كلم الإمام الطبية وما أشار إليه عليه السلام وهو في عصر لا يمكن أن يدرك أهلوه ما أدركه أهل هذا العصر بعد حدوث الوسائل ونمو العقل البشري بالتجارب واتساع العلوم.

٢ ـ البصل:

قال أبو عبد الله عليه السلام: «كل البصل فإنّ له ثلاث خصال: يطيّب النكهة، ويشد اللثة، ويزيد في الماء والجماع».[(١)]

وقال عليه السلام أيضاً: «البصل يطيب النكهة، ويشدّ الظهر، ويرق البشرة».[(٢)]

وقال عليه السلام أيضاً: «البصل يذهب بالنصب، ويشدّ العصب، ويزيد في الخطا، ويزيد في الماء، ويذهب بالحمى».[(٣)]

هذا قول الإمام الصادق عليه السلام منذ القرن الثاني للهجرة، وقبل اكتشاف منافعه في الطب؛ بل يوم كان ولم ينظر إليه بعين الإعتبار، أما اليوم وقد أخذت التجارب تحوم حول هذه النباتات الطبيعية لتدرك ما

---

(١) أنظر: الكافي ٦: ٣٧٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

أودع فيها من الأسرار والمنافع، فقد تمكن الدكتور الافرنسي (لاكوفسكي) بعد الإختبارات العديدة من تقرير فوائد البصل النيء مثل استخراج فصل خاص منه لمكافحة داء السرطان، ذلك الداء الذي ما زال سراً من الأسرار، والذي أتعب العلماء كثيراً في اكتشاف ميكروبه.

قال الدكتور (لاكوفسكي): ما زلنا نواصل التجارب، ونأمل أن يصبح البصل النيء في المستقبل من أهم العلاجات الطبيعية لطائفة من الميكروبات.

وقال الدكتور (دامر): البصل طعام ودوام في وقت واحد، ويستعمله الأطباء لاستدرار البول وأمراض الكلى وللاستسقاء، ويفضل أكله نيأً.

وقال دكتور آخر: إن البصل يحتوي على مادة لها قيمتها الطبية في تخفيف الآلام في الأنف والحلق، ومجاري التنفس، إلى غير ذلك.

هذا ما وصل إليه الطب الحديث من منافع البصل، والمستقبل كفيل بمعرفة باقي ما ذكره الإمام منها.

٣ ـ الفجل:

قالت الأطباء في خواص هذا النبات: إنه معرز للبول، منبّه للمعدة على الطعام، ومقبلها، ومنبه لعصارتها، ومسهل للهضم، ويعالج به الروماتزم، وهو ملطف ومحلل للأرياح (الغازات) وقد يولدها، ومطهر للصدر، ومشهي للطعام، وشاف للسعال مسلوقاً، ومفتّت لحصى الكبد ومخرج للبلغم.

وقد قال الإمام عليه السلام قبل اثني عشر قرناً:

«كل الفجل فإن فيه ثلاث خصال: ورقه يطرد الرياح، ولبّه يسهل البول ويهضم، وأصوله تقطع البلغم».[١]

---

(١) أنظر: الكافي ٦: ٣٧١.

٤ ـ الجزر:

قالت الأطباء في خواصه: الجزر يحتوي على مقدار من السكر النباتي وهو سريع التمثل، عسر الهضم في معد الأطفال، يفيد عصيره لليرقان، ويكون مع العسل مقوياً للباه، وكذلك يفيد في علاج الكبد والأمعاء، ويوصف للمصابين بضيق الصدر، ومرض الأعصاب، ويساعد في نمو أجسام الأطفال، ويزيل الرمل، ويقضي على الديدان إذا أكل غير مطموخ، ويزيد الدم وينشطه في البدن، إلى غير ذلك من الخواص التي أدركها الطب اليوم ونصحت به الأطباء.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في حديث روي عنه: «الجزر أمان من القولنج، ومفيد للبواسير، ومعين على الجماع».[١]

«أكل الجزر يسخن الكليتين ويقيم الذكر».[٢]

٥ ـ الباذنجان:

قالت الأطباء في منافعه وخواصه: الباذنجان غذاء ملائم لأكثر الأمراض، فهو مقو للمعدة، وملين للصلابات، ومعالج مدر للبول، ومطبوخه ينفع الطحال والمرة السوداء.

قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام:

«كلوا الباذنجان، فإنه جيّد للمرة السوداء، ولا يضرّ الصفراء».[٣]

«كلوا الباذنجان، فإنه يذهب الداء ولا داء له».[٤]

---

(١) أنظر: الكافي ٦: ٣٧٢.

(٢) أنظر: الكافي ٦: ٣٧١.

(٣) أنظر: طب الأئمة: ١٣٩.

(٤) أنظر: الكافي ٦: ٣٧٣.

٦ ـ القرع (الدبا):

قالت الأطباء فيه: الدبا أو القرع وهو اليقطين أيضاً: مبرّد ومرطّب للدماغ، ومفتّح للسدد، ومدر للبول، وملين للمعدة، لاسيّما معدة المحرورين، ومفيد لليرقان والحميات الحارة، ويستعمل كثيراً لذوي الأرق الشديد، وأما الذين تعدوا منتصف العمر وانحطت قواهم وعقولهم فعليهم بأن يكثروا من أكل القرع، فإن فيه مزايا خاصة لتجدد القوة والأنسجة.

وقال الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام: «الدبا يزيد في العقل والدماغ، وهو جيد لوجع القولنج».[1]

أقواله عليه السلام في بعض الفواكه والخضر:

يؤكد العلم أن للفواكه والخضروات تأثيراً خاصاً في سير بعض الأمراض؛ بل أكثرها لذلك ترى أكثر الأطباء ينصح بالاكثار من أكلها، لاسيّما المصابين بالرئبة والنقرس وأشباهها، ومما لا شكّ فيه أن تاثير الثمار في الجسم البشري كسواها من أنواع الغذاء، أعني أن ذلك تابع لتركيبها الكيماوي، ونسبة المواد الحمضية والسكرية والآزوتية الموجودة فيها، لذلك ترى أن البعض منها هاضماً، والبعض الآخر مليناً، وقسماً مدراً، ورابعاً مقوّياً، إلى غير ذلك من الخواص والتأثيرات في الأبدان.

ثمّ ليعلم أنّ أهم ما يلحظه علم حفظ الصحة فيها ويأمر به الأطباء مرضاهم في إرشاداتهم الصحية قبل ملاحظة خواصها ومنافعها، هو تنظيفها وغسلها مما لصق بها من الخارج، كالغبار، والتراب، وما علق

---

(١) أنظر: طب الأئمّة: ١٣٨.

بأيدي الفلاحين، والباعة، من كل ما يحمل الجراثيم الخارجية، فإنه إذا أكلها الإنسان غير مطهّرة بالماء دخلت البدن، وهي حاملة لتلك الجراثيم واستوطنت المعدة، فيحدث عند ذلك ما كان يحاذر منه، من فتك الميكروب في الجسم.

وعلى هذا ترى الأطباء لا زالوا ينصحون مرضاهم ومن استشارهم بغسل كل فاكهة قبل أكلها، ويحذرونهم من أكلها قبل الغسل.

وقد أمر الإمام الصادق عليه السلام بذلك قبل أن يدرك الطب ذلك، وقبل أن يلتفت إليه أي معالج وطبيب.

حيث يقول عليه السلام: «إن لكل ثمرة سماً، فإذا أتيتم بها فأمسّوها بالماء، واغمسوها فيه».[1]

وإليك بعض تلك الفواكه والخضر على سبيل المثال، إذ لم يمكن بيان كل ما ورد عنه عليه السلام في مثل هذا الكتاب:

١ ـ العنب:

قال الإمام عليه السلام: «العنب (الزبيب الطائفي خ ل) يشد العصب، ويذهب النصب، ويطيّب النفس».[2]

وقال عليه السلام: «شكا نبيّ من الأنبياء إلى الله الغم، فأمره بأكل العنب»، وفي لفظ: «إن نوحاً عليه السلام شكا إلى الله الغم فأوحى الله إليه أن كل العنب».[3]

وقال الأطباء: إن للعنب فعلاً ثلاثياً، فهو مسهل للمعدة، ومنقٍّ للدم، ومغذٍّ للبدن، وعصيره مجدد للقوى ومنبّه للدورة الدموية، ومفيد

---

(١) بحار الأنوار ٦٣: ١١٨.

(٢) الكافي ٦: ٣٥٢.

(٣) الكافي ٦: ٣٥٠ و٣٥١.

للتخمرات المعدية، ونافع في مداواة الكبد والكليتين، ويشفي من داء الحميات، وأن المداواة به تفيد في الدسبيسيّا، (سوء الهضم) والنقرس وأمراض القلب، والصفراء والريح والبواسير، ويخفف من وطأة السل والسرطان، وفيه من الفيتامينات (أ ـ بي ـ سي).

ويقول علماء الطب الكيماوي: إنه ينشط عصارة الببسين في المعدة، وينفع الطحال واحتقان النخاع، وفيه شيء من الأرسنيك (مستحضر من سم الفأر)، به يجمل الوجه والبشرة، وعلى هذا قد يفيد المصابين بالزهري (السفلس) والسل والسرطان.

فتأمل كلمات الإمام عليه السلام على اختصارها، تراها تشير إلى أكثر هذه المنافع التي أدركتها الأطباء، فإن شد العصب وذهاب النصب، وطيب النفس نتاج أكثرها.

٢ ــ التفاح:

قال الإمام عليه السلام: «كل التفاح فإنه يطفي الحرارة، ويبرد الجوف، ويذهب الحمى».[١]

وقال عليه السلام: «لو علم الناس ما في التفاح ما داووا مرضاهم إلاّ به، إلاّ أنه أسرع شيء منفعة للفؤاد خاصة، فإنه يفرحه».[٢]

وقال عليه السلام: «أطعموا محموميكم التفاح، فما شيء أنفع من التفاح».[٣]

هذا ما ذكره الإمام عليه السلام عنه في كلماته القصار الجامعة لكل ما أطراه الأطباء.

---

(١) المحاسن ٢: ٥٥١.

(٢) الكافي ٦: ٣٥٦.

(٣) المحاسن ٢: ٥٥١.

قال الأطباء فيه: التفاح مفرح ومقوّ للقلب والدماغ والكبد أكلاً وشماً، وهو مفيد للخفقان والربو (ضيق النفس) ومصلح لضعف فم المعدة، ومنبّه لشهوة الطعام، ومطبوخه مصلح للسعال، وهو مخفف لأمراض الجلد وجالب للنعاس.

٣ ـ الرمان:

قال الإمام عليه السلام: «أطعموا صبيانكم الرمان فإنه أسرع لشبابهم».(١)

وقال عليه السلام: «كلوا الرمان بشحمه فإنه يدبّغ المعدة، ويزيد في الذهن».(٢)

وقال الأطباء: الرمان مصفّ للدم، ومولد للخلط الصالح، ومنعظ المحرورين، ومفتح للسدد، وملين للبطن، ومدرّ للبول، ومقوّ للكبد ومفيد لليرقان والطحال، وخفقان القلب، والسعال الحاد، وهو مصف للصوت ومحسن لرونق الوجه، ويروى به البدن، وينفع من الديدان.

أنظر إلى كلمة (أسرع لشبابهم) تجد جلّ هذه الخواص التي ذكرتها الأطباء موجودة فيها، إذ لا يسرع شبابهم إلاّ لذا صفى الدم وتولد الخلط الصالح وقوي الكبد وازداد رونق الوجه وحصل رواء البدن.

ثمّ أنظر إلى قوله عليه السلام: «يدبغ المعدة» فإن المعدة إذا دبَغت قويت على الهضم، والغذاء إذا هضم جيداً أولد الدم الصالح، وإذا صلح الدم صلح البدن، وإذا صلح البدن زالت عنه كل ما ذكره الأطباء من الأمراض، فيالها من كلمة جامعة لا يفهمها أهل ذلك العصر، ويدرك مغازيها العلم الحديث.

---

(١) المحاسن ٢: ٥٤٦.

(٢) المحاسن ٢: ٥٤٢.

٤ ـ السفرجل:

قال فيه الإمام الصادق عليه السلام: «السفرجل يحسّن الوجه، ويجم الفؤاد».[١]

وقال عليه السلام: «من أكل سفرجلة على الريق طاب ماؤه وحسن ولده».[٢]

وقال عليه السلام: «أكل السفرجل قوة للقلب، وذكاء للفؤاد».[٣]

هكذا وصفه الإمام عليه السلام وهو لعمري لا يعدو أقوال الأطباء بعد التجارب والتحقيق العلمي والعملي.

قال الأطباء: السفرجل يحسن الوجه، وهو مفرح ومقوّ للقلب والدماء والمعدة، ومسرّ للروح الحيوانية والنفسانية، ومنعش لكثير من الأعضاء، كالكلية والمثانة، لذلك يدر البول ويلين المعدة ويخفف من آلامهما.

٥ ـ التين:

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن التين يذهب بالبخر ويشد العظم، وينبت الشعر ويذهب بالداء، ولا يحتاج إلى دواء».[٤]

ذكر الإمام عليه السلام أكثر خواص هذه الفاكهة على مقدار إدراك سائليه، ولكن العلم والتجارب أثبتها وأدركت غيرها.

قال الأطباء: إن التين هو الثمر المحتوي على العناصر المغذية والمادة السكرية التي تفيد الجسم فائدة جلية، فهو يحسّن الهضم وينظم الإفراز ويقوي الجسم وينضّر الوجه وينشط العضلات، وإذا أخذ ليلاً نظم حركات الأمعاء واكسب الجسم صحة ونشاطاً.

---

(١) المحاسن ٢: ٥٤٩.

(٢) الكافي ٦: ٣٥٧.

(٣) بحار الأنوار ٦٣: ١٧٠.

(٤) الكافي ٦: ٣٥٨.

وبالجملة فهو لذة وغذاء وصحة، وقيل: إنه يفيد في علاج الكبد، وفساد الدم، ويوصف لدائي السل والسرطان.

٦ ـ التمر:

قال الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام وقد وضع بين يديه طبق فيه تمر: «ما هذا؟» فقيل له: البرني فقال: «فيه شفاء».[١]

وقال عليه السلام: «إن فيه شفاء من السم، وإنه لا داء فيه ولا غائلة، وإن من أكل سبع تمرات عجوة عند منامه قتلت الديدان في بطنه».[٢]

أراد الإمام عليه السلام أن يحث الناس على أكله بقوله: «فيه شفاء»، وبقوله: «لا داء فيه ولا غائلة»، دون أن يفصل منافعه وخواصه لما فيه من كثرة الفوائد التي لا يستغنى عنها، ولكن العلم أظهر خواصه وصرّح بها بعده إذ قال الأطباء: إن في التمر فوائد طبية كثيرة، فهو يسخن البدن ويخصبه ويولد دماً غليظاً وإن نقّع في الحليب نفع من ضعف الباه، ومغليه يفيد في الآفات الإلتهابية، والسعال اليابس وللالتهابات الرئوية وتهيّجات الطرق البولية.

أما البسر فهو نافع في نفث الدم والإسهال وإصلاح اللثة، إلى غيرها من المنافع، وقيل إنه نافع للسرطان أيضاً ذلك لما يحتوي عليه من مادة (الماغنيزيوم) التي لها العلاقة الوثيقة مع السرطان، ولقد ثبت لدى المتتبعين أن أهالي الأراضي التي تزرع التمر بكثرة تكون قليلة الإصابة بهذا المرض، وسوف يظهر مستقبل الطب أكثر من هذه الخواص لهذا الثمر النافع الطيب حتّى يعلم مغزى كلمة الإمام عليه السلام في قوله فيه: «فيه شفاء ولا داء فيه». التي تشير إلى كثرة فوائده وخواصه، فيا لها من كلمة جامعة.

---

(١) أنظر: الكافي ٦: ٣٤٨.

(٢) أنظر: مكارم الأخلاق: ١٦٨.

٧ ــ الخس:

قال أبو عبد الله عليه السلام: «عليكم بالخس فإنه يصفي الدم».(١)

وقال الأطباء: إن الخس لغني بأنواع الفيتامينات، وفيه كمية كبيرة من الأملاح المعدنية، بشرط أن يؤكل منه ما كان عرضه على الشمس أكثر لا ما اختبأ داخله.

وقال الكيماوي (نيومان): الخس بوفرة غناه بالحديد، يزيد كريات الدم الحمراء فيزيد الإحمرار في خدود آكليه وشفاههم، ويهدئ الأعصاب ويجلب النعاس ويولي العينين بريقاً، ويزيد في لون الشعر، وكله من تنقية الدم، فتأمل في كلمته الجامعة، سلام الله عليه.

٨ ــ الهندباء:

عن أبي عبد الله عليه السلام: «نعم البقلة الهندباء».(٢)

وعنه أيضاً عليه السلام: «عليك بالهندباء فإنه يزيد في الماء ويحسن الولد».(٣)

وعنه أيضاً عليه السلام: «من بات وفي جوفه سبع طاقات من الهندباء أمن من القولنج ليلته».(٤)

وقال الأطباء: إن الهندباء تفيد في ضعف الأعصاب، وضعف البصر وفساد الدم، وإنها ترد قوى الأجسام بعد الضعف والهزل، وتنشط القلب والكبد والكليتين، وتنفع الرحم في تعديل مزاجه وتنقيته، وتقضي على الحميات.

(١) الكافي ٦: ٣٦٧.

(٢) المحاسن ٢: ٥٠٨.

(٣) الكافي ٦: ٣٦٣.

(٤) الكافي ٦: ٣٦٢.

ما أبلغ كلمة الإمام عليه السلام فإنها جامعة لجميع تلك الخواص التي ذكرها الأطباء، تأمل تجد أن في كلمة يزيد في الماء ويحسن الولد خاصتين وفائدتين لم تحصلا إلاّ بعد تعديل مزاج الرحم وتنقيته، وبعد أن يقوى القلب والعصب، وبعد أن تعود قوى الأجسام بعد الضعف والهزال، فكأنه عليه السلام كان قد ذكر جميع تلك الآثار بذكر نتائجها من الزيادة في الماء وتحسين الولد. انتهى ما تحصّل لدينا من موضوع الطب، والله الموفق والمسدد للصواب.

* * *



قوله عليه السلام:

مَا الْمُبْتَلَى الَّذِي قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلاءُ بِأحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ الَّذِي لا يَأمَنُ الْبَلاءَ.

(نهج البلاغة ٤: ٧٣/ ح ٣٠٢)



[الدعاء قوام الحياة الإنسانية]

أقول: قال السبزواري في تفسيره (ج ٣):

الدعاء من أقوى الأسباب في نجح المطلوب، وأعظمها في نيل المقصود، ومن أشدّ روابط القرب إلى المعبود، ولا ينفكّ عنه الإنسان في جميع مراحله وأطواره، وجميع نشآته سواء بلسان الإستعداد والفطرة أم بلسان المقال، ولا يخلو كتاب إلهي من الحثّ عليه، وهو العبادة التي أمرنا بإتيانها، والراغب عنه من المستكبرين عن رحمة الرحمن.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.[1]

وعن السجّاد عليّ بن الحسين عليه السلام في صحيفته الملكوتية بعد ذكر الآية المباركة: «فسمّيت دعاءك عبادة وتركه إستكباراً، وتوعدت على تركه دخول جهنّم داخرين، فذكروك بمنّك، وشكروك بفضلك، ودعوك بأمرك، وتصدّقوا لك طلباً لمزيدك، وفيها كانت نجاتهم من غضبك وفوزهم برضاك».[2]

حقيقة الدعاء:

الدعاء: هو الوسيلة بين العبد وخالقه، واتّصال من عالم الملك بعالم الملكوت الذي هو من أهمّ الأسباب الطبيعيّة الإختيارية الواقعية لنجح المطلوب

---

(١) المؤمن: ٦٠.

(٢) الصحيفة السجادية: ٢٢٤.

والنيل إلى المقصود، فإنّه كما تترتّب المسبّبات على الأسباب المقتضية لها، فإنّ قانون السببية الذي جعله الله تعالى وسيلة لتحقيق المسبّبات الوجودية من دون أن يكون في البين فيض من الأسباب مستقلّة من دون الله تعالى، كذلك أنّ للإنسان شعوراً باطنياً وحسّاً وجدانياً أنّ له ملجأ يأوي إليه في حوائجه ليقضيها، وأنّ له سبباً معطياً لا ينضب معينه وهو سبب الأسباب، وهو ليس كالأسباب الظاهرية التي يمكن أن يتخلّف عنها أثرها.

وهذا الشعور الباطني يمكن أن يشتدّ عند فرد بحيث لا يرى للمسبّبات إلاّ سبباً واحداً وينقطع عن أي سبب دونه، فيعتصم به ولا يتخلّى عنه ويتوكّل عليه في كلّ حوائجه، فتنكشف لديه الأشياء على حقائقها ويرى زيف الأسباب.

نعم، قد يعرض على هذا الشعور الباطني والحسّي الوجداني بعض الظلمات والأوهام، فيوجب طمس هذا النور الفطري أو خفائه تبعاً لشدّة ما يتخيّله وضعفه، فيتخيّل خلاف ما هو المركوز في فطرته، وهذا لا يختّص بهذا النور الفطري، بل يشمل جميع ما يتعلّق بالفطرة والشعور الباطني، ولذا قد يرجع ويفيء إلى فطرته عند تزاحم المشاكل وعدم نفع أي سبب في رفعها، كما ورد في قضيّة من ركب البحر فانكسرت به السفينة وأيقن بالهلاك فعند ذلك يدعو من ينجيه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

---

(١) يونس: ٢٢.

ولا يستفاد من ذلك أنّه حينئذ لا يمكن تخلّف المدعو عن الدعاء إذا كان الأمر كذلك، فإنّ أمر الدعاء والمسبّبات الظاهرية في ذلك سواء، فإنّه كثيراً ما كانت هناك عوامل تثبّط الأسباب وتمنعها عن الأثر، فكذلك الدعاء، فإنّ هناك موانع كثيرة عن تحقّق المدعو به قد ندركها وقد لا ندركها، بل الأمر في الدعاء أشدّ، لفرض أنّه إرتباط مع عالم الغيب غير المتناهي الخارج عن الحسّ، فلا بدّ أن تكون الأسباب الموصلة إليه أدقّ وأرقّ، وهذا محسوس في عالم الماديّات أيضاً، فإنّ كلّ ما كان الشيء ألطف وأدقّ كان السبب الموصل إليه كذلك.

فحقيقة الدعاء هي الشعور الباطني في الإنسان بالصلة والإرتباط بعالم لا مبدأ له ولا نهاية، ولا حدّ ولا غاية، لسعة رحمته وقدرته وإحاطته بجميع ما سواه، فوق ما نتعقّل من معنى السعة والإحاطة والقدرة، يقضي له حوائجه بحيث يجعل المدعو تحت قدرة الداعي جميع وسائل نجح طلباته، فيقع التجاذب بين الموجودات الخارجية وبين قلب هذا الداعي، فيصير موجداً وفاعلاً لما يدعو به، فيتّحد الداعي والدعوة والمدعو به في بعض المراتب، ولا تحصل هذه المرتبة إلاّ لمن إنسلخ عن ذاته بالكليّة، وفُني في مرضات الوحدانية الأحدية فلا يرى في الوجود سوى المدعو، سواءاً كان ذلك ملكة أو حالاً، فيتّحد العاقل والمعقول، كما أثبته بعض أكابر الفلاسفة، ولعلّه المراد من الإسم الذي هو غيب الغيوب والسرّ المحجوب.

فروح الدعاء هي إرتباط الداعي مع الله عزّ وجلّ بالشرائط المقرّرة المذكورة في محالها والتي سنذكرها تباعاً.

بحث عرفاني:

لا ريب في أنّ أقوى مراتب سلوك السالكين إلى الله جلّت عظمته، وأهمّ مقامات سيرهم وسفرهم، إنّما هو السفر من الخلق إلى الحقّ، أي: التوجّه التامّ بحيث ينقطع عمّا سواه تعالى، وهو السير في الحقّ بالحقّ، وهذا هو السفر الروحاني، يصحّ أن يعبّر عنه: بأنّه سفر من المحدود من كلّ جهة إلى غير المحدود من جميع الجهات.

وعطف وحنان ممّن لا حدّ لرحمته وحنانه وعنايته إلى ما هو المحتاج على الإطلاق، وهذا السفر وهذه الرحمة والعطف يتحقّقان في حقيقة الدعاء مع الإيمان بالله جلّت عظمته، وبما جاء به نبيّنا الأعظم ﷺ لأنّ هذه الحقيقة مع ذلك عبارة عن تخلّي النفس عن جميع الرذائل، وطهارة روحية عن جميع الصفات الذميمة والأهواء الشرّيرة، وإرتباط روحي مع عالم الغيب.

وإن قلت إنّها تجلّي الرحمة الرحيمية والرحمانية بالنسبة إلى الداعين.

أو قلت إنّها عروج النفوس المستعدّة عند الإنقطاع عمّا سوى ربّ العالمين إلى أعلى الدرجات التي أُعدّت لها، ولذا قال تعالى: ﴿ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ﴾.[1]

وقال الصادق عليه السلام: «الدعاء مخّ العبادة»،[2] ولذا كان الأنبياء والأوصياء والعلماء العارفين بالله تعالى يواظبون عليه أشدّ المواظبة في جميع أحوالهم حالاً ومقالاً.

* * *

---

(١) الفرقان: ٧٥.

(٢) البحار ٩٠: ٣٠٠.

بقي هنا أمران:

الأوّل: الفرق بين الدعاء وغيره من الأسباب المؤثّرة: مثل السحر، والعين مثلاً، فإنّ الأوّل ـ أي الدعاء ـ تأثير غيبي في عالم الشهادة كما مرّ، ولما سواه تأثيرات من هذا العالم وفيه، وهي غير مرتبطة بعالم الغيب والملكوت أصلاً؛ بل بعضها منهي عنه شرعاً.

الثاني: إنّ الدعاء إنّما يؤثّر بحسب معتقدات الداعي، فربّما يكون الدعاء الصادق من الذي لا يعتقد بالمبدأ يؤثّر بحسب معتقده وهو خلاف الواقع، قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ﴾.[1]

* * *

قال ابن أبي الحديد:

هذا ترغيب في الدعاء، والذي قاله عليه السلام حقّ، لأنّ المعافى في الصورة مبتلى في المعنى، وما دام الإنسان في قيد هذه الحياة الدنيا، فهو من أهل البلاء على الحقيقة، ثمّ لا يأمن البلاء الحسّي، فوجب أن يتضرّع إلى الله تعالى انّه ينقذه من بلاء الدنيا المعنوي، ومن بلائها الحسّي في كلّ حال، ولا ريب أنّ الأدعية مؤثّرة وأنّ لها أوقات إجابة، ولم يختلف الملّيون والحكماء في ذلك.[2]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

أي أنّهما سواء في الحاجة إلى دعاء الله، فذاك لحاجته إلى الخلاص من بلائه، وهذا لبقاء عافيته وأمنه من لحوق البلاء،

---

(١) الرعد: ١٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٠٨.

وهو حثّ لأهل العافية على دعاء الله لغرض الإلتفات إليه ودوام قصده.[١]

* * *

وقال ابن مغنية:

كلّ ما يجوز وقوعه من المخاطر يجب الحذر منه والإستعداد له، والمعافى في معرض السقم والبلاء، فينبغي أن يحترز هو، وندعو له نحن بدوام عافيته، ودفع الضرر عنه تماماً، كما ندعو للمبتلى بالشفاء، ومن هنا يعمل الأطباء من أجل الوقاية كما يعملون من أجل العلاج... وعن المعصوم:

«الدعاء في الرخاء يستخرج الحوائج عند البلاء... ومن سرّه أن يستجاب له في الشدّة فليكثر الدعاء في الرخاء».[٢]

وبعد فإنّ الغرض من ذلك أنّ لا نأمن المخبّآت والمفاجئات، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾[٣] [٤].

* * *

وقال في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[٥]

تنبه عليه السلام إلى أنّ الدعاء شعار العبودية في كلّ حال، فإنّ العبد محتاج إلى مولاه، ولا يقدر على شيء بدون أمره ورضاه، فلا يغترّ

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٩٩.

(٢) الكافي ٢: ٤٧٢/ ح ٤.

(٣) الأعراف: ٩٩.

(٤) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٣٩٨.

(٥) ج ٢١: ٣٩٣.

بالسلامة والراحة ويغفل عن الدعاء لطلب إبقاء النعمة، فإنّ المعافى في معرض الإبتلاء كلّ حين، ولا فرق بينه وبين المبتلي من جهة الحاجة إلى الدعاء والتوجّه إلى الله في دفع البلاء.

* * *

قال العلاّمة (الفيض الكاشاني) في (المحجّة البيضاء) تحت عنوان:

فضيلة الدعاء [في القرآن والسنّة]:

قال الله سبحانه: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.(٢)

وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾.(٣)

وقال تعالى: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾.(٤)

وروى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّ الدعاء هو العبادة»، ثمّ قرأ ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.(٥)

وقال صلى الله عليه وآله: «الدعاء مخّ العبادة».

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) الأعراف: ٥٥.

(٣) الإسراء: ١١٠.

(٤) المؤمن: ٦٠.

(٥) التوبة: ١١٤.

وقال ﷺ: «إنّ العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاثة: إمّا ذنب يغفر له، وإمّا خير يعجّل له، وإمّا خير يدّخر له».

وقال ﷺ: «سلوا الله من فضله فإنّه يحبّ أن يسأل، وأفضل العبادة إنتظار الفرج».

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده الحسن عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾،[1] قال: «هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء»، قلت: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[2] قال: «الأوّاه هو الدعّاء».

وبالإسناد الموثّق عنه عليه السلام أيضاً أنّه سئل: أيّ العبادة أفضل؟ فقال: «ما من شيء أفضل عند الله من أن يُسأل ويطلب ممّا عنده، وما أحد أبغض إلى الله ممّن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده».

وبإسناده الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «عليكم بالدعاء، فإنّكم لا تقرّبون بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها، إنّ صاحب الصغار هو صاحب الكبار».

وبإسناده الصحيح عن ميسر بن عبد العزيز، عنه عليه السلام قال: قال لي: «يا ميسر ادع ولا تقل إنّ الأمر قد فرغ منه، إنّ عند الله منزلة لا تُنال إلاّ بمسألة، ولو أنّ عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فسل تعط، يا ميسر إنّه ليس من باب يقرع إلاّ يوشك أن يفتح لصاحبه».

وعنه عليه السلام: «من لم يسأل الله من فضله افتقر».

وعنه عليه السلام: قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أحبّ الأعمال إلى الله

---

(١) التوبة: ١١٤.

(٢) غافر: ٦٠.

تعالى في الأرض الدعاء، وأفضل العبادة العفاف»، قال: «وكان أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً دعّاءاً».

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السماوات والأرض».

وبهذا الإسناد قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاة، ومقاليد الفلاح، وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي، وفي المناجاة سبب النجاة، وبالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتدّ الفزع فإلى الله المفزع».

وعنه عليه السلام: «الدعاء يردّ القضاء بعد ما أُبرم إبراماً، فأكثر من الدعاء فإنّه مفتاح كلّ رحمة، ونجاح كلّ حاجة، ولا يُنال ما عند الله تعالى إلاّ بالدعاء، وإنّه ليس باب يكثر قرعه إلاّ يوشك أن يفتح لصاحبه».

وعنه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاء ترس المؤمن، ومتى تكثر قرع الباب يفتح لك».

وعنه عليه السلام قال: «الدعاء أنفذ من السنان الحديد».

وفي (الحسن) عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «إنّ الدعاء يردّ ما قد قدّر وما لم يقدّر»، قلت: ما قد قدّر قد عرفته، فما لم يقدّر؟ قال: «حتّى لا يكون».

وفي (الصحيح) عن أبي ولاّد، عنه عليه السلام قال: «عليكم بالدعاء فإنّ الدعاء لله والطلب إلى الله يردّ البلاء وقد قدّر وقضي فلم يبق إلاّ إمضاؤه، فإذا دُعي الله تعالى وسُئل صرف البلاء صرفه».

وفيه عن أبي ولاّد عنه عليه السلام: «ما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيلهمه الله الدعاء إلاّ كان كشف ذلك البلاء وشيكاً، وما من بلاء ينزل

على عبد مؤمن فيمسك عن الدعاء إلاّ كان ذلك البلاء طويلاً، فإذا نزل البلاء فعليكم بالدعاء والتضرّع إلى الله».

وفي (الحسن) عن أبي عبد الله عليه السلام: «هل تعرفون طول البلاء من قصره؟» قلنا: لا، قال: «إذا أُلهِمَ أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أنّ البلاء قصير».

وعنه عليه السلام: «عليك بالدعاء فإنّ فيه شفاء من كلّ داء».

والأخبار في فضل الدعاء أكثر من أن تحصى.

آداب الدعاء:

وهي عشرة:

الأوّل: أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، وشهر رمضان من الشهور، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل، قال الله تعالى: ﴿وَبِالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

وفي (عدة الداعي) عن الباقر عليه السلام: «إنّ الله لينادي كلّ ليلة جمعة من فوق عرشه من أوّل الليل إلى آخره: ألا عبد مؤمن يدعوني لدينه ودنياه قبل طلوع الفجر فأُجيبه، ألا عبد مؤمن يتوب إليّ من ذنوبه قبل طلوع الفجر فأتوب عليه، ألا عبد مؤمن قد قتّرت عليه رزقه فيسألني الزيادة في رزقه قبل طلوع الفجر فأُزيده وأوسّع عليه، ألا عبد مؤمن سقيم يسألني أن أشفيه قبل طلوع الفجر فأُعافيه، ألا عبد مؤمن محبوس مغموم يسألني أن أُطلقه من سجنه وأُخلّي سربه، ألا عبد مؤمن مظلوم يسألني أن آخذ له بظلامته قبل طلوع الفجر فأنتصر له وآخذ بظلامته، قال: فلا يزال ينادي بهذا حتّى يطلع الفجر».

---

(١) الذاريات: ١٨.

وعن أحدهما عليهما السلام: «أنّ العبد المؤمن يسأل الله الحاجة يؤخّر الله تعالى قضاء حاجته التي سأل إلى يوم الجمعة».

وعن الصادق عليه السلام في قول يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾[1] قال: «أخّرهم إلى السحر من ليلة الجمعة».

قال: وعن النبي صلى الله عليه وآله: «من كان له حاجة فليطلبها في العشاء فإنّها لم يعطها أحد من الأمم قبلكم» يعني العشاء الآخرة. وفي رواية: «في السدس الأوّل من النصف الثاني من الليل» ويعضدها ما ورد من الترغيب والفضل لمن صلّى بالليل والناس نيام، وفي الذكر في الغافلين، ولا شكّ في إستيلاء النوم على غالب الناس في ذلك الوقت، بخلاف النصف الأوّل فإنّه ربّما يستصحب الحال فيه النهار، وآخر الليل ربّما انتشروا فيه لمعاشهم وأسفارهم، وإنّما مخّ الليل هو وقت الغفلة وفراغ القلب للعبادة، ولإشتماله على مجاهدة النفس بمهاجرة الرقاد ومباعدة وثير المهاد، والخلوة بمالك العباد وسلطان الدنيا والمعاد، وهو المقصود من جوف الليل، وهي ما رواه عمر بن أُذينة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ في الليل ساعة ما يوافق فيها عبد مؤمن يصلّي ويدعو الله فيها إلاّ إستجاب له»، قلت له: أصلحك الله وأيّ ساعات الليل هي؟ قال: «إذا مضى نصف الليل وبقي السدس الأوّل من النصف الثاني».

أقول: وفي معناها أخبار أُخر.

وفي (الكافي) عن أبي جعفر عليه السلام: «أنّ من السحر إلى طلوع الشمس تفتح أبواب السماء وتقسّم فيها الأرزاق، وتقضى فيها الحوائج العظام».

---

(١) يوسف: ٩٨.

وفي (الفقيه) عن النبي ﷺ: «إذا زالت الشمس فتحت أبواب السماء وأبواب الجنان، واستجيب الدعاء، فطوبى لمن رفع له عند ذلك عمل صالح».

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة: كزحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة وخلفها، وما بين الأذان والإقامة، ومع الصوم.

أقول: روى زيد الشحّام عن الصادق عليه السلام قال: «اطلبوا الدعاء في أربع ساعات: عند هبوب الرياح، وزوال الأفياء، ونزول المطر، وأوّل قطرة من دم القتيل المؤمن، فإنّ أبواب السماء تفتح عند هذه الأشياء».

وعن الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اغتنموا الدعاء عند أربع: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفّين للشهادة».

وعنه عليه السلام: «يستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر، وبعد الفجر، وبعد الظهر، وبعد المغرب».

قال أبو حامد: وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً، إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوّشات، ويوم عرفة، ويوم الجمعة وقت إجتماع الهمم وتعاون القلوب على إستدرار رحمة الله، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات، سوى ما فيها من الأسرار التي لا يطّلع عليها البشر، وحالة السجود أيضاً جديرة بالإجابة لقوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد، فأكثروا فيه من الدعاء».

وروى ابن عبّاس عنه ﷺ أنّه قال: «إنّما نُهيت أن أقرأ راكعاً أو

ساجداً؛ فأمّا الركوع فعظّموا فيه الربّ تعالى، وأمّا السجود فاجتهدوا فيه من الدعاء فإنّه ضمن أن يستجاب لكم».

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى باطن إبطيه، روى جابر ابن عبد الله، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتّى غربت الشمس.

وقال سلمان رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ ربّكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردّهما صفراً».

وروى أنس أنّه صلى الله عليه وآله كان يرفع يديه حتّى يُرى بياض إبطيه في الدعاء، ولا يشير بإصبعيه.

وقال أبو الدرداء: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغلّ بالأغلال.

ثمّ ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء.

قال ابن عبّاس: كان صلى الله عليه وآله إذا دعا ضمّ كفّيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه.

قال عمر: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا مد يده في الدعاء لم يردّهما حتّى يمسح بهما وجهه، فهذه هيئات اليد.

ولا يرفع بصره إلى السماء، قال صلى الله عليه وآله: «لينتهينّ أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفنّ أبصارهم».

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في (الكافي) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبّار إلاّ استحى الله تعالى أن يردّها صفراً حتّى يجعل فيها من فضل رحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يردّ يده حتّى يمسح على وجهه ورأسه».

* * *

وفي (عدّة الداعي): كان رسول الله ﷺ يرفع يديه إذا ابتهل ودعا كما يستطعم المسكين.

وفيما أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «ألق كفّيك ذلا بين يدي، كفعل العبد المستصرخ إلى سيّده، فإنّك إذا فعلت ذلك رُحمت، وأنا أكرم القادرين، يا موسى سلني من فضلي ورحمتي فإنّهما بيدي لا يملكهما غيري، وانظر حين يسألني كيف رغبتك فيما عندي، لكلّ عامل جزاء وقد يجزى الكفور بما سعى».

وسأل أبو بصير الصادق عليه السلام عن الدعاء ورفع اليدين؟ فقال: «على خمسة أوجه: أمّا التعوّذ فتستقبل القبلة بباطن كفّيك، وأمّا الدعاء في الرزق فتبسط كفّيك وتفضي بباطنهما إلى السماء، وأمّا التبتّل فإيماءك بإصبعك السبّابة، وأمّا الإبتهال فترفع يديك تجاوز بهما رأسك، وأمّا التضرّع أن تحرّك إصبعك السبّابة ممّا يلي وجهك وهو دعاء الخيفة».

وعن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «مرّ بي رجل وأنا أدعو في صلاتي بيساري»، فقال: يا عبد الله بيمينك، فقلت: «يا عبد الله إنّ لله تبارك وتعالى حقّاً على هذه كحقّه على هذه»، وقال: «الرغبة تبسط يديك وتظهر باطنهما، والرهبة تبسط يديك وتظهر ظهرهما، والتضرّع تحرّك السبّابة اليمنى يميناً وشمالاً، والتبتّل تحرّك السبّابة اليسرى ترفعها في السماء رسلاً وتضعها رسلاً، والإبتهال تبسط يديك وذراعيك إلى السماء، والإبتهال حين ترى أسباب البكاء».

وعن سعيد بن يسار قال: قال الصادق عليه السلام: «هكذا الرغبة» وأبرز باطن راحتيه إلى السماء، «وهكذا الرهبة»، وجعل ظهر كفّيه إلى السماء، «وهكذا التضرّع» وحرّك أصابعه يميناً وشمالاً، «وهكذا التبتّل» يرفع

إصبعه مرّة ويضعها أُخرى، «وهكذا الإبتهال» ومدّ يده تلقاء وجهه وقال: «لا تبتهل حتّى تجري الدمعة»، وفي حديث آخر: «الإستكانة في الدعاء أن يضع يديه على منكبيه».

وقال صاحب العدّة: هذه الهيئات المذكورة، إمّا تعبّد لعلّة لا نعلمها، أو لعلّ المراد ببسط كفّيه في الرغبة كونه أقرب إلى حال الراغب في بسط آماله وحسن ظنّه بإفضاله ورجائه لنواله، فالراغب يسأل بالآمال فيبسط كفّيه لما يقع فيهما من الإحسان، والمراد في الرهبة بجعل ظهر الكفّين إلى السماء، كون العبد يقول: بلسان الذلّة والإحتقار لعالم الخفيّات والأسرار أنا ما أقدم على بسط كفّي إليك، وقد جعلت وجههما إلى الأرض ذلاً وخجلاً بين يديك، والمراد في التضرّع بتحريك الأصابع يميناً وشمالاً أنّه تأسّي بالثاكل عند المصائب الهائلة، فإنّها تقلب يديها وتنوح بهما إدباراً وإقبالا ويميناً وشمالا، والمراد في التبتّل برفع الأصابع مرّة ووضعها أُخرى بأنّ معنى التبتّل الإنقطاع، فكأنّه يقول بلسان حاله لتحقّق رجائه وآماله، إنقطعت إليك وحدك لما أنت أهله من الإلهية، فيشير بإصبعه وحدها من دون الأصابع على سبيل الوحدانية، والمراد في الإبتهال بمدّ يديه تلقاء وجهه إلى القبلة أو مدّ يديه وذراعيه إلى السماء، أو رفع يديه وتجاوزهما رأسه بحسب الروايات أنّه نوع من أنواع العبودية والإحتقار والذلّة والصغار كالغريق الرافع يديه، الحاسر عن ذراعيه، المتشبّث بأذيال رحمته، والمتعلّق بذوائب رأفته التي أنجت الهالكين وأغاثت المكروبين ووسعت العالمين، وهذا مقام جليل فلا يدّعيه العبد إلاّ عند العبرة وتزاحم الأنين والزفرة، ووقوفه موقف العبد

الذليل، وإشتغاله بخالقه الجليل، عن طلب الآمال، والتعرّض للسؤال، والمراد في الإستكانة برفع يديه على منكبيه أنّه كالعبد الجاني إذا حمل إلى مولاه وقد أوثقه قيد هواه، وقد تصفّد بالأثقال وناجى بلسان الحال: هذه يداي قد غللتهما بين يديك بظلمي وجرأتي عليك.

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر، لما روي أنّ الناس لمّا قدموا مع رسول الله ﷺ ودنوا من المدينة كبّروا ورفعوا أصواتهم، فقال ﷺ: «يا أيّها الناس إنّ الذين تدعون ليس بأصمّ ولا غائب، إنّ الذين تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم».[1]

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[2] أي بدعائك، وقد أثنى الله ﷻ على نبيّه زكريا حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[3] وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾.[4]

أقول: وقد عدّ في العدّة من الآداب الإسرار بالدعاء لبعده عن الرياء، ولقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ ولرواية إسماعيل بن همّام عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «دعوة العبد سراً دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية».

وفي رواية أُخرى: «دعوة تخفيها أفضل من سبعين دعوة تظهرها».

وعن النبي ﷺ: «إنّ ربّك يباهي الملائكة بثلاثة نفر: رجل يصبح في

---

(١) في المصادر: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه بينكم، وبين أعناق ركابكم» أنظر سنن أبي داود ١: ٣٤١.

(٢) الإسراء: ١١٠.

(٣) مريم: ٣.

(٤) الأعراف: ٥٥.

أرض قفر فيؤذّن ويقيم ثمّ يصلّي فيقول ربّك عزّ وجلّ للملائكة: انظروا إلى عبدي يصلّي ولا يراه أحد غيري، فينزل سبعون ألف ملك يصلّون ورائه ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم، ورجل قام في الليل يصلّي وحده، فسجد ونام وهو ساجد فيقول: انظروا إلى عبدي روحه عندي وجسده ساجد لي، ورجل في زحف فيفرّ أصحابه وثبت هو يقاتل حتّى قتل».

الخامس: أن لا يتكلّف السجع في الدعاء، فإنّ حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرّع، والتكلّف لا يناسبه، قيل في قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ إنّ معناه التكلّف في الإسجاع.

أقول: وفي (العدّة): أنّ من الشروط أن لا يسأل محرّماً، ولا قطيعة رحم، ولا ما يتضمّن قلّة الحياء وإساءة الأدب، قال: وقال المفسّرون في قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[1] أي تخشّعاً وتذلّلاً وسرّاً، ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يتجاوز الحدّ في دعائه، كأن يطلب منازل الأنبياء، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا صاحب الدعاء لا تسأل ما لا يكون ولا يحلّ» وقال عليه السلام: «من سأل فوق قدره استحقّ الحرمان».

قال أبو حامد: «والأولى أن لا يتجاوز الدعوات المأثورة فإنّه قد يعتدي في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته، فما كلّ أحد يحسن الدعاء، ولذا ورد في الخبر أو الأثر أنّ العلماء يحتاج إليهم في الجنّة، إذ يقال لأهل الجنّة: تمنوا فلا يدرون كيف يتمنّون حتّى يتعلّموا من العلماء.

وقد قال صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والسجع في الدعاء، حسب أحدكم أن يقول: «اللهم إنّي أسألك الجنّة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل».

---

(١) الأعراف: ٥٥.

وفي الخبر «سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطهور» وقال بعضهم: ادع بلسان الذلّة والإفتقار لا بلسان الفصاحة والإنطلاق. ويقال: إنّ العلماء والأبدال لا يزيد أحدهم في الدعاء على سبع كلمات فما دونها، ويشهد له آخر سورة البقرة، فإنّ الله لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك.

واعلم أنّ المراد من السجع هو المتكلّف من الكلام، فإنّ ذلك لا يلائم الضراعة والذلّة، وإلاّ ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنّها غير متكلّفة كقوله ﷺ: «أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنّة يوم الخلود، مع المقرّبين الشهود والركّع السجود، والموفين بالعهود، إنّك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد» وأمثال ذلك، فليقتصر على المأثور من الدعوات، أو ليلتمس بلسان التضرّع من غير سجع ولا تكلّف، فالتضرّع هو المحبوب عند الله.

السادس: التضرّع والخشوع والرهبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾.(٢)

وقال ﷺ: «إذا أحبّ الله عبداً إبتلاه حتّى يسمع تضرّعه».

أقول: وقد مرّت الإشارات في ذلك وفي دعوات أهل البيت عليهم السلام: «ولا ينجيني منك إلاّ التضرّع إليك».

وفيما أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى كن إذا دعوتني خائفاً مشفقاً وجلاً، وعفّر وجهك في التراب، واسجد لي بمكارم بدنك، واقنت بين يدي في القيام، وناجني حيث تناجيني بخشية من قلب وجل».

---

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) الأعراف: ٥٥.

وإلى عيسى عليه السلام: «يا عيسى ادعني دعاء الغريق الحزين الذي ليس له مغيث، يا عيسى أذلّ لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أنّ سروري أن تبصبص إليّ، وكن في ذلك حيّاً ولا تكن ميّتاً، وأسمعني منك صوتاً حزيناً».

السابع: أن يجزم بالدعاء ويوقن بالإجابة ويصدّق رجاءه فيه، قال صلى الله عليه وآله: «لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنّه لا مكرم له».

وقال صلى الله عليه وآله: «إذا دعا أحدكم فليعظّم الرغبة، فإنّ الله تعالى لا يتعاظمه شيء».

وقال صلى الله عليه وآله: «ادعوا الله تعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله سبحانه لا يستجيب دعاءً من قلب غافل».

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «إذا دعوت فظنّ أنّ حاجتك بالباب».

وعنه عليه السلام قال: «إنّ الله لا يستجيب دعاءً بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثمّ استيقن بالإجابة».

وعنه عليه السلام: «إذا دعوت الله فأقبل بقلبك وظنّ حاجتك بالباب».

وعنه عليه السلام قال: «لمّا استسقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسقي الناس حتّى قالوا: إنّه الغرق، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله بيده، أي أشار وردّها، اللهم حوالينا ولا علينا، قال: فتفرّق السحاب، فقالوا: يا رسول الله استسقيت لنا فلم نسق ثمّ استسقيت لنا فسقينا، قال: إني دعوت وليس لي في ذلك نيّة، ثمّ دعوت ولي في ذلك نيّة».

الثامن: أن يلحّ في الدعاء ويكرّره ثلاثاً، قال ابن مسعود: «كان صلى الله عليه وآله إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً» وينبغي أن لا يستبطئ

الإجابة لقوله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل فيقول: دعوت فلم يستجب لي، فإذا دعوت الله فسل الله كثيراً فإنّك تدعو كريماً».

وقال بعضهم: إنّي أسأل الله تعالى منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجوه الإجابة، سألت الله أن يوفّقني لترك ما لا يعنيني.

وقال ﷺ: «إذا سأل أحدكم ربّه مسألة فتعرّف الإجابة فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، ومن أبطأ عنه من ذلك فليقل: الحمد لله على كلّ حال».

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في (الكافي) عن الباقر عليه السلام قال: «والله لا يلحّ عبد مؤمن على الله في حاجته إلاّ قضاها له»، وفي رواية: «إلاّ إستجاب له»، وحذف لفظ المؤمن.

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ العبد إذا دعا لم يزل الله في حاجته ما لم يستعجل».

وعنه عليه السلام: «إنّ العبد إذا عجّل فقام لحاجته يقول الله: أما يعلم عبدي أنّي أنا الله الذي أقضي الحوائج».

وعنه عليه السلام: «إنّ الله كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسألة وأحبّ ذلك لنفسه، إنّ الله يحب أن يسأل ويطلب ما عنده».

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبداً طلب من الله تعالى حاجة فألحّ في الدعاء استجيب له أو لم يستجب، وتلا هذه الآية ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[1]».

وفي (العدّة) عن النبي ﷺ: «إنّ الله يحبّ السائل اللحوح». وفي الوحي القديم: «لا تملّ من الدعاء فإنّي لا أملّ من الإجابة».

---

(١) مريم: ٤٨.

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ العبد ليدعو فيقول الله تعالى للملكين: قد استجبت له ولكن احبسوه بحاجته فإنّي أحبّ أن أسمع صوته، وإنّ العبد ليدعو فيقول تبارك وتعالى: عجّلوا له حاجته فإنّي أبغض صوته».

وعنه عليه السلام قال: «لا يزال المؤمن بخير ورجاء رحمة من الله ما لم يستعجل فيقنط ويترك الدعاء»، قلت له: كيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الإجابة».

وعنه عليه السلام: «إنّ المؤمن ليدعو الله في حاجة، يقول الله عزّ وجلّ: أخّروا إجابته شوقاً إلى صوته ودعائه، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: عبدي دعوتني فأخّرت إجابتك وثوابك كذا وكذا».

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله، فلا يبدأ بالسؤال. قال سلمة بن الأكوع: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يستفتح الدعاء إلاّ استفتحه، فقال: «سبحان ربّي العلي الأعلى الوهّاب».

وفي الخبر عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إذا سألتم الله حاجة فابدؤا بالصلاة عليّ فإنّ الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويردّ الأخرى» رواه أبو طالب المكّي.

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في العدّة عن الحارث بن المغيرة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إيّاكم إذا أراد أن يسأل أحدكم ربّه شيئاً من حوائج الدنيا حتّى يبدأ بالثناء على الله عزّ وجلّ والمدحة له والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ يسأل الله حاجته».

وقال: «إنّ رجلاً دخل المسجد وصلّى ركعتين ثمّ سأل الله عزّ وجلّ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أعجل العبد ربّه»، وجاء آخر فصلّى ركعتين ثمّ أثنى على الله عزّ وجلّ وصلى على النبي صلى الله عليه وآله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سل تعطه».

وروى محمّد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ المسألة بعد المدحة فإذا دعوت الله فمجّده»، قال: قلت: كيف نمجّده؟ قال: «تقول: يا من هو أقرب إليّ من حبل الوريد، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء».

وروى معاوية بن عمّار عن الصادق عليه السلام قال: «إنّما هي المدحة والثناء، ثمّ الإقرار بالذنب، ثمّ المسألة، إنّه والله ما خرج عبد من ذنب إلاّ بالإقرار».

وروى عيص بن القاسم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا طلب أحدكم الحاجة فليثني على ربّه وليمدحه، فإنّ الرجل منكم إذا طلب الحاجة من السلطان هيّأ له من الكلام أحسن ما يقدر عليه، وإذا طلبتم الحاجة فمجّدوا الله العزيز الجبّار وامدحوه وأثنوا عليه، تقول: يا أجود من أعطى، ويا خير من سئل، ويا أرحم من استرحم، يا واحد يا أحد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يا من لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً، يا من يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ويقضي ما أحبّ، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء، يا سميع يا بصير، وأكثر من أسماء الله عزّ وجلّ فإنّ أسماء الله كثيرة، وصل على محمّد وآل محمّد وقل: اللهم أوسع عليّ من رزقك الحلال ما أكفّ به وجهي وأؤدّي به عن أمانتي، وأصل به رحمي، ويكون لي عوناً على الحجّ والعمرة».

وروى هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يزال الدعاء محجوباً حتّى يصلّي على محمّد وآل محمّد».

وعنه عليه السلام: «من دعا ولم يذكر النبي صلى الله عليه وآله رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله رفع الدعاء».

وعنه عليه السلام: «من كانت له إلى الله عزّ وجلّ حاجة فليبدأ بالصلاة على

محمّد وآل محمّد، ثمّ يسأل حاجته، ثمّ يختم بالصلاة على محمّد وآل محمّد فإنّ الله عزّ وجلّ أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط، إذ كانت الصلاة على محمّد وآل محمّد لا تحجب عنه».

العاشر: وهو أدب الباطن، وهو الأصل في الإجابة: التوبة، وردّ المظالم، والإقبال على الله بكنه الهمّة، فذلك هو السبب القريب في الإجابة، ويروى عن كعب الأحبار أنّه قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى عليه السلام فخرج موسى ببني إسرائيل ليستسقي لهم فلم يسقوا، ثمّ خرج ثلاث مرّات ولم يسقوا، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ ومن هو حتّى نخرجه من بيننا؟ فأوحى الله سبحانه إليه: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمّاماً، فقال موسى: لبني إسرائيل توبوا بأجمعكم من النميمة، فتابوا فأرسل الله عليهم الغيث.

وقال سفيان: بلغني أنّ بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتّى أكلوا الميتة من المزابل، وأكلوا الأطفال، وكذلك كانوا يخرجون إلى الجبال ويتضرّعون، فأوحى الله تعالى إلى أنبيائهم: لو مشيتم إليّ بأقدامكم حتّى يحفى ركبكم وتبلغ أيديكم أعنان السماء، وتكلّ ألسنتكم عن الدعاء، فإنّي لا أجيب لكم داعياً ولا أرحم منكم باكياً حتّى تردّوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم.

وقال مالك بن دينار: أصاب الناس في بني إسرائيل قحط، فخرجوا مراراً، فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم: «أن أخبرهم أنّكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفّاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بطونكم من الحرام، الآن قد اشتدّ غضبي عليكم ولن تزدادوا منّي إلاّ بعداً».

وقال أبو الصديق الناجي: خرج سليمان عليه السلام يستسقي، فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنّا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا. فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعيد، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثمّ قال: يا معشر من حضر ألستم مقرّين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنّا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، فقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلاّ لمثلنا، اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا، فرفع يده ورفعوا أيديهم فسقوا.

وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا ربّك، فقال: أنتم تستبطئون المطر، وأنا أستبطئ الحجارة.

وروي أنّ عيسى بن مريم عليهما السلام خرج يستسقي، فلمّا أصحروا قال لهم عيسى: «من أصاب منكم ذنباً فليرجع»، فرجعوا كلّهم ولم يبق معه إلاّ رجل واحد، فقال له عيسى: «أما لك من ذنب؟» فقال: والله ما أعلم من شيء غير أنّي كنت ذات يوم أصلّي فمرّت بي إمرأة فنظرت إليها بعيني هذه، فلمّا جاوزت أدخلت إصبعي في عيني فانتزعتها وأتبعت المرأة بها. فقال عيسى عليه السلام: «فادع حتّى أؤمّن على دعائك»، فدعا فتجلّلت السماء سحاباً، ثمّ صبّ فسقوا.

وقال يحيى بن الغساني: أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم، فخرجوا حتّى يستسقوا بهم، فقال أحدهم: اللهم إنّك أنزلت في توراتك أن نعفوا عمّن ظلمنا، اللهم إنّا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنّا. وقال الثاني: اللهم إنّك أنزلت في توراتك أن نعتق

أرقّاءنا، اللهم إنّا أرقّاؤك فأعتقنا. وقال الثالث: اللهم إنّك أنزلت في توراتك أن لا تردّوا المساكين إذا وقفوا ببابكم، اللهم إنّا مساكينك وقفنا ببابك فلا تردّ دعاءنا، فسقوا.

* * *

وقال عطاء السلمي: منعنا الغيث، فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون المجنون في المقابر، فنظر إليّ فقال: يا عطاء هذا يوم النشور أو بُعثر ما في القبور؟ فقلت: لا، وكلنّا منعنا الغيث، فقال: يا عطاء بقلوب أرضية أو بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية، فقال: هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فإنّ الناقد بصير، ثمّ رمق السماء بطرفه وقال: إلهي وسيّدي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك، ولكن بالمكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلاّ سقيتنا ماءاً غدقاً تحيي به العباد وتروي به البلاد، يا من هو على كلّ شيء قدير.

قال عطاء: فما استتمّ الكلام حتّى رعدت السماء وبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب، فولّى وهو يقول:

أفلح الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهم أجاعوا البطونا

أسهروا الأعين العليلة حبّاً ... فانقضى ليلهم وهم ساهرونا

شغلتهم عبادة الله حتّى ... قيل في الناس إنّ فيهم جنونا

وقال ابن المبارك: قدمت المدينة في عام شديد القحط، فخرج الناس يستسقون وخرجت معهم، إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزّر بإحداهما وألقى الأُخرى على عاتقه، فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوي الأعمال، وقد أحبست عنّا غيث

السماء لتؤدّب عبادك بذلك، فأسألك يا حليماً ذا أناة، يا من لا يعرف عباده منه إلاّ الجميل، أن تسقيهم الساعة الساعة، فلم يزل يقول: الساعة الساعة حتّى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كلّ مكان. وقال ابن المبارك: فجئت إلى الفضيل فقال: ما لي أراك كئيباً؟ فقلت: سبقنا إليه غيرنا فتولاّه دوننا، وقصصت عليه القصّة فصاح الفضيل وخرّ مغشياً عليه.

أقول: ومن طريق الخاصّة عن أهل البيت عليهم السلام: إنّ فيما وعظ الله به عيسى عليه السلام: «يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل غسلتم وجوهكم ودنستم قلوبكم، أبي تغترّون أم عليّ تجترئون؟ تطيّبون بالطيب لأهل الدنيا وأجوافكم عندي بمنزلة الجيف المنتنة كأنّكم أقوام ميّتون، يا عيسى قل لهم: قلّموا أظفاركم من كسب الحرام، وأصمّوا أسماعكم من ذكر الخنى، وأقبلوا عليّ بقلوبكم فإنّي لست أُريد صوركم، يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل: لا تدعوني والسحت تحت أحضانكم، والأصنام في بيوتكم فإنّي آليت أن أُجيب من دعاني وأن أجعل إجابتي إيّاهم لعناً لهم حتّى يتفرّقوا».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أوحى الله إليّ أن يا أخا المرسلين ويا أخا المنذرين، أنذر قومك: لا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة، فإنّي ألعنه ما دام قائماً يصلّي بين يدي حتّى يردّ تلك المظلمة، فأكون سمعه الذي يسمع به، وأكون بصره الذي يبصر به، ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء في الجنّة».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: قل لبني إسرائيل: لا تدخلوا بيتاً من بيوتي إلاّ بأبصار خاشعة وقلوب طاهرة وأيد نقيّة، وأخبرهم أنّي لا أستجيب لأحد منهم دعوة ولأحدٍ من خلقي لديهم مظلمة».

وفي الحديث القدسي: «فمنك الدعاء وعليّ الإجابة، فلا تحجب عنّي دعوة إلاّ دعوة آكل الحرام».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «من أحبّ أن يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه وكسبه».

وقال لمن قال له: أحبّ أن يستجاب دعائي: «طهّر مأكلك، ولا يدخل بطنك الحرام».

وعن الصادق عليه السلام: «من سرّه أن يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه وكسبه».

وعنه عليه السلام: «ترك لقمة حرام أحبّ إلى الله من ألفي ركعة تطوّعاً، وردّ دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجّة مبرورة».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «لو صلّيتم حتّى تكونوا كأوتاد، وصمتم حتّى تكونوا كالحنايا، لم يقبل الله منكم إلاّ بورع حاجز».

وعنه صلى الله عليه وآله: «العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل». وقيل: «على الماء».

وعنه صلى الله عليه وآله: «يكفي من الدعاء مع البرّ ما يكفي الطعام من الملح».

[عشرة أخرى من آداب الدعاء]:

رواها كلّها في العدّة، واستفيد منها ومن غيرها من آداب الدعاء عشرة أُخرى:

الأوّل: تسمية الحاجة، روى أبو عبد الله الفرّاء عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعا، ولكنّه يحبّ أن تبثّ إليه الحوائج».

وعن كعب الأحبار: مكتوب في التوارة: «يا موسى إنّي لست بغافل عن خلقي، ولكن أُحبّ أن يسمع ملائكتي ضجيج الدعاء من

عبادي، وترى حفظتي تقرّب بني آدم إليّ بما أنا مقوّيهم عليه ومسبّبه لهم».

الثاني: التعميم في الدعاء، روى ابن القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا دعا أحدكم فليعمّم فإنّه أوجب للدعاء».

الثالث: الإجتماع في الدعاء قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.[1] وأمر سبحانه بالإجتماع للمباهلة.

روى أبو خالد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من رهط أربعين رجلاً اجتمعوا فدعوا الله في أمر إلاّ استجاب لهم، فإن لم يكونوا أربعين فأربعة يدعون الله عشر مرّات إلاّ إستجاب الله عزّ وجلّ لهم، فإن لم يكونوا أربعة فواحد يدعو الله أربعين مرّة يستجيب الله العزيز الجبّار له».

وروى عبد الأعلى عنه عليه السلام قال: «ما اجتمع أربعة رهط قطّ على أمر واحد فدعوا إلاّ تفرّقوا عن إجابة».

وروى عليّ بن عقبة عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان أبي إذا حزنه أمر جمع النساء والصبيان ثمّ دعا وأمّنوا».

وروى السكوني عنه عليه السلام قال: «الداعي والمؤمن شريكان في الأجر».

الرابع: البكاء حالة الدعاء، قال في العدّة: وهو سيّد الآداب وذروة سنامها، أمّا أوّلاً فلدلالته على رقّة القلب الذي هو دليل الإخلاص الذي عنده تحصل الإجابة.

قال الصادق عليه السلام: «إذا اقشّعر جلدك ودمعت عيناك، ووجل قلبك، فدونك دونك فقد قصد قصدك، ولأنّ جمود العين من قساوة القلب على ما ورد به الخبر، وهو يؤذن بالعبد من الله سبحانه».

---

(١) الكهف: ٢٨.

وفيما أوحى الله تعالى إلى موسى: «يا موسى لا تطوّل في الدنيا أملك فيقسو قلبك، وقاسي القلب منّي بعيد».

وقاسي القلب مردود الدعاء لقوله: «لا يقبل الله دعاءاً بظهر قلب قاس».

وأمّا ثانياً: فلما فيه من الإنقطاع إلى الله وزيادة الخشوع، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا أحبّ الله عبداً نصب في قلبه نائحة من الحزن، فإنّ الله تعالى يحبّ كلّ قلب حزين، وإنّه لا يدخل النار من بكى من خشية الله حتّى يعود اللبن إلى الضرع، وإنّه لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنّم في منخري مؤمن أبداً، وإذا أبغض الله عبداً جعل في قلبه مزماراً من الضحك، وإنّ الضحك يميت القلب، و﴿اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾».

وأمّا ثالثاً: فلموافقته أمر الحقّ سبحانه في وصاياه لأنبيائه عليهم السلام، حيث يقول لعيسى عليه السلام: «يا عيسى هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشية...» الحديث.

ولموسى عليه السلام: «وناجني حيث تناجيني بخشية من قلب وجل...» إلى أن قال: «وصح إليّ من كثرة الذنوب صياح الهارب من عدوّه».

وأمّا رابعاً: فلما فيه من الخصوصيات والفضائل التي لا توجد في غيره من أصناف الطاعات.

وإن لم يكن به بكاء فليتباك لقول الصادق عليه السلام: «وإن لم يكن بك بكاء فتباك».

وعن سعيد بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أتباكى على الدعاء وليس بي بكاء؟ قال: «نعم ولو مثل رأس الذباب».

وعن أبي حمزة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لأبي بصير: «إن خفت أمراً يكون أو حاجة تريدها، فابدأ بالله فمجّده وأثن عليه كما هو أهله،

وصلّ على النبي ﷺ وتباك ولو مثل رأس الذباب، إنّ أبي كان يقول: أقرب ما يكون العبد من الربّ وهو ساجد يبكي».

وعنه عليه السلام: «إن لم يجئك البكاء فتباك، فإن خرج منك مثل رأس الذباب فبخ بخ».

الخامس: الاعتراف بالذنب قبل السؤال لما فيه من الانقطاع إلى الله سبحانه ووضع النفس، ومن تواضع لله رفعه الله، «وهو عند المنكسرة قلوبهم».

روي أنّ عابداً عبد سبعين عاماً صائماً نهاره قائماً ليله، فطلب إلى الله حاجة فلم تقض، فأقبل على نفسه وقال: من قِبَلك أُتيت لو كان عندك خير قضيت حاجتك، فأنزل الله إليه ملكاً فقال: يابن آدم ساعتك التي أزريت فيها على نفسك خير من عبادتك التي مضت.

وعن الصادق عليه السلام: «إذا رقّ أحدكم فليدع فإنّ القلب لا يرقّ إلاّ حين يخلص».

وربّما كان سبباً للبكاء وإرسال الدموع، وهو من الآداب، وناهيك بأدب يكون سبباً لآخر، ولقول الصادق عليه السلام: «إنّما هي المدحة ثمّ الثناء، ثمّ الإقرار بالذنب، ثمّ المسألة، إنّه والله ما خرج عبد من ذنب إلاّ بالإقرار».

السادس: الإقبال بالقلب، لأنّ من لا يقبل عليك لا يستحقّ إقبالك عليه، كما لو حادثك من تعلم غفلته عن محادثتك وإعراضه عن محاورتك فإنّه يستحقّ إعراضك عن خطابه وإشتغالك عن جوابه. قال الصادق عليه السلام: «من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده، فإنّ الله ينزّل العبد مثل ما ينزّل العبد الله من نفسه».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقبل الله دعاء قلب لاه».

وروى سيف بن عمير عن الصادق عليه السلام قال: «إذا دعوت الله فأقبل بقلبك».

وفيما أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: «لا تدعني إلاّ متضرّعاً إليّ، وهمّك همّاً واحداً، فإنّك متى تدعني كذلك أُجبك».

السابع: التقدّم في الدعاء قبل الحاجة إليه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ رضي الله عنه: «ألا أُعلّمك كلمات ينفعك الله عز وجل بهنّ؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة...» الحديث.

وروى هارون بن خارجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الدعاء في الرخاء ليستخرج الحوائج في البلاء».

* * *

وفي (الصحيح) عنه عليه السلام قال: «من تقدّم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء». وقيل: «صوت معروف ولم يحجب عن السماء، ومن لم يتقدّم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل به البلاء، وقالت الملائكة: إنّ ذا الصوت لا نعرفه».

وعنه عليه السلام قال: «كان جدّي يقول: تقدّموا في الدعاء، فإنّ العبد إذا كان دعّاءاً فنزل به البلاء فدعا قيل: صوت معروف، وإذا لم يكن دعّاءاً فنزل به بلاء فدعا قيل: أين كنت قبل اليوم؟».

وعنه عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول: الدعاء بعد ما ينزل البلاء لا ينتفع به».

وعنه عليه السلام قال: «من تخوّف بلاءاً يصيبه فيقدّم فيه بالدعاء لم يره الله عز وجل ذلك البلاء أبداً».

الثامن: الدعاء للأخوان والتماسه منهم، روى ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قدّم أربعين من المؤمنين، ثمّ دعا استجيب له» ويتأكّد بعد الفراغ من صلاة الليل.

وروي أنّ الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى ادعني على لسان لم تعصني به»، فقال: أنّى لي بذلك؟ فقال: «ادعني على لسان غيرك».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس شيء أسرع إجابة من دعوة غائب لغائب».

وروى الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أوشك دعوة وأسرع إجابة دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب».

وعنه عليه السلام: «أسرع الدعاء نجاحاً للإجابة دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب، يبدأ بالدعاء لأخيه فيقول له ملك موكّل به: آمين ولك مثلاه».

وروى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «دعاء الرجل لأخيه بظهر الغيب يدرّ الرزق ويدفع المكروه».

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من مؤمن دعا للمؤمنين والمؤمنات إلاّ ردّ الله عليه مثل الذي دعا لهم به من كلّ مؤمن ومؤمنة مضى من أوّل الدهر أو هو آت إلى يوم القيامة، وإنّ العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيحبس، فيقول المؤمنين والمؤمنات: يا ربّ هذا الذي كان يدعو لنا فشفّعنا فيه، فيشفّعهم الله فيه فينجو».

وروى عليّ عن أبيه، قال: رأيت عبد الله بن جندب بالموقف فلم أر موقفاً أحسن من موقفه، فما زال مادّاً يديه إلى السماء ودموعه تسيل على خدّيه حتّى تبلغ الأرض، فلمّا صدر الناس قلت: يا أبا محمّد ما رأيت موقفاً قطّ أحسن من موقفك، فقال: والله ما دعوت إلاّ لإخواني، وذلك أن أبا الحسن عليه السلام أخبرني: «أنّ من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي

من العرش ولك مائة ألف ضعف، فكرهت أن أدع مائة ألف مضمونة لواحدة لا أدري تستجاب أم لا».

التاسع: أن لا يعتمد في حوائجه غير الله سبحانه، وهو من المكمّلات، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.[1]

وروى حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربّه شيئاً إلاّ أعطاه فلييأس من الناس كلّهم ولا يكون له رجاء إلاّ من عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلاّ أعطاه».

وفيما وعظ الله به عيسى عليه السلام: «يا عيسى ادعني دعاء الحزين الغريق الذي ليس له مغيث، يا عيسى سلني ولا تسأل غيري فيحسن منك الدعاء ومنّي الإجابة، ولا تدعني إلاّ متضرّعاً إليَّ، وهمّك همّاً واحداً، فإنّك متى تدعني كذلك أُجبك».

وأوحى إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: «وعزّتي وجلالي لأقطعنّ أمل كلّ آمل أمّل غيري بالأياس، ولأكسونّه ثوب المذلّة في الناس، ولأبعدنّه من فرجي وفضلي، أيأمل عبدي في الشدائد غيري والشدائد بيدي، ويرجو سواي وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني، ألم تعلموا أنّ من دهمته نائبة فلم يملك كشفها عنه غيري، فما لي أراه يأمله معرضاً عنّي، وقد أعطيته بجودي وكرمي ما لم يسألني فأعرض عنّي ولم يسألني وسأل في نائبته غيري، وأنا الله أبتدي بالعطيّة قبل المسألة، أفأسأل فلا أجود، كلاّ، أليس الجود والكرم لي، أليس الدنيا والآخرة بيدي، فلو أنّ أهل سبع سماواتي وأرضيني سألوني جميعاً وأعطيت كلّ واحد منهم مسألته ما نقص ذلك

---

(١) الطلاق: ٣.

من ملكي مثل جناح البعوضة، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه، فيا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني». رواه الصادق عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: قال الله عز وجل: «ما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلاّ ضمنت السماوات والأرض رزقه، فإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وإن استغفرني غفرت له ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلاّ قطعت أسباب السماوات وأسباب الأرض من دونه، فإن سألني لم أُعطه وإن دعاني لم أُجبه».

العاشر: ما روي عن الصادق عليه السلام قال: «احفظ أدب الدعاء وانظر من تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقّق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، واطّلاعه على سرّك وما كنّ فيه من الحقّ والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك، وأنت تظنّ أنّ فيه نجاتك، قال الله عز وجل: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾[1].

وتفكّر ماذا تسأل، ولماذا تسأل، والدعاء إستجابة الكل منك للحقّ، وتذويب المهجة في مشاهدة الربّ، وترك الإختيار جميعاً، وتسليم الأمور كلّها ظاهرها وباطنها إلى الله، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة، فإنّه يعلم السرّ وأخفى، فلعلّك تدعوه بشيء قد علم من نيّتك بخلاف ذلك. قال بعض الصحابة لبعضهم: أنتم تنتظرون المطر بالدعاء وأنا أنتظر الحجر.

واعلم أنّه لو لم يكن أمرنا الله بالدعاء لكنّا إذا أخلصنا الدعاء تفضّل علينا بالإجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء.

---

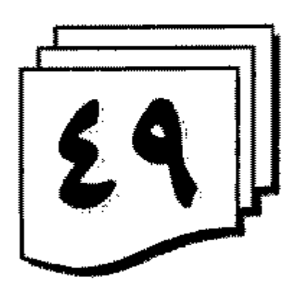
(١) الإسراء: ١١.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن اسم الله الأعظم، قال: «كل اسم من أسماء الله أعظم» وفرّغ قلبك عن كلّ من سواه وادعه بأي اسم شئت، وليس في الحقيقة لله اسم دون اسم، بل هو الله الواحد القهّار.

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه» فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء وأخلصت سرّك لوجهه فأبشر بإحدى ثلاثة: إمّا بأن يتعجّل لك بما سألت، أو يدّخر لك ما هو أعظم منه، وإمّا أن يصرف عنك من البلاء ما أن لو أرسله عليك لهلكت، قال النبي صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين».

قال الصادق عليه السلام: «لقد دعوت الله مرّة فاستجاب لي ونسيت الحاجة؛ لأنّ استجابته بإقباله على عبده عند دعوته أعظم وأجلّ ممّا يريد منه العبد، ولو كانت الجنّة ونعيمها الأبد، ولكن لا يفعل ذلك إلاّ العالمون المحبّون العارفون، صفوة الله وخواصه».

* * *



قوله عليه السلام:

إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلاةِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الأُخْرَى.

(نهج البلاغة ٤: ٨٤)



[عظمة الصلاة على النبي وآله]

قال ابن أبي الحديد:

هذا الكلام على حسب الظاهر الذي يتعارفه الناس بينهم، وهو عليه السلام يسلك هذا المسلك كثيراً، ويخاطب الناس على قدر عقولهم، وأمّا باطن الأمر فإنّ الله تعالى لا يصلّي على النبي صلى الله عليه وآله لأجل دعائنا إيّاه أن يصلّي عليه؛ لأنّ معنى قولنا: اللهم صل على محمّد، أي أكرمه وارفع درجته، والله سبحانه قد قضى له بالإكرام التامّ ورفعة الدرجة من دون دعائنا، وإنّما تعبّدنا نحن بأن نصلّي عليه؛ لأنّ لنا ثواباً في ذلك لا لأنّ إكرام الله تعالى له أمر يستعقبه ويستتبعه دعاؤنا، وأيضاً فأيّ غضاضة على الكريم إذا سئل حاجتين فقضى إحداهما دون الأخرى إن كان عليه في ذلك غضاضة، فعليه في ردّ الحاجة الواحدة غضاضة أيضاً.[1]

* * *

قال الشيخ ابن ميثم البحراني:

أمر بتقديم سؤال الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله في طلب الحاجة، للإستعداد به ورغّب فيه بقوله: فإنّ الله سبحانه إلى آخره، أي إنّ المسألة الأولى مجابة من الله بالإتّفاق، فيجب من كرمه إجابة الثانية، وهو صغرى

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٧٩.

ضمير تقدير كبراه، وكلّ من كان أكرم من ذلك فينبغي أن يسأل المسلمون ليقضي الحاجة.[1]

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

معنى صلاة الله على نبيّه الكريم أن يرفعه إلى الدرجة العليا فوق الأنبياء والملائكة، ولا شكّ أنّ النبي ﷺ في هذه الدرجة صلّينا عليه أم لم نصلّ، والغرض من صلاتنا عليه ودعائنا له بعلوّ المنزلة عند الله هو مجرّد الشكر لفضله علينا بالهداية، ولتعظيم ذكره تماماً، كما نعبد الله شكراً وتعظيماً، وهو غني عن العالمين.

ويقول الإمام عليه السلام: صلّ على النبي ﷺ، ثمّ سل حاجتك من الله، فإنّ الصلاة على نبيّه محبوبة له تعالى وأمرنا بها في: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.[2]

وهذه الصلاة خير وسيلة لقضاء الحاجات؛ لأنّ الله _ كما أشرنا _ يحبّها، ومن أجلها يحبّ ما يتبعها ويقترن بها، ولا معنى لحبّه حاجاتنا إلاّ قضاؤها ولو بعد حين، أو يعوّضنا عنها ما هو خير وأبقى.[3]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦١٤.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٤٢٥.

وقال صاحب (منهاج البراعة):[1]

«أمر عليه السلام بالدعاء للرسول صلى الله عليه وآله قبل الدعاء لنفسه، باعتبار أنّ إجابة الدعاء الأوّل ضامن لإجابة الدعاء الثاني؛ لأنّ الكريم لا يتبعّض الصفقة.

وقد استبعد الشارح المعتزلي ذلك فقال: هذا الكلام على حسب الظاهر الذي يتعارفه الناس بينهم، وهو عليه السلام يسلك هذا المسلك كثيراً ويخاطب على قدر عقولهم، وأنكر في آخر كلامه أن يكون لصلاة الناس أثر في إكرام النبي صلى الله عليه وآله، وحمله على صرف التعبّد، وفي كلامه هذا موارد للنظر نشير إلى بعضها:

١ ـ حمله أمر أمير المؤمنين عليه السلام على متابعته للناس، وفيه من البعد والإهانة بمقامه عليه السلام ما لا يخفى.

٢ ـ إنكار تأثير دعاء المسلمين في مزيد إكرام النبي صلى الله عليه وآله مع أنّه بنفسه إكرام له عند الله وعند الناس.

* * *

[أصل كلمة الصلاة واشتقاقها]:

جاء في كتاب (نزهة الجليس) تأليف السيّد عبّاس بن عليّ بن نور الدين الحسيني المكّي، المتوفّى في حدود (١٣٨٠هـ):

اختلف العلماء في اشتقاق الصلاة، فقيل: أنّها مأخوذة من صَلَيتُ العود بالنار إذا ليّنته وقوّمته، لأنّ المصلّي يلين بالحنو والعطف، ويسعى في تعديل ظاهره وتقويم باطنه، كالخشب الذي يعرض على النار.

قال النووي: وفي هذا القول غباوة من صاحبه؛ لأنّ الصلاة واوية وصليت العود من ذوات الياء، فكيف يصحّ الاشتقاق.

---

(١) ج ٢١: ٤٤٣.

قال الزركشي: وهو عجيب، فإنّ المشدّد تقلب منه الواو ياء، كما في زكيت المال، والظاهر أنّ النووي توهّم أنّه مأخوذ من صليت المخفّفة ذاهلاً عن كون الثقيلة وهي التصلية كالتزكية مصدر صلى المشدّدة، لا المخفّفة، إنتهى.

وهذا التعجّب أعجب فإنّ كلاً من صليت العود، وصليته المخفّفة والمشدّدة من ذوات الياء، فلم تقلب الواو في المشدّدة ياء، كما زعمه الزركشي، بل الياء فيهما من سنخ الكلمة بخلاف التزكية، فإنّها واوية، فقلبت الواو ياءاً مع التشديد، وهذا ظاهر، وقيل: إنّ الصلاة مشتقّة من الصلوين، وهما عرقان من جانبي الذنب، وعظمان ينحنيان عند الإنحناء، فناسب أن يراد بهما الحنو والإنعطاف المعنويين.

وقال الزمخشري: الصلاة فعلة من صلى، كالزكاة من زكى، وكتبت بالواو على لفظ المفخّم، وحقيقة صلى حرّك الصلوين بفعل ذلك في ركوعه وسجوده، إنتهى.

فإن قلت: هذا الإشتقاق إنّما يناسب معنى الصلاة ذات الركوع والسجود، لا المعنى المراد منها هنا.

قلت: أُجيب بأنّ المصلّي لمّا كان يتعطّف في ركوعه وسجوده، فكانت الصلاة ذات الأركان مشتملة على التعطّف صيّرت للتعطيف على الغير حنواً وترؤفاً.

وقيل: بل أصل الصلاة اللغوي بمعنى الدعاء، ويؤيّده أنّ الصلاة بهذا المعنى في أشعار الجاهلية كثيرة الإستعمال.

وقال الجمهور: الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الإستغفار، ومن الآدميين الدعاء، واستبعد هذا من جهات:

أحدها: إقتضاؤه الإشتراك، والأصل عدمه لما فيه من الإلباس، حتّى أنّ قوماً ينفونه، ثمّ المثبتون له يقولون: حتّى عارضه غيره ممّا يخالف الأصل كالمجاز، قدّم عليه، ولذلك تسمعهم يقولون المجاز خير من الإشتراك.

الثانية: إنّا لا نعرف في العربية فعلاً واحداً يختلف معناه باختلاف المسند إليه إذا كان الإسناد حقيقيّاً.

الثالثة: إنّ الرحمة فعلها متعدٍّ والصلاة فعلها قاهر، ولا يحسن تفسير القاهر بالمتعدّي.

الرابع: إنّه لو قيل مكان صلّى عليه دعا عليه، إنعكس المعنى وخفي المراد بين صحّة حلول كلّ منهما محلّ الآخر.

وقال شيخ الطائفة الشيخ زين الدين في بعض مصنّفاته: الصلاة هي الدعاء من الله ومن غيره، لكنّها منه تعالى مجاز في الرحمة، وهو أولى ممّا قيل من أنّها منه تعالى بمعنى الرحمة، ومن غيره الدعاء بطلبها أو أنّها منه كذلك، ومن ملائكته الإستغفار، ومن المؤمنين الدعاء لإستلزام الإشتراك والمجاز خير منه، والمعنى الأصلي أولى من النقل، وعطف الرحمة على الصلاة في قوله تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1] لا يقدح في كونها بمعناها، لجواز عطف الشيء على مرادفه، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[2] ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾[3] وهو كثير، انتهى كلامه رفع الله مقامه.

وقال المحقّقون: إنّهما لغة بمعنى واحد، وهو العطف بالنسبة إلى

---

(١) البقرة: ١٥٧.

(٢) يوسف: ٨٦.

(٣) طه: ١٠٧.

الله تعالى الرحمة اللائقة به تعالى، وإلى الملائكة الإستغفار، وإلى الآدميين دعاء بعضهم لبعض.

قال السهيلي في نتائج الفكر: الصلاة كلّها وإن إختلفت معانيها راجعة إلى أصل واحد، فلا تظنّها لفظ إشتراك وإستعارة، إنّما معناها العطف، ويكون محسوساً ومعقولاً، انتهى.

والحاصل: إنّ الإختلاف على هذا القول في أفراد معنى الصلاة، وعلى قول الجمهور في نفس معنى الصلاة، ومعنى الصلاة على رسول الله ﷺ تعظيمه في الدنيا بإعلاء كلمته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بمضاعفة مثوبته، والزيادة في رفع درجته، وغاية الدعاء بذلك عائد إلى المصلّي؛ لأنّ الله تعالى قد أعطاه من إعلاء الكلمة وعلوّ الدرجة، ورفع المنزلة ما لا يؤثّر فيه صلاة مصلّ، ولا دعاء داع.

وقيل: بل غايته طلب زيادة كماله وقربه من الله، إذ مراتب إستحقاق نعم الله تعالى غير متناهية.

وأمّا الصلاة عليه في غير الصلاة وعند عدم ذكره فمستحبّة عند جميع أهل الإسلام، ولا نعرف من قال بوجوبها غير الكرخي، فإنّه أوجبها في العمر مرّة كما في الشهادتين.

وأمّا في الصلاة فهي واجبة عند الإمامية في التشهّدين معاً.

وقال الشافعي: هي مستحبّة في الأوّل واجبة في الثانية.

وقال أبو حنيفة ومالك: مستحبّة فيهما.

وأمّا عند ذكره ﷺ فظاهر في كثير من الأخبار، كقوله ﷺ: «من ذكرت عنده ولم يصلّ عليَّ دخل النار، ومن ذكرت عنده فنسي الصلاة عليَّ خطئ به طريق الجنّة».

وقوله صلى الله عليه وآله: «من ذكرت عنده ولم يصلّ عليَّ دخل النار وأبعده الله»، دليل على أنّها تجب كلّما ذكر، وكلّما سمع ذكره؛ لأنّ الوعيد إمارة الوجوب، ومنهم من أوجبها في العمر مرّة، (عليهم سلام الله ما لمع آل) انتهى.

* * *

قال الطريحي في (مجمع البحرين):[1]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[2] قال بعض الأفاضل: (الصلاة) وإن كانت بمعنى الرحمة، لكن المراد بها هنا الإعتناء بإظهار شرفه ورفع شأنه، ومن هنا قال بعضهم: تشريف الله محمّداً صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.[3] أبلغ من تشرف آدم بالسجود.

وفي الدعاء: «اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم» قيل: ليس التشبيه من باب إلحاق الناقص بالكامل؛ بل لبيان حال من يعرف بمن لا يعرف، وقيل: هو في أصل الصلاة لا في قدرها، وقيل: معناه اجعل لمحمّد صلاة بمقدار الصلاة لإبراهيم وآله، وفي آل إبراهيم خلائق لا يحصون من الأنبياء، وليس في آله نبي، فطلب إلحاق جملة فيها نبي واحد بما فيه أنبياء.

واختلف في وجوب الصلاة على محمّد صلى الله عليه وآله في الصلاة: فذهب أكثر الإمامية وأحمد والشافعي إلى وجوبها فيها، وخالف أبو حنيفة ومالك في ذلك، ولم يجعلاها شرطاً في الصلاة.

---

(١) ج ٢: ٦٣١.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

(٣) الأحزاب: ٥٦.

وكذلك إختلف في إيجابها عليه في غير الصلاة، فذهب الكرخي إلى وجوبها في العمر مرّة، والطحاوي كلّما ذكر وإختاره الزمخشري، وكذلك ابن بابويه من فقهائنا، وهو قوي.

وفي الحديث: «الصلاة على النبي ﷺ أفضل من الدعاء لنفسه» ووجهه أنّ فيها ذكر الله وتعظيم النبي ﷺ، ومن ذكره عن مسألة أعطاه أفضل ممّا يعطي الداعي لنفسه، ويدخل في ذلك كفاية ما يهمّه في الدارين.

وفيه: «من صلّى عليّ صلاة صلّت الملائكة عليه عشراً» أي دعت له وباركت.

وجاءت الصلاة بمعنى التعظيم، قيل: ومنه: «اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد» أي عظّمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهاره دعوته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أُمّته ومضاعفة أجره ومثوبته.

* * *

[استحباب الصلاة على النبي وآله]:

قال الفيض الكاشاني في (المحجّة البيضاء ج ٢):[١]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.[٢]

وروي أنّه ﷺ جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه فقال: «إنّه جاءني جبرئيل فقال: يقول الله تعالى: أما ترضى يا محمّد أن لا يصلّي

---

(١) ص ٣١١.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

عليك أحد من أمّتك إلاّ صلّيت عليه عشراً، ولا يسلّم عليك أحد من أمّتك إلاّ سلّمت عليه عشراً».

وقال ﷺ: «من صلّى عليّ صلّت عليه الملائكة ما صلّى عليّ، فليقلّل عبد عن ذلك أو ليكثر».

وقال ﷺ أيضاً: «إنّ أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة».

وقال ﷺ: «بحسب المؤمن من البخل أن أُذكر عنده فلا يصلّي عليّ».

وقال ﷺ: «أكثروا عليّ الصلاة يوم الجمعة».

وقال ﷺ: «من صلّى عليّ من أمّتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيّئات».

وقال ﷺ: «من قال حين يسمع الأذان والإقامة: اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامّة، والصلاة القائمة صلّ على محمّد عبدك ورسولك، وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة، حلّت له شفاعتي».

وقال ﷺ: «من صلّى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب».

وقال ﷺ: «إنّ في الأرض ملائكةً سيّاحين يبلّغوني عن أمّتي السلام».

وقال ﷺ: «ليس أحد يسلّم عليّ إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتّى أردّ عليه السلام».

وقال بعضهم: كنت أكتب الحديث وأصلّي على النبي ﷺ فيه ولا أسلّم، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال: أما تتمّ الصلاة عليّ في كتابك؟ فما كتبت بعد ذلك إلاّ صلّيت عليه وسلّمت.

* * *

وفي كتاب الأنس الجليل، بتاريخ القدس والخليل (ج ١ ص ٢٢٣ ط النجف):

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلّوا عليَّ، فإنّه من صلّى عليَّ مرّة واحدة، صلّى الله عليها بها عشراً، ثمّ سلوا لي الوسيلة فإنّها منزلة لا تنبغي إلاّ لعبد واحد، وأرجو أن أكون أنا، فمن سأله الوسيلة حلّت له الشفاعة».

وقال عمر بن الخطاب: إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء حتّى تصل على نبيك محمّد ﷺ، فإذا فعلت انخرقت الحجب، ودخل الدعاء، وإن لم تفعل ذلك رجع الدعاء.

وعنه ﷺ إنّه قال: «إنّ أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها، أكثركم عليَّ صلاة».

وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال: حدّثني رسول الله ﷺ وعدّهن في يدي، قال: عدهنّ في يدي جبريل عليه السلام، وقال جبريل: هكذا أنزلت بهنّ من عند ربّ العزّة: «اللهمّ صل على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنّك حميد مجيد، اللهمّ وترحّم على محمّد وعلى آل محمّد كما ترحّمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللهمّ وتحنّن على محمّد وعلى آل محمّد كما تحنّنت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللهمّ وسلّم على محمّد وعلى آل محمّد كما سلّمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد».

وعن أبي بكر أنه قال: الصلاة على النبي ﷺ أمحق للذنوب من الماء البارد، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب.

قال ابن الفاكهاني: قلت: وإنما كان أفضل من عتق الرقاب ـ والله أعلم ـ لأن عتق الرقاب في مقابلة العتق من النار ودخوله الجنّة، والسلام عليه في مقابل سلام الله تعالى، وسلام من الله أفضل من مائة ألف ألف جنّة، فناهيك بها من منّة، فنسأل الله أن يرزقنا مرافقته في الجنّة، بمنه وكرمه وجوده وإحسانه».

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي[1] عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله فأكثروا الصلاة عليه فإنّه من صلّى على النبي صلى الله عليه وآله صلاة واحدة، صلّى الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة، ولم يبق شيء ممّا خلقه الله إلاّ صلّى على ذلك العبد لصلاة الله عليه، وصلاة ملائكته، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من صلّى عليَّ صلّى الله عليه وملائكته، فمن شاء فليقلّ، ومن شاء فليكثر».

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ارفعوا أصواتكم بالصلاة عليَّ فإنّها تذهب بالنفاق».

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصلاة عليَّ وعلى أهل بيتي تذهب بالنفاق».

وعنه عليه السلام: «من صلّى على محمّد وآل محمّد عشراً صلّى الله عليه وملائكته مائة مرّة، ومن صلّى على محمّد وآل محمّد مائة مرّة صلى الله عليه وملائكته ألفاً، أما تسمع قول الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[2]».

---

(١) أنظر: الكافي ٢: ٤٩٢.

(٢) الأحزاب: ٤٣.

وعن أحدهما عليه السلام قال: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمّد وآل محمّد، وإنّ الرجل ليوضع أعماله في الميزان فتميل به، فيخرج صلى الله عليه وآله الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فيرجّح به».

وعن عبد السلام بن نعيم، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي دخلت البيت ولم يحضرني شيء من الدعاء إلاّ الصلاة على محمّد صلى الله عليه وآله، فقال: «أما إنّه لم يخرج أحد بأفضل ممّا خرجت به».

وعن عبيد الله بن عبد الله الدهقان قال: «دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال لي: «ما معنى قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[1]؟» قلت: كلّما ذكر اسم ربّه قام فصلّى، فقال لي: «لقد كلّف الله هذا شططاً»، فقلت: جعلت فداك فكيف هو؟ فقال: «كلّما ذكر اسم ربّه صلى على محمّد وآله».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا صلّى أحدكم ولم يذكر النبي صلى الله عليه وآله في صلاته، يسلك بصلاته غير سبيل الجنّة»، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله»؛ وقال صلى الله عليه وآله: «من ذكرت عنده فنسي الصلاة عليّ خطّئ به طريق الجنّة».

وعنه عليه السلام قال: «سمع أبي رجلاً متعلّقاً بالبيت وهو يقول: اللهم صل على محمّد، فقال له أبي عليه السلام: لا تبترها، لا تظلمنا حقّنا، قل: اللهم صل على محمّد وأهل بيته».

* * *

---

(١) الأعلى: ١٥.

وفي المجلّد الخامس من كتاب (الغدير)[1] جاء تحت عنوان:

الصلاة على النبي الطاهر ﷺ:

أخرج البخاري باسناده مرفوعاً: «من صلّى عليَّ عند قبري، وكّل الله به ملكاً يبلّغني وكفى أمر دنياه وآخرته، وكنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة».

قال المجد: ويأتي (الزائر) بأتمّ أنواع الصلاة وأكمل كيفيّاتها، والإختلاف في ذلك مشهور، قال: والذي أختاره لنفسي:

اللهم صلّ على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وأزواجه، عدد ما خلقت وعدد ما أنت خالق؛ وزنة ما خلقت وزنة ما أنت خالق؛ وملء ما خلقت وملء ما أنت خالق، وملء سماواتك وملء أرضك، ومثل ذلك وأضعاف ذلك، وعدد خلقك وزنة عرشك، ومنتهى رحمتك ومداد كلماتك، ومبلغ رضاك وحتّى ترضى، وعدد ما ذكرت به خلقك في جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروك فيما بقي في كلّ سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات ونسيم ونفس ولمحة وطرفة من الأبد إلى الأبد، أبد الدنيا والآخرة، وأكثر من ذلك لا ينقطع أوّله ولا ينفد آخره، يقوله مرّة أو ثلاث ثمّ يقول: اللهم صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آل سيدنا محمّد.

وروي عن ابن أبي فديك قال: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنّه من وقف عند قبر النبي ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾،[2] صلّى الله تعالى على

---

(١) ص ١٤٢.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

محمّد وسلّم، وفي رواية: صلّى الله عليك يا محمّد، يقولها سبعين مرّة ناداه ملك: صلّى الله عليك يا فلان لم تسقط لك اليوم حاجة.

قال السمهودي: قال بعضهم: الأولى أن يقول: صلى الله وسلم عليك يا رسول الله، وإن كانت الرواية (يا محمّد) تأدّباً لأنّ من خصائصه ﷺ أن لا ينادى باسمه، بل يقال يا رسول الله، يا نبي الله ونحوه، والذي يظهر أنّ هذا في نداء لا يقترن به الصلاة والسلام.

* * *

وفي المجلّد الأوّل من كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستّة) تحت عنوان:

في فضل الصلاة على النبي ﷺ:

سنن الدارمي (ج ٢ ص ٣١٧): روى بسنده عن أبي طلحة، قال: جاء النبي ﷺ يوماً وهو يرى البشر في وجهه، فقيل: يا رسول الله إنّا نرى في وجهك بشراً لم نكن نراه، قال: «أجل إنّ ملكاً أتاني فقال لي: يا محمّد إنّ ربّك يقول لك: أما يرضيك أن لا يصلّي عليك أحد من أمّتك إلاّ صلّيت عليه عشراً، ولا يسلّم عليك إلاّ سلّمت عليه عشراً؟ قال: قلت: بلى».

وتاريخ بغداد (ج ٨ ص ١٤٠): روى بسنده عن أبي طلحة، قال: دخلت على رسول الله ﷺ ذات يوم فلم أره قطّ أشدّ فرحاً وأطيب نفساً منه يومئذٍ، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي لم أرك قطّ أشد فرحاً ولا أطيب نفساً منك ـ يعني اليوم ـ فقال: «يا أبا طلحة وما يمنعني أن لا أكون كذلك؟ وإنّما فارقني جبريل آنفاً، فقال: يا محمّد إنّ ربّك بعثني إليك وهو يقول: إنّه ليس أحد من أمّتك يصلّي عليك صلاة إلاّ ردّ

الله مثل صلاته عليك، وإلاّ كتب له بها عشر حسنات، وحطّ عنه بها عشر سيّئات، ورفع له بها عشر درجات، ولا يكون لصلاته منتهى دون العرش، لا تمرّ بملك إلاّ وقال: صلّوا على قائلها كما صلّى على محمّد ﷺ».

تاريخ بغداد (ج ٨ ص ٣٨١): روى بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات، وحطّ عنه عشر خطيئات».

تاريخ بغداد (ج ٢ ص ٢٥٠): روى بسنده عن عبد الله عن النبي ﷺ عن جبريل عن ميكائيل عن إسرافيل عن الرفيع عن اللوح المحفوظ عن الله تعالى، أنّه أظهر في اللوح أن يخبر الرفيع، وأن يخبر الرفيع إسرافيل، وأنّ يخبر إسرافيل ميكائيل، وأن يخبر ميكائيل جبريل، وأن يخبر جبريل محمّداً ﷺ أنّه «من صلّى عليك في اليوم والليلة مائة مرّة صلّيت عليه ألفي صلاة، ويقضى له ألف حاجة أيسرها أن يعتقه من النار».

* * *

[أربعون حديثاً في فضل الصلاة عليه وآله]:

وممّا جاء في المجلد الثاني من (كتاب المستطرف)[1] أربعون حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ:

الحديث الأوّل: عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ صلّت عليه الملائكة، ومن صلّت عليه الملائكة صلّى الله عليه، ومن صلّى الله عليه لم يبق شيء في السماوات والأرض إلاّ صلّى عليه».

---

(١) ص ٦١١ - ٦١٥.

الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنباً ثلاثة أيّام».

الحديث الثالث: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ مرّة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان: جناح بالمشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول: اللهمّ صلّ على عبدك ما دام يصلي على نبيّك».

الحديث الرابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ مرّة صلى الله عليه بها ألفاً، ومن صلّى عليّ ألفاً لم يعذّبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ مرّة كتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيّئات ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل يوماً وقال: يا محمّد جئتك ببشارة لم آت بها أحداً قبلك، وهي أنّ الله تعالى يقول لك: من صلّى عليك من أُمّتك ثلاث مرّات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد، وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم، فعند ذلك خرّ ساجداً لله شاكراً».

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ في صباح عشراً محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرّة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرّة قضى الله له مائة حاجة، ووكّل الله به ملكاً حين يدفن في قبره يبشّره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهديّة».

الحديث العاشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ في يوم مائة مرّة، قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادي عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقربكم منّي مجلساً أكثركم عليَّ صلاةً».

الحديث الثاني عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من صلّى عليَّ ألف مرّة بشّر بالجنّة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «جائني جبريل عليه السلام وقال لي: يا رسول الله لا يصلّي عليك أحد إلاّ ويصلّي عليه سبعون ألفاً من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء بعد الصلاة عليَّ لا يردّ».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصلاة عليَّ نور على الصراط»، وقال صلى الله عليه وآله: «لا يلج النار من يصلّي عليَّ».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من جعل عبادته الصلاة عليَّ قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من نسي الصلاة عليَّ أخطأ طريق الجنّة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ لله ملائكة في الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلاّ الصلاة عليَّ وعلى أهل بيتي».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أنّ عبداً جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا ولم يكن فيها الصلاة عليَّ ردّت عليه ولم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أولى الناس بي أكثرهم عليَّ صلاة».

الحديث الحادي والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من صلّى عليَّ في كتاب لم تزل الملائكة تصلي عليه ما لم يندرس اسمي من ذلك الكتاب».

الحديث الثاني والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلّغوني الصلاة عليَّ من أمّتي فأستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليَّ كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل عليَّ فأنا بريء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنّة فيخطئون الطريق»، قالوا: يا رسول الله ولِمَ ذاك؟ قال: «سمعوا اسمي ولم يصلّوا عليَّ».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول: ردّوه إلى الميزان، فأضع له شيئاً كالأنملة معي في ميزانه، وهو الصلاة عليَّ فترجح ميزانه وينادى سعد فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في مجلس ولم يصلّ عليَّ فيه إلاّ تفرّقوا كقوم تفرّقوا عن ميّت لم يغسلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ﷻ وكّل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلّها فلا يصلّي عليَّ أحد على يوم القيامة إلاّ بلّغني اسمه، وقال: يا رسول الله إنّ فلان بن فلانة صلّى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبي بكر أنّه قال: الصلاة على النبي ﷺ أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح.

الحديث التاسع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك، ومن روحك لجسدك، فأكثر الصلاة على النبي الأمّي ﷺ».

الحديث الثلاثون: قال رسول ﷺ: «إنّ ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها، فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها،

فغضب الله عليه وكسّر أجنحته، فمرّ به جبريل عليه السلام فشكا له حاله، فسأل الله فيه فأمره أن يصلّي على النبي صلى الله عليه وآله فصلّى عليه فغفر الله له وردّ عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله».

الحديث الحادي والثلاثون: عن عائشة قالت: من صلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرّات، وصلّى ركعتين ودعا الله تعالى تقبل صلاته وتقضى حاجته ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثاني والثلاثون: عن زيد بن حارثة قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الصلاة عليه؟ فقال: «صلّوا عليَّ واجتهدوا في الدعاء، وقولوا: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صلوا عليَّ فإنّ صلاتكم عليَّ زكاة لكم، واسألوا الله لي الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدي، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لا صلاة لمن لم يصلّ على نبيّه صلى الله عليه وآله».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ عليَّ».

الحديث السادس والثلاثون: عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قال جزى الله عنّا محمّداً خيراً، وجزى الله نبينا محمّداً بما هو أهله فقد أتعب كاتبيه».

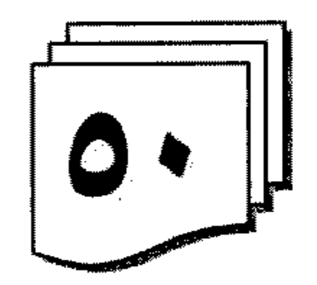
الحديث السابع والثلاثون: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا عليَّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من أحد يصلّي عليَّ إلاّ ردّ الله عليَّ روحي حتّى أرد عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم منّي منزلاً يوم القيامة أكثركم عليَّ صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الدميري عن شفاء الصدور لابن سبع: أنّ النبي ﷺ قال: «من سرّه أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة عليَّ في كلّ يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً، وهدمت ذنوبه، ومحيت خطاياه، ودام سروره، واستجيب دعاؤه، وأعطي أمله، وأعين على عدوه، وعلى أسباب الخير، وكان ممّن يرافق نبيّه في الجنان».

* * *



قوله عليه السلام:

إِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ حَقّاً، وَإِنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حَقّاً، فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَحَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اسْمَهُ، وَيُحَسِّنَ أَدَبَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ.

(نهج البلاغة: الحكمة ٣٩٩)

[حقوق الأبوين والأولاد]

قال ابن أبي الحديد:

أمّا صدر الكلام فمن قول الله سبحانه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾[1] وأمّا تعليم الوالد الولد القرآن والأدب فمأمور به، وكذلك القول في تسميته باسم حسن.

وقد جاء في الحديث: «تسمّوا بأسماء الأنبياء، وأحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمّام وأقبحها حرب ومرّة»، وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ: «إنّكم تدعون يوم القيامة بأسماءكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»، وقال ﷺ: «إذا سمّيتم فعبدوا» أي سمّوا بنيكم عبد الله ونحوه من أسماء الإضافة إليه عزّ اسمه.

وكان رسول الله ﷺ يغيّر بعض الأسماء، سمّى أبا بكر عبد الله وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، وسمّى ابن عوف عبد الرحمن وكان سمه عبد الحارث، وسمّى شعب الضلالة شعب الهدى، وسمّى يثرب طيبة، وسمّى بني الريبة بني الرشدة، وبني معاوية بني مرشدة...

وروى جابر عنه ﷺ: «ما من بيت فيه أحد اسمه محمّد إلاّ وسّع الله عليه الرزق، فإذا سمّيتموهم به فلا تضربوهم ولا تشتموهم، ومن ولد له ثلاثة ذكور ولم يسمّ أحدهم أحمد أو محمّداً فقد جفاني».

---

(١) لقمان: ١٤ و١٥.

أبو هريرة عنه ﷺ أنّه نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته لأحد، وروى أنّه أذن لعليّ بن أبي طالب عليه السلام في ذلك فسمّى ابنه محمّد بن الحنفية محمّداً وكنّاه أبا القاسم.(١)

* * *

الإنسان يعيش في مجتمع يمدّه بالماديّات: من طعام، وشراب، ولباس، ودواء، ومسكن، وأثاث، وزينة، ودين، وعادات وتقاليد، وأوّل ما يلابس من المجتمع الأسرة التي يحيا بينها وينعم بظلّها، ويشاركها العواطف والمشاعر والأحلام، وأولى ذلك الوالدان، الوالدان هما سبب وجودنا، ولولا الآباء والأمّهات لم يوجد الأولاد.

قال الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾.(٣)

في الآية الأخيرة جعل الله حقّ الوالدين بعد حقّ الله، وما ذلك إلاّ لإيضاح معنى رفيع، وهو بيان أنّ فضل الوالدين قريب الشبه بفضل الله، فإنّ الله معطي الوجود ومانحه، والأبوان وإن لم يكونوا مانحي الوجود فإنّهما مجرى الوجود، فالله أعطى الخير ولكن المجرى الذي سار فيه الخير هما الأبوان، فالله معطي الوجود، والأبوان مجرى الوجود وطريقه للبروز في العالم، وإكتمال نعمة الوجود.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦٥.

(٢) الإسراء: ٢٤.

(٣) النساء: ٣٦.

قال الرسول محمّد صلى الله عليه وآله: «من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنّة».[١]

وقال زين العابدين عليه السلام: «وأمّا حقّ أبيك فإن تعلم أنّه أصلك، وإنّك لولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك مما يعجبك فاعلم أنّ أباك أصل النعمة عليك فيه».[٢]

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله أوصني، فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن حرّقت وعذّبت، إلاّ وقلبك مطمئن بالإيمان، ووالديك فأطعهما وبرّهما حيين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل».[٣]

وحيث لقيت الأمّ من العناء والألم أشدّ ممّا يلقاه الأب، فقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله برّ الأمّ على برّ الأب، فالأمّ تحمله جنيناً، وترضعه طفلاً، وتغذوه من لبنها، وتسهر على تربيته، وتعرض حياتها للخطر من أجله.

جاء رجل فسأل النبي صلى الله عليه وآله عن برّ الوالدين، فقال: «أبرر أمّك، أبرر أمّك، أبرر أمّك، أبرر أباك».[٤]

قال الصادق عليه السلام: «أفضل الأعمال الصلاة لوقتها، وبرّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله».[٥]

قال زين العابدين عليه السلام: «وحقّ أمّك أن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً، ووقتك

---

(١) جامع السعادات ٢: ٣٠٢؛ مستدرك الوسائل١٥: ١٧٥/ ح ١٧٩٠٩.

(٢) أمالي الصدوق: ٤٣٥/ ح ١/٦١٠.

(٣) الكافي ٢: ١٥٨/ ح٢.

(٤) الكافي ٢: ١٦٢/ ح ١٧، وتكملة الحديث: «أبرر أباك، أبرر أباك»، وبدأ بالأم قبل الأب.

(٥) بحار الأنوار ٧١: ٨٥.

بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحرّ والبرد لتكون لها، فإنّك لا تطيق شكرها إلاّ بعون الله».[1]

رجل هاجر من اليمن إلى رسول الله ﷺ وأراد الجهاد، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى أبويك فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلاّ فبرّهما»[2] فإنّ ذلك خير ممّا كلّف به بعد التوحيد.

جاء رجل أخبر الرسول ﷺ ليجاهد معه، فقال: «ألك والدة؟» قال نعم: قال: «فالزمها فإنّ الجنّة تحت قدمها».[3]

جاء رجل إلى الرضا عليه السلام فقال: أدعو لوالديَّ إذا كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: «ادع لهما وتصدّق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان الحقّ فدارهما، فإنّ رسول الله قال: إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق».[4]

غير خفي أنّه في عهد الرضا عليه السلام حينما كان في خراسان، فإنّ كثيراً من الناس يعتنقون الإسلام وأبواهم غير مسلمين، فأمر بالإحسان إلى الوالدين وإن كانا غير مسلمين.

[عقوق الوالدين]:

وضدّ البرّ للوالدين، العقوق لهما:

إنّ عقوق الوالدين أدلّ دليل على أنّ مرتكبها مغرق في الوحشية، بعيد عن السموّ النفسي والتهذيب الخُلقي، حيث أنّ الجميل لا ينمو في

(١) الخصال: ٥٦٤/ ح١.

(٢) عوالي اللئالي ٢: ٢٣٨/ باب الجهاد/ ح ٢.

(٣) مستدرك الحاكم ٤: ١٥١، وفيه: «فإن الجنّة عند رجليها».

(٤) الكافي ٢: ١٥٩/ ح٨.

نفسه، والإبتداء بالمعروف لا يقدّره حقّ قدره، ولا يشعر بأنّ الإحسان جدير بأن يشكر، والأيادي البيضاء جديرة بأن يعوّض عليها أياد بيضاء أمثالها أضعافاً مضاعفة.

إنّ أباءنا سبب وجودنا، فلولا وجودهم لم نكن شيئاً مذكوراً، ولا عرفنا نعمة الوجود الحافلة بالخيرات الحسان، والطيّبات التي نلناها، والمراكز التي بلغناها والنعم التي ورثناها.

فالوالدان كثيراً ما بذلوا الجهد في دفع الخطر عنّا، وسهروا على راحتنا، وقدّموا لنا من الرغائب والطلبات ما لا يبلغه طوقنا، واحتملوا من المتاعب والتضحيات ما لا يقع عليه تصوّرنا، ولا يحيط به خيالنا.

فعقوق الوالدين لا يقع إلاّ من نفس حافلة بالرذيلة، ممعنة في الجفاء والخشونة، منغمسة في حمأة الدنس، لا يرجى لها فلاح، ولا يؤمل منها صلاح، ولا تفلح عن عماية ولا تكفّ عن نقيصة، لو كان لها في الخير والهداية نصيب لعرفت الجميل لمن يستحقّه والفضل لمن يسديه، والشكر للذي أفاض النعمة قبل أن تستحقّها، وغمر بالمعروف، لا يبتغي على ذلك جزاء، وضحّى في سبيل ولده، ولا يعرف مصيره إلى أين ينتهي.

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾[1].

قال الصادق عليه السلام: «لو علم الله شيئاً هو أدنى من أفّ لنهى عنه».[2]

وهذا موضع مفهوم الموافقة والأولوية، يعني إذا كانت لفظة أفّ محرّمة ومنهيّاً عنها، فالضرب بطريق أولى يكون محرّماً منهيّاً عنه.

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) الكافي ٢: ٣٤٩/ ح٧.

قال رسول الله ﷺ: «كن باراً واقتصر على الجنّة، وإن كنت عاقّاً فظّاً فاقتصر على النار».[1]

قال الصادق عليه السلام: «من نظر إلى أبويه نظر ماقت، وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة».[2]

روي في بعض الأحاديث القدسية: إنّ أوّل ما كتب الله في اللوح المحفوظ: «إنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا، من رضي عنه والداه فأنا عنه راض، ومن سخط عليه والداه فأنا عليه ساخط».[3]

* * *

[تأملات في حقوق الأبوين]:

وفي المجلّد الأوّل من (الخُلُق الكامل):

إنّ أبا الإنسان وأُمّه لهما عليه حقوق لا بدّ من أدائها، وواجبات لابدّ من قضائها: فمن تلك الحقوق وتلك الواجبات مقابلتهما بكلّ ما يمكنه من البرّ والإحسان، وأن يمتثل أوامرهما عامّة، وبخاصّة ما تعود عليه بالمنفعة، كأوامرهما المتعلّقة بحسن السلوك ومكارم الأخلاق، وحسن المعاشرة مع الخلق، والنظافة، والعفّة، والأمانة، وغير ذلك من الكمالات وحميد الأخلاق، وجميل الصفات، وأن يجتنب نواهيها وكلّ ما يؤذيهما أو يكدّر خاطرهما أو يجلب غضبهما من قول أو فعل، فإن أجهد نفسه في فعل كلّ ما يرضيهما، كان له الحظّ الأوفر من الفضيلة،

---

(١) الكافي ٢: ٣٤٨/ ح ٢.

(٢) الكافي ٢: ٣٤٩/ ح ٥.

(٣) مستدرك الوسائل ١٥: ١٧٦/ ح ١٧٩٢٠/١٧، وذيل الرواية: «ومن سخط عليه والداه...» في جامع السعادات ٢: ٢٠٢.

والنصيب الأكبر من المروءة، وإن لم يفعل ذلك واستجلب غضبهما، فقد قابل الحسنة بالسيّئة، والإحسان بالكفران، والخير بالشرّ، والطاعة بالمعصية.

فإنّ أباه هو الذي ربّاه صغيراً، وأجهد نفسه في تحصيل ما ينفقه عليه في ملبسه ومأكله ومشربه وجميع مطالبه، والقيام بأوده، إلى أن عرف حقوق نفسه، وأمكنه أن يكتسب، ولولاه لمات جوعاً؛ لأنّه لا يقدر على شيء من ذلك في حال صغره.

وأمّا أُمّه فقد عانت فيه المشقّات العظيمة والآلام الكثيرة في مدّة حمله وولادته ورضاعه وتنقيته من الأدران، وسهرت لأجله الليالي الطوال، وتكدّرت لكدره، وفرحت لفرحه، إلى غير ذلك من ضروب العنت التي لا تحصى، والمشقّات التي لا تستقصى.

ومنها: أن ينفق عليهما إذا كبرا؛ لأنّهما كفلاه صغيراً إلى أن استطاع أن يكتسب، فهذا الكسب ثمرة غرسهما، وليس من الأدب والمروءة أن يغرس الإنسان غرساً ثمّ يحرم جني غرسه.

ومنها: أن يجالسهما بالأدب والوقار، فلا يضحك ولا يلعب، كما يضحك ويلعب السفهاء، وليكن ضحكه ولعبه على وضع لا يخلّ بالأدب، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا بحضرتهما، ولا يمشي أمامهما إلاّ لحاجة، ولا يسبقهما بالكلام في المجلس، وإذا أقبلا عليه أو أحدهما وهو في مجلس قام ليوسّع لهما متّى يجلسا إن كان في المكان ضيق.

وجملة القول يفعل جميع الوسائل التي تكون سبباً في مرضاتهما وزوال ما يكدّرهما، وإلى هذه الآيات السامية أشار الله جلّت حكمته في كتابه العزيز إذ يقول:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾[١].

فأرشد إلى أهمّ الأمور وأولاها بالعناية، وأجدرها بالرعاية، وأقربها لرضا الله تعالى، وأبعدها من سخطه ومقته: ألا وهو برّ الوالدين الذي جمع من الخير أكمله، ومن الإحسان أجمله، ومن المروءة أرفعها، ومن الخيرات أنفقها، وكفى به فضلاً وشرفاً أن قرنه الله بتوحيده وعبادته، وبالغ بالتوصية به مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق، وتحمل ذوي العقول على تأدية الواجب لهما من الحقوق.

فأمر جلّ شأنه بالإحسان إليهما، وقرنه بتوحيده وعبادته في قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[٢] أي أمر أمراً جازماً، وحكم حكماً قاطعاً بتوحيده وعبادته، وبرّ الوالدين والإحسان بهما.

وفي هذا الإقتران من الدلالة على تأكّد حقّهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى، ثمّ شدّد الأمر بمراعاتهما حتّى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجّر مع موجبات الضجر، ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها، فإذا حصل منهما أي شيء يكرهه فلا يصحّ له أن يتكلّم معهما بأي كلام يكون من ورائه تضرّرهما وتكدّر خاطرهما؛ بل الواجب عليه في هذه الحالة أن يقول لهما قولا ليّناً جميلاً سهلاً أحسن ما يمكن التعبير به: من لطف القول وكرامته، مع حسن التأدّب والحياء والإحتشام، وبخاصّة إذا كانا كبيرين، فإنّهما في هذه الحالة أحقّ بالمجاملة وحسن التلطّف، لأنّهما يظنّان أنّهما كَلٌّ عليه.

---

(١) الإسراء: ٢٣ و٢٤.

(٢) الإسراء: ٢٣.

فكلّ كلمة تصدر منه ولو صغيرة يجدان منها ألماً، ولذا خصّ الله سبحانه وتعالى حالة الكبر بالذكر في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً﴾[1].

أي إن كبرا وهما في كنفك وكفالتك فلا يصحّ أن تقول لهما أي قول يكدّر خاطرهما ويجلب غضبهما، حتّى التأفّف الذي هو أدنى مراتب القول السيء؛ بل الواجب أن تعاملهما بالحسنى وتقول لهما القول الليّن الطيّب الحسن، مع الأدب والتوقير والتعظيم والإحترام والإحتشام.

وأن تخفض لهما جناح الذلّ، وتتواضع وتتذلّل لهما بجميع أنواع التذلّل والمسكنة؛ لأنّهما صارا أفقر الناس إليك بعد أن كنت أفقر الناس إليهما، واحتياج المرء إلى من كان محتاجاً إليه غاية الضراعة والذلّ والمسكنة، فكانا لذلك أولى بشدّة الرحمة والشفقة وزيادة التعطّف عليهما.

ثمّ ختم جلّ شأنه التوصية بهما، والحثّ على برّهما، والإحسان بهما بطلب الدعاء لهما من الله أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾[2] كأنّه تعالى يقول: لا تكتف برحمتك التي لا تدوم، ولكن اطلب من الله الرحمة الدائمة، وقل: ربّ ارحمهما رحمة مثل رحمتهما وتربيتهما إيّاي وأنا صغير.

ثمّ إنّ برّ الوالدين لا ينتهي بموتهما؛ بل يجب بعد الموت كما يجب في الحياة، ويكون بالصلاة عنهما والإستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلاّ بهما: فمن ذلك أنّ رجلاً جاء لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله هل بقي عليّ من

---

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) الإسراء: ٢٣.

برّ أبويَّ شيء أبرّهما به بعد وفاتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما، والإستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلاّ بهما».[١]

ولئن تأكّد برّ الوالدين فهو في حقّ الأم أوكد؛ لأنّها تعبت في حمله وولادته وحضانته وغيرها أكثر من أبيه، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «برّ الوالدة على الولد ضعفان»[٢] ويقول: «دعوة الوالدة أسرع إجابة»، قيل: يا رسول الله، ولِمَ ذاك؟ قال: «هي أرحم من الأب، ودعوة الرحم لا تسقط».[٣]

وقال تبارك اسمه في الحثّ على برّ الوالدين وما أعدّه مثوبة لذلك، من قبول العمل الصالح والتجاوز عن السيّئات وإدخال الجنّة ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.[٤]

فأرشد إلى ما يجب على الإنسان من برّ الوالدين والإحسان إليهما والحنو عليهما وخصوصاً أمّه؛ لأنّها تعبت فيه، وكابدت من المشقّات والمتاعب في حمله ووضعه ورضاعه ما لم يشاركها الأب في شيء منه.

---

(١) مجمع البيان ٦: ٢٤١.

(٢) شرح رسالة الحقوق للمؤلف: ٥٦٣.

(٣) راجع: شرح رسالة الحقوق للمؤلف: ٥٥٠، نقلاً عن: (ضياء الشهاب) للراوندي.

(٤) الأحقاف: ١٥ و١٦.

ولـذلك كـان حقّهـا أوكـد مـن حقّـه، وبرّهـا أوجـب مـن بـرّه، وإلـى ذلك أشار بقوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾[1] فإنّه جلّ شأنه بعد أن وصّى بالوالدين وأمر بالإحسان إليهما والحنو عليهما، ذكر ما نالته الأمّ من التعب والمشقّات، وقاسته من الأوصاب والآلام في حال حمله من الثقل والكرب، ثمّ أردف ذلك ببيان ما تقاسيه الأمّ من الآلام من حين الوضع إلى الفطام من تعهّده بالنظافة وإزالة ما عليه من الأدران، وكدرها لكدره، وفرحها لفرحه، وسهرها عليه الليالي الطوال، وغير ذلك ممّا يفيد أنّ حقّ الأمّ آكد من حقّ الأب، واضعاً ذلك في قالب بيان مدّة الحمل والرضاع فقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾[2] أي إن كانت هذه المدّة الطويلة ظرفاً لما تقاسيه الأمّ من الآلام، وتلاقيه من المشقّات والمتاعب في الولد، فحقّها عليه في برّه لها آكد من حقّ أبيه في ذلك عليه...

* * *

[تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾]:

جاء في المجلّد الأوّل من كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاّ اللّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً﴾.[3]

* * *

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الأحقاف: ١٥.

(٣) البقرة: ٨٣.

وفي (تفسير الصافي):[١] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ واذكروا إذ أخذنا، ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، عهدهم ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ﴾ ولا تشبّهوه بخلقه، ولا تجوزوه في حكمه، ولا تعملوا ما يراد به وجهه تريدون به وجه غيره. قال رسول الله ﷺ: «من شغلته عبادة الله عن مسألته، أعطاه أفضل ما يعطى السائلين».

قال الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ وأن تحسنوا بهما إحساناً مكافأة عن إنعامهما عليهم، وإحسانهما إليهم، واحتمال المكروه الغليظ فيهم لترفيههم».

وفي (الكافي):[٢] سئل الصادق عليه السلام: ما هذا الإحسان؟ قال: «أن تحسن صحبتهما وأن لا تكلّفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه، وإن كانا مستغنيين، أليس الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣]».

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً* وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٤].

في (الكافي):[٥] قال أبو عبد الله عليه السلام: «وأمّا قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ قال: إن أضجراك فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما إن ضرباك، قال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ قال: إن ضرباك فقل لهما غفر الله لكما، فذلك منك قول كريم،

---

(١) ج ١: ١٥٠.
(٢) ج ٢: ١٥٧/ ح ١ – ٥.
(٣) آل عمران: ٩٢.
(٤) الإسراء: ٢٣ و ٢٤.
(٥) الكافي ٢: ١٥٧/ باب البر بالوالدين.

قال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلاّ برحمة ورقّة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تقدم قدّامهما».

وفيه عن محمّد بن مروان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ رجلاً أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أوصني، قال صلى الله عليه وآله: «لا تشرك بالله شيئاً، وإن حرقت بالنار وعذّبت، إلاّ وقلبك مطمئن بالإيمان، ووالديك فأطعهما وبرّهما حيين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإنّ ذلك من الإيمان».

وفيه: عن محمّد بن مروان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما يمنع الرجل منكم أن يبرّ والديه حيين وميتين، أن يصلي عنهما، ويتصدّق عنهما، ويحجّ عنهما، ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما، وله مثل ذلك، فيزيده الله عزّ وجلّ ببرّه وصلته خيراً كثيراً».

وفيه عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها، وبرّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ».

وفيه عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله ما حقّ الوالد على ولده؟ قال: لا يسمّيه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب له» أي لا يفعل ما يصير سبباً لسبّ الناس له.

* * *

وفي (جواهر الأخبار): قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأيت في المنام رجلاً قد أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برّ والديه فمنعه منه».

وفيه: عن مجالس المفيد: عن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعته

يقول: «أربع من كنّ فيه من المؤمنين أسكنه الله تعالى في أعلى علّيين، في غرف فوق غرف، في محلّ الشرف كلّ الشرف: من آوى اليتيم ونظر له وكان له أباً، ومن رحم الضعيف وأعانه وكفاه، وأنفق على والديه، ورفق بهما وبرّهما ولم يحزنهما، ومن لم يخرق بمملوك وأعانه على ما يكلفه، ولم يستسعه على ما لا يطيق».

وفيه: عن الأنوار قال الصادق عليه السلام: «بينما موسى بن عمران يناجي ربّه، إذ رأى رجلاً تحت ظلّ عرش الله تعالى، فقال: يا ربّ من هذا الذي أظلّه عرشك؟ فقال: هذا بارّ بوالديه، ولم يمش بالنميمة».

وفيه: عن (دوحة الأخبار)، روي أنّ موسى عليه السلام ناجى ربّه يوماً، وقال: يا ربّ أي شيء أحسن الطاعات؟ قال الله تعالى: «برّ الوالدين».

وفيه: أنّ صياداً أتى النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله إنّي رجل عاصي، فامرني بعمل أنجو به من النار، قال صلى الله عليه وآله: «هل لك أبوان؟» قال: نعم، قال صلى الله عليه وآله: «اخدمهما فإنّ رضا الله عند رضاهما، والجنّة تحت أقدام الأمّهات».

وسأل رجل النبي صلى الله عليه وآله قال: إنّ لي والدين عجوزين، أطعمهما بيدي، هل أدّيت حقوقهما؟ قال صلى الله عليه وآله: «ولا واحداً من الألف، إلاّ إنّك أطعمت الله، ولو أنّ رجلاً دعا الله لوالديه في كلّ يوم خمس مرّات، فما قضى حقّهما».

وعن (العيون):[1] عن الصادق عليه السلام قال: «وبرّ الوالدين واجب، وإن كانا مشركين، ولا طاعة لهما في معصية الخالق، ولا لغيرهما، فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الله».

---

(١) عيون الأخبار ١: ١٣٢/ باب ٣٥/ ح١.

وفي (مصباح الشريعة):[١] قال الصادق عليه السلام: «برّ الوالدين من حسن معرفة العبد بالله، إذ لا عبادة أسرع بلوغاً لصاحبها إلى رضاء الله من برّ الوالدين المؤمنين لوجه الله تعالى؛ لأنّ حقّ الوالدين مشتقّ من حقّ الله تعالى، إذا كانا على منهاج الدين والسُنّة، ولا يكونان يمنعان الولد من طاعة الله إلى معصية، ومن اليقين إلى الشكّ، ومن الزهد إلى الدنيا، ولا يدعوانه إلى خلاف ذلك، فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة وطاعتهما معصية، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.[٢]

وأمّا في باب المصاحبة فقاربهما، وارفق بهما، واحتمل أذاهما بنحو ما احتملا عنك، في حال صغرك، ولا تضيّق عليهما فيما قد وسّع الله عليك، المأكول والملبوس، ولا تحوّل وجهك عنهما، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، فإنّ تعظيمهما من أمر الله، وقل لهما بأحسن القول، وألطفّ بهما، فإنّ الله لا يضيّع أجر المحسنين».

فحينئذٍ يجب على الولد معاملة والديه بالرفق واللين، والعدل والإحسان إليهما، ويوسعهما عند الزلّة عفواً، ويقوم بواجبهما حال الصحّة والمرض، ويدعو الطبيب لهما إذا ساءت حالتهما، ويدعو لهما بالرحمة ويرحمهما لأنّ الرحمة سرّ إلهي أودعه قلوب عباده، يدفعهم إلى عمل الخير والبرّ وينهاهم عن الغلظة والقسوة، والرحمة من الصفات التي تكسب صاحبها محبّة الناس ورضا الله، وتضمن له سعادة الدارين.

* * *

---

(١) ص ٧٠.

(٢) لقمان: ١٥.

وفي (الكافي)[1] عن معمّر بن خلاّد قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالديَّ إذا كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: «أدعو لهما وتصدّق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان الحقّ فدارهما، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله بعثني رحمة لا بالعقوق».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله لمن أبرّ؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أباك».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا رسول الله إنّي راغب في الجهاد نشيط، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: فجاهد في سبيل الله فإنّك إن تقتل تكن حيّاً عند الله ترزق، وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما ولدت، قال: يا رسول الله إنّ لي والدين كبيرين يزعمان أنّهما يأنسان بي ويكرهان خروجي، فقال صلى الله عليه وآله: فقرّ مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة».

عن زكريا بن إبراهيم قال: كنت نصرانياً فأسلمت، وحججت، فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: إنّي كنت على النصرانية، وإنّي أسلمت، فقال: «وأي شيء رأيت في الإسلام؟» فقلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾[2] فقال عليه السلام: «لقد هداك الله»، ثمّ قال: «اللهم اهده ـ ثلاثاً ـ، سل عمّا شئت يا بني» فقلت: إنّ أبي وأمّي على النصرانية وأهل بيتي، وأمّي مكفوفة البصر، فأكون معهم وآكل في آنيتهم، فقال: «يأكلون

---

(١) الكافي ٢: ١٥٩/ ح ٨ – ٢١.

(٢) الشورى: ٥٢.

لحم الخنزير؟» فقلت: لا، ولا يمسّونه، فقال: «لا بأس، فانظر أُمّك فبرّها فإذا ماتت لا تكلها إلى غيرك، كن أنت الذي تقوم بشأنها، ولا تخبرنّ أحداً أنّك أتيتني حتّى تأتيني بمنى، إن شاء الله»، قال: فأتيته بمنى والناس حوله كأنّه معلّم صبيان هذا يسأله وهذا يسأله، فلمّا قدمت الكوفة ألطفت أُمّي، وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها، فقالت لي: يا بني ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني، فمالذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية؟ فقلت: رجل من ولد نبيّنا أمرني بهذا، فقالت: هذا الرجل هو نبي؟ فقلت لا ولكنّه ابن نبي، فقالت: يا بني هذا نبي، إنّ هذه وصايا الأنبياء، فقلت: يا أُمّاه إنّه ليس يكون بعد نبيّنا نبي، ولكنه ابنه، فقالت: يا بني دينك خير دين، اعرضه عليّ فعرضته عليها فدخلت في الإسلام، وعلّمتها فصلّت الظهر والعصر، والمغرب والعشاء الآخرة، ثمّ عرض لها عارض في الليل، فقالت: يا بني أعد عليّ ما علّمتني، فأعدته عليها فأقرّت به فماتت، فلمّا أصبحت كان المسلمون الذي غسّلوها وكنت أنا الذي صلّيت عليها ونزلت في قبرها.

وفيه: عن عمّار بن حيّان قال: خبّرت أبا عبد الله عليه السلام ببرّ إسماعيل ابني، فقال عليه السلام: «لقد كنت أُحبّه وقد إزددت له حبّاً، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتته أُخت له من الرضاعة فلمّا نظر إليها سرّ بها وبسط ملحفته لها فأجلسها عليها، ثمّ أقبل يحدّثها ويضحك في وجهها، ثمّ قامت وذهبت، وجاء أخوها فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل؟ فقال صلى الله عليه وآله: لأنّها كانت أبرّ بوالديها منه».

وفيه: عن إبراهيم بن شعيب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ أبي قد كبر جدّاً وضعف، ونحن نحمله إذا أراد الحاجة، فقال: «إن استطعت أن تلي ذلك منه فافعل، ولقّمه بيدك فإنّه جنّة لك غداً».

وفيه: عن جابر قال: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ لي أبوين مخالفين، فقال: «برّهما كما تبرّ المسلمين ممّن يتولانا».

وفيه: عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ثلاث لم يجعل الله عزّ وجلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين».

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من السُنّة والبرّ أن يكنّى الرجل باسم أبيه».

وفيه: عن حنان بن سدير عن أبيه، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: هل يجزي الولد والده؟ فقال: «ليس له جزاء إلاّ في خصلتين، يكون الوالد مملوكاً فيشتريه ابنه فيعتقه، أو يكون عليه دين فيقضيه عنه».

وفيه: عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام: «إنّ العبد ليكون برّاً بوالديه في حياتهما، ثمّ يموتان فلا يقضي عنهما ديونهما ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عاقّاً، وإنّه ليكون عاقّاً لهما في حياتهما غير بار بهما، فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما، فيكتبه الله عزّ وجلّ بارّاً».

ولا يجوز للولد مخالفة الأبوين، في استعمال المباح والمندوب إلاّ بإذنهما، كذلك السفر إلاّ إذا اضطرّ إليه، لتحصيل العلم الموجب لسعادة الدارين، أو لمقام المعيشة التي تتوقّف على السفر، وكذلك لا يجوز للولد الخروج لصلاة الجماعة إلاّ بإذنهما فيما إذا خافا عليه من الحرّ والبرد، أو لظلمة الليل، أو غير ذلك لا مطلقاً.

حقوق الأمّ:

واعلم أنّ حقوق الأمّ أعظم عند الله من حقوق الأب، ولهذا

أفردها الله بالذكر، بقوله عزّ وجلّ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾[1] وبقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾[2] ومن هذا جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله لمّا سأله السائل: من أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمّك»، فقدّمها مرّتين أو ثلاث على الأب.[3]

وقال الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام: «وأمّا حقّ أمّك فإنّ تعلم أنّها حملتك، حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لم يعط أحد أحداً، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبالِ أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحرّ والبرد لتكون لها، وإنّك لا تطيق شكرها إلاّ بعون الله وتوفيقه».[4]

قيل: أنّ رجلاً في الكوفة كان باراً بوالدته، وقد بلغت من الكبر ما صارت به مقعدة، وقد ذهب بصرها وسقطت جميع أسنانها، وقد كان يتولّى جميع شؤونها، وحتّى قضاء حاجتها بنفسه، ساهراً معها ملتزماً بعدم ردّ سؤال وحاجة لها، فاتّفق موسم الحجّ وعلمت بتهيّؤ الحاج، فطلبت منه أن يحملها إلى بيت الله لتحجّ، وحيث أنّه إلتزم بإجابة كلّ طلباتها الممكنة له، فقد حملها على ظهره لعدم إستطاعتها ركوب الراحلة، وبعد أن قضى لها المناسك، جاء إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله في المدينة، ثمّ مضى إلى أبي عبد الله عليه السلام فرحّب به الإمام عليه السلام حيث كان من

---

(١) لقمان: ١٤.

(٢) الأحقاف: ١٥.

(٣) أنظر: عوالي اللئالي ١: ٤٤٤/ ح ١٦٥.

(٤) الخصال: ٥٦٨/ ح١.

أصحابه، فسأل الإمام: هل أنّه يعدّ من المجازين لوالديه بعد ما ذكر حاله مع والدته؟ فقال عليه السلام: «إنّك لست من المجازين، لكنّك تعدّ من البارّين؛ لأنّ ما عملته معها لا يقابل ما عملته لك، فإنّك حملتها على ظهرك، وقد حملتك قبل هذا في بطنها، وسهرت معها وسهرت معك، وإنّها قد طَلِقت بك عند الولادة ولم تطلق أنت بها، وأخيراً إنّك الآن ترغب في موتها، لتتخلص من تبعتها، وهي كانت تتمنّى بقاءك، وتدعو الله بطول عمرك، راضية بكلّ تبعاتك، فرحة في بقائك، فأين جزاؤك لها...».

وأمّا العقوق:

في (جواهر الأخبار): عن الأنوار النعمانية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقال للبارّ بوالديه: اعمل ما شئت فإنّي سأغفر لك، ويقال للعاقّ: اعمل ما شئت فإنّي لا أغفر لك»، وفي الحديث: «إنّ ريح الجنّة ليشمّ من مسيرة خمسمائة عام، ولا يشمّه عاقّ والديه».

وفيه: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها، ولا تؤخّر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان».

وفيه قال الصادق عليه السلام: «أدنى العقوق اُفّ، ولو علم الله شيئاً أهون منه، لنهى عنه».

وقال: «من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة، ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحدّ النظر إليهما».

وفيه: عن الفقيه، قال الصادق عليه السلام: «اعتقل لسان رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله

فقال: قل: لا إله إلاّ الله، فلم يقدر عليه، فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يقدر عليه، وعند رأس الرجل امرأة، فقال لها: هل لهذا الرجل أمّ؟ فقالت: نعم يا رسول الله أنا أمّه، فقال لها: أفراضية أنت عنه أم لا؟ فقالت: بل ساخطة.

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: فإنّي أُحبّ أن ترضي عنه، فقالت: قد رضيت عنه لرضاك يا رسول الله، فقال له: قل: لا إله إلاّ الله، فقال: لا إله إلاّ الله، فقال صلى الله عليه وآله: قل: يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير، اقبل منّي اليسير واعف عنّي الكثير إنّك أنت العفو الغفور، فقالها، فقال له: ماذا ترى؟ فقال: أرى أسودين قد دخلا عليّ، قال: أعدها فأعادها، فقال صلى الله عليه وآله: ما ترى؟ فقال: قد تباعدا عنّي، ودخل أبيضان وخرج الأسودان فما أراهما ودنا الأبيضان منّي الآن يأخذان بنفسي، فمات من ساعته».

* * *

وفي (الكافي)[1] في باب تغيّر الذنوب، عن الحسين بن محمّد عن المعلّى بن محمّد عن أحمد بن محمّد عن العبّاس بن العلا عن مجاهد عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الذنوب التي تغيّر النعم البغي، والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تنزل النقم الظلم، والتي تهتك الستر شرب الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تعجّل الفناء قطيعة الرحم، والتي تردّ الدعاء وتظلم الهواء، عقوق الوالدين».

وفيه: عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن إسحاق بن عمّار، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كان أبي عليه السلام يقول: نعوذ

---

(١) الكافي ٢: ٤٤٧/ح ١ - ٣.

بالله من الذنوب التي تعجّل الفناء، وتقرّب الآجال، وتخلي الديار، وهي قطيعة الرحم، والعقوق، وترك البرّ».

وفيه: عن أبي الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «كن بارّاً واقتصر على الجنّة، وكن عاقّاً واقتصر على النار».

الرفق بالأولاد:

وأمّا الرفق بالأولاد، فالواجب على الآباء والأمّهات، أن يقوموا في بناء سعادة الأطفال، ويتحملوا مسؤولية كبيرة على عواتقهم في بناء مدارس لهم.

المدرسة الأولى: حجر أمّه بعد ولادته، تقوم في رضاعه حولين كاملين، تلتزم برعايته طوال هذه المدّة وتعتني بصحّته ونظافته، وحمايته عن الحوادث من البرد والحرّ، والغرق والسقوط وغير ذلك، وعندما تفطمه (فإنه) ليس إنساناً كاملاً؛ بل إنّه يحتاج إلى تغذيته من الطعام والشراب، وتتفقّده بالأكل والشرب؛ لأنّه لا يعقل معنى الجوع والعطش؛ بل تكون عنايتها له أكثر، حتّى إذا تدرّج ونطق وخرج من دور الطفولة إلى دور الحدث، ونظر بالتعليم إلى النافع والضارّ، فهنا المدرسة الثانية، وهي المدرسة الروحية والجسمية.

المدرسة الثانية: يجب على الولد أن يخضع لرعاية الأبوين، حتّى تمرّ عليه السنون، فيصبح إنساناً سويّاً قادراً على الحياة المستقلّة، فيقوم الأبوان بالعناية لتربيته تربية صالحة التي يفرضها الشرع والعرف، وهي من أكبر الواجبات عليهما، كما وأنّ إهماله والتفريط في تربيته من أكبر الجنات التي لا يرتضيها الشرع، المأثوم عند الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ قلب الطفل صفحة بيضاء يتقبّل كلّ شيء.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: إنّه قال لولده الحسن عليه السلام: «إنّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها شيء إلاّ قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك».[1]

وبما أنّ قلب الطفل صفحة بيضاء فيؤخذ باللين والرفق والعطف والحنان والرأفة والرحمة، وتعليمه الخير بالملكات الفاضلة والأخلاق الحميدة والآداب الشرعية، فتنمو أحاسيسه ومشاعره بالنشاط، وإذا لم يعبأ المسؤول في أداء هذا الواجب لولده والصالح له، فيؤخذ بعبء المسؤولية.

وعن عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال: «وأمّا حقّ ولدك، فإن تعلم أنّه منك، ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرّه، وأنّك مسؤول عمّا أوليته، من حسن الأدب والدلالة على ربّه عزّ وجلّ، والمعونة على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنّه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه».[2]

فمن الواجب ترفيه الأولاد والرفق بهم، من إعداد ما يحتاجون إليه، من وسائل الراحة، والهناء ومرافق الحياة؛ لأنّ الأولاد زينة الحياة، والثمرة المجتناة.

قال معاوية للأحنف: ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير، ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كلّ جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فارضهم، يمنحوك ودّهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم قفلاً ثقيلاً فيملّوا حياتك ويودّوا

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٤٠.

(٢) الخصال: ٥٦٨/ ح ١.

وفاتك، ويكرهوا قربك، فقال معاوية: لله أنت يا أحنف لقد أرضيتني عمّن سخطت عليه من ولدي، ثمّ وصله وأكرمه.[١]

ومن جملة برّ الوالد لولده: أن لا يعد له عدة لا يفي بها؛ لأنّه يرى أنّ والده قد كذب عليه، فيتعلّم منه الكذب، وثانياً لمّا يرى أنّ والده لا يفي بما وعده، لا ينظره بعين صحيحة.

ويجب على الوالدين المساواة بين الأولاد، ماديّاً وعمليّاً ونفسيّاً، فمتى فضّل أحدهم وقدّمه على الباقين، تحاسد بعضهم بعضاً، فيؤدّي ذلك إلى التباغض والتضادّ، فلولا خشية التنافس والتحاسد لكان الأناث أولى بالتقديم على الذكور؛ لأنهنّ سريعات التأثّر، رقيقات الشعور، ضعيفات الجانب، أجدر بالتقديم والتفضيل.

قال رسول الله ﷺ: «من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالأناث قبل الذكور، فإنّه من فرّح ابنته كأنّما عتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أقرّ عين ابن فكأنّما بكى من خشية الله، ومن بكى من خشية الله أدخله الله جنّات النعيم».[٢]

فيظهر من الحديث تقديم البنات بعد المساواة، من أجل سرعة تأثّرهنّ، فحينئذٍ تكون عناية الأبوين بأولادهما عناية عادلة.

فإذا أخذت أحاسيسه ومشاعره بالنشاط، وخرج من دور الحدث إلى دور النشاط، دخل المدرسة الثالثة.

المدرسة الثالثة: وهي المدرسة الروحية، فيكون الولد هو المسؤول شخصيّاً، ويعتمد على عقله وعلمه وسلوكه وأخلاقه، وعزمه

---

(١) أنظر: العقد الفريد ٢: ٤٣٧.

(٢) أمالي الصدوق: ٦٧٢/ ح ٩٠٤/ ٦.

وتصميمه وجدّه وجهده، وأن يقف على قدميه في الحياة، فيعلم أنّه المسؤول بنفسه عن أفعاله الصالحة، أو الفاسدة، ويسعى في طريق ضمان سعادته، نظريّاً وتطبيقاً لصالح النشأتين، ويتعلّم العلم المطلوب لأجل العمل به لأنّه مسؤول عن أعماله، مرهون بعمله.

ويجب عليه برّ الوالدين ورعايتهما، كما كانا يرعيانه، ويوفّر لهما أسباب الراحة، وإكبارهما في سنّ الشيخوخة، جزاءاً وفاقاً لما قاما به من جهد وتربية.

ويجب على الوالدين أن لا يحجرا على الولد ويضيّقا عليه، فإذا حجرا عليه لم تنفتح له مواهب الفكر، فيورد بالتحجّر نقصاً كثيراً، وأن لا يعطيا له الحرية التامّة لئلاّ يتغلّب عليه الجهل، فإذا تغلّب عليه الجهل أخرجه عن الإستعداد، وسبّب له الشقاء، فعلى الوالدين إعطاء الحرية في بعض المناسبات مع المراقبة له حتّى تحصل له درجة الكمال والنشاط الفردي.

ويجب على الوالدين إبعاده عن العواطف الأبوية بالضمّ والتقبيل المفرط، والتفدّي والحبّ والحنان، وأمثال ذلك؛ لأنّ الولد لمّا يرى من أبويه ذلك الحنان المفرط يقلّ إقدامه في أعماله ويتهاون في دروسه، وإذا تكاسل لا يقف في مستوى محدود من التكامل.

ويجب على الوالدين أن لا يساعدا الولد بمساعدات غير معقولة، مثلاً إذا لم يفهم من درسه، كتب له الأب قطعة إنشاء ينقل عليها، وغير ذلك، فأصبح لم يفهم من هذا شيئاً، فالمطلوب من الولد حلّ التمارين وكتابة الإنشاء وغير ذلك من نفسه، فإذا اعتمد على الأبوين أصبح لا يملك إعتماداً على نفسه، ويرسب من دون أخوته.

ويجب على الوالدين تشجيع الولد على الأفعال الحسنة بالمقدار الذي يستحقّه، وتوبيخه على الأفعال السيّئة بالمقدار المناسب حتّى يطمئن إلى إستقلاله ويقف عند مسؤوليته، إنّ طفلاً يتلقّى تربية كهذه عندما يبلغ العاشرة من عمره، يصبح إنساناً معتمداً على نفسه، ويدرك معنى الشخصية بصورة واضحة.

وعندما نتصفّح التاريخ الإسلامي، نجد أنّ الأُسر التي طبّقت تعاليم الإسلام في أُسلوب تربية الطفل، والتزمت بأفضل النصائح الواردة من الرسول الأعظم (محمّد) ﷺ في هذا الصدد، توصّلت إلى نتائج لامعة، حيث أثبت الأولاد من الجدارة ما يؤيّد ذلك، وعلى سبيل المثال نستعرض قصّتين تاريخيتين لطيفتين:

١ ــ الطفلة الجريئة:

غضب عبد الملك بن مروان على عبّاد بن أسلم البكري يوماً، فكتب إلى واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بأن يقتله ويبعث برأسه إلى الشام، فأرسل الحجاج إلى عبّاد يطلب حضوره لتنفيذ أمر عبد الملك بشأنه، لقد تألّم عبّاد من معرفة الخبر واضطرب كثيراً، وأقسم على الحجاج أن يتخلّى عن قتله لأنّه يعيل أربعة وعشرين امرأة وطفلاً، وبقتله يختلّ شؤونهم، وتضطرب حياتهم، فرقّ الحاج لكلامه وأمر بإحضار عائلته إلى دار الإمارة، فما أن حضروا ووقفوا على ما صمّم عليه الحجّاج من قتل عبّاد، علا الصراخ والبكاء منهم، وفجأة قامت طفلة من العائلة وأرادت التكلّم، فقال لها الحجّاج: ما هي صلتك بعبّاد؟ قالت: أنا إحدى بناته، ثمّ قالت له: بكلّ صراحة يا أمير اسمع ما أقول: وأنشأت تقول:

أحجّاج إمّا أن تمنّ بتركه ... علينا وإمّا أن تقتّلنا معا

أحجّاج لا تفجع به إن قتلته ثمان وعشراً واثنتين وأربعا

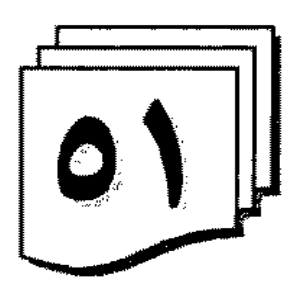
أحجّاج لا تترك عليه بناته وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فرقّ لها الحجّاج، وكتب إلى عبد الملك بعفوه، فعفى عنه.

٢ ـ الصبي المتكلم:

وفد على عمر بن عبد العزيز من الحجاز وفد، وكان فيهم صبي صغير، فأراد أن يتكلّم، فقال عمر بن عبد العزيز: أُولو السِن أولى بالكلام، فقال الصبي: أيّها الخليفة إن كان المقياس للكفاءة كبر السنّ، ففي مجلسك من هو أحقّ بالخلافة منك، قال: صدقت تكلّم، فقال: يا أمير المؤمنين لقد قصدناك من بلد بعيد، وليس مجيئنا لطمع فيك أو خوف منك، لا نطمع فيك لأنّنا متنعّمون بعدلك، ومستقرّون في بيوتنا بكلّ أمن واطمئنان، ولا نخاف منك، لأنّنا نجد أنفسنا في أمن من ظلمك، وإنّ مجيئنا إنّما هو لغرض التقدير والشكر، فقال عمر بن عبد العزيز: عظني، فقال الصبي: لقد أُصيب بعض بالغرور لحلم الله عليهم، وأُصيب آخرون بذلك لمدح الناس إيّاهم، فاحذر من أن يبعث هذان الأمران الغرور فيك فتنحرف في شؤون الدولة، فسرّ عمر بن عبد العزيز لكلامه، وسأل عن عمر الصبي، فقيل له: ابن إثنتي عشر سنة...

* * *



قوله عليه السلام:

الصَّلاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ، وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصِّيَامُ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ.

(نهج البلاغة ٤: ٣٤/ ١٣٦)



[الزوجة الصالحة في الإسلام]

قال ابن أبي الحديد:

قد تقدّم القول في الصلاة والحجّ والصيام، فأمّا أنّ جهاد المرأة حسن التبعّل: فمعناه حسن معاشرة بعلها، وحفظ ماله وعرضه، وطاعته فيما يأمر به، وترك الغيرة فإنّها باب الطلاق.

وأوصت امرأة من نساء العرب ابنتها ليلة إهدائها، فقالت لها: لو تركت الوصية لأحد لحسن أدب وكرم حسب لتركتها لك، لكنّها تذكرة للغافل ومؤونة للعاقل، إنّك قد خلّفت العش الذي فيه درجت، والوكر الذي منه خرجت، إلى منزل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي عنّي خصالاً عشراً:

أمّا الأولى والثانية فحسن الصحابة بالقناعة، وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة، ففي حسن الصحابة راحة القلب، وفي جميل المعاشرة رضا الربّ.

والثالثة والرابعة التفقّد لمواقع عينه، والتعهّد لمواضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يجد أنفه منك خبيث ريح، واعلمي أنّ الكحل أحسن الحسن المفقود، وأنّ الماء أطيب الطيب الموجود.

والخامسة والسادسة: الحفظ لماله والإرعاء على حشمه وعياله، واعلمي أنّ أصل الإحتفاظ بالمال حسن التقدير، وأصل الإرعاء على الحشم والعيال حسن التدبير.

والسابعة والثامنة: التعهد لوقت طعامه، والهدو والسكون عند منامه، فحرارة الجوع ملهبة، وتنقيص النوم مغضبة.

والتاسعة والعاشرة: لا تفشين له سراً، ولا تعصين له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره.

وأوصت امرأة ابنتها وقد أهدتها إلى بعلها، فقالت: كوني له فراشاً يكن لك معاشاً، وكوني له وطاءاً يكن لك غطاءاً، وإياك والإكتئاب إذا كان فرحاً والفرح إذا كان كئيباً، ولا يطلعن منك على قبيح، ولا يشمن منك إلاّ طيب ريح.

وزوج عامر بن الظرب ابنته من ابن أخيه، فلما أراد تحويلها قال لأمها: مري ابنتك ألا تنزل مفازة إلاّ ومعها ماء، فإنه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء، ولا تكثر مضاجعته فإذا ملّ البدن ملّ القلب، ولا تمنعه شهوته فإن الحظوة في المواقعة، فلم يلبث إلاّ شهراً حتّى جاءته مشجوجة، فقال لابن أخيه: يا بني ارفع عصاك عن بكرتك، فإن كان من غير أن تنفر بك فهو الداء الذي ليس له دواء، وإن لم يكن بيكما وفاق ففراق، الخلع أحسن من الطلاق وأن تترك أهلك ومالك. فرد عليها صداقها وخلعها منه، فهو أوّل خلع كان في العرب.

وأوصى الفرافصة الكلبي ابنته نائلة حين أهداها إلى عثمان، فقال: يا بنية إنك تقدمين على نساء من نساء قريش، هن أقدر على الطيب منك، ولا تغلبين على خصلتين: الكحل والماء، تطهري حتّى يكون ريح جلدك ريح شن أصابه مطر، وإياك والغيرة على بعلك فإنها مفتاح الطلاق.[1]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٣٢.

وقال ابن ميثم البحراني:

التبعّل معاشرة البعل وصحبته، والكلام إشارة إلى بعض أسرار هذه العبادات، فمن أسرار الصلاة كونها قرباناً إلى الله تعالى، وقد علمت أنّها أعظم ما يتقرّب إليه المتّقون به من العبادات، ومن أسرار الحجّ كونه جهاداً في سبيل الله لما فيه من مشقّة السفر ومجاهدة الطبيعة ومقاومة النفس الأمّارة بالسوء مع قوّتها، يشبهه عدم الإطّلاع على أسرار الحجّ وفائدته، مع ما في كيفيته من الأفعال التي يعجب منها الجاهلون، وإنّما خصّ الضعيف بذلك جذباً له إليه، ولأنّ للقوي جهاد آخر هو المشهور، ومن أسرار الصوم: كونه زكاة للبدن لما فيه من تنقيص قوّته وكسر شهوته، لغاية طاعة الله والثواب الأخروي، كما أنّ الزكاة تنقيص في المال مستلزم لزيادة الثواب في الآخرة، ومن أسرار التبعّل حسن معاشرة البعل وطاعته في طاعة الله، وفي ذلك كسر النفس الأمّارة للمرأة وإنقيادها في صراط الله.[1]

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

إذا صلّى المتّقي أقبل على الله بقلبه وكيانه، لقوّة شعوره بالحاجة إلى الله ورحمته، وإذا صلّى غير المتّقي فإنّه يصلّي لمجرّد أداء الفريضة، والخروج عن المسؤولية وكفى.

والحجّ من الجهاد أو شبيه به، يوم كان الحجّاج يقطعون الصحراء على الدواب والجمال، ويعانون آلام البرد والحرّ،

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٤٥.

والجوع والعطش، والخوف على النفس والمال: أمّا اليوم فالحجّ نزهة وترفيه.

وزكاة الأموال تسدّ حاجة المعوزين، (وزكاة الأبدان الصيام) للثبات والصبر على الجوع والظمأ.

(وجهاد المرأة حسن التبعّل)، البعل: الزوج، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[١] وتبعّلت المرأة: صارت ذات بعل، وحسن تبعّلها الطاعة والعفّة، والتدبير والقناعة بالميسور، وترك المنّة على الزوج ومعاتبته، وأن توافقه فيما يرضى الله، وتُجمل في الغيرة .. ونحو ذلك ممّا يسدّ منافذ الهموم والغموم والظنون.[٢]

* * *

وقال الخوئي في (منهاج البراعة):[٣]

الهدف الغائي من العبادات، ردع النفوس عن الشهوات، والتوجّه إلى الماديّات، وتوجيهها إلى حضرة القدس الإلهيّة، وحظيرة الأُنس الربانيّة، فروح العبادة التقرّب إلى الله والإنخلاع عن ظلمات الطبيعة الكامنة في الغرائز البشرية.

وأكمل العبادات وعمودها الصلاة فإنّها شُرّعت لقيام العبد بين يدي ربّه، والإشتغال بالمناجاة معه بنفسه من دون وسيط وحاجب، ولكنّها تؤثّر في التقرّب بإعتبار حضور القلب والتوجّه إلى الله بالعبودية والإخلاص، وقطع النظر عن

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٣٠٥.

(٣) ج ٢١: ٢٠٩.

الناس، والاتّقاء من كلّ ما يوجب التشويش والوسواس من الخنّاس، فالتقوى شرط جوهري لقبول العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1] فتأثير الصلاة في التقرّب إليه تعالى مشروط بالتقوى.

والزكاة شُرّعت لتطهير المال عن الحقوق المتعلّقة به للفقراء والمصارف العامّة المعبّر عنها بسبيل الله وغير ذلك، فإخراجها موجب للبركة والنمو، كما أنّ تنمية الأشجار والإستثمار منها تحتاج إلى تطهير من الزوائد.

والصوم تزكية للبدن تؤثّر في سلامته عن الأمراض المتولّدة من كثرة الأكل، وتنوّره برفع أستار الظلمة الملقاة إليه من عوارض البطنة المذهبة للفطنة.

والجهاد أشقّ العبادات، لما فيه من تكلّف المواجهة مع العدوّ والإستعراض للجرح والقتل، وقطع الرجاء من المال والأهل، ويشترك الحجّ معه من نواح شتّى، فكان الحجّ جهاد الضعفاء المعافين أو المعذورين عن الجهاد.

وجهاد المرأة هو حسن المعاشرة مع زوجها وتحمّل المكاره المتوجّهة منه إليها، من سوء القول والفعل، فربّما تكون أقواله وأعماله جارحات القلوب، فصبر المرأة تجاهها يعدّ من الجهاد.

* * *

أقول: الصلاة دعاء وإبتهال، وخشوع وإمتثال، توثّق صلة العبد بربّه، فيفيض عليه من خيره، وتطهّر نفسه من التكالب على أعراض هذه الحياة، وتعوّد الإخلاص والإبتعاد من النفاق؛ تبعث في جسمه النشاط بما

---

(١) المائدة: ٢٧.

يقوم به من حركات، وتمرّنه على النظام، وأداء الأمور في مواعيدها المضروبة، يقرأ فيها القرآن وقلبه خاشع، وذهنه حاضر، فيتعلّم من علومه ويهتدي بهداه، وتصفو نفسه، ويستنير عقله، لهذا كانت عنصراً أساسيّاً في بناء الإسلام.

والزكاة: وهي قليل من المال يخرجه المالك الزائد عن حاجته، يخرجه للفقراء والمساكين، ويحرّر به رقاب الأسرى العانين، ويعين به الغارمين المدينين، ويقوّي به صرح هذا الدين، فيكون بذلك قد رفع البؤس عن البائسين، فيحبونه ويجلّونه ويحافظون على حياته وماله، محافظتهم على رأس المال، إذ كان مصدر رزقهم ومحطّ آمالهم، ويكون بذلك خدم دينه خدمة قيّمة، إذ جاهد في سبيله بماله، وخدم نفسه بتطهيرها عن رذيلة البخل والشحّ، ويعوّدها الخير، ويرفع مقامها بين الخلق.

والصوم: يطهّر معدة الإنسان ممّا علق بها من بقايا الطعام، ويريحها من العمل عدّة أيّام، وينمي في نفسك الشعور بحال الفقير والمسكين، إذ به تذوق ألم الجوع والظمأ، فتذكر أخواناً لك بائسين، تذكرهم بمعونتك وبرّك، ويذكّي فيك روح التفكير؛ إذ البطنة تذهب بالفطنة، ويذكّرك في كلّ لحظة بإله هو ربّ نعمتك، فترطب بذكره لسانك، وتقرأ من القرآن ما بدا لك، إلى غير ذلك من حكمه وأسراره.

وأمّا حجّ البيت: فتذهب إلى مكّة البلد الأمين، الذي نشأ فيه سيّد العالمين، ونبت فيه هذا الدين، وترى أوّل بيت وُضع للناس، وتقوم بأعمال مختلفة كلّها قربات، من طواف وصلاة وسعي ووقوف بعرفات، وذكر وتهليل وتلبية وتكبير، وذبح قرابين وتصدّق على الفقراء

والمساكين، فتهذّب نفسك بالسفر، وتذكر النشأة الأولى للإسلام، والذكرى تنفع المؤمنين، وتجتمع باخوانك المسلمين، الذين نسلوا من كلّ حدب، وأتوا من كلّ فجٍّ من مشارق الأرض ومغاربها، فتُفكّر معهم فيما يعيد للإسلام مجده، أو ما يُعلي سلطانه وشأنه، وتقف على حال المسلمين في الأقطار المختلفة، والعلم أوّل خطوة إلى العمل... إلى حكم أُخرى تنبّهك هذه إليها.

تلك دعامات الإسلام فاحرص عليها، ونمّها بالأعمال الصالحة الأخرى، والله لا يُضيع أجر المحسنين.

* * *

[**الصلاة ومعانيها**] :

قال البستاني في (دائرة المعارف):

الصلاة عند المسلمين هي الدعاء والدين والرحمة والإستغفار، وحسن الثناء من الله على الرسول، وعبادة فيها ركوع وسجود، وهي شرعاً أقوال وأفعال، مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم مع النيّة، بشرائط مخصوصة.

وقيل: الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الإستغفار، ومن المؤمنين الدعاء، ومن الطير والهوام التسبيح.

وقيل: الصلاة مأخوذة من اللزوم، وكان المعنى ـ على هذا ـ ملازمة العبادة على الحدّ الذي أمر الله تعالى به، أو مأخوذة من معنى العطف وطلب الإصغاء والإستمالة، وهي لا تكون إلاّ في الخير بخلاف الدعاء فإنّه يكون فيه وفي الشرّ أيضاً، يقال دعا له ودعا عليه، وتلفظ

بالألف وتكتب بالواو، قيل: إشارة إلى الأصل؛ لأنّ الألف فيها مقلوبة عن الواو، مثل الزكوة والنجوة، وهو غير سديد، وقيل: هو الراجح، إنّما كتبت بالواو لأنّ العرب تفخّم أي تميلها إلى مخرج الواو، واتّباعاً للعبرانية والسريانية.

ويفرضها الشرع فرض عين على كلّ مكلّف، ويحكم بإسلام فاعلها مع جماعة، وهي عبادة بدنية محضة فلا نيابة فيها أصلاً.

ثمّ الصلاة عند الفقهاء عبارة عن الأركان المخصوصة من التحريمة والقيام والقراءة، والركوع والسجود والقعود.

والصلاة المطلقة هي التي إذا أُطلقت لفظة الصلاة ولم تقيّد شملتها، فصلاة الجنازة والصلاة الفاسدة كصلاة التطوّع راكباً في المصر ليستا بصلاة مطلقة، إذ لو حلف لا يصلّي لم يحنث بها. وقيل: هي صلاة ذات ركوع وسجود، وهذا بظاهره لا يتناول صلاة المؤمن المريض والراكب في السفر.

والصلاة عند الصوفية عبارة عن واحدية الحقّ تعالى، وإقامة الصلاة إشارة إلى إقامة ناموس الواحدية بالإتّصاف بسائر الأسماء والصفات، فالوضوء عبارة عن إزالة النقائص الكونية، وكونه مشروطاً بالماء إشارة إلى أنّها لا تزول إلاّ بظهور آثار الصفات الإلهيّة التي هي حياة الوجود؛ لأنّ الماء سرّ الحياة، ثمّ إستقبال القبلة إشارة إلى التوجّه في طلب الحقّ، ثمّ النيّة إشارة إلى إنعقاد القلب في ذاك التوجّه، ثمّ تكبيرة الإحرام إشارة إلى أنّ الجانب الإلهي أكبر وأوسع ممّا عسى أن يتجلّى به عليه، وقراءة الفاتحة إشارة إلى وجود كماله في الإنسان؛ لأنّ الإنسان فاتحة الوجود، فتح الله به أقفال الموجودات، فقراءتها إشارة إلى

ظهور الأسرار الإلهية تحت أستار الإنسانية، ثمّ الركوع إشارة إلى شهود إنعدام الموجودات الكونية تحت وجود التجلّيات الإلهية، ثمّ القيام عبارة عن مقام البقاء، ثمّ السجود عبارة عن سحق آثار البشرية ومحقها بإستمرار ظهور الذات المقدّسة، ثمّ الجلوس بين السجدتين إشارة إلى التحقّق بحقائق الأسماء والصفات؛ لأنّ الجلوس استواء في القعدة وذلك إشارة إلى قوله: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾[1] ثمّ السجدة الثانية إشارة إلى مقام العبودية وهو الرجوع من الحقّ إلى الخلق، ثمّ التحيّات فيها إشارة إلى الكمال الحقّي والخلقي؛ لأنّه عبارة عن ثناء على الله تعالى وسلام على نبيّه وعلى عباده الصالحين.

والصلاة فرض ونفل: فالفرض صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، وما بقي فهو سنّة ونافلة، فالسُنّة كالوتر وصلاة العيدين، والنافلة كصلاة... التهجّد.

والصلاة عند المسيحيين عرّفها ماريوحنّا الدمشقي بأنّها إرتفاع الروح إلى الله تعالى، وهي في جميع الأديان دعاء يتقرّب به إلى الله، إستغفاراً لذنب أو شكراً لنعمة أو دفعاً لضيم، أو قياماً بفرض عبادة، والأصل في جميع صلوات المسيحيين إنّما هو الصلاة الربّانية التي علّمها السيد المسيح، والأصل في تلاوتها أن يتلوها المصلّي ساجداً، وقد تكون الصلاة لفظية بأن تتلى بألفاظ منقولة أو مرتجلة، وتكون قلبية بأن تنوى الألفاظ ويكون الإبتهال قلبياً محضاً.

أمّا اليهود: فليس في التوراة ما يدلّ دلالة صريحة على كيفية إقامة

---

(١) طه: ٥.

الصلاة عندهم، والظاهر أنّهم إنّما كانوا يتلونها وقوفاً إلاّ في الإحتفالات الكبرى، حيث كانوا يسجدون، وكان لها ثلاثة أوقات قانونية، الصبح والظهر والمساء، وأمّا اليونان فيظهر من كلام هوميروس إنّهم لم يكونوا يسجدون في صلواتهم؛ بل كانوا يدعون وقوفاً رافعين أكفّهم إلى السماء، ولكلّ من الأمم طريقة في تلاوة صلاتها. انتهى.

* * *

وممّا جاء في (مناهل الأشواق):

إنّ الصلاة هي أفضل القرب ... وأكمل الطاعات طرّاً وأحبّ

عمود هذا الدين والعنوان ... لسائر الأديان والميزان

إن قبلت فغيرها بها قبل ... وإن تردّ ظلّ سعي من عمل

الصلاة مظهر من مظاهر شكر المنعم، وهي أعظم مظهر لشكره سبحانه في عامّة الشرائع: تشتمل الصلاة في الشريعة الإسلامية على منتهى الخضوع والعبودية، فالركوع والسجود لواجب الوجود، وعلى الدعاء والتوسّل والتضرّع إلى الله سبحانه بدوام فيوضات الإنعام واللطف على العباد الذين:

﴿لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً﴾[1].

تتجلّى صورة الصلاة بمظهر الإقرار لواجب الوجود بالربوبية، بمظهر التوحيد وخلع الأنداد ونفي الشرك والإلحاد، بمظهر نعمته سبحانه بالعزّة والعظمة والجود والكرامة، بمظهر مثول العبد للمعبود بهيكله وأركانه ولسانه وجنانه.

---

(١) الفرقان: ٣.

جاء النصّ في القانون الإسلامي على وجوب الصلاة وإناطة الفوز بالجنان، والتخلّص من درك النيران، بإقامة الصلاة، قال سبحانه:

﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾.[١]

خصّ الله المؤمنين بالذكر دون سواهم؛ لأنّ الصلاة التي تكون صحيحة مقبولة عند الله هي صلاة المؤمنين، وغيرهم لا تقبل منه الصلاة لعدم قيامهم بشرائطها التي منها إيمانه بالله ولعدم إمتثاله لأمر الله ونهيه.

والكتاب مصدر كتب والموقوت هو المفروض، فالصلاة مكتوبة بنحو الفرض على المؤمنين، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾.[٢]

من أُصول اللغة العربية أن (قد) إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد القطع في تحقّق ما دخلت عليه، وهو هذا فلاح المؤمنين، والفلاح هو الفوز بالأماني والظفر بالمطلوب، وهذا بشارة من الله سبحانه بالخلاص من العذاب العظيم، عذاب الجحيم ثمّ بعده الفوز بجنّات النعيم، كلّ ذلك للمؤمن الخاشع في صلاته، والخشوع هو خشية القلب وخوفه من الله في موقف الطاعة والعبادة، وربّما ينسب إلى بقيّة الجوارح إذا قامت كلّ جارحة بوظيفتها حال الصلاة، كإشغال النظر في موضع السجود، والسمع بما ينطق به اللسان من القراءة والدعاء، وكذلك بقيّة الجوارح بما ندبت له حال قيامها في ذلك الموقف الرهيب عند العارفين وعند المتّقين.

فالمؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، هم الذين ينتفعون بصلاتهم، وصلاتهم هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، أمّا الحركات

---

(١) النساء: ١٠٣.

(٢) المؤمنون: ١ و٢.

العادية والأقوال اللفظية التي لا تمرّ بعالم التصوّرات فضلاً عن التصديق، لاسيّما إذا كانت كنقر الغراب، فهيهات أن ينتفع بها فاعلها، فحضور القلب وإقباله وخشوعه في الصلاة خالصاً لوجه الله من تحريمها إلى تحليلها هو روح صحّتها ومناط قبولها.

قال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يدعى بالعبد فأوّل شيء يسأل عنه الصلاة».[1] وقال: «لكلّ شيء وجه ووجه دينكم الصلاة».[2]

وقال ﷺ: «ليس منّي من استخفّ بصلاته، ولا يرد عليَّ الحوض لا والله».[3]

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في كلام يوصي به أصحابه: «تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقرّبوا بها، فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سُئلوا: ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾».[4]

وكان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يتململ ويتزلزل إذا حضر وقت الصلاة، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت الصلاة، وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها».[5]

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٥/ ح ٤٥.

(٢) الكافي ٣: ٢٧٠/ ح ١٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٦/ ح ٦١٧.

(٤) نهج البلاغة ٢: ١٧٨/ ح ١٩٩.

(٥) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٧٤/ ح ٦٧.

ولا يسعني بهذا المختصر أن أذكر تمام الآيات في باب الصلاة، ولا تمام ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وبقيّة أهل بيت رسول الله عليهم السلام وأصحابه أعلام الدين وأئمّة المسلمين في الإلزام بالصلاة وفضلها، ولوم الغافلين عنها.

موسى بن عمران عليه السلام وفضله على الأمّة:

في (الوسائل)[1] للحرّ العاملي رحمه الله، وفي البخاري[2] بمعناه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أُسري به، أمره ربّه بخمسين صلاة، فمرّ على النبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتّى انتهى إلى موسى بن عمران عليه السلام، فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بخمسين صلاة، فقال: اسأل ربّك التخفيف فإنّ أُمّتك لا تطيق ذلك، فسأل ربّه فحطّ عنه عشراً، ثمّ مرّ بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتّى مرّ بموسى بن عمران عليه السلام فقال: بأي شيء أمرك ربّك؟ فقال: بأربعين صلاة، فقال: اسأل ربّك التخفيف فإنّ أُمّتك لا تطيق ذلك، فسأل ربّه فحطّ عنه عشراً، ثمّ مرّ بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتّى مرّ بموسى بن عمران عليه السلام فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بثلاثين صلاة، فقال: اسأل ربك التخفيف فإن أُمّتك لا تطيق ذلك، فسأل ربّه فحطّ عنه عشراً، ثمّ مرّ بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتى مرّ بموسى بن عمران عليه السلام فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بعشرين صلاة، فقال: اسأل ربّك التخفيف فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك، فسأل ربّه فحط عنه عشراً، ثمّ مر

---

(١) وسائل الشيعة ٤: ١٣/ ح ٥/٤٣٨٩.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٤/ ٢٤٩.

بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتّى مرّ بموسى بن عمران عليه السلام فقال: بأي شيء أمرك ربّك؟ فقال: بعشر صلوات.

فقال: اسأل ربّك التخفيف فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك، فإنّي جئت إلى بني إسرائيل بما افترض الله عليهم فلم يأخذوا به ولم يقرّوا عليه.

فسأل النبي صلى الله عليه وآله ربّه فخفّف عنه وجعلها خمساً، ثم مرّ بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتّى مرّ بموسى عليه السلام فقال له: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بخمس صلوات، فقال: اسأل ربّك التخفيف عن أمّتك فإن أمّتك لا تطيق ذلك، فقال صلى الله عليه وآله: إنّي لأستحي أن أعود إلى ربّي، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس صلوات.

لا أراك بعد الإطلاع على هذه الرواية إلاّ قائماً ترتّل بلسان الشكر آيات الثناء بين أوراد الصلاة، والسلام على كليم الله ونبيه موسى بن عمران عليه السلام لقيامه منفرداً عن النبيين والمقرّبين بمهمّة الشفاعة إلى خاتم النبيين ليسأل ربّه التخفيف عنّا مرّة بعد مرّة، والله يرتضي شفاعته إعظاماً لحبيبه وكليمه، وإشفاقاً منه سبحانه على عباده، إذ هم بعد هذا التخفيف العظيم والرحمة الواسعة والشريعة السهلة السمحاء الملائمة للعباد في كلّ مكان وزمان كما ترى بين من يرى الصلاة وهي خمس كغيرها من الواجبات حجر العثرة في هذه الحياة، وبين من تركها إقتداءاً بنظيره وعشيره، وتبعاً لزعيمه وأميره، وكهول اليوم هم الشبّان بالأمس. والصافّون للصلاة أقدامهم في المعابد والمساجد تراهم فتحسبهم الكثير، والمصلّون لله حقيقة هم القليل، وقليل ما هم، فهذه الخمس كما تراها، فما ظنّك بالخمسين لو بقيت.

إستفهام زيد من أبيه زين العابدين عليه السلام:

لا ننكر على المفكّرين توقّفهم إذا جالت أفكارهم في شفاعة موسى بن عمران عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ومراجعة رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه في قضيّة تخفيف الصلاة.

لا ننكر توقفهم متردّدين بين موارد الإستفهام (كيف) لم يراجع رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه طالباً منه التخفيف عن أُمّته قبل سؤال موسى؟ (كيف) لم يقبل رسول الله من موسى توسّطه في المرّة الأخيرة؟ (كيف) أمر الله بالخمسين وهو يعلم أنّها تنتهي إلى الخمس؟

أجل لا ننكر عليهم ذلك بعد أن سأل عنه علاّمة زمنه بعد أبيه وأخيه، بعد أن سأل عنه زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فهو على علمه وفضله، وأخذه العلوم والحكمة من عين صافية، إستفهم عن مواقع الإشكال من أبيه الإمام زين العابدين عليه السلام، إمّا ليعلم حكمة ذلك، أو ليعلمنا كيف نفهم ونعلم، وإليك ذلك من(الوسائل):[1]

عن الصدوق رحمه الله عن زيد بن علي: قال سألت أبي سيّد العابدين عليه السلام فقلت له: يا أبة اخبرني عن جدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا عرج به إلى السماء وأمره ربّه بخمسين صلاة، كيف لم يسأله التخفيف عن أُمّته حتّى قال له موسى بن عمران: إرجع إلى ربّك فاسأله التخفيف فإنّ أُمّتك لا تطيق ذلك؟

فقال: «يا بني إنّ رسول الله لا يقترح على ربّه عزّ وجلّ ولا يراجعه في شيء كان يأمره به، فلمّا سأله موسى ذلك وصار شفيعاً لأُمّته إليه، لم يجز

(١) ج ٤: ١٦.

له ردّ شفاعة أخيه موسى، فرجع إلى ربّه فسأله التخفيف إلى أن ردّها خمس صلوات»، [قال: فقلت: يا أبة فلم لم يرجع إلى ربه ﷻ ولم يسأله التخفيف من خمس صلوات][1] وقد سأله موسى أن يرجع إلى ربّه ﷻ ويسأله التخفيف؟

فقال: «يا بني أراد ﷺ أن يحصل لأمّته التخفيف مع أجر خمسين صلاة لقول الله ﷻ: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾[2] ألا ترى أنّه ﷺ لمّا هبط إلى الأرض نزل عليه جبرئيل فقال: يا محمّد إنّ ربّك يقرؤك السلام ويقول: إنّها خمس بخمسين، و﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾».

ومن هذا الأخير تفهم الجواب عن أمره سبحانه بالخمسين، وهو يعلم أنّها تنتهي إلى الخمس.

معنى الصلاة ووجوبها الذاتي والعرضي:

سؤال: ما هو الواجب من الصلاة بالذات؟

الجواب: الصلاة الواجبة بالذات أربع: (الأوّل) صلاة اليوم والليلة، وهي الفرائض الخمس، (الثاني) صلاة الآيات. (الثالث): صلاة الطواف. (الرابع): صلاة الأموات.

س: ما هو الواجب من الصلاة بالعرض؟

ج: هو ثلاث: الأوّل: الصلاة التي تجب بسبب الإجارة عليها. الثاني: الصلاة التي تجب بالنذر أو العهد أو اليمين. الثالث: الصلاة التي تجب على الولد الذكر الأكبر قضاءً عن أبيه بسبب موت الأب.

---

(١) ما بين المعقوفتين ألحقناه من المصدر، وكان ساقطاً من مخطوطة المؤلف رحمه الله.

(٢) الأنعام: ١٦٠.

س: ما هو معنى الصلاة في اللغة العربية؟

ج: الصلاة في اللغة العربية معناها الدعاء والإبتهال إلى الله سبحانه.

س: ما هو معنى الصلاة في القانون الإسلامي، وإصطلاح صاحب الدعوة الإسلاميّة ﷺ، وهل خرجت عن معناها اللغوي، أو أنّها إستُعملت فيه مع الزيادة عليه؟

ج: الصلاة في القانون الإسلامي، وإصطلاح صاحب الدعوة الإسلاميّة ﷺ وأهل بيته وصحابته، معناها الخضوع بشكل خاصّ وشرائط خاصّة، وأجزاء متعدّدة من جملتها الدعاء.

* * *

الكلام في وقت الصلاة الواجبة في اليوم والليلة، المعروفة بالفرائض الخمس: فريضة الظهر، وفريضة العصر، وفريضة المغرب، وفريضة العشاء، وفريضة الصبح، وفي عدد ركعاتها، والواجبات المطلوبة فيها، والشرائط المختَصة بها.

الكلام في أوقات الفرائض الخمس:

س: ما هو وقت فريضة الظهر؟

ج: وقت فريضة الظهر من زوال الشمس عن قبّة الفلك بالنسبة لأفق المكلّف إلى قبل غياب الشمس بمقدار ما يسع فريضة العصر.

س: ما هو وقت فريضة العصر؟

ج: وقت فريضة العصر ابتداؤه بعد أن يمضي من الزوال مقدار يسع فريضة الظهر ويمتدّ إلى أن تغيب الشمس.

س: هل بين الظهر والعصر اشتراك في الوقت أم لا؟

ج: إذا زالت الشمس عن قبّة الفلك في أُفق المصلّي دخل وقت الظهر والعصر، وينتهي وقتهما بغياب الشمس، لكن تختص الظهر من أوّل الوقت بمقدار ما يسعها، وتختص العصر من آخر الوقت بمقدار ما يسعها، وما بين وقتي الاختصاص يكون مشتركاً بينهما.

س: ما هو وقت فريضة المغرب، ووقت فريضة العشاء، وهل لهما وقت اختصاص، ووقت اشتراك، كما للظهر والعصر أم لا؟

ج: إذا غربت الشمس دخل وقت فريضة المغرب والعشاء، ويمتدّ إلى انتصاف الليل لغير ذوي الأعذار، وإلى طلوع الفجر لذوي الأعذار، كالنسيان والنوم وغيرهما، نعم تختصّ المغرب من أوّل الوقت بمقدار ما يسعها، وتختصّ العشاء من آخره بمقدار ما يسعها، وما بين وقتي الإختصاص يكون مشتركاً بينهما، والأولى عدم التعرّض، لنيّة الأداء والقضاء بعد انتصاف الليل، سواء كان تأخير المغرب والعشاء عن نصف الليل لعذر أو لغير عذر.

س: ما هو وقت فريضة الصبح؟

ج: وقت فريضة الصبح من طلوع الفجر الصادق على أُفق المصلّي إلى طلوع الشمس.

الكلام في عدد ركعات الفرائض الخمس:

س: كم عدد ركعات الفرائض الخمس للحاضر؟

ج: عدد ركعات الفرائض للحاضر: سبع عشرة ركعة: الصبح ركعتان، والظهر والعصر كلّ واحدة أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات.

س: كم عدد الفرائض الخمس للمسافر؟

ج: عدد الفرائض الخمس للمسافر: إحدى عشرة ركعة: الظهر والعصر والعشاء كلّ واحدة ركعتان، والمغرب ثلاث ركعات، والصبح ركعتان.

الكلام في تحديد السفر الموجب لقصر الصلاة على المسافر الملازم للإفطار في أيّام الصوم:

س: ما هي الشرائط التي لو اجتمعت وجب على المسافر قصر الصلاة والإفطار؟

ج: يجب قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين، ويجب الإفطار على المكلّف بالصوم إذا اجتمعت الشرائط الآتية وهي ثمانية:

الشرط الأول: المسافة التي يقطعها المسافر، يشترط فيها أن لا تنقص عن ثمانية فراسخ إمتدادية ذهاباً أو إياباً، أو ثمانية ملفّقة من الذهاب والإيّاب.

س: ما هو مقدار الفرسخ؟

ج: الفرسخ: ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع بذراع اليد، وذراع اليد طوله عرض أربع وعشرون اصبعاً، والاصبع عرض سبع شعيرات، كلّ شعيرة عرض سبع شعرات من أوسط شعر البرذون، فلو نقصت المسافة عن ثمان فراسخ ولو يسيراً لا يجوز قصر الصلاة ولا الإفطار.

س: هل يشترط في المسافة الملفّقة من الذهاب والإيّاب عود المسافر في يوم واحد أو ليلة واحدة أو فيهما إلى وطنه أم لا يشترط شيء من ذلك؟

ج: المدار في قطع المسافة الملفّقة على بلوغها ثمانية فراسخ ذهاباً وإيّاباً، سواء رجع في يومه وليلته أم لا، وسواء بات في طريقه أم لا، نعم لو قصد الإقامة في الطريق أو في المقصد عشرة أيّام، أو حصل قاطع آخر للسفر وجب عليه إتمام الصلاة والصوم في اليوم الذي يجب صومه.

س: بِمَ تثبت المسافة ليترتّب عليها حكمها؟

ج: تثبت المسافة بالعلم الحاصل من الإختبار، أو الشياع، أو التواتر، وتثبت بالبيّنة العادلة، وبمسح الأرض من ذوي المعرفة لأُمورهم الدنيوية إن كانوا لا يتديّنون، نظراً لابتناء أُمورهم على الضبط في مسح الطرقات في هذه الأيّام.

س: إذا شكّ المسافر في أنّ ما يقطعه مسافة أم لا ما حكمه؟

ج: إذا كان المكلّف شاكّاً في بلوغ ما يقطعه في سفره حدّ المسافة، وجب عليه أن يتمّ الصلاة، وحرم عليه الإفطار إذا كان صائماً، ولو قصّر وأفطر وجبت الإعادة أو القضاء، إلاّ إذا تبيّن له بعد ذلك أنّ ما قطعه كان مسافة.

س: ما حكم المسافر إذا كان للبلد طريقان: طريق يبلغ المسافة، وطريق لا يبلغ المسافة؟

ج: إذا كان للبلد طريقان: طريق يبلغ المسافة، وطريق لا يبلغها، فإن سلك المسافر ما بلغ المسافة قصّر، وإن سلك ما نقص عن المسافة أتمّ، وراكب السيارة والطيارة يقصّر إذا قطع ثمانية فراسخ ولو بنصف ساعة.

س: من أين يحسب مقدار المسافة في السفر؟

ج: يحسب مبدأ المسافة من سور البلد أو آخرها مع عدم السور، وفي البلاد التي تفرّق بناؤها وانفصل بسبب الكروم والبساتين، يحسب من المحلّة التي هو فيها، وكذلك الحال في منتهى السفر.

الشرط الثاني: قصد قطع ثمانية فراسخ دفعة، فلو قصد قطع الأقل كسبعة فراسخ مثلاً، ثمّ بعد قطعها قصد قطع سبعة فراسخ، كان فرضه إتمام الصلاة، إلاّ أن يقصد العود فتكون المسافة ملفّقة من الذهاب والإيّاب.

س: من سافر وهو لا يدري أي مقدار يقطعه، كالخارج في طلب دابته وعبده، أو بيع ما بيده ونحو ذلك، ما حكمه؟

ج: المتردّد في مقدار ما يقطعه من المسافة، إن كان تردّده بين مقدار المسافة وبين الناقص عنها، فحكمه الإتمام، وإن كان بين مقدار المسافة والزائد عنها، فحكمه القصر.

س: هل يشترط الإستقلال بقصد قطع المسافة أم لا؟

ج: لا يشترط الإستقلال في قصد قطع المسافة، فالعبد والزوجة والأسير والمكره، وكلّ تابع بالنسبة إلى من يجب عليه أن يصاحبه في سفره، أو أُكره على مصاحبته إذا علم أنّ من يصاحبه يقطع المسافة في سفره وهو لا يفارقه، كان حكمه قصر الصلاة والإفطار في يوم يجب صومه، وإذا لم يعلم أنّه يقطع المسافة لا يجب عليه القصر.

الشرط الثالث: إستمرار القصد لقطع المسافة، فلا يكفي قصدها إبتداءاً إذا عدل في الأثناء، نعم إذا كان قد قطع أربعة فراسخ ثمّ عدل وكان عازماً على الإياب، بقي حكمه القصر، وإذا لم يكن عازماً على العود كان لعدوله أثر تامّ في بطلان قصده الأوّل.

س: إذا كان المسافر قاصداً السفر إلى بلدة معيّنة، وفي أثناء الطريق قصد بلدة غيرها ما حكمه؟

ج: إذا كان قصد المسافر بلدة معيّنة وفي الطريق قصد غيرها

المساوية لها مسافة، أو الزائدة عنها كان حكمه القصر إذا كانت المسافة ثمانية فراسخ ولو ملفّقة، وكذلك حكمه القصر إذا قصد قطع ثمانية فراسخ ولم يعيّن البلدة التي يقصدها حتّى ينتهي الطريق المشترك بين قرى متعدّدة، فهنالك يعيّن البلدة التي ينتهي إليها سيره.

الشرط الرابع: أن لا ينوي المسافر إقامة عشرة أيّام قبل بلوغه ثمانية فراسخ، سواء نوى ذلك من أوّل سفره أو في أثنائه؛ لأنّ نيّة إقامة عشرة أيّام قبل بلوغه ثمانية فراسخ، سواء نوى ذلك من أوّل سفره أو في أثنائه؛ لأنّ نيّة إقامة عشرة أيّام قبل بلوغه ثمانية فراسخ تزيل موضوع السفر الشرعي وحكمه، فإذا نوى ذلك كان حكمه إتمام الصلاة والصوم.

س: هل نيّة المرور على محلّ الوطن في أثناء السفر قبل بلوغ ثمانية فراسخ نيّة الإقامة عشرة أيّام أم لا؟

ج: إذا نوى المسافر المرور على محلّ وطنه قبل بلوغه ثمانية فراسخ، كان كمن نوى الإقامة عشرة أيّام قبل بلوغه ثمانية فراسخ، وحكمه إتمام الصلاة، سواء نوى ذلك من أوّل سفره أو في أثنائه قبل إتمام ثمانية فراسخ.

الشرط الخامس: أن لا يكون السفر محرّماً في ذاته، كسفر من سافر فاراً من الزحف في موارد وجوب القتال، وسفر الزوجة لغير الواجب بدون إذن الزوج، وسفر العبد الآبق، وسفر الولد مع نهي الوالد لغير الواجب، وسفر من كان السفر مضراً في بدنه، وسفر من نذر عدم السفر وانعقد نذره، فمن كان سفره كذلك يتمّ ويصوم مهما طال سفره ما دام كذلك.

س: هل حكم السفر لغاية محرّمة كحكم السفر المحرّم في ذاته أم لا؟

ج: إذا سافر المكلّف ليفعل فعلاً حرمه الله عليه، كان كمن حرّم عليه نفس السفر، فمن سافر ليقتل نفساً محرّمة، أو ليقطع الطريق على عباد الله، أو ليزني، أو يشرب الخمر، أو يعين الظالمين على ظلمهم، وهكذا بقيّة الغايات المحرّمة، فعليه أن يتمّ الصلاة ويصوم.

س: ما حكم من سافر على دابة مغصوبة، أو مركب مغصوب، أو أرض مغصوبة مع عدم إذن المالك؟

ج: المسافر على الدابة المغصوبة، أو المركب المغصوب، أو في الأرض المغصوبة مع عدم إذن المالك، يقصّر ويفطر، وإن كان آثماً عاصياً في تصرّفه بمال غيره بغير إذنه، وهذا لا ربط له بالسفر المحرّم.

س: من سافر لغاية محرّمة ثمّ عدل عنها في أثناء سفره، أو سافر لغاية محلّلة ثمّ عدل عنها في الطريق إلى غاية محرّمة ما حكمه؟

ج: إذا سافر المكلّف لغاية محرّمة ثمّ عدل عنها في الطريق إلى غاية محلّلة، أو سافر لغاية محلّلة ثمّ عدل عنها في الطريق إلى غاية محرّمة، فما قطعه قبل العدول يلحقه من القصر في المحلّلة والإتمام في المحرّمة، وما بقي من المسافة فكذلك يلحقه حكمه.

الشرط السادس: أن لا يكون المسافر ممّن لا منزل لهم ولا بلدة يسكنون بها، كأهل البوادي النقّالة الذين يحملون بيوتهم معهم من العرب وغيرهم الذين يتنقّلون في الفلوات من مكان إلى آخر طلباً لما يوافق أنعامهم (من) ماء وكلأ، فمن كان كذلك سفره فإنّه يتمّ ويصوم مهما قطع من المسافة بهذا النحو.

س: من كان من أهل البوادي وسافر إلى عمل خاصّ، كالحجّ والتجارة مثلاً، ما حكمه؟

ج: أهل البوادي الذين يحملون بيوتهم معهم في أسفارهم المنزلية، إذا سافر أحدهم إلى الحجّ أو التجارة مثلاً، وكان سفره جامعاً لبقيّة الشرائط قصّر وأفطر؛ لأنّ سفره هذا غير سفره في التنقّلات المنزلية الذي لا يعتبره الشارع سفراً.

الشرط السابع: أن لا يكون المسافر قد اتّخذ السفر عملاً وشغلاً له، كالمكاري والعامل في المراكب والسفن البحرية، والساعي والتاجر الحامل البضاعة على ظهره، أو دابة ينتقل بها من بلدة إلى أُخرى، والراعي الذي يقطع المسافة في رعيه في بعض البلاد، فمن كان كذلك كان حكمه إتمام الصلاة والصوم.

س: متى يتحقّق الصدق العرفي على المسافر، فيقال اتّخذ السفر عملاً له ويلحقه حكمه شرعاً؟

ج: الظاهر أنّه لا يصدق عليه أنّه قد اتّخذ السفر عملاً له وأنّه كثير السفر إلاّ بشروعه في السفرة الثالثة، ففيها يُتم ويصوم مع عزمه من أوّل مرّة على اتّخاذ السفر عملاً له، ولو جمع بين القصر والإتمام في السفرة الثانية كان أحوط.

س: هل السفر الواحد الطويل يحقّق صدق كثرة السفر عرفاً وشرعاً أم لا؟

ج: الظاهر أنّه لا يتحقّق صدق كثرة السفر واتّخاذه عملاً بسفرة واحدة وإن طالت، فلا يقال كثير السفر؛ بل يقال: طال سفره أو سافر سفرة طويلة.

س: من سافر مراراً متعدّدة لأمور عرضت عليه لم تكن بباله، فهل هو كمن اتّخذ السفر عملاً له أم لا؟

ج: السفر المتكرّر من المكلّف إذا كان من باب الإتّفاق والصدفة، لا يلحق صاحبه حكم من اتّخذ السفر عملاً له؛ بل حكمه القصر في سفره.

س: إذا تحقّق صدق كثير السفر على المكلّف، وأنّ عمله السفر، فهل يكون فرضه في السفر إتمام الصلاة على كلّ تقدير أم لا؟

ج: يجب على من صدق عليه أنّه كثير السفر، وأنّ عمله السفر أن يتمّ صلاته في سفره ويصوم في اليوم الذي يجب صومه، ويستمر على ذلك حتّى يقيم في بلدته ووطنه عشرة أيّام، ولو لم تكن منوية الإقامة، أو يقيم في بلدة غيرها عشرة أيّام ينوي إقامتها، فإذا أقام كذلك إنقطع حكم اتّخاذه السفر عملاً له شرعاً، وكان فرضه أن يقصّر ويفطر في السفرة الأولى إذا سافر، ويجمع في الثانية بين القصر والتمام إحتياطاً ويتمّ في الثالثة.

س: ما حكم السائحين في الأرض والدراويش والذين يجولون في البلاد لمعرفة آثار الأُمم الماضية؟

ج: مستمرّ السفر ولا وطن له كالسائح والدرويش، أو من تتبع آثار الأُمم، حكمه التمام، والجمع له أحوط.

الشرط الثامن: وصول المسافر إلى حدّ الترخيص شرعاً، ليرتّب آثار السفر من قصر الصلاة والإفطار، وحدّ الترخّص شرعاً هو المكان الذي يبعد عن البلدة التي يسافر منها بمقدار يتوارى فيه عن نظر المسافر جدران بيوت البلد، ويخفى عنه أذان المآذن في تلك البلد، فمن حين خروجه من بيته مسافراً جامعاً لجميع الشرائط السابقة لا تصحّ منه الصلاة قصراً، ولا يجوز له الإفطار حتّى يبعد عن بلده مقداراً لا يرى فيه جدران بيوت البلد، ولا يسمع أذان المآذن، وحينئذ حكمه قصر الصلاة والإفطار.

س: هل يكفي في تحقّق الوصول إلى حدّ الترخّص خفاء الأذان وحده، أو تواري الجدار وحده، أو لابدّ منهما معاً؟

ج: إذا بعُد المسافر عن البلد إلى مكان توارت فيه جدران بيوت البلد عنه، فإن كان لم يزل يسمع أذان المآذن لا يجوز له قصر الصلاة ولا الإفطار، وأمّا إذا لم يعلم أنّ الأذان يُسمع في ذلك المكان أم لا يُسمع جاز له القصر والإفطار، وكان تواري الجدران كافياً، وكذلك لو خفي الأذان عليه، فإن كان يرى جدران بيوت البلد لم يكن خفاء الأذان كافياً، وإن كان لا يعلم تواريه وعدم تواريه، اكتفى بخفاء الأذان.

س: ما حكم المسافر الأعمى أو الأصمّ، أو ضعيف البصر أو السمع، أو من كان بصره أو سمعه زائداً عن المعتاد وخارقاً للعادة؟

ج: إذا كان المسافر ناقص البصر أو السمع، أو فاقداً لهما أو لأحدهما، أو زائداً عن أبناء نوعه في قوّة السمع أو البصر أو فيهما معاً، كان حكمه أن يرجع إلى إلى المتوسّط من الناس في سمعه وبصره، فحيث يتحقّق حدّ الترخّص للمتوسّط يكون هو الحدّ للناقص أو الزائد أو الفاقد.

س: ما هو الحكم في البلاد المرتفعة على التلال والجبال، وفي البلاد المنخفضة، وفي البلاد التي اتّخذها أهلها تحت الأرض من جهة تواري الجدران وخفاء الأذان؟

ج: إذا كان البلد في مكان مرتفع تُرى جدران بيوته للناظر إليه من بعد زائد، كان الحكم فيه أن يفرض كونه في مكان مستو وبمقدار ما يتحقّق خفاء الأذان وتواري الجدران فيه، يكون حكم البلد المرتفع، وكذلك حكم البلد المنخفض، أو الكائن تحت الأرض فإنّه يفرض كونه في مكان مستو.

س: ما هو المراد من تواري الجدران وخفاء الأذان؟

ج: المراد من تواري الجدران أن لا تُرى الجدران للناظر إليها بصورها وأشكالها، وأمّا أشباحها فلا أثر لها وإن كانت تُرى، والمراد من خفاء الأذان أن يميّز السامع فصوله، والأحوط أن يختفي صوت المؤذّن.

س: هل للوصول إلى حدّ الترخّص دخلٌ في القصر والإتمام حال رجوع المسافر إلى بلده وحال خروجه من بلد نوى فيه الإقامة عشرة أيّام أم لا؟

ج: الوصول إلى حدّ الترخّص كما أنّه يكون منه مبدأ القصر والإفطار حال الذهاب، فإليه ينتهي القصر حال الإيّاب، وكذلك يكون محلّ الترخّص بالنسبة للبلد التي ينوي فيها المسافر إقامة عشرة أيّام، ويقيم فيها، فإنّه إذا خرج منها مسافراً يكون محلّ الترخّص مبدأ قصره للصلاة، وكذلك حكمه في البلد التي لبث فيها ثلاثين يوماً متردّداً؛ لأنّه بعد الثلاثين حكمه الإتمام، فإذا سافر منها كان مبدأ قصره من محلّ الترخّص.

الكلام في الواجبات المطلوبة في الصلاة:

س: ما هو الجزء الأوّل من الصلاة الذي تنعقد الصلاة بالإتيان به، ولا يجوز بعد الإتيان به إبطال الصلاة مع وجود شرائطها؟

ج: الجزء الأوّل في الصلاة هو تكبيرة الإحرام المقارنة للنيّة، وهي الركن الذي تُبنى عليه الصلاة، وإنّما سمّيت بتكبيرة الإحرام لأنّه يحرم على المكلّف بعدها كلّ عمل خارج عن الصلاة، حتّى يتمّها بالتسليم الذي هو الجزء الأخير منها.

س: ما هي تكبيرة الإحرام؟

ج: تكبيرة الإحرام هي قول المصلّي: (الله أكبر) عن قصد وإختيار لتلك الفريضة، إمتثالاً لأمر الله قربة إلى الله، وهو النيّة المقارنة لتكبيرة الإحرام.

س: ما هو الجزء الأخير من الصلاة الذي تتمّ الصلاة بالإتيان به؟

ج: الجزء الأخير من الصلاة هو التسليم الواقع بعد التشهّد والصلاة على محمّد وآل محمّد، فإذا جاء المصلّي بالتسليم تمّت صلاته وحلّ له ما حرم عليه من الأقوال والأفعال الخارجة عن الصلاة، فأوّل الصلاة تكبيرة الإحرام وآخرها التسليم، وبعبارة ثانية تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم.

س: ما هي الواجبات من الأفعال في الصلاة؟

ج: الأفعال الواجبة في الصلاة عشرة:

الأوّل: القيام حال تكبيرة الإحرام.

الثاني: القيام حال القراءة الواجبة.

الثالث: الركوع.

الرابع: الإنتصاب بعد الركوع، وهو رفع الرأس من الركوع حتّى يستوي منتصباً.

الخامس: الجلوس للسجود.

السادس: سجود السجدتين.

السابع: رفع الرأس من السجدتين حتّى يستوي جالساً.

الثامن: الجلوس بين السجدتين وبعدهما ولو بأقل مسمّاه.

التاسع: النهوض للقيام حتّى يتمّ الصلاة.

العاشر: الجلوس للتشهّد والصلاة على محمّد وآل محمّد وللتسليم.

س: ما هي الواجبات من الأقوال في الصلاة؟

ج: الأقوال الواجبة في الصلاة عشرة:

الأوّل: النيّة، وهي وإن كانت تعقد في القلب إلاّ أنّها كالمنطوق به.

الثاني: تكبيرة الإحرام، وهي (الله أكبر) مقارناً للنيّة.

الثالث: قراءة سورة فاتحة الكتاب، وهي سورة الحمد في الركعة الأولى والثانية.

الرابع: قراءة أي سورة من القرآن سوى سور العزائم في الركعة الأولى والثانية بعد قراءة الفاتحة فيهما.

الخامس: قراءة التسبيحات الأربع ثلاثاً في الركعة الثالثة والرابعة، أو قراءة الفاتحة بدلاً من التسبيحات مخيّراً بينهما.

السادس: قراءة الذكر الواجب في الركوع.

السابع: قراءة الذكر الواجب في السجود.

الثامن: تشهّد الشهادتين مرّة في فريضة الصبح، وفي بقيّة الفرائض مرّتين.

التاسع: الصلاة على محمّد وآل محمّد بعد الشهادتين في الصبح مرّة واحدة، وفي بقيّة الفرائض اليومية مرّتين.

العاشر: التسليم بعد الصلاة على محمّد وآل محمّد وهو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

س: ما هو التشهّد الواجب في الصلاة؟

ج: التشهّد الواجب في الصلاة شهادتان: الأولى أن تقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، والثانية بعد الأولى بلا فاصل، وهي أن تقول: وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

س: ما هي الصلاة على محمّد وآل محمّد التي لا تصحّ الصلاة بدونها؟

ج: الصلاة على محمّد وآل محمّد التي يجب على المصلّي الإتيان بها في كلّ صلاة، ولا تُقبل الصلاة بدونها، هي أن تقول: اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، ولا تصحّ بغير هذه العبارة.

س: ما هو التسليم الواجب في الصلاة الذي تتمّ به الصلاة؟

ج: التسليم الواجب هو أن تقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أو تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإذا أتيت بهما معاً كانت الأُولى واجبة والثانية مستحبّة.

س: هل قولنا في الصلاة: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) واجب أو مستحبّ؟

ج: يستحبّ بعد قولك اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد أن تقول قبل التسليم الواجب: السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته.

س: هل الواجبات المطلوبة في الصلاة من الأقوال والأفعال متساوية أم لا؟

ج: ليست الواجبات المطلوبة في الصلاة متساوية؛ بل بعضها ركن في الصلاة، وبعضها ليس بركن.

الواجبات الركنية في الصلاة خمسة، وهي أركان الصلاة:

الأوّل: النيّة، وهي القصد لإمتثال أمر الله قربة إلى الله بتلك الصلاة المعيّنة؛ لأنّ الصلاة عبادة، والعبادة بلا نيّة كالجسم بلا روح.

الثاني: تكبيرة الإحرام، وهي أن يقول: (الله أكبر) مقارناً بها للنيّة.

الثالث: القيام حال تكبيرة الإحرام، والقيام الذي يركع عنه لمن

فرضه القيام، أو ما يقوم مقامه للعاجز عن القيام على حسب مراتب العجز.

الرابع: الركوع، وهو الإنحناء المتعارف بقدر ما يمكنه من وضع أصابع راحته على ركبتيه، وهو ركن، وفي كلّ ركعة ركوع.

الخامس: السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض، أو على ما أنبتته ممّا لا يؤكل ولا يلبس، ووضع الكفّين والركبتين ورؤوس إبهامي الرجلين على الأرض، أو على ما هو مستقرّ عليها بقصد الخضوع لله سبحانه، ويسجد سجدتين في كلّ ركعة، وهما معاً ركن في الصلاة.

س: ما الفرق بين هذه الأركان الخمسة وبين غيرها من الواجبات في الصلاة؟

ج: الفرق بين الأركان الخمسة وبين غيرها، هو أنّ نقصان الركن أو زيادته مبطل للصلاة، سواء وقع عن عمد أو سهو، وغير الأركان إنّما تبطل الصلاة بزيادته أو نقصانه عن عمد، ولا تبطل بزيادته أو نقصانه عن سهو.

س: هل بترك السجدة الواحدة أو زيادتها سهواً تبطل الصلاة أم لا؟

ج: الركن هو السجدتان معاً، فإذا زاد في ركعة سجدة واحدة أو نقص سجدة واحدة سهواً لم تبطل صلاته، وإذا زاد في ركعة سهواً سجدتين أو نقص منها سجدتين بطلت صلاته.

س: ما هو الذكر الواجب في الركوع، وما هو المستحبّ بعده؟

ج: الذكر الواجب في الركوع هو أن تقول وأنت راكع: سبحان ربّي العظيم وبحمده، والمستحبّ بعده أن تقول: اللهم صلّ على محمّد وآله، ويقوم مقام هذا الذكر أن تقول: سبحان الله سبحان الله سبحان الله، ثمّ تقول: اللهم صل على محمّد وآله.

س: ما هو الذكر الواجب في السجود، وما هو المستحبّ بعده؟

ج: الذكر الواجب في السجود، هو أن تقول وأنت ساجد: سبحان ربّي الأعلى وبحمده، أو سبحان الله ثلاثاً، ثمّ تقول: اللهم صل على محمّد وآله.

س: ما هي التسبيحات الواجبة في الركعة الثالثة والرابعة؟

ج: التسبيحات الواجبة في الركعة الثالثة والرابعة: هي أن تقول وأنت قائم في الركعة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، والأفضل أن يقولها ثلاثاً، والمصلّي مخيّر بين التسبيح وبين قراءة الحمد في الركعة الثالثة والرابعة.

س: ما هي المستحبّات المطلوبة في الصلاة على نحو الإختصار؟

ج: المستحبّات المطلوبة في الصلاة من الأقوال أُمور:

الأوّل: أن تقول بعد تكبيرة الإحرام: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثمّ تشرع بالواجب وهو الحمد.

الثاني: التكبير قبل الركوع وبعده، وبعد رفع الرأس من السجدة الأولى وقبل السجدة الثانية وبعدها، فيكون في الركعة الواحدة خمس تكبيرات مستحبّة.

الثالث: أن تقول بعد رفع الرأس من الركوع وقبل التكبيرة المستحبّة: سمع الله لمن حمده الحمد لله.

الرابع: أن تقول بعد السجدة الأُولى: أستغفر الله ربّي وأتوب إليه.

الخامس: أن تقول قبل القيام إلى الركعة الثانية: بحول الله وقوّته أقوم وأقعد.

السادس: أن ترفع يديك وتبسط كفّيك قبل الركوع للركعة الثانية،

وتدعو الله بما أحببت، وهذا هو القنوت المستحبّ في كلّ فريضة ونافلة وله أدعية خاصّة...

* * *

قوله عليه السلام: «الحجّ جهاد كلّ ضعيف».

في (مجمع البحرين):[1] الحجّ: في اللغة، القصد، وفي عرف الفقهاء قصد البيت للتقرّب إلى الله تعالى بأفعال مخصوصة، وبزمان مخصوص، في أماكن مخصوصة.

* * *

[الحج في اللغة والاصطلاح وفروضه]:

قال البستاني في (دائرة المعارف):

الحجّ في اللغة القصد إلى معظّم، وفي الإصطلاح زيارة الأماكن المقدّسة، وفي الشرع الإسلامي زيارة البيت الحرام، مفروضة، مرّة في العمر، فإن تمّم واجباته صحّ وإلاّ أُعيد مرّة أُخرى...

ويجب أن يكون مُحرماً بنيّة الحجّ، ويشترط لفرضه أن يكون صحيح البدن، قادراً على تحمّل مشقّات السفر، وأن يكون آمناً من طائلة السلطان.

وفروض الحجّ ثلاثة: الإحرام، والوقوف بعرفة، والطواف، وواجباته الوقوف بالمزدلفة، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والحلق أو التقصير، وإنشاء الإحرام من الميقات، وحدّ الوقوف بعرفة إلى الغروب، والبداءة بالطواف من الحجر الأسود، والمشي فيه لمن

---

(١) ج ١: ٤٥٨.

ليس له عذر، والطهارة وستر العورة، وبداءة السعي بين الصفا والمروة من الصفا، والمشي فيه لمن ليس له عذر، والترتيب المعروف بين الرمي والحلق والذبح يوم النحر...

ومواقيت الحجّ: ذو الحليفة على عشرة مراحل من مكّة، وذات عرق على مرحلتين منها، والجحفة على ثلاث مراحل منها، وقرن على مرحلتين، ويلملم على مرحلتين منها...

ويتحدّث السيِّد قطب في تفسيره حينما يستعرض الآية: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ ...﴾[1] الآية.

والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير، فالحجّ موسم ومؤتمر. الحجّ موسم تجارة وموسم عبادة. والحجّ مؤتمر إجتماع وتعارف. ومؤتمر تنسيق وتعاون. وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة، كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة... أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحجّ سوقاً رائجة، حيث تُجبى إلى البلد الحرام ثمرات كلّ شيء من أطراف الأرض، ويقدم الحجيج من كلّ فجّ ومن كلّ قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تُفرّق في أرجاء الأرض في شتّى المواسم. يتجمّع كلّه في البلد الحرام في موسم واحد. فهو موسم تجارة ومعرض نتاج؛ وسوق عالمية تقام في كلّ عام.

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام. وهي ترفّ حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترفّ كالأطياف من قريب ومن بعيد..

---

(١) الحج: ٢٨.

طيف إبراهيم الخليل ﷺ وهو يودع البيت فلذّة كبده إسماعيل وأمّه، ويتوجّه بقلبه الخافق الواجف إلى ربّه: ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.(١)

طيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرّة الملتهبة حول البيت، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدّها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل.. ثمّ ترجع في الجولة السابعة وقد حطّمها اليأس لتجد النبع يتدفّق بين يدي الرضيع الوضئ. وإذا هي زمزم، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب.

وطيف إبراهيم ﷺ وهو يرى الرؤيا، فلا يتردّد في التضحية بفلذّة كبده، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد: ﴿إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾(٢) فتجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل ﷺ: ﴿قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.(٣)

وإذا رحمة الله تتجلّى في الفداء: ﴿وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾.(٤)

وطيف إبراهيم وإسماعيل ﷺ يرفعان القواعد من البيت في إنابة

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٢) الصافات: ١٠٢.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الصافات: ١٠٤ – ١٠٧.

وخشوع: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وتظلّ هذه الأطياف وتلك الذكريات ترفّ وتتابع، حتّى يلوح طيف عبد المطّلب، وهو ينذر دم إبنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء، وإذا هو عبد الله، وإذا عبد المطّلب حريصاً على الوفاء بالنذر، وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء، والقدح يخرج في كلّ مرّة على عبد الله، حتّى يبلغ الفداء مئة ناقة بعد عشر هي الديّة المعروفة، فيُقبل منه الفداء فينحر المئة وينجو عبد الله، ينجو ليودع آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله ـ محمّد رسول الله ـ ثمّ يموت! فكأنّما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير!

ثمّ تتواكب الأطياف والذكريات، من محمّد رسول الله ﷺ وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى، حول هذا البيت.. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه، ليطفئ الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل.. وهو يصلّي.. ويطوف.. وهو يخطب.. وهو يعتكف.. وإنّ خطواته عليه السلام لتنبض حيّة في الخاطر، وتتمثّل شاخصة في الضمير، يكاد الحاجّ هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات.. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترفّ وتدفّ فوق هذا الثرى، حول ذلك البيت، تكاد تسمعها الأذن، وتكاد تراها الأبصار!

[الحج مؤتمر عالمي للمسلمين]:

والحجّ بعد ذلك كلّه مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل

---

(١) البقرة: ١٢٧ و١٢٨.

عليه السلام: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾..[١] ويجدون محورهم الذي يشدّهم جميعاً إليه: هذه القبلة التي يتوجّهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً.. ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها. راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلّها فوارق الأجناس والألوان والأوطان.. ويجدون قوّتهم التي قد ينسونها حيناً. قوّة التجمّع والتوحّد والترابط الذي يضمّ الملايين. الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدّد، راية العقيدة والتوحيد.

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب، وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرّة في كلّ عام، في ظلّ الله، بالقرب من بيت الله، وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة، والذكريات الغائبة والحاضرة، في أنسب مكان، وأنسب جوّ، وأنسب زمان.

فذلك إذ يقول الله سبحانه: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾..[٢] كلّ جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته، وذلك بعض ما أراده الله بالحجّ يوم أن فرضه على المسلمين، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن به في الناس.

* * *

وفي كتاب (روح الدين الإسلامي) لمؤلّفه عفيف عبد الفتّاح طبّارة:

(الحجّ) لغة: القصد إلى معظّم، وفي الشرع الإسلامي قصد البيت الحرام بمكّة للعبادة.

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) الحج: ٢٨.

والحجّ من الشؤون الدينية التي كانت تعرف من لدن أقدم العصور عند جميع الأمم.

وكان العرب قبل الإسلام كسائر الأمم يحجّون إلى البيت الحرام الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في مكّة.

فلمّا جاء الإسلام أقرّ الحجّ ولكنّه لم يدعه على ما كان عليه في عهد الجاهلية، فإنّ العرب كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة الأجساد مشبكين بين أصابعهم يصفّرون ويصفّقون، وقد سجل الله عليهم هذه الحالة، فقال مستهزءاً بهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.[1]

كما أنّه لمّا قوي الإسلام، أمر الرسول ﷺ أن لا يدخل البيت الحرام عريان.

قصّة بناء الكعبة:

الكعبة هي الموطن الأساسي لأداء فريضة الحجّ، لذا يجدر بنا أن نلمّ بقصّة بنائها:

إنّ بناء الكعبة يرجع إلى عصر إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد فشت عبادة الأصنام في ذلك الزمن، وهجر الناس عبادة الله، فهاجر إبراهيم من بلاد الشام موطن آبائه وأجداده، ومعه زوجه هاجر وولدهما إسماعيل، واتّجه جنوباً حتّى حطّ رحله في بادية الحجاز بعيداً عن الناس ليكوّن أُسرة تعبد الله وحده.

وعندما شبّ إسماعيل وبلغ أشدّه، أمر الله تعالى إبراهيم أن يقيم مصلّى لتجتمع حوله الناس لعبادة الله، ولذكره وشكره على ما أنعم

---

(١) الأنفال: ٣٥.

عليهم، وقد ذكر الله ذلك الحادث بقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.(١)

فلمّا أتمّ إبراهيم البناء مع إبنه إسماعيل، أمرهما الله أن يحافظا عليه، ويبعّدا عنه كلّ رجس سواء أمادياً كالأقذار، أم معنوياً كالإشراك بالله.

قال الله تعالى: ﴿... وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.(٢) فالكعبة هي أوّل بيت وضع للناس لعبادة الله وحده كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.(٣)

مات إبراهيم وتبعه إسماعيل عليهما السلام، وطال الزمن فأدخل الناس في أمور الحجّ أشياء منكرة من الشرك وعبادة الأصنام، لهذا بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله للقضاء على الشرك وللرجوع إلى توحيد الله، كما دعا إليه إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى مخاطباً أمّة محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿... هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ...﴾.(٤)

روح الحجّ في الإسلام:

الإسلام يعتبر الحجّ وسيلة لا غاية لتحقيق الفوائد الروحية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية، وتنطق بذلك هذه الآية: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ

(١) البقرة: ١٢٧.

(٢) البقرة: ١٢٥.

(٣) آل عمران: ٩٦ و٩٧.

(٤) الحج: ٧٨.

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.(١)

تأمّل قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وقد فسّر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معاً، والدين والدنيا في نظر القرآن مترابطان ترابط الروح بالجسد، فإذا كان الدين يمدّ الروح بالإيمان الصحيح والآداب، فإنّ أمور الدنيا تمدّه بأسباب البقاء ودواعي الإرتقاء.

فلو أردنا أن نستقصي ما يمكن أن يثمره الحجّ للمسلمين كافّة من وجوه المنافع الأدبية والمادية لضاق بنا المجال، فإن لم يكن فيه إلاّ تعارف الشعوب الإسلاميّة، وإلمام بعضها بحاجات بعض لكفاها ذلك للوصول إلى مستوى رفيع بين شعوب العالم، ولكن يا للأسف لا تزال الأمم الإسلاميّة تجهل أو تهمل هذه النواحي العظيمة الجديرة بالإلتفات والإهتمام.

فالحجّ مؤتمر عامّ لتوحيد غايات المسلمين، وتوجيههم إلى مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعض شعوبهم، من ثقافات البعض الآخر ممّا يكونون قد هُدوا إليه دون غيرهم، سواء أكان ذلك في عالم العلم أو العمل.

ويتبع هذا أيضاً ناحية لا تقلّ أهمية عن الأولى، إن لم تكن تفوقها قوّةً، تلك هي الناحية الاقتصادية، فإنّ لكلّ شعب من الشعوب الإسلاميّة صناعات، ونبوغاً في بعض ضروب المحاولات، ولبلادهم منتوجات لا توجد في غيرها، وبواسطة هذا المؤتمر العام يمكن إبرام إتّفاقات على

---

(١) الحج: ٢٧ و٢٨.

تبادلها فيما بينهم، وإنْ مثول أصحابها في مجتمع عام يسهل عليهم تدارس الوسائل المختلفة لتسهيل أمر ذلك التبادل وجعله أمراً واقعياً بتذليل ما عسى أن يقوم أمامه من العقبات.

من يجب عليه الحجّ؟

والحجّ يجب على المسلم العاقل البالغ الصحيح البدن، والذي يستطيع الإنفاق على نفسه، أي أنّه يملك زاد السفر، وأُجرة الإنفاق، وأُجرة الإنتقال، كما أنّه يملك من المال ما يمكّن عياله من النفقة على أنفسهم في بحبوحة حال سفره، على أن يكون هٰذا المال الذي يملكه خالصاً من الدين والحقوق، خالياً من الربا والمحظورات، مدفوعاً عنه فريضة الخمس والزكاة، وأن يكون فوق ذلك كلّه الطريق إلى مكّة مأموناً.

أركان الحج:

وأركان الحجّ هي: ١ـ الإحرام، ٢ـ الطواف، ٣ـ السعي بين الصفا والمروة، ٤ـ الوقوف بعرفة، ٥ـ حلق شعر الرأس أو تقصيره، ٦ـ ترتيب هذه الأفعال. وإليك حكم كلّ ركن من هذه الأركان.

حكمة الإحرام:

كانت العرب تضرب الحمى لمراعيها، وتجعل له حدوداً لا تتعدّاها القبائل الأخرى، وكان العزيز منهم من يتّخذ له متّسعاً من الأرض يجعله حمى له، إلى أن جاء الإسلام فأبطل كلّ حمى إلاّ حمى الله، وجعل لبيته (أي الكعبة) حرماً ومواقيت لا يتعدّاها من يريد الدخول إلى الحرم إلاّ إذا كان على وصف معيّن.

فإذا دخل المسلم في الإحرام حرّم عليه الإسلام أن يتّخذ أي وسيلة من وسائل الرفاهية والزينة، فلا يتطيّب بأي طيب، وكما منع من مسّ الطيب منع من شمّه إذا قصد الرفاه واللذّة، وكذلك حرّم عليه الإسلام أن يلبس من الثياب ما فُصّل على الجسم وخيط من حلّة وقميص، ولا يتنعّل حذاءاً إلاّ نعلاً ساذجة وما أشبه ذلك.

وحكمة الإمتناع عن هذا كلّه، أنّ الحجّ عبادة، الغرض منها التقرّب إلى الله والوصول إلى ما أعدّه سبحانه للنفس المحسنة من حسن الجزاء، ولا يكون ذلك عادةً إلاّ بإبعاد النفس عن شهواتها وخروجها عن مألوفاتها، وكفّها عن لذائذها، ومظهر هذا الإقتصار عن الضروريات من الحياة والتجرّد لله في جميع الحركات والسكنات.

ومن حكمه أيضاً أنّه يوحي بالتقشّف والزهد في مُتع الحياة، والسموّ والإرتفاع فوق المادّة، وفوق ما اعتدنا أن نخضع له من شهوات وضيعة.

إنّها لرياضة تُرجع النفس إلى طبيعتها الأولى، ونحن في الفترات القليلة التي نعود فيها إلى طبيعتنا نشعر أنّنا أزكى أرواحاً وأطهر قلوباً.

كما أنّ الحكمة من ذلك رياضة النفس على المشقّة وإحتمال المكروه.

لقد كان لنظام الكشّافة الذي إبتدعه (بادن بول) نتائج حميدة في تربية نفوس النشئ على قوّة الإحتمال، ممّا جعل كثيراً من الأُمم توليه عنايتها، وإنّه ليسوغ لنا القول أنّ رياضة الإحرام أعظم أثراً في النفس من رياضة (الكشفية) فإنّ الإحرام أثقل حملاً وأطول مدّة، وهي في جوّ ديني يجعل تأثيرها على النفس أعظم، وفائدتها أكثر.

الإحرام والسلام:

يقول المحرم عندما يرى البيت الحرام: «اللهمّ أنت السلام ومنك السلام حيّنا ربّنا بالسلام، اللهمّ زد هذا البيت تشريفاً وتكريماً ومهابة، وزد من حجّه، أو اعتمره تكريماً وتشريفاً».

هذا الدعاء يدلّ على أنّ من أهداف الإسلام في الحجّ غرس حبّ السلام في النفوس، وإستئصال روح الكراهية والبغض منها، وتوجيه الناس إلى أن يعيشوا إخوة متحابّين، ويؤيّد هذا المعنى ما جاء في القرآن ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[1].

بهذه الآية فرض الله على المحرم أن يكون وديعاً مسالماً لا يخاصم أحداً، فهي تأمره بأن يجتنب فيه الرفث فلا يقول فيه الخنا، ولا يفحش في المنطق، ولا يلغو في الكلام، وأن يترك الفسوق فلا يخرج عن طاعة الله ولا يرتكب شيئاً من المحظورات، وأن يدع الجدال فيه أيضاً خشية التدرّج إلى السباب والتكذيب، وإذا كان مجرّد الجدال إثماً فلا شكّ أنّ ما فوقه أشدّ وأعظم نكراً.

ولغرس حبّ السلام في الأنفس حرّم الإسلام على المحرم أن يقتل الحيوان البريء سواء أكان أكله مباحاً أم غير مباح.

قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

إنّ الدعوة إلى السلم في الحجّ في أشمل معانيه، يريد أن يغرسها الإسلام في متّبعيه بالمرانة والتدريب، أي بالإعتماد على قانون العادة.

---

(١) البقرة: ١٩٧.

(٢) المائدة: ٩٦.

[حكمة المناسك] :

الخضوع والانقياد لله:

يردّد المحرم بصوت مرتفع هذه التلبية في كلّ فرصة وعند كلّ مشهد: «لبّيك اللهم لبّيك، لا شريك لك لبّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» إنّ هذه الكلمات بمنزلة النشيد الذي ينشده الجند في ساحة الحرب، فتشعّ فيهم روح الحماسة والإقدام، والغاية من ترديد هذه التلبية أن يلقي الإنسان مقادته لله وأن تتحطّم كبرياؤه، لكي يعيش كما أمره الله أن يعيش مخلوقاً وديعاً واقفاً عند الحدود التي شرّعها له.

حكمة الطواف حول الكعبة:

يطوف الحاج سبعة أشواط حول الكعبة، جاعلاً الحجر الأسود نقطة الإبتداء لتلك الأشواط، والطواف حول الكعبة هو بمثابة تحيّة للكعبة التي هي أوّل بيت وضع لعبادة الله وحده.

والحجر الأسود هو حجر الزاوية للكعبة، وهو قد وضع هناك كشعار أو رمز إلى أنّ هذا الذي خلّفه إبراهيم عليه السلام، وقد كان العرب يحتفظون به كلّما تغيّر البناء...

ثمّ إنّ الطواف حول الكعبة تشبّه بالملائكة الحافّين بعرش الله الطائفين به المسبّحين له لا يفترّون، وفي هذا من سموّ للروح ما فيه، هذا والمسلمون في صلاتهم يتوجّهون شطر الكعبة خمس مرّات في اليوم، فيجب عليهم إذا ذهبوا لأداء فريضة الحجّ أن يطوفوا محيّين هذا المكان الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده.

حكمة السعي بين الصفا والمروة:

السعي هو السير بسرعة تزيد على المشي وتقلّ عن الركض، وقد

كان السعي بين الصفا والمروة من أركان الحجّ في الجاهلية فأبقاه الإسلام كذكرى لحادثة تاريخية، فإنّ أوّل من سعى بين الرابيتين هي أمّ إسماعيل زوجة إبراهيم عليه السلام وقد احتفظ الجاهليون بهذه العبادة، إلاّ أنّهم وضعوا على كلّ من الرابيتين صنماً يقال لأحدهما أساف، وللآخر نائلة، فلمّا جاء الإسلام كسّر جميع الأصنام وأبقى السعي بين الصفا والمروة نقيّاً من شوائب الشرك والأوثان، وقد احتفظ الإسلام بالسعي بين الصفا والمروة أيضاً، لأنّه يوافق مبادئ الإسلام من حيث بثّ النشاط في جسم الحاجّ، وهو أشبه بالتمارين العسكرية الرياضية.

حكمة الوقوف بعرفة:

فرض الإسلام الوقوف بعرفة في التاسع من ذي الحجّة، ومزايا هذا الوقوف لا تُعدّ، فهو المؤتمر العامّ لجميع المسلمين من أي مكان، يجتمع فيه الهندي والمصري والعراقي والجاوي والتركي والسوري واللبناني، وسائر وفود الأقطار الإسلامية، يقفون في صعيد واحد يدعون الله ويسألونه الرحمة وغفران الذنوب، هذا الموقف الذي تظهر فيه المساواة بين الناس أعظم مظهر يمثّل الإشتراكية الحقّة بكلّ معانيها.

حكمة الحلق والتقصير:

إنّ الإمتناع عن الزينة ضرورة قضت بها أعمال الحجّ للحِكَم التي ذكرناها فيما سبق، فإذا ما انتهى الحاجّ من أعمال الحجّ وجب عليه أن ينظّف ويحلق، وبهذا تنتهي أهمّ أعمال الحجّ، وإذا لاحظنا أنّ بداءة أعمال الحجّ كانت بأعمال النظافة (الإحرام) وأنّ نهايته كانت بالنظافة (الحلق والتقصير) أدركنا حرص الإسلام على النظافة في سائر عباداته التي تتخلّل حياة المسلم من مهده إلى لحده.

تجديد الشخصية:

ومن حِكَم الحجّ تجديد الشخصية: فمن أغراض الحجّ أيضاً الإنخلاع من الماضي المشوب بالإثم والباطل والشرّ، وتجديد العهد مع الله على استئناف حياة نظيفة مستقيمة، فنقاطع الشيطان في كلّ ما نحاوله من الإتّصال بتفكيرنا والإيحاء إلينا بما يوقظ أنانيتنا ومطامعنا وشهواتنا. قال ﷺ: «من حجّ ولم يفسق خرج كيوم ولدته أمّه».[1]

شهادة الدكتور حتّي في الحجّ:

نختم هذا الموضوع بما قاله الدكتور (فيليب حتّي) في كتابه (تاريخ العرب) عند كلامه عن الحجّ عند المسلمين:

ولا يزال الحجّ على كرّ العصور نظاماً لا يبارى في تشديد عرى التفاهم في الإسلام والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين، وبفضله يتسنّى لكلّ مسلم أن يكون رحّالة مرّة في حياته على الأقل، وأن يجتمع مع غيره من المؤمنين إجتماعياً أخويّاً، ويوحّد شعوره مع شعور سواه من القادمين من أطراف الأرض، وبفضل هذا النظام يتيسّر للزنوج والبربر والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم، أغنياء كانوا أو فقراء، عظماء أو صعاليك، أن يتآلفوا لغةً وإيماناً وعقيدة، وقد أدرك الإسلام نجاحاً لم يتّفق لدين آخر من أديان العالم في القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية خاصّة بين أبنائه، فهو لا يعترف بفاصل بين أفراد البشر

---

(١) أنظر: عوالي اللئالي ١: ٤٢٦/ ح ١١٣، وفيه: «من حج ولم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه».

إلاّ الذي يقوم بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، ولا شكّ أنّ الإجتماع في مواسم الحجّ أدّى خدمة كبرى في هذا السبيل.

* * *

قال الفيض الكاشاني في (المحجّة البيضاء):[1]

الباب الثاني: في ترتيب الأعمال الظاهرة من أوّل السفر إلى الرجوع، وهي عشر جمل:

[في السنن من أوّل الخروج إلى الاحرام]:

الجملة الأولى: في السنن من أوّل الخروج إلى الإحرام، وهي ثمانية:

الأولى: في المال، فينبغي أن يبدأ بالتوبة، وردّ المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكلّ من يلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويردّ ما عنده من الودائع، ويستصحب المال الطيّب الحلال ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تقتير، بل على وجه يمكنه معه التوسيع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء، ويتصدّق بشيء قبل خروجه، ويشتري لنفسه دابة قويّة على الحمل لا تضعف، أو يكتريها، فإن اكترى فليظهر للمكاري كلّ ما يريد أن يحمله من قليل وكثير، ويحصّل رضاه فيه.

الثانية: في الرفق، ينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محبّاً للخير معيناً عليه، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن جبن شجّعه، وإن عجز قوّاه، وإن ضاق صدره صبّره، وأمّا رفقاؤه المقيمون وإخوانه فيودّعهم ويلتمس أدعيتهم، فإنّ الله تعالى

---

(١) ج ٢: ١٦٢ - ١٨٤.

جاعل في دعائهم خيراً، والسُنّة في الوداع أن يقول: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك».[1]

وكان رسول الله ﷺ يقول لمن أراد السفر: «في حفظ الله وكنفه، زوّدك الله التقوى وغفر ذنبك، ووجّهك للخير أينما توجّهت».[2]

الثالثة: في الخروج من الدار، ينبغي إذا همّ بالخروج أن يصلّي أوّلاً ركعتين يقرأ في الأُولى بعد الفاتحة قل يا أيّها الكافرون، وفي الثانية الإخلاص، فإذا فرغ يرفع يديه ودعا الله عن إخلاص صاف ونيّة صادقة، وقال: «اللهمّ أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في المال والأهل والولد والأصحاب، إحفظنا وإيّاهم من كلّ آفة وعاهة، اللهمّ إنّا نسألك في مسيرنا هذا البرّ والتوفيق والتقوى ومن العمل ما ترضاه، اللهمّ إنّا نسألك أن تطوي لنا الأرض، وتهوّن علينا السفر، وأن ترزقنا في سفرنا سلامة البدن والدين والمال، وتبلّغنا حجّ بيتك الحرام وزيارة قبر نبيّك ﷺ، اللهمّ إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب، اللهمّ اجعلنا وإيّاهم في جوارك، ولا تسلبنا وإيّاهم نعمتك، ولا تغيّر ما بنا وبهم من عافيتك».

الرابعة: إذا حصل على باب الدار قال: «بسم الله، توكّلت على الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ربّ أعوذ بك أن أضلّ أو أُضلّ، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يجهل عليّ، اللهمّ إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة؛ بل خرجت إتّقاء سخطك وإبتغاء مرضاتك وقضاءاً لفرضك واتّباع سنّة نبيّك ﷺ وشوقاً إلى لقائك»، فإذا مشى قال: «اللهمّ

---

(١) الوسائل ١١: ٤٠٧/ ح ١٥١١٩.

(٢) كنز العمال ٦: ٧٧٦/ ح ١٧٥٩٥.

بك انتشرت، وعليك توكّلت، وبك اعتصمت، وإليك توجّهت، اللهمّ أنت ثقتي وأنت رجائي فاكفني ما أهمّني وما لم أهتمّ به، وما أنت أعلم به منّي، عزّ جارك وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، اللهم زوّدني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجّهني للخير أينما توجّهت» ويدعو بهذا الدعاء في كلّ منزل يرحل عنه.

الخامسة: في الركوب، فإذا ركب الراحلة يقول: «بسم الله وبالله والله أكبر، توكّلت على الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا مقرنين، وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون، اللهم إنّي وجّهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وتوكّلت في جميع أُموري عليك، أنت حسبي ونعم الوكيل» فإذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر» سبع مرّات، وقال: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، اللهمّ أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور».

السادسة: في النزول، والسُنّة أن لا ينزل حتّى يحمي النهار، ويكون أكثر سيره في الليل، قال ﷺ: «عليكم بالدلجة، فإنّ الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار».[1] وليقلّل نومه بالليل حتّى يكون عوناً على السير، ومهما أشرف على المنزل فليقل: «اللهمّ ربّ السماوات السبع وما أظللن، وربّ الأرضين السبع وما أقللن، وربّ الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما ذرين، وربّ البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل

---

(١) الوسائل ١١: ٣٦٦/ح ١٥٠٣٢.

وخير أهله، وأعوذ بك من شرّ هذا المنزل وشرّ ما فيه، أصرف عنّي شرّ شرارهم»، فإذا نزل المنزل صلّى فيه ركعتين، ثمّ قال: «اللهم إنّي أعوذ بكلماتك التامّات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر، من شرّ ما خلقت» فإذا جنّ عليه الليل يقول: «يا أرض ربّي وربّك الله، أعوذ بالله من شرّك وشرّ ما فيك وشرّ ما دبّ عليك، أعوذ بالله من شرّ كلّ أسد وأُسود وحيّة وعقرب، ومن شرّ ساكن البلد ووالد وما ولد، وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم».

السابعة: الحراسة، ينبغي أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفرداً خارج القافلة؛ لأنّه ربّما يُغتال أو ينقطع، ويكون بالليل متحفّظاً عند النوم، وإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل رأسه في كفّه، هكذا كان ينام رسول الله ﷺ في أسفاره، والأحبّ بالليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة، فإذا نام أحدهما حرس الآخر، فهو السُنّة، وإن قصده عدوّ أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي، وشهد الله، والإخلاص، والمعوّذتين، وليقل: «بسم الله ما شاء الله، لا قوّة إلاّ بالله، حسبي الله، توكّلت على الله، ما شاء الله، لا يأتي بالخيرات إلاّ الله، لا يصرف السوء إلاّ الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعاه، ليس وراء الله منتهى، ولا دون الله ملجأ، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾،[1] تحصّنت بالله العظيم، واستعنت بالحي الذي لا يموت، اللهمّ احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك، وأنت ثقتنا ورجاؤنا، اللهمّ اعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنّك أنت أرحم الراحمين».

---

(١) المجادلة: ٢١.

الثامنة: مهما علا نشراً من الأرض في الطريق فيستحبّ أن يكبّر ثلاثاً ثمّ يقول: «اللهمّ لك الشرف على كلّ الشرف، ولك الحمد على كل حال» ومهما هبط سبّح، ومهما خاف الوحشة في سفره قال: «سبحان الله الملك القدّوس ربّ الملائكة والروح، جلّلت السماوات والأرض بالعزّة والجبروت».

[**في آداب الاحرام من الميقات**] :

الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات، وهي ستّة:

الأوّل: أن يغتسل وينوي به غسل الإحرام، أعني إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه ــ وإن كان لحجّ التمتّع فيحرم من مكّة ولا يجزئ من غير ذلك إلاّ مع الجهل أو النسيان ــ ويتمّم غسله بالتنظيف أوّلاً والإطلاء سيّما للعانة والإبطين، وتقليم الأظفار وقصّ الشارب والسواك، وينبغي أن يوفّر شعر رأسه من أوّل ذي القعدة، وهو من السنن الوكيدة.

الثاني: أن يفارق الثياب المخيّطة ويلبس ثوب الإحرام فيتّزر ويرتدي بثوبين طاهرين نظيفين أبيضين ممّا يجوز فيه الصلاة.

الثالث: أن يحرم عقيب فريضة، فإن لم يتّفق صلّى ركعتين، وفي بعض الأخبار ستّ ركعات، وأفضل الساعات للإحرام عند زوال الشمس.

الرابع: أن يدعو عقيب الصلاة ويتلفّظ بما يعزم عليه، ويشترط أن يحلّه الله حيث حبسه، وإن لم تكن حجّة فعمرة، وفي صحيحة معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا انفتلت من الصلاة فاحمد الله عزّ وجلّ وأثن

عليه وصلّ على النبي ﷺ وتقول: اللهم إنّي أسألك أن تجعلني ممّن استجاب لك وآمن بوعدك واتّبع أمرك، فإنّي عبدك وفي قبضتك، لا أوقى إلاّ ما وقيت، ولا آخذ إلاّ ما أعطيت، وقد ذكرت بالحجّ[١] فأسألك أن تعزم لي عليه على كتابك وسنّة نبيّك وتقويني على ما ضعفت عنه وتتسلّم منّي مناسكي في يسر منك وعافية، واجعلني من وفدك الذي رضيت وارتضيت وسمّيت وكتبت، اللهم إنّي خرجت من شقّة بعيدة وأنفقت مالي ابتغاء مرضاتك، اللهم فتمّم لي حجّي، اللهم إني أُريد التمتع بالعمرة إلى الحج على كتابك وسنّة نبيّك صلواتك عليه وآله، فإن عرض لي عارض يحبسني فحلّني حيث حبسني لقدرك الذي قدرت عليّ، اللهم إن لم تكن حجّة فعمرة، أحرم لك شعري وبشري ولحمي ودمي وعظامي ومخّي وعصبي، من النساء والثياب والطيب، أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة» يجزئك أن تقول هذا مرّة واحدة حين تحرم، ثمّ قمّ فامش هنيهة فإذا استوت بك الأرض ماشياً كنت أو راكباً فلبّ.[٢]

وفي (صحيحة) حمّاد بن عثمان عنه عليه السلام قال: قلت: إنّي أُريد أن أتمتع بالعمرة إلى الحجّ فكيف أقول؟ قال: «تقول: اللهم إنّي أُريد أن أتمتع بالعمرة إلى الحج على كتابك وسُنّة نبيّك، وإن شئت أضمرت الذي تريد.[٣]

الخامس: أن يصبر بعد التهيّؤ والعزم حتّى تنبعث به راحلته إن كان راكباً، أو يبتدئ السير إن كان راجلا، ثمّ يأتي بالتلبية كما مرّ في الرواية المتقدّمة.

---

(١) كذا، وفي المصدر: الحج.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣١٨/ ح ٢٥٥٨.

(٣) الكافي ٤: ٣٣٢/ ح ٣.

وفي (صحيح) آخر: «والأفضل أن تمضي قليلاً ثمّ تلبّي».[١]

وصورة التلبية: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك» وإن زاد قال: «لبّيك ذا المعارج لبّيك» وإن شاء زاد عليه بما ورد في الأخبار من التلبيات، وينبغي أن يذكر في تلبية عمرة التمتّع الحج والعمرة معاً، فينوي فعل العمرة أوّلاً ثمّ الحج بعدها باعتبار دخولها في حجّ التمتع.

وفي الصحيح: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «لبّيك بحجّة وعمرة معاً لبّيك»[٢] ولو أهلّ المتمتع بالحجّ جاز لدخول عمرة التمتع فيه.

ومن وقت الإحرام حرّم عليه المحظورات التي ذكرناها من قبل.

والقارن بالخيار بين أن يعقد إحرامه بالتلبية أو الإشعار أو التقليد، وبأيّها بدأ كان الآخر مستحبّاً، ولا يلزم الإحرام إلاّ بأحدها.

والإشعار أن يطعن في سنامها من الجانب الأيمن، قيل: ويلطخ صفحته بدمه، والتقليد أن يقلّد في رقبته نعلا خلقاً، ويختصّ به البقر والغنم لضعفهما.

السادس: أن يكثر من التلبية ويكرّرها في دوام الإحرام، وخصوصاً قوله: «لبّيك ذا المعارج لبّيك» ويجدّدها كلّما لقي راكباً أو علا أكمة، أو هبط وادياً، ومن آخر الليل، وعند الإستيقاظ، وفي أدبار الصلوات، وعند كلّ ركوب ونزول رافعاً بها صوته وفي رواية حريز: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أحرم أتاه

---

(١) الوسائل ١٢: ٣٧٢/ ح ١٦٥٤٦، وفيه: والفضل أن تمضي...

(٢) الإستبصار ٢: ١٧١/ ح ٥٦٤.

جبرئيل عليه السلام فقال: مر أصحابك بالعجّ والثجّ، فالعجّ رفع الصوت بالتلبية، والثجّ نحر البدن.(١)

ومن أحرم من مسجد الشجرة وكان راكباً فالأفضل أن لا يجهر بالتلبية حتّى علت راحلته البيداء، ومن أحرم من مكّة فلا يلبّي حتّى ينتهي إلى الرقطاء، ولا يجهر بها حتّى يشرف على الأبطح، ويجب قطعها عند زوال الشمس من يوم عرفة إن كان حاجّاً، وإذا شاهد بيوت مكّة إن كان معتمراً بمتعة، وعند مشاهدة الكعبة إن كان معتمراً بمفردة وقد خرج من مكّة للإحرام، وإن أحرم من خارج فعند دخول الحرم.

[**آداب دخول الحرم إلى الطواف**] :

الجملة الثالثة: في آداب دخول الحرم إلى الطواف وهي ستّة:

الأوّل: أن يغتسل لدخول الحرم من بئر ميمون أو من فخّ، ويقول عند الدخول: «اللهم إنّك قلت في كتابك المنزل ـ وقولك الحقّ ـ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(٢) اللهم وإنّي أرجو أن أكون ممّن أجاب دعوتك، وقد جئت من شقّة بعيدة ومن فجّ عميق، سامعاً لندائك ومستجيباً لك، مطيعاً لأمرك، وكلّ ذلك بفضلك عليّ وإحسانك إليّ، فلك الحمد على ما وفّقتني له، أبتغي بذلك الزلفة عندك والقربة إليك، والمنزلة لديك والمغفرة لذنوبي، والتوبة عليّ منها بمنّك، اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد، وحرّم بدني على النار، وآمنّي من عذابك وعقابك برحمتك يا كريم».

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٢٥/ ح ٢٥٧٩.

(٢) الحج: ٢٧.

الثاني: أن يدخل مكّة على غسل بسكينة ووقار من جانب الأبطح من ثنيّة كدا ـ بفتح الكاف ـ قيل: عدل رسول الله صلى الله عليه وآله من جادّة الطريق إليها، وإذا خرج من ثنية كُدا ـ بضمّ الكاف ـ وهي الثنيّة السفلى، والأولى هي العليا.

الثالث: أن يدخل المسجد الحرام على غسل بسكينة ووقار من باب بني شيبة حافياً مقدّماً للرجل اليمنى بخشوع، فإنّه من دخله بخشوع غفر له، ويقول وهو على باب المسجد: «السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته، بسم الله وبالله ومن الله وما شاء الله، والسلام على رسول الله وآله، والسلام على إبراهيم وآله، والسلام على أنبياء الله ورسله، والحمد لله ربّ العالمين».

الرابع: أن يقول عند النظر إلى الكعبة: «الحمد لله الذي عظّمك وشرّفك وكرّمك، وجعلك مثابة للناس وأمناً، مباركاً وهدىً للعالمين».

الخامس: أن يقول عند النظر إلى الحجر الأسود وهو مستقبل إليه: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير، اللهم صل على محمّد وآل محمّد كأفضل ما صلّيت وباركت وترحّمت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد، وسلام على جميع النبيين والمرسلين، والحمد لله ربّ العالمين، اللهم إنّي أؤمن بوعدك وأُصدّق رسلك وأتّبع كتابك».

السادس: أن يستلم الحجر ويقبّله، فإن لم يقدر فيمسّه بيده ويقبّلها، فإن لم يقدر فيشير إليه بيده ويقبّلها ويقول: «أمانتي أدّيتها

وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة، آمنت بالله وكفرت بالجبت والطاغوت واللات والعزّى وعبادة الشيطان وعبادة الأوثان وعبادة كلّ ندّ يُدعى من دون الله».

[في الطواف]:

الجملة الرابعة: في الطواف، ويجب أن يراعي فيه شروط الصلاة، من طهارة الحدث والخبث في الثوب والبدن والمطاف وستر العورة، وأن يكون مختوناً، والطهارة إنّما يشترط في الطواف الواجب دون المندوب، ويجب فيه النيّة والبداءة بالحجر والختم به، وتكفي البداءة العرفية، والمتأخّرون أوجبوا جعل أوّل جزء من الحجر محاذياً لأوّل جزء من مقاديم بدنه، بحيث يمرّ عليه بعد النيّة بجميع بدنه علماً أو ظنّاً، ويجب جعل البيت على يساره، وأن يُدخل الحجر في الطواف، وأن يطوف بين البيت والمقام مراعياً قدر ما بينهما من جميع الجهات إلاّ مع الضرورة وأن يكمله سبعاً.

ويستحبّ أن يكون على سكينة ووقار، وأن يقارب بين خطاه، وأن يدنو من البيت ولكن لا يطوف على الشادروان فإنّه من البيت، وأن يقبّل الحجر في كلّ شوط كما وصفناه، ويلتزم الأركان كلّها سيّما اليماني، فإذا بلغ باب البيت قال: «سائلك فقيرك مسكينك ببابك فتصدّق عليه بالجنّة، اللهم البيت بيتك، والحرم حرمك، والعبد عبدك، وهذا مقام العائذ المستجير بك من النار، فأعتقني ووالديّ وأهلي وولدي وأُخواني المؤمنين من النار يا جواد يا كريم».

فإذا بلغ مقابل الميزاب قال: «اللهم اعتق رقبتي من النار، ووسّع

عليَّ من الرزق الحلال، وأدرأ عنّي شرّ فسقة العرب والعجم، وشرّ فسقة الجنّ والإنس، ويقول وهو جائز: «اللهم إنّي إليك فقير، وإنّي منك خائف مستجير، فلا تبدّل إسمي ولا تغيّر جسمي».

ويقول في الطواف: «اللهم إنّي أسألك باسمك الذي يمشى به على طلل الماء، كما يمشى به على جدد الأرض، وأسألك باسمك المخزون المكنون عندك، وأسألك باسمك الأعظم الأعظم الأعظم الذي إذا دُعيت به أجبت، وإذا سُئلت به أعطيت أن تصلّي على محمّد وآل محمّد، وأن تفعل بي كذا وكذا».

فإذا بلغ الركن اليماني التزمه وقبّله وصلّى على النبي وآله في كلّ شوط، ويقول بين هذا الركن والركن الذي فيه الحجر: ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾،[1] فإذا كان في الشوط السابع وقف بالمستجار وهو مؤخّر الكعبة ممّا يلي الركن اليماني بحذاء باب الكعبة، فبسط يديه على البيت وألزق خدّه وبطنه بالبيت ويقول: «اللهم البيت بيتك، والعبد عبدك، وهذا مقام العائذ بك من النار، اللهم إنّي حللت بفنائك فاجعل قِراي مغفرتك، وهب لي ما بيني وبينك، واستوهبني من خلقك» ويدعو بما شاء، ثمّ يقرّ لربّه بذنوبه ويقول: «اللهم من قِبَلك الروح والراحة والفرج والعافية، اللهم إنّ عملي ضعيف فضاعفه لي، واغفر لي ما أطّلعت عليه منّي وخفي على خلقك، أستجير بالله من النار» ويكثر لنفسه من الدعاء، ثمّ يستلم الركن اليماني والذي فيه الحجر الأسود ويقبّله ويختم به ويقول: «اللهم قنّعني بما رزقتني وبارك لي فيما آتيتني».

فإذا فرغ من الطواف أتى مقام إبراهيم ويصلّي ركعتين، ويجعل

---

(١) البقرة: ٢٠١.

المقام أمامه ويقرأ في الأُولى بعد الحمد التوحيد، وفي الثانية الجحد، ثمّ يتشهد ويسلّم ويحمد الله ويثني عليه، ويصلّي على النبي وآله، ويسأل الله أن يتقبّله منه وأن لا يجعله آخر العهد منه، فيقول: «الحمد لله بمحامده كلّها على نعمائه كلّها حتّى ينتهي الحمد لما يحبّ ربّي ويرضى، اللهم صل على محمّد وآل محمّد، وتقبّل منّي، وطهّر قلبي، وزكّ عملي» وليجتهد في الدعاء، ثمّ يأتي الحجر الأسود فيستلمه ويقبّله أو يمسحه بيده أو يشير إليه ويقول ما قاله أوّلا فإنّه لابدّ من ذلك، وقد عرفت أنّ الطواف ركن في كلّ من الحج والعمرة، من تركه عامداً بطل حجّه أو عمرته، فلو كان ناسياً قضاه ولو بعد المناسك، ولو شقّ العود إستناب فيه.

[**في السعي**] :

الجملة الخامسة: في السعي، فإذا فرغ من الطواف وتوابعه أتى زمزم، فإن قدر أن يشرب من مائة قبل أن يخرج إلى الصفا فليفعل ويقول حين يشرب: «اللهم اجعله علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً وشفاءاً من كلّ داء وسقم إنّك قادر يا ربّ العالمين».

ثمّ يخرج إلى الصفا من بابه ويقوم عليه حتّى ينظر إلى البيت ويستقبل الركن الذي فيه الحجر ويحمد الله ويثني عليه ويذكر من آلائه وحسن ما صنع إليه ما قدر عليه، ثمّ يقول: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير» ثلاث مرّات، ويقول: «اللهم إنّي أسألك العفو والعافية واليقين في الدنيا والآخرة» ثلاث مرّات، ويقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ثلاث مرّات، ويقول: «الحمد لله» مائة مرّة، و«الله

أكبر» مائة مرّة، و«سبحان الله» مائة مرّة، و«لا إله إلاّ الله» مائة مرّة، و«أستغفر الله وأتوب إليه» مائة مرّة، و«صل على محمّد وآل محمّد» مائة مرة، ويقول: «يا من لا يخيب سائله ولا ينفد نائله، صل على محمّد وآل محمّد، وأعذني من النار برحمتك، ويدعو لنفسه بما أُحبّ»، وليكن وقوفه على الصفا أوّل مرّة أطول من غيرها، ثمّ ينحدر ويقف على المرقاة الرابعة حيال الكعبة ويقول: «اللهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر وفتنته وغربته ووحشته وظلمته وضيقه وضنكه، اللهم أظلّني في ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلاّ ظلّك» ثمّ ينحدر عن المرقاة وهو كاشف عن ظهره ويقول: «يا ربّ العفو، يا من أمر بالعفو، يا من هو أولى بالعفو، يا من يثيب على العفو، العفو العفو العفو يا جواد يا كريم يا قريب يا بعيد اُردد عليّ نعمتك، واستعملني بطاعتك ومرضاتك»، ثمّ يمشي وعليه السكينة والوقار حتّى يصير إلى المنارة وهي طرف المسعى فيسعى ملء فروجه ويقول: «بسم الله والله أكبر، اللهم صل على محمّد وآل محمّد، اللهم اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم إنّك أنت الأعزّ الأكرم، واهدني للتي هي أقوم، اللهم إنّ عملي ضعيف فضاعفه لي وتقبّل منّي، اللهم لك سعيي، وبك حولي وقوّتي، تقبّل عملي، يا من يقبل عمل المتّقين».

فإذا جاز زقاق العطارين يقطع الهرولة ويمشي على سكون ووقار ويقول: «يا ذا المنّ والطَّول والكرم والنعماء والجود، صل على محمّد وآل محمّد واغفر لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت يا كريم» فإذا أتى المروة يصعد عليها ويقوم حتّى يبدو له البيت ويدعو كما دعا على الصفا، ويسأل الله حوائجه ويقول في دعائه: «يا من أمر بالعفو، يا من يجزئ على العفو، يا من دلّ على العفو، يا من زيّن العفو، يا من يثيب

على العفو، يا من يحبّ العفو، يا من يعطي على العفو، يا من يعفو على العفو، يا رب العفو، العفو العفو»، ويتضرّع إلى الله ويبكي فإن لم يقدر على البكاء فيتباكى، ويجهد أن يخرج من عينيه الدموع ولو مثل رأس الذباب، ويجهد في الدعاء، ثمّ ينحدر عن المروة إلى الصفا وهو يمشي فإذا بلغ زقاق العطارين يسعى ملء فروجه إلى المنارة التي تلي الصفا، فإذا بلغها يقطع الهرولة ويمشي حتّى يأتي الصفا ويقوم عليه ويستقبل البيت بوجهه ويقول مثل ما قاله في الدفعة الأولى حتّى يأتي المروة، فيطوف بين الصفا والمروة سبعة أشواط يكون وقوفه على الصفا أربعاً، وعلى المروة أربعاً والسعي بينهما سبعاً يبدأ بالصفا ويختم بالمروة، ومن ترك الهرولة في السعي في بعض المكان لم يحوّل وجهه ورجع القهقرى حتّى يبلغ الموضع الذي ترك فيه الهرولة، ثمّ يهرول منه إلى الموضوع الذي ينبغي له أن يقطعها فيه.

ويستحبّ في السعي الطهارة من الحدث والخبث، وقد عرفت أنّ السعي ركن في الحجّ والعمرة، من تركه عامداً بطل حجّه أو عمرته، فلو كان ناسياً أتى به فإن شقّ عليه إستناب فيه.

فإذا فرغ من السعي نزل من المروة وقصّر من شعر رأسه من جوانبه ومن حاجبه ومن لحيته، ويأخذ شاربه ويقلّم أظفاره، ويكفي مسمّى الأخذ من الشعر أو الظفر، فإذا فعل ذلك فقد أحلّ من كلّ شيء أحرم منه.

[**الوقوف بعرفات**] :

الجملة السادسة: في الوقوف بعرفات وما قبله، الحاج إذا أحرم بالحجّ توجّه إلى منى ملبّياً كما مرّ، وينبغي أن يكون ذلك يوم التروية،

إمّا قبل أن يصلّي الظهرين أو بعد على التخيير إلاّ الإمام فقبل؛ لأنّ عليه أن يوقعهما بمنى مؤكّداً، ويقول وهو متوجّه إلى منى: «اللهم إياك أرجو، وإياك أدعو، فبلّغني أملي، واصلح لي عملي» فإذا أتى منى يقول: «الحمد لله الذي أقدمنيها صالحاً في عافية، وبلّغني هذا المكان، اللهم وهذه منى وهي ممّا مننت به على أوليائك وأهل طاعتك، فإنّما أنا عبدك وفي قبضتك» ثمّ يصلي بها المغرب والعشاء الآخرة والفجر في مسجد الخيف، ولتكن صلاته فيه عند المنارة التي في وسط المسجد وعلى ثلاثين ذراعاً من جميع جوانبها فذاك مسجد النبي ﷺ ومصلّى الأنبياء الذين صلّوا فيه قبله ﷺ، وما كان خارجاً من ثلاثين ذراعاً حولها من كلّ جانب البيت فليس من المسجد، وينبغي أن يبيت بمنى إلى طلوع الفجر من يوم عرفة، لكن لا يجوز وادي محسّر إلاّ بعد طلوع الشمس، ويكره الخروج منها قبل الفجر إلاّ لضرورة، وعلى الإمام أن يقيم بها إلى طلوع الشمس، ثمّ يمضي إلى عرفات ويقول وهو متوجّه إليها: «اللهم إليك صمدت، وإياك اعتمدت، ووجهك أردت، وقولك صدّقت، وأمرك اتّبعت، أسألك أن تبارك لي في أجلي، وأن تقضي لي حاجتي، وأن تجعلني ممّن تباهي به اليوم من هو أفضل منّي».

ثمّ يلبّي وهو مارّ إلى عرفات، فإذا أتى عرفات يضرب خباءه بنمرة قريباً من المسجد، فإنّ ثمّة ضرب رسول الله ﷺ خباءه وقبّته، فإذا زالت الشمس يوم عرفة يقطع التلبية ويغتسل ويصلّي بها الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، وإنّما يتعجّل في الصلاة ويجمع بينهما ليفرغ للدعاء فإنّه يوم الدعاء والمسألة.

ثمّ يأتي الموقف وعليه السكينة والوقار، ويقف بسفح الجبل في

ميسرته ويدعو بدعاء الموقف، ويدعو لأبويه كثيراً ويستوهبهما من ربّه ﷻ، ولا يقف إلاّ وهو على طهر وقد اغتسل، وجمع رحله وتوجّه بقلبه إلى الدعاء، ويجب الوقوف بها إلى الغروب فإن أفاض قبله عامداً جبره ببدنة، ولو كان جاهلاً أو ناسياً فلا شيء عليه.

وروى معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «ألا أُعلّمك دعاء يوم عرفة، وهو دعاء من كان قبلي من؟» فقال عليّ عليه السلام: بلى يا رسول الله، قال: فتقول: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير، اللهم لك الحمد أنت كما تقول وخير ما يقول القائلون، اللهم لك صلاتي وديني ومحياي ومماتي ولك تراثي وبك حولي ومنك قوّتي، اللهم إنّي أعوذ بك من الفقر ومن وسواس الصدر ومن شتات الأمر ومن عذاب القبر، اللهم إنّي أسألك من خير ما تأتي به الرياح، وأعوذ بك من شرّ ما تأتي به الرياح، وأسألك خير الليل والنهار».(١)

وهناك دعاء للحسين بن عليّ عليه السلام يوم عرفة مشهور، وكذا لعليّ بن الحسين عليه السلام في الصحيفة المباركة.

ومسمّى الكون بعرفة ركن من تركه عامداً فلا حجّ له، وإن كان لعذر تداركه ولو قبل الفجر من يوم النحر إن أمكنه، وإلاّ اجتزأ بالوقوف بالمشعر، ولو تردّد في إمكان إدراكه قبل الفجر لم يجب عليه إتيانه ويكتفي بالمشعر وقد تمّ حجّه.

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٥٤٣/ ح ٣١٣٥.

[الإفاضة إلى المزدلفة]:

الجملة السابعة: في الإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام والوقوف به، قال في الفقيه: فإذا غربت الشمس يوم عرفة فامش وعليك السكينة والوقار وأفض بالإستغفار فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وروى زرعة عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا غربت الشمس يوم عرفة فقل: (اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا الموقف، وارزقنيه أبداً ما أبقيتني، واقلبني اليوم مفلحاً منجحاً، مستجاباً لي مرحوماً مغفوراً لي بأفضل ما ينقلب به اليوم أحد من وفدك وحجّاج بيتك الحرام، واجعلني اليوم من أكرم وفدك عليك، وأعطني أفضل ما أعطيت أحداً منهم من الخير والبركة والرحمة والرضوان والمغفرة، وبارك لي فيما أرجع إليه من أهل ومال أو قليل أو كثير، وبارك لهم فيَّ).

فإذا أفضت فاقتصد في السير وعليك بالدعة واترك الوجيف الذي يصنعه كثير من الناس في الجبال والأودية، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكفّ ناقته حتّى تبلغ رأسها الورك ويأمر بالدعة، وسُنّته السُنّة التي تتّبع، فإذا إنتهيت إلى الكثيب الأحمر وهو على يمين الطريق فقل: (اللهم ارحم موقفي وبارك لي في عملي وسلّم لي ديني وتقبّل مناسكي)، فإذا أتيت مزدلفة ـ وهي جمع ـ فانزل في بطن الوادي عن يمين الطريق قريباً من المشعر الحرام، فإن لم تجد فيه موضعاً فلا تجاوز الحياض التي عند وادي محسّر فإنّها فصل ما بين جمع ومنى، وصلّ المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ثمّ صلّ نوافل المغرب بعد العشاء، ولا

---

(١) البقرة: ١٩٩.

تصل المغرب ليلة النحر إلاّ بالمزدلفة، وإن ذهب ربع الليل إلى ثلثه فبت بالمزدلفة، وليكن من دعائك فيها: (اللهمّ هذه جمع فاجمع لي فيها جوامع الخير كلّه، اللهم لا تؤيسّني من الخير الذي سألتك أن تجمعه لي في قلبي، وعرّفني ما عرّفت أولياءك في منزلي هذا، وهب لي جوامع الخير واليسر كلّه)، وإن استطعت أن لا تنام تلك الليلة فافعل فإنّ أبواب السماء لا تغلق لأصوات المؤمنين، لها دوي كدوي النحل، يقول الله تعالى: (أنا ربكم وأنتم عبادي، يا عبادي أديتم حقي، وحق عليَّ أن أستجيب لكم) فيحطّ تلك الليلة عمّن أراد أن يحطّ عنه ويغفر ذنوبه لمن أراد».

قال: «وخذ حصى الجمار من جمع وإن شئت أخذتها من رحلك بمنى، ولا تأخذ من حصى الجمار الذي قد رمي، ولا تكسر الأحجار كما يفعل عوام الناس، ولا بأس أن تأخذ حصى الجمار من حيث شئت من الحرم إلاّ من المسجد الحرام ومسجد الخيف، وتكون منقّطة كحليّة مثل الأنملة أو مثل حصى الخذف، واغلسها وهي سبعون حصاة وشدّها في طرف ثوبك واحتفظ بها.

فإذا طلع الفجر فصلّ الغداة، وقف بالمشعر الحرام بسفح الجبل، ويستحبّ للصرورة أن يطأ المشعر برجله أو براحلته إن كان راكباً، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[1].

وليكن وقوفك وأنت على غسل وقل: (اللهمّ ربّ المشعر الحرام، وربّ الركن والمقام، وربّ الحجر الأسود وزمزم، وربّ الأيّام

(١) البقرة: ١٩٨.

المعلومات فكّ رقبتي من النار وأوسع عليّ من رزقك الحلال، وادرأ عنّي شرّ فسقة الجنّ والإنس، وشرّ فسقة العرب والعجم، اللهم أنت خير مطلوب إليه وخير مدعوّ وخير مسؤول، ولكلّ وافد جائزة، فاجعل جائزتي في موطني هذا أن تقيلني عثرتي، وتقبل معذرتي، وتتجاوز عن خطيئتي، وتجعل التقوى من الدنيا زادي، وتقبلني مفلحاً منجحاً، مستجاباً لي بأفضل ما يرجع به أحد من وفدك، وحجّاج بيتك الحرام).

فإذا طلعت الشمس فاعترف لله تعالى بذنوبك ـ سبع مرّات ـ واسأله التوبة ـ سبع مرّات ـ وإذا كثر الناس بجمع وضاقت عليهم، ارتفعوا إلى المأزمين»، انتهى كلامه.[١]

وأقول: مسمّى الكون بالمشعر ركن، من تركه عامداً فلا حجّ له، وإن كان لعذر تداركه ولو قبل الزوال، وإلاّ بطل حجّه، وإن أدرك إختياري عرفه على الأصحّ.

[الإفاضة إلى منى]:

الجملة الثامنة: في الإفاضة من المشعر الحرام إلى منى وقضاء مناسكها، قال في الفقيه: فإذا طلعت الشمس على جبل ثبير، ورأت الإبل مواضع أخفافها، فأفض، وإيّاك أن تفيض منها قبل طلوع الشمس فيلزمك دم شاة، وأفض وعليك السكينة والوقار، واقصد في مشيك إن كنت راجلاً، وفي مسيرك إن كنت راكباً، وعليك بالإستغفار فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[٢]

---

(١) من لا يحضره الفقيه٢: ٥٤٦/ ح ٣١٣٧.

(٢) البقرة: ١٩٩.

ويكره المقام عند المشعر الحرام بعد الإفاضة، فإذا انتهيت إلى وادي محسّر وهو وادي عظيم بين جُمَع ومنى وهو إلى منى أقرب، فاسع فيه مقدار مائة خطوة، وإن كنت راكباً فحرّك راحلتك قليلاً، وقل: «ربّ اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم، إنّك أنت الأعزّ الأكرم» كما قلت في السعي بمكّة، وكان رسول الله ﷺ يحرّك ناقته فيه ويقول: «اللهمّ سلّم عهدي واقبل توبتي، وأجب دعوتي، واخلفني فيما تركت بعدي».

ومن ترك السعي في وادي محسّر فعليه أن يرجع حتّى يسعى فيه، ومن لم يعرف موضعه سأل الناس عنه.

ثمّ امض إلى منى، فإذا أتيت رحلك بمنى فاقصد إلى جمرة العقبة وهو القصوى وأنت على طهر، وأخرج ممّا معك من حصى الجمار سبع حصيّات وتقف في وسط الوادي مستقبلَ القبلة، يكون بينك وبين الجمرة عشر خطوات أو خمسة عشر خطوة، وتقول: وأنت مستقبل القبلة والحصى في كفّك اليسرى: «اللهم هذه حصياتي فاحصهنّ لي وارفعهنّ في عملي» ثمّ تتناول منها واحدة واحدة وترمي الجمرة من قبل وجهها ولا ترمها من أعلاها، وتقول مع كلّ حصاة إذا رميتها: «الله أكبر، اللهم ادحر عنّي الشيطان وجنوده، اللهمّ اجعله حجّاً مبروراً، وعملاً مقبولاً، وسعياً مشكوراً، وذنباً مغفوراً، اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك وعلى سنّة نبيّك محمّد ﷺ» حتّى ترميها بسبع حصيّات، ويجوز أن تكبّر مع كلّ حصاة ترميها تكبيرة، فإن سقطت منك حصاة في الجمرة أو في طريقك، فخذ مكانها من تحت رجليك ولا تأخذ من حصى الجمار الذي قد رمي.

قال: وترمي يوم الثاني والثالث والرابع كلّ يوم بأحد وعشرين حصاة، وترمي إلى الجمرة الأولى بسبع حصيّات، وتقف عندها وتدعو، وإلى الجمرة الثانية بسبع حصيّات، وتقف عندها وتدعو، وإلى الجمرة

الثالثة بسبع حصيّات ولا تقف عندها، فإذا رجعت من رمي الجمار يوم النحر إلى رحلك بمنى فقل: «اللهمّ بك وثقت وعليك توكّلت فنعم الربّ أنت ونعم المولى ونعم النصير».

واشتر هديك إن كان من البدن أو من البقر أو من الغنم وإلاّ فاجعله كبشاً سميناً فحلاً، فإن لم تجد فحلاً فموجوءاً من الضأن، فإن لم تجد فتيساً فحلاً، فإن لم تجد فما تيسّر لك، وعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب، ولا تعط الجزّار جلودها ولا قلائدها ولا جلالها ولكن تصدّق بها ولا تعط السلاخ منها شيئاً.

فإذا اشتريت هديك فاستقبل القبلة وانحره أو اذبحه وقل: «﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾،[1] ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾،[2] [في الآية (أوّل المسلمين) لكن إذا أراد أحدنا الدعاء بذلك يجب أن يقول: (من المسلمين)][3] اللهم منك ولك بسم الله والله أكبر، اللهم تقبّل منّي» ثمّ اذبح ولا تنخع حتّى تموت ويبرد، ثمّ كل وتصدّق وأطعم وأهد إلى من شئت.

أقول: ولا يجزئ في الهدي أقلّ من واحد إلاّ مع الضرورة فيجزئ البقرة عن خمسة إذا كانوا أهل خوان واحد، وفي الصحيح يشترط أن يكون ثنياً في غير الضأن، وفيه يكفي الجذع، والثني من الإبل ما دخل في السادسة ومن الآخرين ما دخل في الثالثة، وقيل: الثانية، وأن يكون

(١) الأنعام: ٧٩.

(٢) الأنعام: ١٦٢ و١٦٣.

(٣) ما بين المعقوفتين ليس في المخطوط.

تاماً فلا يجزيء العوراء ولا العرجاء ولا المقطوعة الأذن إلاّ أن يكون مشقوقاً أو مثقوباً، ولم يذهب منهما شيء.

وفي (الفقيه)[١] قال رسول الله ﷺ: «لا يضحّي بعرجاء بيّن عرجها، ولا بالعوراء بيّن عورها، ولا بالعجفاء ولا بالجرباء ولا بالجدعاء ولا بالعضبان، وهي المكسورة القرن، والجذعاء المقطوعة الأذن».

ويستحبّ أن يكون سميناً ينظر في سواد ويمشي في سواد، ويأكل ويشرب في سواد كما ورد في الأخبار،[٢] والوجوه الثلاثة في تفسيرها مشهورة، وقيل: كلّها مروية عن أهل البيت عليهم السلام، وأن يكون ممّا عرّف به ـ أي أحضر عشيّة عرفة بعرفات ـ، وأن يكون أنثى من الإبل والبقر وفحلاً من الغنم، وأن ينحر الإبل قائمة قد ربطت بين الخفّ والركبة ويطعنها من الجانب الأيمن، وأن يتولى الذبح بنفسه إذا أحسن، وإلاّ وضع يده مع يد الذابح.

وإذا فرغ من الذبح حلق رأسه بأن يستقبل القبلة ويبدأ بالناصية ويقول: «اللهمّ أعطني بكلّ شعرة نوراً يوم القيامة» ويدفن شعره بمنى وإن شاء قصّر، والحلق للصرورة والملبّد أولى بل يتعيّن.

وإذا حلق فقد حلّ له كلّ شيء إلاّ الطيب والنساء، فإذا طاف للحج وسعى حلّ له الطيب، وإذا طاف للنساء حللن له.

ويجب على المتمتع أن يمضي إلى مكّة لطواف الزيارة والسعي وطواف النساء يوم النحر أو من غده، ولا يؤخّر عن ذلك، وموسّع للمفرد أن يؤخّر.

ويجب على الحاج أن يبيت بمنى ليلتي الحادي عشر والثاني

---

(١) ج ٢: ٤٩٠.

(٢) أنظر: الكافي ٤: ٤٩٠/ ح ٤.

عشر، فإن بات بغيرها فعليه عن كلّ ليلة دم شاة إلاّ أن يكون مشتغلاً بالعبادة أو يخرج من منى بعد إنتصاف الليل.

[النفر من منى]:

الجملة التاسعة: في النفر من منى، قال في الفقيه: فإذا أردت أن تنفر من منى يوم الرابع من يوم النحر نفرت إذا طلعت الشمس، ولا عليك أي ساعة نفرت ورميت قبل الزوال أو بعده، فإذا أردت أن تنفر في النفر الأوّل وهو يوم الثالث فانفر إذا زالت الشمس فإنّه ليس لك أن تنفر قبل الزوال، وإن أنت أقمت إلى أن تغيب الشمس فليس لك أن تخرج من منى ووجب عليك المقام إلى يوم الرابع من يوم النحر، وهو النفر الأخير، وأفض إلى مكّة مهلّلاً وممجّداً وداعياً، فإذا بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله وهو مسجد الحصباء دخلته وإستلقيت فيه على قفاك بقدر ما تستريح، ومن نفر في النفر الأوّل فليس عليه أن يحصّب، ثمّ ادخل مكّة وعليك السكينة والوقار، وقد فرغت من كلّ شيء لزمك في حجّ أو عمرة، وابتع بدرهم تمراً وتصدّق به يكون كفّارة لما دخل عليك في إحرامك ممّا لم تعلم.

وإن أحببت أن تدخل الكعبة فادخلها، وإن شئت لم تدخلها إلاّ أن تكون ضرورة فلا بدّ لك من دخولها، واغتسل قبل أن تدخلها وقل إذا دخلتها: «اللهم إنّك قلت في كتابك: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[1] فآمنّي من عذابك عذاب النار» ثمّ صلّ بين الإسطوانتين على البلاطة الحمراء ركعتين تقرأ في الأولى الحمد وحم السجدة، وفي الثانية عدد آيها من القرآن، وتصلّي في زواياه وتقول: «اللهم من تهيّأ أو تعبّأ أو أعد أو

---

(١) آل عمران: ٩٧.

استعد لوفادة إلى مخلوق رجاء رفده ونوافله وجوائزه، فإليك يا سيّدي تهيئتي وإعدادي واستعدادي، رجاء رفدك ونوافلك وجوائزك، فلا تخيّب اليوم رجائي، يا من لا يخيّب عليه سائل، وينقصه نائل، ولا يبلغ مدحته قائل، فإنّي لم آتك بعمل صالح قدّمته، ولا شفاعة مخلوق رجوتها، لكنّي أتيتك مقراً بالظلم والإساءة على نفسي، أتيتك بلا حجّة ولا عذر فأسألك يا من هو كذلك أن تعطيني منيتي وتقلبني برحمتك ولا تردني محروماً خائباً، يا عظيم يا عظيم أرجوك للعظيم، أسألك يا عظيم أن تغفر لي الذنب العظيم، فإنّه لا يغفر الذنب العظيم إلاّ العظيم» ولا تدخلها بحذاء ولا خفّ، ولا تبزق فيها ولا تمتخط.

فإذا أردت وداع البيت فطف به أسبوعاً وصلّ ركعتين حيث أحببت من الحرم، وائت الحطيم ـ والحطيم ما بين باب الكعبة والحجر الأسود ـ فتعلّق بأستار الكعبة وأنت قائم واحمد الله تعالى وأثن عليه وصلّ على النبي وآله، ثمّ قل: «اللهم عبدك وابن عبدك وابن أمَتك، حملته على دوابك وسيّرته في بلادك وأقدمته المسجد الحرام، اللهم وقد كان في أملي ورجائي أن تغفر لي، فإن كنت يا ربّ قد فعلت ذلك فازدد عنّي رضى وقرّبني إليك زلفى، فإن لم تكن يارب فعلت ذلك، فمن الآن فاغفر لي قبل أن تنأى داري عن بيتك، غير راغب عنه ولا مستبدل به، هذا أوان انصرافي إن كنت قد أذنت لي، اللهم فاحفظني من بين يدي ومن خلفي، ومن تحتي ومن فوقي، وعن يميني وعن شمالي حتّى تقدمني أهلي صالحاً، فإذا أقدمتني أهلي فلا تخل منّي، واكفني مؤونة عيالي ومؤونة خلقك».

فإذا بلغت باب الحنّاطين فاستقبل الكعبة بوجهك وخرّ ساجداً

واسأل الله عزّ وجلّ أن يتقبّله منك ولا يجعله آخر العهد منك، ثمّ تقول وأنت مارّ: «آئبون تائبون، حامدون لربّنا، شاكرون إلى الله، راغبون إلى الله راجعون، وصلّى الله على محمّد وآله كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

[زيارة المدينة وآدابها]:

الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها، وزيارة أهل البيت عليهم السلام.

روى في (الفقيه):[1] عن محمّد بن سليمان الديلمي، عن إبراهيم بن أبي حجر الأسلمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أتى مكّة حاجّاً ولم يزرني إلى المدينة جفوته يوم القيامة، ومن أتاني زائراً وجبت له شفاعتي، ومن وجبت له شفاعتي وجبت له الجنّة، ومن مات في أحد الحرمين مكّة والمدينة لم يعرض ولم يحاسب، ومات مهاجراً إلى الله عزّ وجلّ وحشر يوم القيامة مع أصحاب بدر».

وروي فيه: عن هشام بن المثنّى عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال له: «ابدؤوا بمكّة واختموا بنا».

وعن عمر بن أُذينة عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّما أُمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثمّ يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم».

وفيه: قال الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبتاه ما جزاء من زارك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا بني من زارني حيّاً أو ميّتاً، أو زار أباك، أو زار أخاك، أو زارك، كان حقّاً عليّ أن أزوره يوم القيامة وأُخلّصه من ذنوبه».

---

(١) أنظر: ج ٢: ٥٦٥ – ٥٧٧/ ح ٣١٥٧ – ٣١٦١.

روى الحسن بن عليّ الوشّاء عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «إنّ لكلّ إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمّتهم شفعاؤهم يوم القيامة».

روى عليّ بن الحكم عن زياد بن أبي الحلال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من نبي ولا وصي نبي يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيّام حتّى يُرفع بروحه وعظمه ولحمه إلى السماء، وإنّما يؤتى مواضع آثارهم ويبلّغونهم من بعيد السلام».

أخبار وآثار في الحج:

في (الفقيه):[1] قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[2] يعني حجّوا إلى الله، ومن أتّخذ محملاً للحجّ كان كمن ارتبط فرساً في سبيل الله.

قال: وروي أنّ الجبار جلّ جلاله يقول: «إنّ عبداً أحسنت إليه وأجملت إليه، فلم يزرني في هذا المكان في كلّ خمس سنين لمحروم».[3]

وقال أبو جعفر عليه السلام: «ما من عبد يؤثر على الحجّ حاجة من حوائج الدنيا، إلاّ نظر إلى المحلّقين قد انصرفوا قبل أن يقضى له تلك الحاجة».

وقال الصادق عليه السلام: «ما تخلّف رجل عن الحجّ إلاّ بذنب، وما يعفو الله أكثر».

---

(١) ج ٢: ٢٠١/ ح ٢١٣٧، و٢١٠/ ح ٢١٧٥، وص ٢٢٠/ ح ٢٢٢٦، وح ٢٢٢٧، وح ٢٢٣٢.
(٢) الذاريات: ٥٠.
(٣) تهذيب الأحكام ٥: ١٩/ ح ٢/٥٦.

وسئل عليه السلام عن رجل ذي دين يستدين ويحجّ؟ فقال: «نعم هو أقضى للدين». انتهى كلام الفقيه.

* * *

وفي (الصحيح) عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لقيه أعرابي فقال: يا رسول الله إنّي خرجت أُريد الحجّ ففاتني، وأنا رجل مليء ـ يعني كثير المال ـ فمرني أن أصنع في مالي ما أبلغ به مثل أجر الحاجّ، قال: فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أُنظر إلى أبي قبيس فلو أنّ أبا قبيس لك ذهبة حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت ما يبلغ الحاجّ، ثمّ قال: إنّ الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلاّ كتب له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيّئات، ورفع له عشر درجات، فإذا ركب بعيره لم يرفع خفّاً ولم يضعه إلاّ كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، ... فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه. (قال: فعدّد رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه) ثمّ قال: أنّى لك أن تبلغ الحاجّ»، قال أبو عبد الله عليه السلام: «ولا يكتب عليه الذنوب أربعة أشهر، ويكتب له الحسنات إلاّ أن يأتي بكبيرة».[1]

وفي (الصحيح) عن معاوية بن عمّار عنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحج والعمرة ينفيان الفقر كما ينفي الكير خبث الحديد»، قال معاوية: فقلت: حجّة أفضل أو عتق رقبة؟ قال: «حجّة أفضل»، قلت:

---

(١) تهذيب الأحكام ٥: ١٩/ ح ٢/٥٦.

فثنتين؟ قال: «حجّة أفضل»، فلم أزل أزيد ويقول: «حجّة أفضل» حتّى بلغت ثلاثين رقبة، فقال: «حجة أفضل».[1]

وفي (الصحيح): «الحاج ثلاثة أصناف: صنف يعتق من النار، وصنف يخرج من ذنوبه كهيأة يوم ولدته أمّه، وصنف يحفظ في أهله وماله، وهو أدنى ما يرجع به الحاج».[2]

وفي (الفقيه):[3] قال عليّ بن الحسين عليه السلام: «الساعي بين الصفا والمروة تشفع له الملائكة، فتشفع فيه بالإيجاب»... إلخ.

* * *

[الصيام زكاة الأبدان]:

قوله عليه السلام: «ولكلّ شيء زكاة وزكاة البدن الصيام».

لقد مرّ القول في بعض أبحاثنا عن الزكاة ومنافعها الحيوية، فلننتقل الآن إلى الصيام وفوائده الروحية والمعنوية:

كان من الطبيعي أن يفرض الصوم على الأمّة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله، لتقرير منهجه في الأرض، وللقوامة به على البشرية، وللشهادة على الناس.

فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة؛ ومجال اتّصال الإنسان بربّه إتّصال طاعة وإنقياد؛ كما أنّه مجال الإستعلاء على ضرورات الجسد كلّها، وإحتمال ضغطها وثقلها، إيثاراً لما عند الله من الرضا والمتاع.

(١) تهذيب الأحكام ٥: ١٩/ ح ٦٠/٦.
(٢) الكافي ٤: ٢٥٣/ ح ٦.
(٣) ج ٢: ٢٠٨/ ح ٢١٦٨.

وهذه كلّها عناصر لازمة في إعداد النفوس لإحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك، والذي تتناثر على جوانبه الرغائب والشهوات، والذي تهتف بالسالكين آلاف المغريات.

وذلك كلّه إلى جانب ما ينكشف على مدار الزمان من آثار نافعة للصوم في وظائف الأبدان، بما يظهر للعين من فوائد حسّية، إذ الحكمة الأصيلة فيها هي إعداد هذا الكائن البشري لدوره على الأرض، وتهيئته للكمال المقدّر له في حياة الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ...﴾[١] الآية.

إنّ الله سبحانه يعلم أنّ التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى عون ودفع واستغاثة، لتنهض به وتستجيب له، مهما يكن فيه من حكمة ونفع، حتّى تقنع به وتُراض عليه.

ومن ثمّ يبدأ التكليف بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين، المذكّر لهم بحقيقتهم الأصيلة، ثمّ يقرّ لهم ـ بعد ندائهم ذلك النداء ـ أنّ الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كلّ دين، وأنّ الغاية الأولى هي إعداد قلوبهم للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم، إنّها التقوى، التقوى هي التي تستيقظ في القلوب، وهي تؤدّي هذه الفريضة، طاعة لله، وإيثاراً لرضاه. والتقوى

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) نفس المصدر.

هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها في ميزانه، فهي غاية تتطلّع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها، ومن ثمّ يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتّجهون إليه عن طريق الصيام، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالتقوى هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر، وفي حنايا القلوب، تكفّها عن مواضع الجرائم والخطيئات.. إلى جانب الشريعة النيّرة البصيرة بخفايا ومكنونات القلوب. وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية، والتوجّهات والعبادات من ناحية أخرى، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور، نظيف الحركة نظيف السلوك؛ لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير!

حتّى إذا جمحت الصورة البهيميّة في حين من الأحيان، وسقط الإنسان سقطة، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون، تحوّل هذا الإيمان نفساً لوّامة عنيفة، ووخزاً لاذعاً للضمير، وخيالاً مروّعاً، لا يرتاح معه صاحبه حتّى يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحمّلها مطمئناً مرتاحاً، تفادياً من سخط الله، وعقوبة الآخرة.

«إنّها التقوى.. إنّها التقوى».

* * *

[الصوم عبر التاريخ الإنساني]:

قال البستاني في (دائرة المعارف):

... الصوم من جملة الذرائع الدينية التي يلتمس بها المخلوق

التقرّب إلى الخالق، ولم يخل منه دين من الأديان المعروفة قديماً وحديثاً إلاّ دين زرادشت.

فالمصريون القدماء كانوا يصومون تعبّداً لإيسيس، واليونان تعبّداً لذيميتير آلهة الزراعة وغيرها، وكان إذا رام أحدهم أن ينخرط في زمرة المطّلعين على أسرار كيبيلي استعدّ لذلك بصوم عشرة أيّام، ويفرض الصوم عندهم أيضاً على المتهيئين للإستخارة.

وكان الرومان أكثر صوماً من اليونان، ولهم أيّام معلومة يصومونها كلّ عام تعبّداً لزفس (المشتري) وسيريس (ذيمينير)، وإذا ألمّت بهم نازلة صاموا إستعطافاً لمعبوداتهم.

وأمّا الهنود فقد فاقوا جميع الأمم مغالاة في صيامهم، حتّى لقد يقضون الأيّام الطوال وهم لا يذوقون طعاماً ولا شراباً، ويأتلفون على ذلك من صغرهم حتّى لا توهن قواهم كثرة الصيام.

أمّا الإسرائيليون فلم تفرض عليهم شريعة موسى إلاّ صيام يوم واحد كلّ سنة، وهو اليوم العاشر من الشهر السابع، ولكنّهم زادوا أزمنة الصيام بعد ذلك تذكاراً للرزايا التي إنتابتهم...

وأمّا النصارى الكاثوليك فكان الصيام عندهم كثيراً وشديداً في بدء النصرانية، وكانوا إذا صاموا يمسكون عن الطعام والشراب يومهم وليلهم ولا يأكلون إلاّ قرب المساء، وإذا أفطروا لا يشربون خمراً ولا يتأنقون في المآكل على أنّه لم يكن فرضاً عليهم إلاّ الصوم الكبير السابق لعيد الفصح، وما سواه كان نفلاً، يقصد به التعبّد، تعبّداً غير مفروض...

أمّا البروتستانت: فالصوم عندهم سنّة حسنة لا فرض واجب، ولا يطلق عندهم إلاّ على الإمساك عن الطعام مطلقاً بخلاف أكثر الطوائف

المسيحية الأخرى، فإنّ الصوم والإنقطاع عن بعض المآكل كادا يصيران مترادفين، وكثيراً ما يقوم أحدهما مقام الآخر.

أمّا المسلمون فالصيام عندهم من الفجر عند تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى المغرب، ثمّ لا يحظر على الصائم تناول شيء من الأطعمة بعد قضاء صومه، فيأكل ويشرب ما شاء ممّا يحلّ أكله وشربه، والصوم فرض كلّ رمضان لا يجوز تركه إلاّ بحصول إحدى العوارض المبيحة: كالسفر والحمل والإرضاع والمرض وعجز الشيوخ...

* * *

جاء في (تفسير المنار)، عند ذكر الآية من سورة البقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]:

الصيام في اللغة: الإمساك والكفّ عن الشيء، وفي الشرع: الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر إلى المغرب إحتساباً لله، وإعداداً للنفس، وتهيئة لها لتقوى الله بالمراقبة له، وتربية الإرادة على ترك كبح جماح الشهوات، ليقوى صاحبها على ترك المضار والمحرّمات.

وقد كُتب على أهل الملل السابقة، فكان ركناً من كلّ دين؛ لأنّه من أقوى العبادات وأعظم ذرائع التهذيب.

وفي إعلام الله تعالى لنا بأنّه فرضه علينا كما فرضه على الذين من قبلنا، إشعار بوحدة الدين في أُصوله ومقصده، وتأكيد لأمر هذه الفريضة وترغيب فيها.

ألهم الله هؤلاء الذين من قبلنا، فالمعروف أنّ الصوم مشروع في

---

(١) البقرة: ١٨٣.

جميع الملل حتّى الوثنية، فهو معروف عن قدماء المصريين في أيّام وثنيّتهم، وانتقل منهم إلى اليونان فكانوا يفرضونه لاسيّما على النساء، وكذلك الرومانيون كانوا يعنون بالصيام، ولا يزال وثنيّو الهند وغيرهم يصومون إلى الآن، وليس في أسفار التوراة التي بين أيدينا ما يدلّ على فريضة الصيام، وإنّما فيها مدحه ومدح الصائمين، وثبت أنّ موسى عليه السلام صام أربعين يوماً، وهو يدلّ على أنّ الصوم كان معروفاً مشروعاً ومعدّداً من العبادات.

واليهود في هذه الأزمنة يصومون أسبوعاً تذكاراً لخراب أورشليم وأخذها، ويصومون يوماً من شهر آب، ويُنقل أنّ التوراة فرضت عليهم صوم اليوم العاشر من الشهر السابع، وأنّهم يصومونه بليلته، ولعلّهم كانوا يسمّونه عاشوراء، ولهم أيّام أُخر يصومونها نهاراً.

وأمّا النصارى فليس في أناجيلهم المعروفة نصّ في فريضة الصوم، وإنّما فيها ذكره ومدحه واعتباره عبادة: كالنهي عن الرياء وإظهار الكآبة فيه؛ بل تأمر الصائم بدهن الرأس وغسل الوجه حتّى لا تظهر عليه أمارة الصيام فيكون مرائياً كالفرسيين، وأشهر صومهم وأقدمه الصوم الكبير الذي قبل عيد الفصح، وهو الذي صامه موسى، وكان يصومه عيسى عليه السلام، والحواريون، ثمّ وضع رؤساء الكنيسة ضروباً أُخرى من الصيام، وفيها خلاف بين المذاهب والطوائف، ومنها صوم عن اللحم وصوم عن السمك وصوم عن البيض واللبن.

وكان الصوم المشروع عند الأوّلين منهم كصوم اليهود يأكلون في اليوم والليلة مرّة واحدة، فغيّروه وصاروا يصومون من نصف الليل إلى نصف النهار، ولا نطيل في تفصيل صيامهم؛ بل نكتفي بهذا في فهم

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[1] أي فُرض عليكم كما فُرض على المؤمنين من أهل الملل قبلكم، فهو تشبيه الفريضة بالفريضة، ولا تدخل فيه صفته ولا عدّة أيّامه، وفي قصتي زكريا ومريم عليهما السلام أنّهم كانوا يصومون عن الكلام، أي مع الصيام عن شهوات الزوجية والشراب والطعام.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذا تعليل لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته العليا، وهو أنّه يعدّ نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة إمتثالا لأمره واحتساباً للأجر عنده، فتتربّى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرّمة والصبر عنها، فيكون إجتنابها أيسر عليه، وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح والإصطبار عليها فيكون الثبات عليها أهون عليه، ولذلك قال صلى الله عليه وآله: «الصيام نصف الصبر».[2]

وهذا معنى دلالة (لعلّ) على الترجي، فالرجاء إنّما يكون فيما وقعت أسبابه، وموضعه هنا المخاطبون لا المتكلّم، ومن لم يصم بالنيّة وقصد القربة لا ترجى له هذه الملكة في التقوى. فليس الصيام في الإسلام لتعذيب النفس لذاته؛ بل لتربيتها وتزكيتها.

إنّ الوثنيين كانوا يصومون لتسكين غضب آلهتهم إذا عملوا ما يغضبهم، أو لإرضائها وإستمالتها إلى مساعدتهم في بعض الشؤون والأغراض، وكانوا يعتقدون أنّ إرضاء الآلهة والتزلّف إليها يكون بتعذيب النفس وإماتة حظوظ الجسد، وانتشر هذا الإعتقاد في أهل الكتاب، حتّى جاء الإسلام يعلّمنا أنّ الصوم ونحوه إنّما فُرض لأنّه يعدّنا

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) عوالي اللئالي ١: ١١٥/ ح٣٣؛ مسند أحمد ٤: ٢٦٠.

للسعادة بالتقوى، وأنّ الله غني عنّا وعن عملنا، وما كتب علينا الصيام إلاّ لمنفعتنا.

إنّ معنى (لعلّ) الإعداد والتهيئة، وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأناً، وأنصعها برهاناً، وأظهرها أثراً، وأعلاها خطراً (شرفاً) أنّه أمر موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلاّ الله تعالى، وسرّ بين العبد وربّه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذّاته التي تعرض له في عامّة الأوقات لمجرّد الإمتثال لأمر ربّه والخضوع لإرشاد دينه مدّة شهر كامل في السنة، ملاحظاً عند عروض كلّ رغيبة له ـ من أكل نفيس، وشراب عذب، وفاكهة يانعة، وغير ذلك ـ إنّه لولا إطّلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو في أشدّ التوق لها، لا جرم أنّه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه.

وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى والإستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر معدّ للنفوس ومؤهّل لها لضبط النفس ونزاهتها في الدنيا، ولسعادتها في الآخرة.

كما تؤهّل هذه المراقبة النفوس المتحلّية بها لسعادة الآخرة تؤهّلها لسعادة الدنيا أيضاً.

أنظر هل يُقدم من تلابس هذه المراقبة قلبه على غشّ الناس ومخادعتهم؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلا لأموالهم بالباطل؟ هل يحتال على الله تعالى في منع الزكاة وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه؟ هل يحتال على أكل الربا؟ هل يقترف المنكرات جهاراً؟ هل يجترح السيّئات ويسدل بينه وبين الله ستاراً؟

كلاّ إنّ صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي، إذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى، وإذا نسي وألِمّ بشيءٍ منها يكون سريع التذكّر قريب الفيء والرجوع بالتوبة الصحيحة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1] فالصيام أعظم مربٍّ للإرادة، وكابح لجماح الأهواء، فأجدر بالصائم أن يكون حرّاً يعمل ما يعتقد أنّه خير، لا عبداً للشهوات.

إنّما روح الصوم وسرّه في هذا القصد والملاحظة التي تحدث هذه المراقبة، وهذا هو معنى كون العمل لوجه الله تعالى. وقد لاحظه من أوجب من الأئمّة تبييت النيّة في كلّ ليلة، ويؤيّد هذا ما ورد من الأحاديث المتّفق عليها كقوله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً وإحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه»[2] ــ أي من الصغائر ــ وقد يكون الغفران للكبائر مع التوبة منها، لأنّ الصائم إحتساباً وإيماناً على ما بيّنا يكون من التائبين عمّا اقترفه فيما قبل الصوم، وقوله في الحديث القدسي: «كلّ عمل ابن آدم له إلاّ الصوم فإنّه لي وأنا أُجزي به»[3] وفي حديث آخر «يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي».

ومن وجوه إعداد الصوم للتقوى، أنّ الصائم عندما يجوع يتذكّر من لا يجد قوتاً، فيحمله التذكّر على الرأفة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، وقد وصف الله تعالى نبيّه بأنّه رؤوف رحيم، ويرتضي لعباده المؤمنين ما ارتضاه لنبيّه ﷺ، ولذلك أمرهم بالتأسّي به ووصفهم بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) أمالي الطوسي: ١٥٠/ ح ٢٤٧/ ٦٠، وسنن الترمذي ٢: ح ٨٠٥.

(٣) أنظر: الخصال: ٤٥/ ح ٤٢؛ صحيح البخاري ٧: ٦١.

(٤) الفتح: ٢٩.

[الفوائد الاجتماعية والصحية للصوم]:

ومن فوائد عبادة الصيام الاجتماعية: المساواة فيه بين الأغنياء والفقراء، والملوك والسوقة.

ومنها: تعليم الأمّة النظام في المعيشة، فجميع المسلمين يفطرون في وقت واحد لا يتقدّم أحد على آخر دقيقة واحدة، وقلّما يتأخّر عنه دقيقة واحدة.

ومن فوائده الصحيّة: أنّه يفني المواد الراسبة في البدن، ولاسيّما أبدان المترفين أُولي النهم وقليل العمل، ويجفّف الرطوبات الضارّة، ويطهّر الأمعاء من فساد الذرب والسموم التي تحدثها البطنة، ويذيب الشحم أو يحول دون كثرته في الجوف، وهي شديدة الخطر على القلب، فهو كتضمير الخيل الذي يزيدها قوّة على الكرّ والفرّ.

قال صلى الله عليه وآله: «صوموا تصحّوا»[1] ويؤيّده «اغزوا تغتنموا وصوموا تصحّوا وسافروا تستغنوا».[2] قال بعض أطباء الإفرنج: إنّ صيام شهر واحد في السنة يذهب بالفضلات الميتة في البدن مدّة سنة.

وأعظم فوائده كلّها الفائدة الروحية التعبّدية المقصودة بالذات: وهي أن يصوم لوجه الله تعالى كما هو الملاحظ في النيّة على ما قدّمنا، ومن صام لأجل الصحّة فقط فهو غير عابد لله في صيامه، فإذا نوى الصحّة مع التعبّد كان مثاباً، كمن ينوي التجارة مع الحجّ، فإنّه لولا العبادة لاكتفى بالجوع والحميّة، وآية الصيام بهذه النيّة والملاحظة التجلّي بتقوى الله تعالى وما يتبعها من أحسن الصفات والخلال، وفضائل الأعمال...

* * *

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٦٨/ ح ٧٠؛ كنز العمال ٨: ٤٥٠/ ح ٢٣٦/٥.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٤٢؛ مجمع الزوائد ٣: ١٧٩.

ويتحدّث السيد محمّد صفي الدين الحسيني العاملي، في كتابه (مناهل الأشواق):

للصوم سرّ خفي يمتاز به بعد النيّة في ساعاته عند مكافحة عوامل الشهوات، غالبة أو مغلوبة، لابتنائه على حقيقة دقيقة لا يعلمها إلاّ من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

الصوم لله عبادة تقرّبنا إليه سبحانه زلفى، يقرّبنا الصوم إلى الله زلفى ويبعّدنا عن متابعة السير بدافع الشهوات، في صفاء سماء فضائل النفس الكاملة حتّى لا يتبدّل صفاؤها بغياهب رذائل الإمتلاء والجشع.

يخفّف الصوم كثيف الرطوبات من مجاري مدارك المعقولات، ويخفف ما تثاقل من البلغم في أنابيب مارن العرنين، ومسارح مسارب تامور الصدر حتّى يرتفع بالجملة عن القلب حجاب الغفلة، وبذلك يتخلّص من أشباك الآثام والتبعات أهل التقوى والإخلاص.

تندك بالصوم دعائم العجب فينهال عنها صرح التكبّر بعد تجرّع مرارة الجوع والعطش، وتحمّل آلام مخالفة العادات في تمتع النفس بشهواتها، وحينئذ يتحلّى مذاق الصائم بحلاوة اللين والرقّة والحنان والرأفة على الفقراء والمساكين.

الصوم بين حكماء الأبدان وأحكام الأديان:

حكماء الأبدان:

تعترف فلاسفة حكماء الأبدان من الديانين بما للصوم من الثواب يوم العرض والحساب، وبإستثمار الصائمين منافع صيامهم، في كونهم الأوّل بفوائد صحيّة وفوائد أخلاقية، حتّى أدرك سرّ الثاني من لا يعترف

بالموحيات السماوية والأحكام الربّانية، فالصيام بحكم العلم والوجدان يدفع داء التخمة ويرفع موانع إفراز المعدة بعد البطنة، «صوموا تصحّوا».

أحكام الأديان:

تحكم الأديان بنصّ قوانينها على العباد بالصيام إنقياداً لحكمة أوامر الله المنعم، وشكراً له على إنعامه. وحقيقة الصوم هي الإمساك، وبها تشترك جميع الأديان، وإنّما اختلفت كيفياته بحسب مصالح العباد وفقاً لأسرار الحكمة الربانية.

سعة دائرة الصوم قبل الشريعة الإسلاميّة:

يظهر من نص القانون الإسلامي عند بيان ولادة المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام أنّ الصيام واسع الدائرة بمعناه الشرعي في ذلك الزمن، على نهج معناه اللغوي في كلّ زمن، وحيث لابدّ من ذكر آية الولادة بتمامها ليظهر المقصود من الصوم الذي نذرته مريم بنت عمران عليها السلام، وسرّ تكوّن تلك الولادة، كان من المناسب أن نشير إلى ما تقدّمها من بيان ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام في تلك السورة الشريفة:

كانت ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام ولادة نادرة، وبينها وبين المعتاد من الولادة بُعد عظيم، بشّر الله سبحانه زكريا بيحيى فقال: ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾[1].

قام زكريا لوقع تلك البشارة متفكراً متعجّباً قائلاً: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[2].

---

(١) مريم: ٧.

(٢) مريم: ٨.

فزكريا عليه السلام حين وجد تلك البشارة من خوارق العادات؛ لأنّ المرأة العاقر كزوجة زكريا وهي التي لا يتولّد منها بحسب إستعداد مزاجها ولداً أبداً، وكذلك من وَهَن عظمه وذاب لحمه وضعف عصبه واشتعل بالشيب رأسه، وبلغ من العمر عتيا ببلوغه مائة سنة، فجفّ من صلبه ماؤه وخفّ من مجاري حياته نماؤه، كزكريا عليه السلام، تصبح بحكم العادة بشارته بالولد ممّا لا يؤمن بها أحد، لذلك قال زكريا ما قاله مستفهماً متعجّباً، ولمّا كانت ولادة يحيى ولادة نادرة الوقوع وهي أقرب إلى الأذهان ممّا هو أبعد منها، كان من المناسب تقديمها على ولادة المسيح تقريباً للأذهان وتوطيناً للنفوس على تعقّل ما لم تحط به خبراً.

نعم كان إفتتاح سورة مريم بذكر رحمة الله لعبده ونبيّه زكريا إذ نادى ربّه نداءاً خفيّاً، طالباً منه سبحانه ولداً مرضيّاً عنده مطيعاً له، فقصّ الله سبحانه علينا لطيف الذكرى من ولادة يحيى عليه السلام وأتبعها بلا فاصل بذكر ولادة المسيح عليه السلام.

سعة الصيام بآية ذكر ولادة المسيح عليه السلام:

قال الله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ

رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.[(١)]

لفظة مريم هنا معناها العابدة بلغة آل عمران، بلغة ذلك الزمان، وإنّما سمّيت كذلك لأنّ أمّها نذرت ما في بطنها عندما أحسّت بامارة حملها محرّراً أي خالصاً للعبادة ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[(٢)]

وغاية قصدها في نذرها أن يكون ما في بطنها ولداً ذكراً دائب الإعتكاف في مسجد العبادة، والمرأة لا يمكنها اللبث في المساجد أيام حيضها، ولذلك أظهرت الأسف حينما وضعت حملها، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾[(٣)] فهي تظهر أسفها ملتزمة بنذرها، وقد رأت تمام المناسبة بأن تسمّيها العابدة، وهو بلسانهم مريم، وحين جعلتها أمّها في المسجد، عظم الخصام واحتدم النزاع بين الأحبار على حضانة مريم وكفالتها، فكلّ واحد منهم يريد الإختصاص ليفوق سواه بخدمة مريم بنت عمران بنت إمامهم وصاحب قربانهم، مكافاةً له بعد موته.

وكان زكريا يرى نفسه أنّه أولى بها من غيره؛ لأنّ زوجته خالتها، وبهذا احتجّ على الأحبار، فأجابه جلّهم بأنها لو تركت لأحقّ الناس بها لتركت لأمّها التي أولدتها، فاتّفقوا على أن تكون لمن تخرج في سهمه بالقرعة.

---

(١) مريم: ١٦- ٢٦.

(٢) آل عمران: ٣٥.

(٣) آل عمران: ٣٦.

ذهبوا للإقتراع على مريم وهم تسعة وعشرون رجلاً ذهبوا بسهامهم إلى نهر هناك، فألقوا ــ بعد التوسّل والتقرّب لله بما يرضيه ــ سهامهم في ذلك النهر، فرسبت كلّها إلاّ سهم زكريا فإنّه ارتفع على وجه الماء، وذلك عندهم علامة قبوله دونهم، والسهام هي الأقلام في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1].

والحقيقة تقضي بأنّ زكريا أولى بمريم من غيره لمكان قرابتها في بيته؛ ولأنّه رأس الأحبار ونبيّهم وقد اتّخذ لها في المسجد محراباً خاصّاً بها، ولم يزل زكريا يكرمها ويرى لها من الله الكرامة بما يراه عندها من فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وهو رزق لا يصل لسواها من العابدين في ذلك المسجد، حتّى أصبح زكريا حريصاً على وجود ولد له، هنالك اشتدّ شوق زكريا للولد ونادى ربّه نداءاً خفيّاً، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2].

فرزقه الله سبحانه يحيى، ولم تزل مريم عابدة في محرابها بحضانة زكريا يقدّسها عموم الأحبار ويحترمها عامّة قومها آل عمران لا تحسّ بشيء من الكدر والبلاء حتّى انفردت عن الأحبار أيّام طمثها بخروجها إلى بيت خالتها، وهناك بعد انقضاء أيّامها انفردت للطهارة من ذلك الحدث في مطلع الشمس بتلك الدار، ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً *

---

(١) آل عمران: ٤٤.

(٢) آل عمران: ٣٨.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾[١] يمنع أهلها عن النظر إليها، حتّى إذا تمّت طهارتها ولبست مدرعتها رأت داخل الحجاب ما أذهلها.

رأت مريم داخل الحجاب بصورة البشر ملكاً كريماً ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾[٢].

أرسل الله سبحانه إليها جبرائيل عليه السلام وهو المعروف بالروح الأمين لأنّه من العالم الروحاني وهو أمين الله على وحيه لعامّة أنبيائه ورسله.

وإنّما قال سبحانه ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ ولم يقل الروح الأمين أو جبرائيل، تكريماً له وتنبيهاً على شرفه وقربه من الله بتلك الإضافة اللطيفة، كما يقول أحد الملوك أو الأُمراء مخاطباً أحد وزرائه إنّا قد أرسلنا خليلنا إلى فلان، والذي أرسله اسمه خليل، غير أنّ الملك أراد أن يعلم المخاطب وغيرها ما لخليل عنده من المنزلة والقرب فأضافه إليه بالكلام وقال: خليلنا، وكذلك المقصود من قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾.

وبما أنّ الإنسان وإن كان نبيّاً أو وليّاً لا يطيق النظر إلى أحد الملائكة بصورته الحقيقيّة، أمر الله سبحانه الروح الأمين أن يكلّمها وهو بصورة البشر، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾.

وكانت مريم لا تحسّ ولا تفكّر بأحد يدخل إلى مكانها، لذلك اندهشت منذعرة حين رأت بقربها بشراً سويّاً، وقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾[٣] أي: إن كنت تتقي الله، أي إنّي أعتصم بالرحمن منك فاخرج من عندي ولا تستحلّ النظر إليّ إن كنت تقيّاً ــ أي إن كنت تتقي الله وتخافه ــ فأجابها

---

(١) مريم: ١٦ و١٧.

(٢) مريم: ١٧.

(٣) مريم: ١٨.

جبرائيل بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾[١] أي طاهراً من الأدناس، فزادها بخبره دهشة وحيرة عن موقفه ومنظره، ولم تكد تسمع مريم خبره حتّى نطق بالإستغراب والتعجّب وخوف الوصمة والعار لسانها، فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾[٢] لقضاء حقيقة التناسل وضرورته باستحالة وجود الولد بلا أب عادةً، وغير ذات الزوج لا تلد إلاّ فاجرة زانية وهي البغي.

ولمّا سمع جبرائيل تعجّبها من خبره وإستنكارها لبشارته كلّمها بما يقرّب لها البعيد ويهوّن عليها ما حلّ بها، قال لها: ﴿كذلك﴾ أي أنّ الأمر كما وصفته لك وقد ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[٣] أي أن خلق الولد بلا أب هيّن على الله، فكما خلق الله الإنسان الأوّل وهو آدم عليه السلام من غير أمّ ولا أب وجعله آية للملائكة، كذلك خلق الله عيسى بن مريم من غير أب وجعله آية ورحمة للناس.

ولم يكن من جبرائيل عليه السلام بعد إخباره لمريم بأنّه رسول الله إليها ليهب لها غلاماً زكيّاً، وبعد رفعه عنها أثقال تعجّبها وأعباء استنكارها تولد الولد منها بدون زوج يمسّها، لم يكن بعد ذلك كلّه إلاّ تنفيذ ما أمر به وهو أن ينفخ في مدرعتها، فنفخ فيها فتكوّن بقدرة الله تعالى الجنين في رحمها تامّاً كاملاً كما يكمل في أرحام النساء بأقصى مدّة الحمل، وحين أحسّت به متحركاً في أحشائها وطاش لبّها وعظم كربها، ورفعت

---

(١) مريم: ١٩.

(٢) مريم: ٢٠.

(٣) مريم: ٢١.

ذلك الحجاب وخرجت، نظرت إليها خالتها فأنكرت أمرها واسترابت من شكلها، ومريم تقرأ ذلك من صفحات وجه خالتها، وأمواج الخجل والحياء منها ومن أهلها تدفعها إلى الفرار بحملها، ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾[1] أي فرّت متنحّية بحملها إلى مكان بعيد حياءاً من قومها وخوفاً من سوء التهمة والسمعة على نفسها.

فرّت مريم نافرة في الصحراء وهي تراها على سعتها كسمّ الخياط أو أضيق، ولم تكن إلاّ ساعات حتّى نظرت إلى أكمة هناك، فصعدت إليها وإذا بجذع نخلة نُخِرت لا سعف عليها، وحين رأته مريم وأسندت ظهرها إليه ريثما ترتاح من وعثاء سفرها وتنظر في عاقبة أمرها، ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾،[2] والمخاض هو الطلق وألم الولادة.

كان مبدء حركة الولادة حال انتهائها إلى جذع النخلة واتّكائها عليه، وحين استهلّ الولد بين يديها قالت: ﴿يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾، قالت هذا بعد أن تراكمت عليها قبل الولادة أُمور تذهل عقول عظماء الرجال، فما ظنّك بفتاة لا تعرف سوى أهلها ومحرابها.

ثمّ تفاقم الأمر وعظم الخطب وظهر الحزن بعد ألم الولادة ووحشة الإنفراد والجزم بالبلاء من قومها والعار من عامّة الناس، فهي بعد ذلك كلّه ﴿قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾.[3]

وكان من لطف الله سبحانه بها أنّه أقدر ولدها على النطق ليرفع عنها وحشة الإنفراد ويريها نعمة الله عليها، ويرشدها إليها، فناداها من

---

(١) مريم: ٢٢.

(٢) مريم: ٢٣.

(٣) نفس المصدر.

تحتها ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1] ناداها ليخفّف عنها حزنها بما تراه من النعم، رأت تحتها سريّاً أي نهراً جارياً بقدرة الله تعالى إكراماً لها بعد أن كان جافّاً لا ماء فيه، فهو يقول لها: هذا الماء بين يديك ولم يكن قبل هذا، ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾[2].

وهذه النخلة قد حملت بقدرة الله إكراماً لك بعد يباسها في غير زمن حملها، بأن يستحيل بحكم العادة أن يخرج الطلع ويظهر نَورُه ويلقّح، وبعد مرور زمن يكون بُسراً ثمّ بعد ذلك يكون رطباً، فكما أوجد الله الرطب في غير زمنه من نخلة يابسة، بأقلّ من وقته أوجد ولدك من غير أب في أقلّ من زمن الحمل ناطقاً حين ولادته فلا تعجبي، ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾[3] فإنّ الله قد أزاح عنك غياهب الحزن وألم الولادة ووحشة الإنفراد ونزق التعجّب والتحيّر فلا تخافي من قومك وغيرهم، فإنّ حراجة اللوم ووصمة العار مدفوعة عنك غير لاصقة بك، فإن سألك أحد عنّي فأشيري إليّ ولا تكلّميه وأعلميه بإشارتك أنّك نذرت لله الصيام حتّى عن الكلام، وبجواب ولدها ترتفع عنها في ذلك الموقف الرهيب كلفة الجواب وحمرة الخجل وصفرة الوجل، ويظهر للسائلين برهان نزاهتها وبراءة ساحتها ممّا يتوهّم نسبته إليها، ولذلك قال لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[4].

---

(١) مريم: ٢٤.

(٢) مريم: ٢٥.

(٣) مريم: ٢٥ و٢٦.

(٤) مريم: ٢٦.

نعم كذلك كانت القضيّة حينما أتت به قومها تحمله، وكان ما كان من توبيخهم لها ولومهم عليها فإنّها أشارت إليه ولم تكلّمهم، فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[1] ومذ تمّ استنكارهم كلامه أجابهم من مهده بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.[2]

قال: إنّي عبد الله مقدّماً العبودية على سواها دفعاً لتوهّم ما وقع من نسبة البنوة والربوبية إليه، ثمّ أكّد أنّه عبد الله بقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[3]

هذه هي الحقيقة في تكوين المسيح عيسى بن مريم عليها السلام وخلقه من غير أب بقدرة الله تعالى، كما خلق آدم من قبل بلا أب ولا أمّ.

وقد ظهر لك من هذه الآيات أنّ الصيام في الشرائع السابقة واسع الدائرة، وأنّه كُتب علينا كما كُتب على الذين من قبلنا، قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[4]

لا ريب في توجّه أوامر الله سبحانه ونواهيه إلى كلّ بالغ عاقل بلا فرق بين من آمن بالله ومن كفر به، وإنّما تجد الخطاب موجّهاً بلسان

---

(١) مريم: ٢٩.

(٢) مريم: ٣٠.

(٣) مريم: ٣١ ـ ٣٥.

(٤) البقرة: ١٨٣.

التخصيص بالمؤمنين تشريفاً، وإعزازاً وتعظيماً وإرشاداً لهم على قبول أعمالهم وإنتفاعهم بها، وغير المؤمنين أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف.

ثمّ قال سبحانه بعد هذه الآية بلا فاصل: ﴿أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ...﴾[1] الآية، تجد بعد التدبّر لطف التعبير بقوله: ﴿أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ﴾ بعد قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾، حيث لا تقف النفس بمداركها على أهميّة قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾، موقف المتثاقل من عظمة كلفة التكلّف إلاّ ويجاب عنها ذلك باختصار، هذا التكليف وقلّته حينما تراه أيّاماً معدودات يقضيها من يضرّه الصوم في مرضه والمسافر بعد ثبوت حقيقة السفر وفرضه تخفيفاً منه سبحانه على عباده؛ لأنّه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

نعم أعلمنا سبحانه أنّ الصيام أيّام معدودة، فكان ذلك بنا من جميل اللطف والعطف بالفرج بعد الضيق والرخاء بعد الشدّة، ثمّ حركنا بضروب الترغيب والتشويق إلى صيام تلك الأيّام بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.[2]

هذه هي الحكمة البالغة والأحكام البليغة، هذه هي الأسباب القاضية بحكم العادة على من سمعها بالتحرّك نحو ما سمعه بكلّ ما فيه لينال من الله سبحانه ما يرضيه.

كانت الأيّام التي يجب صومها مبهمة مجملة، فعيّنها مختصة بشهره حين قال: شهر رمضان؛ لأنّ رمضان من أسمائه تعالى ولذلك نهينا

---

(١) البقرة: ١٨٤.

(٢) البقرة: ١٨٥.

عن قولنا جاء رمضان أو انتهى رمضان؛ بل الذي أُمرنا به أن نقول جاء شهر رمضان وانتهى شهر رمضان، فبيّن سبحانه أنّ تلك الأيّام هي شهره لا بقيّة الأيّام، ثمّ بيّن ما لذلك الشهر من الكرامة بأنّه أنزل فيه القرآن لأشرف غاية تختصّ بالإنسان، وهي هدايته وخروجه من هوّة الجهالة وحيرة الضلالة، والفرقان هو القرآن، وهو القانون الإسلامي، القانون الربّاني، القانون العامّ لعموم النوع الإنساني يتّفق مع الإنسان في كلّ زمان ومكان.

كلام في حقيقة الصوم:

س: ما هي حقيقة الصوم في الشريعة الإسلاميّة؟

ج: حقيقة الصوم في الشريعة الإسلاميّة: هي الإمساك والإمتناع من طلوع الفجر إلى غياب الشمس عن عشرة أشياء بقصد وإختيار، ناوياً بصومه امتثال أمر الله قربة إلى الله.

الأوّل: الإمساك عن الأكل.

الثاني: الإمساك عن الشرب.

الثالث: الإمساك عن الجماع.

الرابع: الإمساك عن الإستمناء، أي من إخراج المني.

الخامس: الإمساك عن تعمّد الكذب على الله أو رسوله أو أحد المعصومين.

السادس: الإمساك عن إيصال الغبار إلى الحلق.

السابع: الإمساك عن الإرتماس في الماء.

الثامن: الإمساك عن تعمّد البقاء على الجنابة إلى طلوع الفجر.

التاسع: الإمساك عن الحقن بالمايع.

العاشر: الإمساك عن تعمّد القيء.

هذه الأشياء العشرة هي التي يجب الإمساك عنها شرعاً في النهار الذي يجب صومه على المكلّف، وهي المفطّرات التي لو ارتكب الصائم واحداً منها بطل صومه.

* * *

الكلام في وجوب اجتناب الصائم عن الأكل والشرب بلا فرق بين ما كان معتاداً أكله وشربه وبين ما لم يكن معتاداً أكله وشربه ولا فرق بين الكثير والقليل كحبّة الخردل:

س: ما حكم الريق المتكوّن في الفم هل يجوز ابتلاعه أم لا؟

ج: يجوز للصائم ابتلاع الريق المتكوّن في فمه إذا لم يكن معه شيء آخر من غيره.

س: ما حكم رطوبات الدماغ إذا نزلت إلى فضاء الفمّ؟

ج: لا يجوز ابتلاع رطوبات الدماغ إذا نزلت إلى فضاء فم الصائم، أما لو نزلت إلى جوفه بدون أن يبتلعها من فمه فإنها لا تضرّ في صومه ولا تبطله.

س: ما حكم الرطوبات التي تتصعّد من الصدر إلى فضاء الفم؟

ج: لا يجوز للصائم ابتلاع الرطوبات التي تتصعّد ممّا دون الفم، أو تتصعّد من الصدر إلى فضاء الفمّ بعد وصولها إلى فضاء الفمّ فابتلاعها مفطر للصائم.

س: هل يبطل الصوم بالأكل والشرب نسياناً أم لا؟

ج: لا يبطل الصوم بالأكل والشرب نسياناً، فمن ذهل أنّه صائم فشرب أو أكل لم يبطل صومه.

حرمة الجماع نهاراً على الصائم وإفساد الجماع للصيام:

س: بماذا يتحقّق الجماع المفطر للصائم والمفسد لصومه؟

ج: يتحقّق الجماع بإدخال ذكر الرجل في فرج المرأة قبلاً أو دبراً، بلا فرق بين الواطئ والموطوء، ويتحقّق الوطء بإدخال الحشفة في الفرج أو إدخال مقدارها من مقطوع الحشفة.

س: هل إفساد الصوم بالجماع متوقّف على نزول المني أم لا؟

ج: الجماع بنفسه مفطّر للصائم ومحرّم عليه في نهار يجب صومه عليه بلا فرق بين نزول المني وعدم نزوله، وقصد إنزاله أو عدم قصد إنزاله.

س: إذا تحقّق الجماع في نهار يجب صومه على المكلّف سهواً أو ذهولاً منه عن كونه في نهار يجب صومه ما حكمه؟

ج: الجماع المبطل للصوم هو الجماع عن قصد واختيار، وبدون ذلك لا يبطل الصوم.

حرمة الإستمناء وإفساده للصوم إذا صدر نهاراً:

س: هل يجوز الإستمناء في غير أيّام الصوم أم لا؟

ج: الإستمناء الذي هو إخراج المني بقصد واختيار يحرم على المكلّف في جميع أحواله إلاّ في الجماع أو لضرورة تجوز له ذلك، فإذا كان صائماً وتحرّك بما يسبّب إخراج المني منه كان مرتكباً لحرمة الإستمناء وحرمة إبطال الصيام ومبطلاً لصيامه.

س: ما حدّ الإستمناء المبطل للصوم؟

ج: الإستمناء المبطل للصوم هو إخراج المني من مخرجه نهاراً بقصد وإختيار بسبب الملامسة أو التقبيل أو حركة اليد أو غير ذلك ممّا يمكن وقوعه.

س: ما حكم الصائم إذا قبّل أو لامس أو لاعب زوجته في نهار يجب صومه، ولم يكن قاصداً خروج المني فصادف أنّه خرج منه منيّه؟

ج: إذا قبّل الصائم زوجته أو لاعبها نهاراً، وكان من عادته خروج المني بذلك فخرج منه المني بطل صومه وإن لم يقصد خروج المني فعلاً، وإذا لم يكن من عادته فصادف أن خرج منيّه إتّفاقاً لم يبطل صومه.

حرمة الكذب على الله ورسوله وكون الكذب مفسداً للصوم:

س: هل يجوز الكذب على الله ورسوله في غير نهار الصوم أم لا؟

ج: الكذب قبيح بحكم العقل، ومحرّم بحكم الشارع الإسلامي، بلا فرق بين كونه على الله تعالى أو على رسوله أو أحد المعصومين أو أحد من الناس، وأمّا الكذب المبطل لصيام المكلّف فهو الكذب في نهار يجب صومه إذا كان كذباً على الله تعالى أو على رسوله أو على أحد المعصومين، وأمّا الكذب على بقيّة الناس فإنّه محرّم ولكن لا يفسد صيام الصائم.

س: هل حكم الكذب على أحد الأنبياء أو أحد أوصيائهم، بحكم الكذب على نبيّنا محمّد أو على أحد أوصيائه من جهة إبطال الصوم أم لا؟

ج: الكذب على أحد الأنبياء أو على أحد أوصيائهم عمداً في نهار يجب صومه على المكلّف مفطّر له ومفسد لصومه، وحكمه حكم الكذب على نبيّنا محمّد أو على أحد أوصيائه.

س: هل حال الفتوى كذباً عن عمد في الأمر الديني كالخبر أم لا؟

ج: الفتوى كذباً عن عمد في الأمر الديني كالإخبار عن الله أو رسوله، تفسد صيام الصائم إذا صدرت منه وهو صائم.

حرمة إدخال الغبار الغليظ إلى جوف الصائم:

س: ما حدّ الغبار الغليظ المسبّب لفساد الصوم إذا دخل إلى جوف الصائم من فمه؟

ج: الغبار الغليظ هو الذي يمكن أن يحسّ به الملتفت بلا تعمّق في التدقيق عنه، ولا يخفى على عامّة الناس الفرق بينه وبين الغبار الذي يحمله الهواء غالباً ولا تدركه إلاّ بعد الدقّة التامّة.

س: هل يوجد فرق بين غبار التراب وبين غبار الدقيق وغبار يابس الأعشاب أم لا؟

ج: الغبار الذي يدخل إلى حلق الصائم ويبتلعه مفطّر له، سواء كان غبار تراب أو دقيق أو من يابس الأعشاب أو غيره.

س: هل الدخان الكثير كالغبار الغليظ مفسد للصوم أم لا؟

ج: الدخان الكثير إذا دخل إلى حلق الصائم وابتلعه بطل صومه، بلا فرق بين دخان التبغ والحطب وغيره، ومثله البخار الكثير الغليظ.

حرمة الإرتماس على الصائم وكون الإرتماس مفسداً للصوم:

س: ما حدّ الإرتماس بالماء المفسد للصوم؟

ج: الإرتماس المبطل للصوم هو رمس الرأس بتمامه دفعةً في الماء لا في غيره من المائعات.

س: هل يفسد الصوم برمس البدن في الماء مع بقاء الرأس خارجاً عن الماء أم لا؟

ج: رمس البدن في الماء بدون رمس الرأس بتمامه دفعةً واحدة لا يبطل الصوم.

س: ما حكم الصائم إذا ارتمس قهراً أو سهواً بالماء؟

ج: لا يبطل الصوم بإرتماس الصائم في الماء قهراً أو سهواً.

س: إذا وجب على الصائم الإرتماس بالماء لإنقاذ غريق منه ما حكمه؟

ج: يبطل صوم الصائم إذا ارتمس في الماء لإنقاذ الغريق وإن كان يجب عليه الإرتماس لأجل إنقاذه.

س: إذا ارتمس الصائم في الماء للغسل من الجنابة ما حكم صومه وغسله؟

ج: إذا تعمّد الصائم الإرتماس في الماء في نهار يجب صومه لأجل الغسل من الجنابة بطل صومه وغسله إذا كان الصوم واجباً معيّناً، وفي صورة النسيان يصحّ صومه، وأمّا إذا كان الصوم مستحبّاً أو واجباً موسّعاً وتعمّد الإرتماس فصومه باطل وغسله صحيح.

حرمة تعمّد البقاء على الجنابة إلى طلوع الفجر على الصائم وكونه مبطلاً للصوم:

س: ما حدّ تعمّد البقاء على الجنابة إلى طلوع الفجر؟

ج: إذا كان المكلّف بالصيام جنباً في الليل وتعمّد ترك الغسل ليلاً وبقي بلا غسل إلى طلوع الفجر، كان صومه في ذلك النهار باطلاً.

س: هل يختصّ بطلان الصوم بسبب تعمّد البقاء على الجنابة إلى طلوع الفجر بصوم شهر رمضان أم يعمّ غيره؟

ج: تعمّد البقاء على الجنابة من الليل إلى طلوع الفجر مبطل للصوم سواء كان في شهر رمضان أو قضاء شهر رمضان، أو الصيام الواجب بالنذر ونحوه، مضيّقاً كان أو موسّعاً؛ بل الصيام المندوب كذلك.

س: الإصباح على جنابة بلا تعمّد هل يبطل الصوم أم لا؟

ج: إذا أصبح المكلّف جنباً من ليلته بلا تعمّد، فإن كان في شهر رمضان أو في صيام واجب مضيّق لم يبطل صومه، وإن كان في قضاء شهر رمضان مع سعة الزمن لقضائه في غير ذلك اليوم، أو في واجب آخر موسّع بطل صومه.

س: هل الإحتلام في نهار الصوم مبطل للصوم أم لا؟

ج: الجنابة عن إحتلام في النهار الذي يجب صومه لا تبطل الصوم سواء كان الصوم في شهر رمضان أو قضائه أو واجب آخر، بلا فرق بين الموسّع والمضيّق.

س: هل يوجد فرق بين كون الجنابة عن جماع أو احتلام أم لا؟

ج: لا فرق في تعمّد البقاء على الجنابة بين كونها مسبّبة عن جماع أو إحتلام.

س: ما حكم تعمّد البقاء على حدث الحيض أو النفاس إلى طلوع الفجر؟

ج: إذا تحقّق نقاء المرأة من الحيض أو النفاس قبل طلوع الفجر بمقدار يسع الغسل أو التيمّم، وتركت المرأة الغسل أو التيمّم أثمت

ويبطل صومها، وأمّا إذا كان ما بين النقاء وطلوع الفجر لا يسع الغسل أو التيمّم بدلاً عنه صحّ صومها في الواجب المضيّق دون الموسّع.

س: هل يجوز لمن احتلم في النهار وهو صائم أن يؤخّر غسل الجنابة أم لا؟

ج: يجوز لمن احتلم فأجنب في النهار وهو صائم أن يؤخّر غسل الجنابة إلى أن يتضيّق عليه وقت فريضة الصلاة، ولا يضرّ ذلك في صومه؛ بل المبطل للصوم هو الجنابة العمدية.

س: من أجنب ليلاً في شهر رمضان هل يجب عليه الغسل قبل النوم ليلاً أم لا؟

ج: من أجنب ليلاً في شهر رمضان أو في الصيام المضيّق وكان يعلم من عادته أنّه إذا نام لا ينتبه إلى النهار وجب عليه أن يغتسل قبل النوم ليلا، وإذا ترك الغسل ونام إلى النهار كان صومه باطلا لأنّه متعمّد البقاء على الجنابة إلى النهار.

تنبيه:

الذي من عادته الإنتباه من نومه ليلاً وهو يحتمل عدم الإنتباه إذا نام ليلاً مع كونه جنباً في شهر رمضان له أحكام متعدّدة:

س: ما هي الأحكام المختلفة في حقّ الجنب باعتبار نومه ليلاً؟

ج: المجنب ليلاً في شهر رمضان إذا أراد النوم قبل الغسل من الجنابة، ينقسم إلى أقسام متعدّدة، وتختلف أحكامه بحسب أقسامه الآتية:

الأوّل: إذا نام الجنب ليلاً وهو عازم على ترك الغسل إلى النهار، واستمرّ نومه إلى طلوع النهار وهو جنب بطل صومه وكان عليه قضاؤه والكفّارة عنه.

الثاني: إذا نام الجنب ليلاً وهو متردّد في الغسل من الجنابة قبل النهار وعدم الغسل، واستمرّ نومه إلى النهار وهو جنب بطل صومه وكان عليه القضاء والكفّارة.

الثالث: إذا نام الجنب ليلاً وهو ذاهل غافل عن الغسل قبل النهار، واستمرّ نومه إلى النهار وهو جنب فالأحوط أن يقضي يومه، وأحوط من ذلك أن يكفّر عنه.

الرابع: إذا نام الجنب ليلاً وهو عازم على الغسل قبل النهار، وكان من عادته الإنتباه في الليل فاتّفق أن استمرّ نومه إلى النهار وهو جنب فصومه صحيح ولا شيء عليه.

الخامس: إذا نام الجنب ليلاً وهو عازم على الغسل قبل النهار ثمّ انتبه من نومه وقد بقي من الليل مقدار، فنام ثانياً مع عزمه على الغسل قبل النهار واحتماله الإنتباه من قبل النهار واتّفق أن استمرّ نومه إلى النهار وهو جنب، فصومه باطل وعليه قضاؤه ولا يجب عليه التكفير عنه.

السادس: إذا نام الجنب ليلاً وهو عازم على الغسل قبل النهار ثمّ انتبه وقد بقي من الليل مقدار، فنام ثانياً وهو عازم على الغسل قبل النهار ثمّ انتبه وقد بقي من الليل مقدار، فنام ثالثاً وهو عازم على الغسل قبل النهار، ويحتمل الإنتباه، فاتّفق أن استمرّ نومه إلى النهار بطل صومه وعليه قضاؤه والكفّارة عنه.

حرمة الإحتقان بالمائع على الصائم في النهار وبطلان الصوم بالإحتقان:

س: ما حدّ الحقنة بالمائع المفطرة للصائم المسبّبة لبطلان صومه؟

ج: إذا احتقن الصائم نهاراً بمائع من دواء أو غيره، ودخل ذلك المائع إلى جوفه بطل صومه.

س: ما حكم الصائم إذا كان مضطراً إلى الإحتقان بالمائع نهاراً؟

ج: إذا اضطرّ الصائم إلى الإحتقان نهاراً جاز له الإحتقان، وبطل صومه وكان عليه قضاؤه.

س: هل يبطل الصوم بالإحتقان بالجامد من الأدوية إذا وصل إلى الجوف في النهار أم لا؟

ج: إذا احتقن الصائم بالجامد نهاراً لا يبطل صومه، والإحتياط يقضي بقضاء ذلك النهار.

حرمة القيء عمداً على الصائم نهاراً، ومعرفة كونه من مبطلات الصوم:

س: ما هو القيء المبطل للصوم إذا كان عن عمد؟

ج: القيء ما تقذفه المعدة من الطعام والشراب مسبّباً عن عدم إستقامة المزاج، فيخرج من الفمّ قبل أن تعمل فيه القوّة الطبيعية عملها، ويكون بغير الإختيار، كما يكون بالإختيار، وبه يبطل الصوم.

س: ما حكم المكلّف إذا شكّ بأنّ الخارج منه قيء أم غيره؟

ج: تحديد القيء وتمييزه يرجع فيه إلى العرف، وفي صورة الشكّ فيه لا يترتّب عليه حكم القيء ولا يبطل الصوم به.

س: التجشيء إذا خرج معه شيء هل يبطل الصوم أم لا؟

إذا خرج مع التجشيء شيء وصدق عليه أنّه قيء، وكان عن عمد بطل الصوم وإلاّ لم يبطل الصوم.

س: هل يجوز للصائم أن يبتلع ليلاً ما يوجب القيء نهاراً أم لا؟

ج: إذا ابتلع الصائم في الليل ما يوجب القيء نهاراً، وحصل القيء في النهار بطل صومه وكان آثماً في ابتلاعه.

نيّة الصوم وبيان كونها الركن الضروري في كلّ عبادة:

س: ما هي نيّة الصوم التي لا يصحّ الصوم بدونها؟

ج: النيّة هي القصد لإمتثال أمر الله قربةً إلى الله في كلّ عبادة واجبة أو مستحبّة، وفي الصوم هي أن يقصد صوم ذلك النهار إمتثالا لأمر الله قربة إلى الله.

س: هل يجب تعيين نوع الصوم وأنّه بنحو الأداء أو القضاء أم لا؟

ج: يختلف حال الصوم، ففي شهر رمضان يكفي قصد امتثال أمر الله قربة إلى الله، وفي غيره يجب تعيين كون ذلك اليوم قضاءاً عن شهر رمضان، أو كفّارة أو نذراً أو نيابة عن غيره أو ندباً عن نفسه؛ لأنّ شهر رمضان لا يقع فيه غيره، وأمّا بقيّة الأيّام فإنّها قابلة في حدّ ذاتها إلى صوم القضاء، وبقيّة أقسام الصوم، ولذلك وجب أن ينوي الصائم في غير شهر رمضان ما به يتعيّن الصوم الذي يصومه.

س: متى يجب على الصائم أن ينوي الصوم؟

ج: يجب على الصائم أن ينوي الصوم قبل طلوع الفجر حتّى يكون الجزء الأوّل من النهار منوياً صومه، ويجوز تقديم النيّة على طلوع الفجر، ففي أي جزء من الليل نوى صيام النهار المقبل صحّ منه ذلك، ولا يجوز تأخيرها من أوّل الفجر، فإن أخّرها عمداً بطل صومه.

س: ما حكم المكلّف إذا نسي النيّة إلى النهار؟

ج: إذا نسي النيّة إلى النهار، أو جهل أنّ ذلك اليوم من شهر رمضان أو ممّا تعيّن عليه صومه، وجب أن ينوي الصوم فوراً ويصحّ صومه إلى ما قبل الزوال، وأمّا من الزوال إلى الغياب فإنّ إيجادها لا ينفع في صحّة اليوم، فغاية التوسعة للناسي ونحوه أن تتحقّق منه النيّة قبل الزوال.

الأحكام التي ترتبط بالصائم فيما إذا خالف تكليفه:

س: هل يبطل الصوم بارتكاب أحد المفطّرات بدون قصد أم لا؟

ج: إنّما يبطل الصوم بارتكاب أحد المفطّرات عن عمد وقصد، وأمّا ارتكاب أحد المفطّرات عن سهو ونسيان فلا يبطل الصوم.

س: هل يُحسب الإكتحال من المفطّرات للصائم أم لا؟

ج: الإكتحال بما فيه مسك ونحوه ممّا لا يصل طعمه أو رائحته إلى الدماغ مكروه إستعماله في أيّام الصوم وليس مفطراً.

س: هل شمّ الرياحين من المفطّرات أم لا؟

ج: شمّ الرياحين من النباتات لا سيّما النرجس يكره للصائم أن يشمّه نهاراً، وليس من المفطّرات، وأمّا الطيب فيستحبّ شمه للصائم بجميع أنواعه.

س: هل يجوز للصائم أن يذهب إلى مكان يعلم أنّه يُجبر فيه على الإفطار أم لا؟

ج: لا يجوز للصائم أن يذهب إلى مكان يعلم أنّه يجبر فيه على تناول أحد المفطّرات، فإذا فعل وإضطرّ إلى الإفطار بطل صومه لإقدامه على الإفطار.

ترتّب الكفّارة على إفساد الصوم في الموارد التي تجب فيها الكفّارة:

س: متى تجب الكفّارة لإفساد الصوم على من أفسد صومه؟

ج: تجب الكفّارة على من أفسد صومه بارتكاب أحد المفطّرات عن عمد وإختيار من غير كره ولا إجبار.

س: هل تجب الكفّارة في جميع أقسام الصوم أم تجب في بعضها؟

ج: تجب الكفّارة في أربعة أقسام من الصوم:

الأوّل: تجب الكفّارة على من أفطر متعمّداً في شهر رمضان مع وجوب الصوم عليه فيه، وكفّارته مخيّرة بين العتق أو صيام شهرين متتابعين أو إفطار ستّين مسكيناً، والإحتياط بأن يختار العتق، فإن عجز عنه فصيام شهرين متتابعين، فإن عجز فإطعام ستّين مسكيناً، وإذا أفسد صومه بالإفطار على محرم كالميتة والخمر وغير ذلك وجب عليه التكفير بالخصال الثلاثة، وهذه هي كفّارة الجمع.

الثاني: تجب الكفّارة على من أفطر عمداً في قضاء شهر رمضان بعد الزوال، وكفّارته إطعام عشرة مساكين لكلّ مسكين مدّ من الطعام، فإن عجز فصيام ثلاثة أيّام، وإن أفسد صومه في قضاء شهر رمضان قبل الزوال فلا كفّارة عليه.

الثالث: تجب الكفّارة على من أفسد صومه في يوم تعيّن عليه وجوب صومه بالنذر، وكفّارته مثل كفّارة من أفسد صومه في شهر رمضان.

الرابع: تجب الكفّارة على من جامع حال الإعتكاف في المسجد وهو صائم نهاراً أو مفطراً ليلاً؛ لأنّ المعتكف كالمحرم في الحجّ يحرم

عليه ما يحرم على المحرم، ولا تجب الكفّارة على المعتكف لو أفسد صومه حال الإعتكاف بغير الجماع؛ بل إنّما تجب لو جامع حال الإعتكاف كما عرفت، وكفّارته مثل كفّارة شهر رمضان.

س: ما حكم من أكره زوجته في نهار الصيام على الجماع؟

ج: إذا أكره الرجل زوجته في شهر رمضان على الجماع فجامعها عمداً مع وجوب الصوم عليها، وجب عليه أن يكفّر عنه وعنها، ويتحمّل عنها التعزير، وإذا هي أكرهته لا تتحمّل عنه شيئاً.

س: ما حكم من وجبت عليه الكفّارة وأخّرها سنين متعدّدة؟

ج: لا تتكرّر الكفّارة بتأخيرها على من وجبت عليه سنين متعدّدة؛ لأنّ وجوبها موسّع.

الموارد التي يجب فيها القضاء ولا تجب فيها الكفارة:

س: ما هي الموارد التي يفسد فيها الصوم فيجب القضاء دون الكفّارة؟

ج: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من بطل صومه في عشرة أقسام:

الأوّل: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من تناول أحد المفطرات قبل مراعاة الفجر ثمّ تبيّن له أنّ الفجر كان متحقّقاً قبل تناوله للمفطّر، سواء كان قادراً على مراقبة الفجر أو عاجزاً عنها، ومثله من نظر واعتقد عدم طلوع الفجر فأكل أو شرب ثمّ تبيّن له أنّ الفجر كان متحقّقاً قبل تناوله المفطر.

الثاني: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من تناول أحد

المفطّرات في السحر معوّلاً في بقاء الليل على إخبار من أخبره، ثمّ تبيّن له أنّه تناول المفطر بعد طلوع الفجر، وأنّ من أخبره قد اشتبه.

الثالث: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من أكل أو شرب في السحر بعد أن أخبره مخبر بطلوع الفجر فظنّه أنه يسخر به، ثمّ تبيّن له بعد ذلك صدقه، وأن تناوله للمفطر كان في النهار.

الرابع: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من تناول المفطر مساءً اعتماداً على من أخبره بدخول الليل ثمّ تبيّن له أنّه تناول المفطر نهاراً، فإن كان من أخبره يجوز التعويل على خبره، وكان المكلّف عاجزاً عن معرفة الحقيقة، كان عليه القضاء فقط، وإن كان من أخبره لا يجوز التعويل على خبره بدخول الليل، والمكلّف قادراً على معرفة الحقيقة، ومع ذلك عوّل وأكل أو شرب فعليه القضاء والكفّارة.

الخامس: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من أفطر بعد قطعه بدخول الليل لظلمة أوهمته، ثمّ تبيّن له أنّه أفطر في النهار ولم تكن علّة في السماء، أمّا إذا كان في السماء غيم يوجب القطع بدخول الليل فلا قضاء عليه إذا قطع بدخول الليل ثمّ تبيّن اشتباهه.

السادس: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من أدخل الماء في فمه للتبريد ونحوه فسبق الماء إلى جوفه بدون قصد، وإذا كان يتمضمض لأجل الصلاة فسبق الماء إلى جوفه فلا قضاء عليه، بلا فرق بين صلاة الفريضة والنافلة، هذا إذا لم يعلم بأنّه إذا تمضمض يدخل الماء إلى جوفه، وإذا كان يعلم كان متعمّداً لإفساد صومه.

السابع: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من سبقه المني بسبب الملاعبة والملامسة في نهار تعيّن وجوب صومه.

الثامن: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من أجنب ليلاً ونسي غسل الجنابة حتّى مضى يوم أو أيّام تعيّن عليه وجوب صومها، فإذا ذكر وجب عليه الغسل وقضاء تلك الأيّام التي صامها وهو جنب.

التاسع: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من أبطل صومه بسبب الإخلال بالنيّة، أو بسبب نيّة قطع الصوم مع كونه لم يتناول أحد المفطّرات.

العاشر: يجب القضاء ولا تجب الكفّارة على من أجنب ليلاً ثم نام عازماً على الغسل من الجنابة قبل النهار، ثمّ انتبه مع بقاء مقدار من الليل ونام عازماً على الغسل قبل النهار فلم ينتبه حتّى طلع النهار.

فيمن يجب عليه الصوم وفيمن يصحّ منه الصوم:

س: على من يجب صوم شهر رمضان أو غيره بسبب من أسباب وجوبه، وممّن يصحّ الصوم؟

ج: يجب الصوم على من اجتمعت فيه شروط ستّة، ويصحّ الصوم ممّن وجدت فيه الشروط الستّة مع إسلامه وإيمانه.

الأوّل: البلوغ، فالذكر يتحقّق بلوغه إمّا ببلوغ الخمسة عشرة سنة من عمره، أو بالإحتلام بخروج منيّه، ولو قبل الخمسة عشر سنة، أو بإنبات الشعر على عانته ولو قبل الخمسة عشر سنة، والأُنثى يتحقّق بلوغها إمّا ببلوغ التسع سنوات من عمرها، أو بالإنبات أو بالإحتلام، والبلوغ شرط أساسي في جميع التكاليف الربانية والعقلائية، فغير البالغ لا يجب عليه شيء.

تنبيه:

لو بلغ شخص بعد مضي جزء من النهار لا يجب عليه صوم ذلك النهار، نعم يستحبّ له صومه.

الثاني: العقل، ومعرفة العاقل لا تخفى على العقلاء، فلا يجب الصوم ولا غيره على المجنون، ولا يصحّ منه، بلا فرق بين الجنون الإطباقي والأدواري إذا كان في يوم يجب صومه ولو بجزء من ذلك اليوم، وإذا كان جنونه في الليل وجب عليه الصوم في نهاره الذي يجب صومه مع عقله في تمامه.

الثالث: عدم الإغماء الذي يغيب معه الإنسان عن رشده ويفقد معه جملة إحساسه، فلا يجب الصوم على من أصابه الإغماء في النهار يجب صومه، ولو في جزء من ذلك النهار، فإن كان قد نوى الصوم قبل عروض الإغماء عليه وانتبه قبل تمام النهار أتمّ صيامه من باب الإحتياط فقط.

الرابع: عدم المرض الذي يضرّ معه الصوم، أمّا بزيادة المرض بسبب الصوم أو بصعوبة زواله، وعلاجه مع الصوم، وكذلك لو كان الصوم بسبب حدوث المرض، ومعرفة ذلك بإخبار أهل الخبرة من الأطباء الذين يوجب إخبارهم الإطمئنان، فإذا تحقّق ذلك لا يجب الصوم ولا يصحّ.

الخامس: خلوّ المرأة من الحيض والنفاس، فلا يجب الصوم على الحائض ولا على النفساء سواء كان الحيض أو النفاس في تمام النهار الذي يجب صومه أو في جزء منه، نعم يجب على الحائض والنفساء قضاء اليوم الذي فاتها بسبب الحيض أو النفاس.

السادس: الحضر، فلا يجب الصوم على المسافر الذي وجب عليه قصر الصلاة، فمن كان تكليفه إتمام الصلاة كان الصوم واجباً عليه.

س: هل يوجد فرق بين كون السفر قبل الزوال أو بعده بالنسبة لوجوب الصوم وعدمه أم لا؟

ج: إذا سافر المكلّف بالصوم قبل الزوال وجب عليه الإفطار ولا يصحّ صومه، وإذا سافر بعد الزوال وجب عليه الصوم وصحّ صومه.

س: المسافر إذا حضر إلى وطنه أو نوى إقامة عشرة أيّام في غير وطنه ما حكم صومه في ذلك اليوم؟

ج: من كان مسافراً في شهر رمضان فحضر إلى وطنه أو نوى الإقامة مدّة عشرة أيّام في غير وطنه، فإن كان حضوره لوطنه أو نيّة إقامة عشرة أيّام في غير وطنه قبل الزوال ولم يكن تناول أحد المفطرات وجب عليه صوم ذلك اليوم وصحّ منه صومه، وإن كان حضوره لوطنه أو نيّته إقامة عشرة أيّام في غير وطنه بعد الزوال لم يجب عليه صوم ذلك اليوم، ولو لم يكن تناول المفطر، وكذلك لو كان قد تناول المفطر فيما لو كان حضوره قبل الزوال أو نيّته لإقامة العشرة أيّام.

التفكيك بين قصر الصلاة والإفطار وإتمامها ووجوب الصوم:

س: هل يمكن التفكيك بين القصر والإفطار والإتمام والصوم أم لا؟

ج: يمكن التفكيك بين قصر الصلاة ووجوب الإفطار والإتمام والصوم في ثلاثة موارد:

الأوّل: كلّ مسافر إذا كان في أحد الأماكن الأربعة المشرّفة: وهي المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، ومسجد الكوفة، والحائر الحسيني، فهو مخيّر بين أن يصلّي قصراً أو إتماماً، فتصحّ منه الصلاة تماماً ويجب عليه الإفطار ولا يصحّ صومه.

الثاني: المسافر إذا خرج من بلدته بعد الزوال قبل أن يصلّي الفريضة وجب عليه الصوم وصلاته تكون قصراً.

الثالث: المسافر إذا رجع إلى بلده بعد الزوال ولم يكن صلّى الفريضة وجب عليه الإفطار وصلاته تكون تماماً.

أقسام الصوم ونسبتها إلى الأحكام الشرعية في القانون الإسلامي:

س: إلى كم قسم ينقسم الصوم، وهل ينطبق على الأحكام الخمسة في القانون الإسلامي أم لا؟

ج: ينقسم الصوم إلى أقسام أربعة فيكون منطبقاً على أربعة من الأحكام الشرعية: وهي الوجوب، والندب، والحرمة، والكراهة، ولا يكون مباحاً لأنّه عبادة، وكذلك غيره من العبادات.

القسم الأوّل: الصوم الواجب:

في تسعة موارد:

الأوّل: صوم شهر رمضان.

الثاني: صوم الكفّارة.

الثالث: صوم القضاء.

الرابع: الصوم الواجب بالنذر والعهد واليمين.

الخامس: الصوم الواجب بشرط الوفاء به.

السادس: الصوم الواجب بالإجارة.

السابع: الصوم الواجب في الإعتكاف وهو صوم اليوم الثالث.

الثامن: الصوم الواجب في بدل الهدي في حجّ التمتع.

التاسع: الصوم الواجب على الولد الذكر الأكبر قضاءاً عن أبيه.

القسم الثاني: الصوم المندوب:

أي المستحبّ، وهو منصوص عليه من صاحب الدعوة الإسلاميّة

الرسول الأمين محمّد ومن أهل بيته ﷺ، ومـوارده كثيرة جداً: منها صوم الأيّام البيض في كلّ شهر، وصوم شهر رجب وشهر شعبان، وصوم يوم مولد النبي ﷺ ومبعثه، ومن أراد معرفتها ليعلمها أو يعمل بها فعليه بكتب الأدعية والرسائل العملية، ويمكنك أن تعلم بأنّ الصوم تقرّباً إلى الله تعالى مستحبّ في كلّ يوم سوى ما وجب صومه أو حرم أو كره لقلّة ثوابه، والموارد التي ذكرنا بعضها هي أشدّ إستحباباً من غيرها.

القسم الثالث: الصوم المحرّم:

في تسعة موارد:

الأوّل: صوم العيدين عيد الفطر وعيد الأضحى.

الثاني: صوم اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة لمن كان بمنى.

الثالث: صوم يوم الشكّ بنيّة أنّه من شهر رمضان.

الرابع: صوم نذر المعصية.

الخامس: صوم الصمت أي ترك الكلام.

السادس: صوم الوصال أي وصل يوم بيوم صائماً.

السابع: صوم الزوجة في غير الواجب مع نهي زوجها، ومثله صوم المملوك مع نهي مولاه، والولد مع نهي أبويه في غير الواجب مع مزاحمة حقوقهم.

الثامن: صوم المريض ومن يضرّه الصوم.

التاسع: صوم المسافر إلاّ في الموارد المستثناة له.

القسم الرابع: الصوم المكروه:

ـ أي قليل الثواب ـ في أربعة موارد:

الأوّل: صوم اليوم العاشر من المحرّم.

الثاني: صوم يوم عرفة لمن كان يضعفه الصوم عن الدعاء.

الثالث: صوم يوم عرفة مع الشكّ في هلال ذي الحجّة خوفاً من كونه يوم العيد.

الرابع: صوم الضيف بدون إذن من هو في ضيافته.

الطرق التي يثبت بها هلال شهر رمضان وهلال شوال فيجب الصوم في الأوّل والإفطار في الثاني:

س: ما هي الطرق التي يثبت بها هلال شهر رمضان وهلال شوال؟

ج: الطرق المثبتة لتحقّق هلال شهر رمضان وهلال شوال سبعة:

الأوّل: رؤية المكلّف بنفسه الهلال، بلا فرق بين وجود الموانع في الأُفق وعدمها مع جزمه بأنّ ما رآه هو الهلال.

الثاني: العلم الحاصل للمكلّف بسبب رؤيته بالجملة وشهادة غيره له.

الثالث: التواتر، وهو شهادة جماعة كثيرة متّفقين في شهادتهم، يمتنع عادةً تواطؤهم على الكذب أو إشتباههم.

الرابع: الشياع المفيد للعلم برؤية الهلال وتحقّق طلوعه في ذلك الأُفق، ولا ينفع الشياع إذا لم يحصل منه العلم برؤية الهلال.

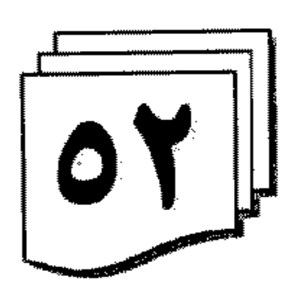
الخامس: إكمال العدّة بمضيّ ثلاثين يوماً من هلال شهر شعبان، أو مضي ثلاثين يوماً من هلال شهر رمضان، فإذا تمّت العدّة في الأوّل وجب الصوم، وإذا تمّت العدّة في الثاني وجب الإفطار، فيقوم إكمال العدّة مقام رؤية الهلال.

السادس: شهادة البيّنة الشرعية، وهي شهادة عدلين من أهل

الإيمـان، معـروفين بالعدالـة عنـد مـن يشـهدان لـه بـلا فـرق بـين الحـاكم الشرعي وغيره بشرط موافقة أحدهما للآخر.

السـابع: حكـم الحـاكم الشـرعي، وهـو العـالم المجتهـد فـي الأحكـام الشـرعية الـذي لـم يعلـم خطـأه ولا خطـأ مسـتنده، فـإذا علـم خطـأه مـن حيـث إسـتناده إلـى الظـنّ المسـتفاد مـن الشـياع أو الإسـتناد إلـى أهـل التقـويم والتنجـيم، أو خطـأ مسـتنده فيمـا علـم كـذب البيّنـة التـي شـهدت لـه لـم يكـن حكمه طريقاً لمن علم خطأه أو خطأ مستنده. انتهى.

* * *



قوله عليه السلام:

فَرَضَ اللّهُ الإيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ ابْتِلاءً لإخْلاصِ الْخَلْقِ، وَالْحَجَّ تَقْرِبَةً لِلدِّينِ، وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلإسْلامِ.

(نهج البلاغة ٤: ٥٥/ ٢٥٢)

[الإيمان مطهر من الشرك]

قال ابن أبي الحديد:

هـذا الفصـل يتضـمّن بيـان العبـادات إيجابـاً وسـلباً، قـال عليه السلام: «فـرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك» وذلك لأنّ الشرك نجاسة حكمية لا عينية، وأي شيء يكـون أنجس من الجهل أو أقبح، فالإيمان هو تطهير القلب من نجاسة ذلك الجهل، «وفرضت الصلاة تنزيهاً من الكبر» لأن الإنسان يقوم فيها قائماً، والقيام مناف للتكبّر وطارد له، ثمّ يرفع يديه بالتكبير وقت الإحرام بالصلاة فيصير على هيأة من يمدّ عنقه ليوسطه السيّاف، ثـمّ يستكتف كما يفعله العبيد الأذلاء بين يدي السادة العظماء ثمّ يركع على هيأة من يمّد عنقه ليضبها السيّاف، ثمّ يسجد فيضع أشرف أعضائه وهو جبهته على أدون المواضع وهو التراب، ثمّ تتضمّن الصـلاة مـن الخضـوع والإمتنـاع مـن الكـلام والحركـة الموهمـة لمـن رآهـا أنّ صاحبها خارج عن الصلاة، وما في غضون الصلاة من الأذكار المتضمّنة الذلّ والتواضع لعظمة الله تعالى، «وفرضت الزكاة تسبيباً للرزق» كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[1] وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[2] «وفرض الصيام ابتلاءاً لإخلاص الخلق» قال النبي صلى الله عليه وآله حاكياً عن الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به» وذلك لأنّ الصوم أمر لا يطلع عليه أحد، فلا

---

(١) سبأ: ٣٩.

(٢) البقرة: ٢٤٥.

يقوم به على وجهه إلاّ المخلصون، «وفرض الحجّ تقوية للدين» وذلك لما يحصل للحاجّ في ضمنه من المتاجر والمكاسب، قال الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ﴾[1] وأيضاً فإنّ المشركين كانوا يقولون: لولا أنّ أصحاب محمّد كثيرة وأولو قوّة لما حجّوا، فإنّ الجيش الضعيف يعجز عن الحج من المكان البعيد.

«وفرض الجهاد عزّاً للإسلام» وذلك ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيراً﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[3] [4].

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

أشار عليه السلام إلى فرائض الله، ونبّه على عللها الغائية في الحكمة، ليكون أوقع لذكرها في النفوس، وذكر منها تسع عشرة فريضة:

الأولى: بدأ بالإيمان؛ لأنّه الأصل لجميع الفرائض والسنن، وجعل من أغراضه التطهير عن الشرك، ولمّا كان للتطهير من الشرك غاية مطلوبة للشارع وهي كمال النفس بمعرفة الله تعالى كان التطهير غاية غرضه من الإيمان.

---

(١) الحج: ٢٨.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) الأنفال: ٦٠.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٩: ٨٦.

الثانية: الصلاة، ولمّا كان وضعها لتطويع النفس الأمّارة التي هي مبدأ الكبر للنفس المطمئنّة ورياضتها وقهرها لا جرم كان من غاياتها تنزيه الإنسان عن الكبر.

الثالثة: الزكاة، وذكر من غايات فرضها كونها سبباً للرزق، إذ كان منها رزق الفقراء والمساكين، ومن عيّنتها الشريعة حقّاً له.

الرابعة: الصيام، ولمّا كان من الشدائد الشاقة على الأبدان خصّه بأنّ غايته كونه إبتلاء من الله لإخلاص خلقه، وإن كانت هذه غاية من كلّ العبادات.

الخامسة: الحجّ، وإنما جعل غايته كونه تقوية للدين؛ لأنّه عبادة تستلزم اجتماع أكثر أهل الملّة في مجمع واحد على غاية من الذلة والخضوع والإنقياد لله، ومشاهدة كلّ من الخلق الحاضرين لذلك الجمع العظيم من الملوك وغيرهم، فيتأكّد في قلبه قوّة الدين في عظمته دون سائر العبادات.

السادسة: الجهاد، وكون غايته عزّ الإسلام وقوّته ظاهر...[1]

* * *

قال الشيخ ابن مغنية:

المراد بالإيمان هنا التوحيد، المقابل للشرك بدلالة قول الإمام عليه السلام: «فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك» وتسمّى كلمة التوحيد بكلمة التنزيه والإخلاص والتجريد، لأنها تجرّد الذات الإلهية القدسية عن المادّة والمثيل، وأيضاً تجرّد البشرية عن صفات الألوهية، وعن حقّ

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٧٩.

السيطرة والإستغلال، وتبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم امتيازاً على غيرهم، وتضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات.

«والصلاة تنزيهاً عن الكبر» لأنها خضوع وخشوع وسجود وركوع.

«والزكاة تسبيباً للرزق» تماماً كالضمان الإجتماعي.

«والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق» حيث لا رقيب على الصائم إلاّ الله، ومن لا يخلص لخالقه لا يخلص لنفسه ولا لوطنه وأُمّته.

«والحجّ تقربةً للدين» أي لأهل الدين حيث يجتمعون في آن واحد، ومكان واحد، وفي زيّ واحد، وينشدون نشيداً واحداً.

«والجهاد عزاً للإسلام» وبه نما وانتشر، وأيضاً به تقدّم المسلمون في كلّ ميدان، ولمّا تركوه ذلّوا وتخلّفوا.[1]

* * *

[الجهاد في الإسلام]:

أقول: قال البستاني في (دائرة المعارف):

الجهاد في إصطلاح الشرع محاربة من ليس بمسلم، ويسمّى بالمغازي أيضاً، وله عندهم فضل عظيم لبذل النفس فيه وركوب المشقّات والمخاطر، وقد جعله النبي ﷺ في الفضل بعد الصلاة وبرّ الوالدين، وسئل أيضاً: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله ورسوله ثمّ الجهاد في سبيل الله».

وإن كان المقصود فيه الطمع في الغنيمة فلا فضل فيه ولا أجر

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٣٦٥.

لصاحبه، ولكن إذا قصد الجهاد بالحقيقة ثمّ طمع في الغنيمة فذلك غير منكر، كما تصحّ التجارة في طريق الحجّ.

وحدّ الجهاد في كتب الشرع الدعاء إلى الدين الحقّ، وقتال من لم يقبله، وقيل هو بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرةً أو معاونة بمال أو رأي أو تكثير سواد أو غير ذلك.

والجهاد فرض كفاية لا فرض عين، وأمر به إبتداءاً وعليه ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾(١) وتحريمه في الأشهر الحرم منسوخ، وعلى ذلك الآية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾(٢).

ولا يفرض الجهاد على صبي ولا على بالغ منعه أبواه أو أحدهما؛ لأن طاعة الوالدين فرض عين وهو مقدّم على فرض الكفاية، ولا على عبد، ولا على امرأة، ولا أعمى، ولا مقعد.

والجهاد يكون فرض عين إذا هجم العدو فيخرج الكل، ولكن لابدّ من الإستطاعة، فلو كان مريضاً غير مستطيع الخروج لم يفرض عليه...

* * *

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) التوبة: ٥.

لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[(١)].

تتضمّن الآيات إذناً للمؤمنين في القتال، وهي كما قيل: أوّل ما نزلت في الجهاد، وقد كان المؤمنون منذ زمان يسألون النبي ﷺ أن يأذن لهم في قتال المشركين، فيقول لهم: لم أُؤمر بشيء في القتال، وكان يأتيه كلّ يوم وهو بمكّة قبل الهجرة أفراد من المؤمنين بين مضروب ومشجوج ومعذّب بالفتنة يشكون إليه ما يلقونه من عتاة مكّة من المشركين، فيسلّيهم ويأمرهم بالصبر وإنتظار الفرج حتّى نزلت الآيات، وهي تشتمل على قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ...﴾[(٢)] الآية.

وهي ــ كما تقدّم ــ أوّل ما نزلت في الجهاد، وقيل: أوّل ما نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[(٣)] وقيل: إنّه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾[(٤)].

والاعتبار يستدعي أن تكون آية سورة الحجّ هي التي نزلت أوّلاً، وذلك لاشتمالها على الإذن صريحا واحتفافها بالتوطئة والتمهيد وتهييج القوم وتقوية قلوبهم وتثبيت أقدامهم بوعد النصر تلويحاً وتصريحاً، وذكر ما فعل الله بالقرى الظالمة قبلهم،وكلّ ذلك من لوازم تشريع الأحكام الهامّة وبيانها وإبلاغها لأوّل مرّة، وخاصّة الجهاد الذي بناؤه على أساس التضحية والتفدية، وهو أشقّ حكم اجتماعي وأصعبه في

---

(١) الحج: ٣٨ - ٤١.

(٢) الحج: ٣٩.

(٣) البقرة: ١٩٠.

(٤) التوبة: ١١١.

الإسلام وأمسّه بحفظ المجتمع الديني، قائماً على ساقه، فإنّ إبلاغ مثله لأوّل مرّة أحوج إلى بسط الكلام واستيقاظ الأفهام كما هو مشاهد في هذه الآيات.

فقد افتتحت أوّلاً بأنّ الله هو مولى المؤمنين المدافع عنهم، ثمّ نصّ على إذنهم في القتال وذكر أنّهم مظلومون والقتال هو السبيل لحفظ المجتمعات الصالحة، ووصفهم بأنّهم صالحون لعقد مجتمع ديني يعمل فيه الصالحات، ثمّ ذكر ما فعله بالقرى الظالمة قبلهم وأنّه سيأخذهم كما أخذ الذين قبلهم.

قال السيد قطب في تفسيره عند ذكر هذه الآيات:

إنّ قوى الشّر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرّة بين الخير والشرّ والهدى والضلال، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان.

والشرّ جامح والباطل مسلّح. وهو يبطش غير متحرّج، ويضرب غير متورّع، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه، وعن الحقّ إن تفتّحت قلوبهم له، فلابدّ للإيمان والخير والحق من قوّة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم.

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزّلاً تكافح قوى الطغيان والشرّ والباطل، إعتماداً على قوّة الإيمان في النفوس وتغلغل الحقّ في الفطرة، وعمق الخير في القلوب، فالقوّة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطرة. وللصبر حدّ وللإحتمال أحد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه. والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم. ومن ثمّ لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلاّ ريثما

يستعدّون للمقاومة، ويتهيأون للدفاع ويتمكّنون من وسائل الجهاد.. وعندئذٍ أذن لهم في القتال لردّ العدوان.

وقبل أن يأذن لهم بالإنطلاق إلى المعركة آذنهم أنّه سيتولّى الدفاع عنهم فهم في حمايته، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وأنّه يكره أعدائهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

وأنّه حكم لهم بأحقيّة دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية، فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطّرين ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾.

وأنّ لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إيّاهم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

وأنّ لهم ما يبرّر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمّة إنسانية كبيرة، لا يعود خيرها عليهم وحدهم، إنّما يعود على الجبهة المؤمنة كلّها؛ وفيها ضمان لحريّة العقيدة وحرية العبادة، وذلك فوق أنّهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حقّ ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، وهي أصدق كلمة أن تقال، وأحق كلمة بأن تقال.

ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم، فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين، وهو التجرّد من كلّ هدف شخصي من ناحية المعتدين عليهم، إنّما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض التي تشتجر فيها الأطماع، وتتعارض فيها المصالح، وتختلف فيها الإتّجاهات وتتضارب فيها المنافع!

ووراء هذه كلّها تلك القاعدة العامّة.. حاجة العقيدة إلى الدفع

عنها، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان، والبيع للنصارى عامّة وهي أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهود، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

وهي كلّها معرّضة للهدم ـ على قداستها وتخصيصها لعبادة الله ـ لا يشفع لها في نظر الباطل أنّ اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلاّ دفع الله الناس بعضهم ببعض، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، يعتدون على أهلها، فالباطل متبجّح لا يكفّ ولا يقف عن العدوان إلاّ يدفع بمثل القوّة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحقّ أنّه الحقّ ليقف عدوان الباطل عليه؛ بل لابدّ من القوّة تحميه وتدفع عنه، وهي قاعدة كليّة لا تتبدّل ما دام الإنسان هو الإنسان!

ولا بدّ من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة،وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة.

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون، واعتدى عليهم المبطلون بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأنّه يكره المعتدين عليهم من الكفّار الخائنين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنّه هو تعالى يدافع عنهم، ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتماً من عدوّه، ظاهر حتماً على عدوّه. ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح، والجهد والمشقّة، والتضحية والآلام... والعاقبة معروفة،

والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقّة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب: أنّ حكمة الله في هذه هي العليا، وأنّ لله الحجّة البالغة.. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا، أنّ الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من (التنابلة) الكسالى، الذين يجلسون في استرخاء، ثمّ يتنزّل عليهم نصره سهلا هيّناً بلا عناء، لمجرّد أنّهم يقيمون الصلاة ويرتّلون القرآن ويتوجّهون إلى الله بالدعاء كلّما مسّهم الأذى ووقع عليهم الإعتداء!

نعم إنّهم يجب أن يقيموا الصلاة، وإن يرتّلوا القرآن، وأن يتوجّهوا إلى الله بالدعاء في السرّاء والضرّاء.

ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهّلهم لحمل دعوة الله وحمايتها؛ إنّما هي الزاد الذي يتزوّدونه للمعركة، والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والإتّصال بالله.

ولقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتمّ عن طريقهم أنفسهم، كي يتمّ نضجهم هم في أثناء المعركة.

فالبيّنة الإنسانية لا تستيقظ كلّ الطاقات المذكورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كلّ قوّتها لتواجه القوّة المهاجمة.. عندئذ تتحفّز كلّ خلية بكلّ ما أودع فيها من إستعداد لتؤدّي دورها؛ ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، ولتؤتي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوي عليه؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيّأة له من الكمال.

والأُمّة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كلّ خلاياها، واحتشاد كلّ قواها، وتوفّر كلّ استعدادها، وتجمع كلّ طاقاتها، كي يتمّ نموها، ويكمل نضجها، وتتهيّأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلّف عناء، والذي يتنزّل هيّناً ليّناً على القاعدين المستريحين، يعطّل تلك الطاقات عن الظهور؛ لأنّه يحفّزها ولا يدعوها...

وذلك فوق أنّ النصر السريع الهيّن الليّن سهل فقدانه وضياعه، أوّلاً لأنّه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة، وثانياً لأنّ الذين نالوه لم تدرّب قواهم على الإحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه، فهي لا تتحفّز ولا تتحشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية، تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة والكرّ والفرّ، والقوّة والضعف والتقدّم والتقهقر، ومن المشاعر المصاحبة لها من الأمل والألم، ومن الفرح والغمّ، ومن الإطمئنان والقلق، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوّة.. ومعها التجمّع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الإتّجاهات في ثنايا المعركة، وقبلها وبعدها، وكشف نقاط الضعف ونقاط القوّة،وتدبير الأُمور في جميع الحالات.. وكلّها ضرورية للأُمّة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

[تأخر النصر لا يعني الفشل]:

من أجل هذا كلّه، ومن أجل غيره ممّا يعلمه الله.. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتمّ عن طريقهم هم أنفسهم؛ ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا: ربّنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

قد يبطئ النصر لأنّ بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتمّ بعد تمامها، ولم تحشّد بعد طاقاتها، ولم تتحفّز كلّ خلية وتتجمّع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى استعدادات، فلو نالت النصر حينئذٍ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً!

وقد يبطئ النصر حتّى تبذل الأمّة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوّة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبذله هيّناً رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر حتّى تجرّب الأمّة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أنّ هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، إنّما يتنزّل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثمّ تكلّ الأُمور بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأُمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألّم وتبذل؛ ولا تجد لها سنداً إلاّ الله، ولا متوجّهاً إلاّ إليه وحده في الضرّاء. وهذه الصلة هي الضمانة الأُولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذّن به الله، ولا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

وقد يبطئ النصر لأنّ الأمّة المؤمنة لم تتجرّد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحقّقه، أو تقاتل حميّة لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده في سبيله، بريئاً من المشاعر الأُخرى التي تلابسه، وقد سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حميّة والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى

[مكانه][1] فأيّها في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».[2]

كما قد يبطئ النصر لأنّ في الشرّ الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقيّة من خير، يريد الله أن يجرّد الشرّ منها ليتمحّض خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبّس به ذرّة من خير تذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر لأنّ الباطل الذي تحاربه الأُمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله؛ فتظلّ له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتّى ينكشف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقيّة!

وقد يبطئ النصر لأنّ البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحقّ الخير والعدل الذي تمثّله الأُمّة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقرّ لها معها قرار، فيظلّ الصراع قائماً حتّى تتهيّأ النفوس من حوله لاستقبال الحقّ الظافر، ولإستبقائه!

من أجل هذا كلّه، ومن أجل غيره ممّا يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذّن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيّؤ الجو لإستقباله وإستبقائه.

---

(١) من المصدر.

(٢) ميزان الحكمة ٢: ١٢٤٨؛ صحيح ابن حبان ١٠: ٤٩٣، مع اختلاف في اللفظ.

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.[١]

فوعد الله المؤكّد الوثيق المتحقّق الذي لا يتخلّف، هو أن ينصر من ينصره.. فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله فيستحقّون نصر الله، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاّه؟ إنّهم هؤلاء:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.. فحقّقنا لهم النصر، وثبّتنا لهم الأمر.. ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.. فعبدوا الله ووثّقوا صلتهم به، واتّجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين.. ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾.. فأدّوا حقّ المال، وانتصروا على شحّ النفس، وتطهّروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدّوا خلّة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج، وحقّقوا لها صفة الجسم الحي كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».[٢]

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾.. فدعوا إلى الخير والصلاح، ودفعوا إليه الناس.. ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.. فقاوموا الشرّ والفساد، وحقّقوا بهذا وذاك صفة الأمّة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه..

هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معتزّين بالله وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

---

(١) الحج: ٤٠ و٤١.

(٢) كنز العمال ١: ١٤٩/ ح ٧٣٧؛ ونحوه في مجمع البيان ١: ٢٨٨.

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعبائه.. والأمر بعد ذلك لله، يصرفه كيف يشاء فيبدّل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة، عندما تختلّ القوائم أو تهمل التكاليف، ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.. إنّه النصر الذي يؤدّي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة. من إنتصار الحقّ والعدل والحرية المتّجهة إلى الخير والصلاح، المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلّها الأشخاص والذوات، والمطامع والشهوات..

وهو نصر له سببه وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه، فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة، ولا يبقى لأحد لا يحقّق غايته ومقتضاه.

* * *

قال عفيف عبد الفتّاح طبّاره في كتابه (روح الدين الإسلامي) عند ذكر الآيات:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

تناولت هاتان الآيتان الإذن بالقتال، وعلّلت هذا الإذن بما مني به المسلمون من الظلم والإعتداء، وما أكرهوا عليه من الخروج من الديار والأوطان بغير الحقّ، ثمّ ذكر الله انّه لولا القتال وما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء في كلّ عصر، لهدّمت في شريعة كلّ نبي

(١) الحج: ٣٩ و ٤٠.

معابد أمّته، فهدّمت صوامع الرهبان وبيع النصارى، وصلوات اليهود، ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيراً.

ثمّ بيّن القرآن الواجب بعد النصر وبعد قهر المؤمنين المشركين، عقب الآيات التي ذكرناها ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

فليست الغاية من النصر توسّعاً في الملك كما تفعل الدول المستعمرة، ولا وضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض، ولا علوّاً وإستكباراً في الأرض لكي يكون جنس أعلى من جنس، ولكن لغاية واضحة وهي: أن يقيموا الصلاة، أي أنّهم توجّهوا إلى السموّ الروحي من عبادة الله وتطهير أنفسهم، وآتوا الزكاة، أي انّهم حقّقوا العدالة الإجتماعية من إعطاء المحتاجين حقّهم في هذه الحياة، وأمروا بالمعروف، أي أشاعوا الخير والحقّ بين الناس، ونهوا عن المنكر، أي حاربوا الشرّ والفساد واستأصلوها من المجتمع.

والنبي إذا قاتل فإنّما يقاتل لردّ العدوان، وقد كان مأموراً به من قبل الله، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2].

تأمر هذه الآيات أن يقاتل المسلمون في سبيل الله الذين يقاتلونهم، وتأمرهم بتتبّعهم حيث وجدوا وتشتيتهم كما شتّتوهم من

---

(١) الحج: ٤١.
(٢) البقرة: ١٩٠ – ١٩٣.

قبل، وتنهاهم عن الإعتداء، وتؤكّد هذا النهي بعدم محبّة الله للمعتدين، ثمّ ترشد إلى أنّ إخراج الناس من ديارهم وترويعهم في أمنهم وإيذائهم ليحرموهم من دينهم، هو فتنة أشد قبحاً من القتل، إذ لا بلاء على الإنسان أشدّ من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده، الذي تمكّن من عقله، فيجب مقاتلة المثيرين لهذه الفتنة، ثمّ تمنع المسلمين عن القتال في الأماكن المقدسة، فإن انتهكت حرمتهم فيها ساغ لهم أن يردّوا العدوان مثلاً بمثل، ثمّ تختتم هذه الآيات إلى بيان الغاية التي تنتهي بها الحرب وهي: ألاّ تكون فتنة في الدين، وأن يكون الدين لله ليحصل الناس على حريّتهم الدينية من غير اضطهاد.

القتال في سبيل الله:

الأمّة الإسلاميّة مكلّفة بتحقيق العدالة في الأرض، وهذا التكليف يقتضي (من) المسلمين أن يكافحوا الظلم والبغي حيث كانوا ويزيلوا أسبابه، لا ليملكوا الأرض ويستولوا على المرافق، ويستذلّوا الأنفس؛ بل لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كلّ غرض، وهذا ما يطلق عليه في الإسلام (الجهاد في سبيل الله) و(القتال في سبيل الله).

وسبيل الله هو سبيل الحقّ، فكلّ قتال لأجل الدين والدفاع عنه فهو في سبيل الله، وكلّ قتال لدفع الظلم، ومعاونة المظلومين ضدّ الظالمين ونصرة الحقّ هو من القتال في سبيل الله، وكلّ طريق للوصول إلى الحقّ أو حمايته أو الدفاع عنه هو من سبل الله سبحانه وتعالى.

والقرآن يدعو في كثير من الآيات للقتال في سبيل الله خالصاً من أي غرض دنيوي، أنظر إلى هذه الآيات التي نزلت على الرسول وهو في

المدينة المنوّرة، والتي تبيّن أهداف القتال، ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[1].

ففي هاتين الآيتين لفت لطيف إلى أنّ الحرب في الإسلام ليست للتحكّم في الرقاب ولإذلال العباد؛ بل هي في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من المؤمنين الساكنين في مكّة الذين استذلّهم أهل مكّة الكفّار، وآذوهم أشدّ الإيذاء ليمنعوهم من الهجرة،وليفتنوهم عن دينهم، هؤلاء المستضعفون الذين فقدوا النصير واستعانوا بالله، فعليكم أيّها المؤمنون أن تنصروهم وترفعوا عنهم الظلم.

ثمّ قال تعالى بعد ذلك عقب الآيتين التي ذكرناهما: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[2].

والطغيان حسب ما نصّت عليه معاجم اللغة هو مجاوزة الحدّ، وكلّ شيء جاوز المقدار والحدّ في العصيان فهو طاغ، يقال طغا السيل: ارتفع حتّى جاوز الحدّ في الكثرة. وكذلك إذا تجاوز الإنسان الحدّ وعلا في الأرض يفسد فيها، ويستعبد الناس ويسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الأرض وخيراتها، فذلك هو (القتال في سبيل الطاغوت) الذي ندّد به الله وجعله شعار الكفّار.

---

(١) النساء: ٧٤ و٧٥.

(٢) النساء: ٧٦.

أمّا القتال في سبيل الله فهو الذي غايته أن يرفرف القانون الإلهي العادل على العالمين، دون أن يكون هناك غاية شخصية أو علو في الأرض كما أمر به تعالى ﴿نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[١]

وقد ورد في الحديث أنّه قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وآله: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال صلى الله عليه وآله: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».[٢]

فالإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبداً، لتحقيق كلمة الله في الأرض، أي لتحقيق النظام الصالح الذي يسعد البشرية، والأُمّة الإسلاميّة منتدبة لرفع الظلم عن الأفراد والجماعات في أقطار الأرض كافّة بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم...

ومن مزايا الشريعة الإسلاميّة أنّها شريعة عملية، تواجه الحقائق البشرية بالحلّ العملي، فما دامت الموعظة الحسنة لا تردّ الظلم والإعتداء، وما دام العقيدة، فإن الحرب واقعة بين الناس، ولهذا أمر الإسلام بالإستعداد لها، وأخذ الأهبّة للحرب.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾.[٣]

أمر الله المسلمين في هذه الآية بأن يستعدّوا لأعدائهم بكلّ ما يستطيعون من قوّة، وهو أمر لا يختصّ بزمان ولا بفريق من الناس، ولفظ

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) ميزان الحكمة ٢: ١٢٤٨؛ مسند أحمد ٤: ٤٠٢، وفيه: (ليذكر) وليس (للذكر).

(٣) الأنفال: ٦٠.

القوّة عام في كل (ما) يتقوّى به على حرب العدو، وكلّ ما هو آلة للحرب من الحصون وأسلحة البرّ والبحر والهواء على اختلاف أنواعها وأشكالها بحسب الأزمنة والأمكنة المختلفة، ومصانع الذخيرة، وكل ما يفيد في صلاحية الأمّة للحرب، كإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب، وغير ذلك ممّا يجعل الأُمّة قوية مرهوبة الجانب.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ يعني حبسها واقتنائها، وقد أمر الله بإعداد رباط الخيل؛ لأنّ الخيل كانت مركب الحرب في زمن الرسول، فإذا تغيّر الزمان وصار مركب الحرب سفناً حربية وطائرات وسيارات مصفّحة، وجب على المسلمين أن يعدّوا ذلك؛ لأن الأمر بإعداد رباط الخيل ليس لذات الخيل؛ بل لأنّها مركب الحرب، فإذا صار مركب الحرب شيئاً غيرها أقوى منها إنتقل الأمر إليه.

والقصد من إعداد هذه القوى إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدّي على بلاد الأمّة الإسلاميّة ومصالحها، ولأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، وهذا ما يسمّى في عرف هذا العصر بالسلم المسلّح، وقد أوجبه الإسلام قبل أن يعرفه أهل أوروبا بزمن طويل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

ثمّ حضّ الإسلام المؤمنين على إنفاق المال في سبيل الله لإعداد القوى العسكرية التي أقرّ بها، إذ لا يتمّ بدون المال شيء منه، فقال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[1] فقد وعد الله المؤمنين بأنّ ما ينفقونه في سبيل الله قلّ أو كثر يجزون عليه في الدنيا والآخرة جزاءً وافياً.

---

(١) الأنفال: ٦٠.

والقرآن في آية أُخرى جعل ترك إنفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة، ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[١] والمعنى: لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم بترك الإنفاق فيغلبكم العدو، لأنّ عدم إنفاق المال في الإستعداد للقتال يضعفكم ويمكن الأعداء من نواصيكم فتهلكون.

القوّة المعنوية:

وسلاح المسلمين في الحرب على نوعين: سلاح مادّي، وسلاح معنوي.

فالسلاح المعنوي ما وقّر في القلب وثبت في الصدر، ألا وهو الإيمان الكامل بالله، وأنّهم يقاتلون في سبيله، وهذا العتاد المعنوي يعتمد على أُمور:

منها: أن الله معهم في حربهم يمدّهم بالملائكة، وأنّه سبحانه سيقذف في قلوب أعدائهم الرعب فما يطيقون حرباً.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.[٢]

فما ظنّك بهذا الجيش الذي يسمع أنّ الله معه يمدّه بالملائكة، ثمّ يسمع من آيات التشجيع أن الفئة القليلة التي تقاتل في سبيل الله تغلب فئة كثيرة من أعدائها، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.[٤]

---

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) الأنفال: ١٢.

(٣) البقرة: ٢٤٩.

(٤) الأنفال: ٦٥.

فهؤلاء العشرون الذين يغلبون مائتين، والمائة الذين يغلبون ألفاً، وهذه الفئة القليلة التي تغلب الفئة الكثيرة كانت تمتاز بسلاح روحي يغطّي عجزها من حيث الكمية ويجعلها تتفوّق على خصمها الذي يفوقها عدداً.

ومنها: أنّ الله فتح أمام الجنود الذين يقاتلون في سبيله باب الأمل، مبيّناً ما أعدّه من الجزاء العظيم والأجر الكبير الذي ينتظرهم في الآخرة، قال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.[1]

ومنها: أنّ الله رغّب المؤمنين في القتال في سبيله وحبّبه إلى قلوبهم بأنّ عاقبته ستكون لهم في حالتي البقاء والإستشهاد، فإذا ظلّوا أحياءاً كان لهم الإستخلاف في الأرض، ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[2] وإذا استشهدوا كانت لهم الجنّة، ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.[3]

ثمّ نجد القرآن يسلك تعبيراً آخر يعيد الطمأنينة إلى النفوس ويهدئ من إضطرابها، فيعطيها وثيقة بالحياة بعد الموت، وأنّ هذا الإستشهاد في سبيل الله ليس موتاً أبدياً؛ بل أنّ هؤلاء المستشهدين لا

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٢) النور: ٥٥.

(٣) آل عمران: ١٥٧.

يزالون أحياءاً في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١).

وقد تنوّعت أساليب القرآن في هذا الصدد ترغيباً في الجهاد وتشويقاً إليه، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢).

ففي هذه الآية قرّب الله الجهاد إلى النفوس، وجعله بيعاً وتجارة تمثيلاً بما يتعاطاه المرء من البيع والشراء مع البشر، ولكن هنا بيع وشراء، الله هو المشتري والعبد هو البائع، ولا أحد أصدق من الله في عهده ووعده، ثمّ جعل الله الجنّة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوها في سبيله استحقّوا الثمن.

وكما رغّب الله المؤمنين القتال في سبيله؛ وحبّبه إلى نفوسهم، وشوقهم في ثواب الدار الآخرة وجزائها الحسن، نجده في مواطن أخرى يحذّرهم من ترك الجهاد في سبيله، وينذرهم من أن يرضوا بالحياة الدنيا، وأنّ الدنيا لا يقاس المقام فيها بمقام الآخرة.

أنظر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) التوبة: ١١١.

(٣) التوبة: ٣٨.

ثمّ ينتقل إلى التحذير فيقول: ﴿إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كلّ شيءٍ قدير﴾.[١]

ينذرهم الله إذا هم تثاقلوا عن تلبية الدعوة إلى الجهاد بالعذاب الأليم، عذاب الذلّ والإستعباد، وانتقال الملك والسلطان إلى قوم غيرهم. انتهى.

* * *

أخبار وآثار: باب فضل الجهاد:

في (المجلّد الخامس):[٢] من (فروع الكافي):

عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن عليّ بن الحكم، عن عمر بن أبان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخير كلّه في السيف وتحت ظلّ السيف، ولا يقيم الناس إلاّ السيف، والسيوف مقاليد الجنّة والنار».[٣]

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للجنّة باب يقال له: باب المجاهدين، يمضون إليه فإذا هو مفتوح وهم متقلّدون بسيوفهم والجمع في الموقف، والملائكة ترحّب بهم»، ثمّ قال: «فمن ترك الجهاد ألبسه الله عزّ وجلّ ذلاً

---

(١) التوبة: ٣٩.

(٢) ص ٢.

(٣) إنما كان الخير كلّه في السيف وتحت ظلّ السيف؛ لأنّه به يسلم الكفّار، وبه يستقيم الفجّار، وبه ينتظم أُمور الناس، لما فيه من شدّة البأس، وبه يثاب الشهداء، وبه يكون الظفر على الأعداء، وبه يغنم المسلمون ويفيء إليهم الأرضون، وبه يؤمن الخائفون، وبه يعبد الله المؤمنون. والمقاليد: المفاتيح، يعني أنّ السيوف مفاتيح الجنّة للمسلمين ومفاتيح النار للكفّار. قال المجلسي رحمه الله: كونها مقاليد الجنّة إذا كان بإذن الله، وكونها مقاليد النار إذا لم تكن بإذنه. المؤلف رحمه الله.

وفقراً في معيشته ومحقاً في دينه، إن الله عز وجل أغنى أُمّتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها».

وبإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خيول الغزاة في الدنيا خيولهم في الجنّة، وإنّ أردية الغزاة لسيوفهم».

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «أخبرني جبرئيل عليه السلام بأمر قرّت به عيني وفرح به قلبي، قال: يا محمّد من غزا من أُمّتك في سبيل الله فأصابه قطرة من السماء أو صدع كتب الله عز وجل له شهادة».

عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن بعض أصحابه، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصمّ، عن حيدرة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الجهاد أفضل الأشياء بعد الفرائض».

أحمد بن محمّد بن سعيد، عن جعفر بن عبد الله العلوي؛ وأحمد بن محمّد الكوفي، عن عليّ بن العبّاس، عن اسماعيل بن إسحاق جميعاً، عن أبي روح فرج بن قرّة، عن مسعدة بن صدقة قال: حدّثني ابن أبي ليلى، عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه وسوّغهم كرامة منه لهم ونعمة ذخرها، والجهاد هو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء وفارق الرضا وديّث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالأسداد، وأُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد، وسئم الخسف ومنع النصف...».

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن الحكم، عن أبي حفص الكلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله عز وجل

بعث رسوله بالإسلام إلى الناس عشر سنين، فأبوا أن يقبلوا حتّى أمره بالقتال، فالخير في السيف وتحت السيف والأمر يعود كما بدأ».

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ فرض الجهاد وعظّمه وجعله نصره وناصره، والله ما صلحت دنيا ولا دين إلاّ به».

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «اغزوا تورّثوا أبناءكم مجداً».

وبهذا إسناد أن أبا دجانة الأنصاري اعتمّ يوم أُحد بعمامة له وأرخى عذبة العمامة بين كتفيه حتّى جعل يتبختر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ هذه لمشية يبغضها الله عزّ وجلّ إلاّ عند القتال في سبيل الله».

عليّ، عن أبيه عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «جاهدوا تغنموا».

ولنكتف بهذا القدر اليسير من باب الأحاديث وإلاّ فهو باب طويل المدى.

* * *



قوله عليه السلام:

عِظَمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ.

(نهج البلاغة ٤: ٣٠/ ١٢٩)

[عظمة الله في قلب المؤمن]

قال ابن أبي الحديد:

لا نسبة للمخلوق إلى الخالق أصلاً، وخصوصاً البشر؛ لأنّهم بالنسبة إلى فلك القمر كالذّرة بالنسبة إلى قرص الشمس؛ بل دون هذه النسبة بما يعجز الحاسب الحاذق عن حسابه، ذلك وفلك القمر بالنسبة إلى الفلك المحيط دون هذه النسبة، ونسبة الفلك المحيط إلى الباري سبحانه كنسبة العدم المحض والنفي الصرف إلى الموجود الثابت؛ بل بهذا القياس أيضاً غير صحيح؛ لأنّ المعدوم يمكن أن يصير موجوداً ثابتاً، والفلك لا يتصوّر أن يكون صانع العالم الواجب الوجود لذاته.

وعلى الجملة فالأمر أعظم من كلّ عظيم وأجلّ من كلّ جليل، ولا طاقة للعقول والأذهان أن تعبّر عن جلالة ذلك الجناب وعظمته؛ بل لو قيل أنّها لا طاقة لها أن تعبّر عن جلال مصنوعاته الأولى المتقدّمة علينا بالرتبة العقلية والزمانية لكان ذلك القول حقاً وصدقاً، فمن هو المخلوق ليقال أنّ عظم الخالق يصغره في العين، ولكن كلامه عليه السلام محمول على مخاطبة العامّة الذين تضيق أفهامهم عمّا ذكرناه.[1]

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٢١.

قال ابن ميثم البحراني:

هذا أمر وجده العارفون بالله، فإنّ من عرف عظمة الله وجلاله، ولحظ جميع المخلوقات بالقياس إليه حتّى علم ما لها من ذواتها وهو الإمكان والحاجة وعدم استحقاق الوجود إلاّ منه تعالى، علم أنّها في جنب عظمته عدم ولا أحقر من العدم وشدة صغر المخلوق في اعتبار العارف بحسب درجته في عرفانه.

وقيل لبعض العارفين: فلان زاهد، فقال: في ماذا؟ فقيل: في الدنيا، فقال: الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة فكيف يعتبر الزهد فيها، والزهد إنّما يكون في شيء والدنيا عندي لا شيء.(١)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

يعجب الناس العادلون إذا فوجئوا بشيء من الطبيعة، أو من آثار العقل وإبداعه ما كانوا يعرفونه من قبل، كما عجبوا وذهلوا حين اكتشف العلماء الخلايا في جسم الإنسان والعديد من الكواكب وغيرها، وحين انتقل الإنسان من عصر الشراع إلى عصر البخار، ومنه إلى الكهرباء، ثمّ إلى عصر الذرّة والفضاء.

أمّا الصفوة وأهل المعرفة بالله وعظمته، فإنّهم لا يعجبون من أي جديد يظهر من غرائب الكون، أو يكتشفه الإنسان مهما كبر، لأنّهم يعلمون بأنّ قدرة الله تعالى لا حدّ لها ولا نهاية، وأنّ هذا الجديد وفوقه

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٤١.

بملايين الملايين هو أقلّ من القليل بالقياس إلى فيض القدرة الإلهية التي تقول للشيء: كن فيكون.[(١)]

* * *

وقال الخوئي في (منهاج البراعة):[(٢)]

طوبى لمن فتح عين قلبه ونفذ بصيرته إلى ما وراء ما يرى ببصره، فيُدرك خالق الأشياء، ومصوّر الحسناء، وموجد الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الثرى، فيدرك عظمة الله الذي أوجدها، فكلّما أدرك من عظمة الخالق يدرك صغر المخلوقِ ويصل إلى حدٍ من العرفان يضمحلّ فيه المخلوق، ولا يرى إلاّ الله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾.[(٣)]

* * *

[**أقسام معرفة الله**] :

وقال السيّد كاظم القزويني في (المجلّد الأوّل) من كتابه (شرح نهج البلاغة):

قال عند قول الإمام عليّ عليه السلام: «أوّل الدين معرفته» أي: معرفة الله عزّ وجلّ «أوّل الدين معرفته».

أي أوّل مراتب العبودية معرفة الله تعالى، وهي أدنى المراتب، والمعرفة على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: المعرفة الإجمالية الناقصة، مثلاً نرى شبحاً من بعيد،

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٩٩.

(٢) ج ٢١: ١٩٧.

(٣) القصص: ٨٩.

ولا نعلم ما هو، إنسان أم حيوان، ذكر أم أُنثى، أسود أم أبيض، كذلك العقل يحكم أنّ كلّ مصنوع لا بدّ له من صانع، فإذا نظر الإنسان السليم العقل المجرّد عن الأديان والتقاليد، إلى هذه السماء والأرض، وسائر الموجودات يعلم ويعرف بأنّ لها صانعاً وخالقاً فقط، وهذا القسم من المعرفة أدنى المراتب.

القسم الثاني: المعرفة الكاملة، ومعنى الكاملة هنا هو الكمال بالنسبة إلى ما قبلها من المعرفة، وإلاّ فهي ناقصة بالنسبة إلى بعدها، وهو القسم الثالث:

وبيان ذلك أنّ هذه المعرفة التي أشار عليه السلام إليها هي المعرفة المتداولة بين المسلمين من التوحيد ونفي الصفات السلبية، وإثبات الصفات الثبوتية، بأن يعلم العبد أنّ الله ليس بمركّب ولا جسم ولا مرئي إلى آخر ما هو مذكور في محلّه.

والقسم الثالث: هي المعرفة التامّة، وهي أن يطّلع العبد على حقيقة ربّه، ويعلم كنهه ويدركه بعقله، وقد سبق أنّ هذا القسم محال، ولا يحصل لأحد المخلوقين، كما أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة المعراج، لما أتاه النداء من ربّ العزّة: «أن يا أحمد هل عرفتني حقّ معرفتي؟» فقال صلى الله عليه وآله: «إلهنا ما عرفناك حقّ معرفتك» إذ المقصود من السؤال والجواب ليس هو القسم الثاني قطعاً؛ بل هو القسم الثالث، وإنّما عبّر أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «أوّل الدين معرفته» بالمعرفة الكاملة؛ لأنّ القسم الثالث غير ممكن ومستحيل حصوله لأحد من الخلق.

* * *

[أوّل الدين معرفة الله] :

فلنعد إلى قول ابن أبي الحديد في المجلّد الأوّل من (شرح النهج) عند قول الإمام عليه السلام في خطبته:

«أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده...».

قال: إنّما قال عليه السلام: «أوّل الدين معرفته»؛ لأنّ التقليد باطل، وأوّل الواجبات الدينية المعرفة، ويمكن أن يقول قائل: ألستم تقولون في علم الكلام أوّل الواجبات النظر في طريق معرفة الله تعالى، وتارةً تقولون القصد إلى النظر، فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام؟

وجوابه: أنّ النظر والقصد إلى النظر إنّما وجبا بالعرض لا بالذات؛ لأنّهما وصلة إلى المعرفة، والمعرفة هي المقصود بالوجوب، وأمير المؤمنين عليه السلام أراد أوّل واجب مقصود بذاته من الدين معرفة الباري سبحانه، فلا تناقض بين كلامه وبين آراء المتكلّمين.

وأمّا قوله عليه السلام: «وكمال معرفته التصديق به» فلأنّ معرفته قد تكون ناقصة وقد تكون غير ناقصة، فالمعرفة الناقصة هي المعرفة بأنّ للعالم صانعاً غير العالم، وذلك بإعتبار أنّ الممكن لا بدّ له من مؤثّر، فمن علم هذا فقط علم الله تعالى، ولكن علماً ناقصاً.

وأمّا المعرفة التي ليست ناقصة، فأن تعلم أنّ ذلك المؤثّر خارج عن سلسلة الممكنات، والخارج عن كلّ الممكنات ليس بممكن، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود، فمن علم أنّ للعالم مؤثّراً واجب الوجود فقد عرفه عرفاناً أكمل من عرفان أن للعالم مؤثراً فقط، وهذا

الأمر الزائد هو المكنّى عنه بالتصديق به، لأنّ أخصّ ما يمتاز به الباري عن مخلوقاته هو وجوب الوجود...

* * *

أقول: أوّل الواجبات الدينية معرفة الله سبحانه وإطاعته وعبادته، والطاعة والعبادة فرع معرفة المطاع والمعبود، فما لم يُعرف لا يمكن طاعته، ولذلك أنّ أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما سأل عنه حَبرٌ بقوله: هل رأيت ربّك حين عبدته؟ أجاب عليه السلام بقوله: «ويلك ما أعبد ربّاً لم أره»، قال: كيف رأيته؟ قال: «ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان».[١]

ثمّ إنّ معرفة الله قد تكون ناقصة وقد تكون تامّة _ كما مرّ _ أمّا الناقصة فهي إدراك أنّ للعالم صانعاً مدبّراً، وأمّا التامّة فقد أشار إليها عليه السلام بقوله: «وكمال معرفته التصديق به» أي الإذعان بوجوده ووجوبه، وأنّه واحد لا شريك له ولا شبه له، فإنّ من عرف الله بهذه الكيفية حرّم الله جسده على النار وأوجب له دخول الجنّة.

* * *

روى الصدوق رحمه الله في كتاب (التوحيد)[٢] بإسناده عن زيد بن وهب عن أبي ذرّ، قال: خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي وحده ليس معه إنسان، فظننت أنّه يكره أن يمشي معه أحد، قال: فجعلت أمشي في ظلّ القمر، فالتفت فرآني، فقال: «من هذا؟» فقلت: أبو

(١) أنظر: الكافي ١: ٩٧، ح ٦.

(٢) التوحيد: ٢٥/ ح ٢٤ و٢٨ و٣١.

ذرّ جعلني الله فداك، فقال: «يا أبا ذرّ تعال»، فمشيت معه ساعة فقال: «إنّ المكثرين هم الأقلّون يوم القيامة إلاّ من أعطاه الله خيراً فنفخ منه بيمينه وشماله ومن بين يديه ووارئه وقال فيه خيراً»، قال: فمشيت ساعة، فقال لي: «اجلس ههنا» وأجلسني في قاع حوله حجارة، فقال لي: «اجلس حتّى أرجع إليك».

قال: فانطلق في الحرّة حتّى لم أره وتوارى عني، وأطال اللبث، ثمّ إنّي سمعته وهو مقبل يقول: «وإن زنى وإن سرق»، قال: فلمّا جاء لم أصبر حتّى قلت له: يا نبي الله جعلني الله فداك من تكلّمه في جانب الحرّة فإنّي ما سمعت أحداً يردّ عليك شيئاً؟ فقال صلى الله عليه وآله: «ذاك جبرئيل عرض لي في جانب الحرّة فقال: بشّر أُمّتك أنّه من مات لا يشرك بالله عزّ وجلّ شيئاً دخل الجنّة، قال: قلت: يا جبرئيل وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: نعم وإن شرب الخمر».

قال الصدوق بعد ذكر الحديث: يعني بذلك أنّه يوفّق للتوبة حتّى يدخل الجنّة.

وفيه أيضاً عن الأسود بن هلال عن معاذ بن جبل قال: كنت رافقت النبي صلى الله عليه وآله فقال: «يا معاذ هل تدري ما حقّ الله على العباد؟» يقولها ثلاثاً، قلت: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حقّ الله عزّ وجلّ على العباد أن لا يشركوا به شيئاً»، ثمّ قال: «هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أن لا يعذّبهم»، أو قال: «أن لا يدخلهم النار».

وفيه أيضاً عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي بعثني بالحقّ نبيّاً لا يعذّب الله بالنار موحّداً أبداً، وإنّ أهل التوحيد ليشفعون

فيشفعون»، ثمّ قال ﷺ: «إنّه إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار الدنيا إلى النار، فيقولون: يا ربّنا كيف تدخلنا النار وقد كنّا نوحّدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق النار ألسنتنا وقد نطقت بتوحيدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق قلوبنا وقد عقدت على أن لا إله إلاّ الله؟ أم كيف تحرق وجوهنا وقد عفّرناها لك في التراب؟ أم كيف تحرق أيدينا وقد رفعناها بالدعاء إليك؟

فيقول الله ﷻ: عبادي ساءت أعمالكم في دار الدنيا فجزاكم نار جهنّم، فيقولون: يا ربّنا عفوك أعظم أم خطيئتنا؟ فيقول الله ﷻ: بل عفوي. فيقولون: رحمتك أوسع أم ذنوبنا؟ فيقول الله ﷻ: بل رحمتي. فيقولون: إقرارنا بتوحيدك أعظم أم ذنوبنا؟ فيقول الله ﷻ: بل إقراركم بتوحيدي أعظم. فيقولون: يا ربّنا فليسعنا عفوك ورحمتك التي وسعت كل شيء. فيقول الله ﷻ: ملائكتي، وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من المقرّين بتوحيدي وأن لا إله غيري، وحقّ عليّ أن لا أُصلي بالنار أهل توحيدي، ادخلوا عبادي الجنّة».

غير أنّ مجرّد الإعتقاد بالتوحيد لا يكفي في ترتّب الثواب ورفع العذاب؛ بل لا بدّ مع ذلك الإعتقاد بالولاية، والأخبار الواردة في أبواب التوحيد والمعرفة، وإن كانت مطلقة إلاّ أنّها تقيّدها مضافة إلى إجماع أصحابنا أخبار أُخر مقيّدة لكون الولاية شرطاً في التوحيد، وبدونها لا ينتفع بشيء منها.

وهذه الأخبار كثيرة جدّاً بالغة حدّ الإستفاضة بل التواتر.

منها ما رواه في (جامع الأخبار)[1] بإسناده عن محمّد بن عمارة عن أبيه

---

(١) جامع الأخبار: ٥٤/ ٧٠.

عن الصادق جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن عليّ عن آبائه الصادقين عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تبارك وتعالى جعل لأخي عليّ عليه السلام فضائل لا يحصي عددها غيره، فمن ذكر فضيلة من فضائله مقرّاً بها غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، ولو أتى يوم القيام بذنوب الثقلين، ومن كتب فضيلة من فضائل عليّ بن أبي طالب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لتلك الكتابة رسم، ومن استمع فضيلة غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالإستماع، ومن نظر إلى كتابة في فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنظر»، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «النظر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام عبادة، ولا يقبل إيمان عبد إلاّ بولايته والبراءة من أعدائه». وجاء هذا الحديث أيضاً في مناقب الخوارزمي في أوّل الكتاب.

* * *

وفي (الكافي)[1] بإسناده عن أبي حمزة، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «إنّما يعبد الله من يعرف الله، فأمّا من لا يعرف الله فإنّما يعبده هكذا ضلالاً». قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال: «تصديق الله عزّ وجلّ وتصديق رسول الله صلى الله عليه وآله، وموالاة عليّ عليه السلام والإئتمام به وبالأئمّة عليهم السلام، والبراءة إلى الله عزّ وجلّ من عدوّهم، هكذا يعرف الله».

* * *

وفي (الوسائل)[2] و(مجمع البيان)[3] عن أبي حمزة الثمالي، قال: قال لنا عليّ بن الحسين عليهما السلام: «أي البقاع أفضل؟» فقلنا: الله ورسوله وابن

---

(١) الكافي ١: ١٨٠.

(٢) وسائل الشيعة ١: ١٢٢/ ح ٣٠٨/١٢.

(٣) مجمع البيان ٢: ٣٤٩.

رسوله أعلم. فقال: «أفضل البقاع لنا ما بين الركن والمقام، ولو أنّ رجلاً عمّر ما عمّر نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المكان، ثمّ لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً».

* * *

وفي (الوسائل)[1] أيضاً بإسناده عن المعلّى بن خنيس، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا معلّى لو أنّ عبداً عبد الله مائة عام ما بين الركن والمقام يصوم النهار ويقوم الليل حتّى يسقط حاجباه على عينيه ويلتقي تراقيه هرماً جاهلاً بحقنا لم يكن له ثواب».

وفيه أيضاً: عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: «نزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد السلام يقرؤك السلام ويقول: خلقت السماوات السبع وما فيهنّ وخلقت الأرضين السبع ومن عليهن، وما خلقت موضعاً أعظم من الركن والمقام، ولو أن عبداً دعاني منذ خلقت السماوات والأرض، ثمّ لقيني جاحداً لولاية عليّ لأكببته في سقر».

وروى عليّ بن إبراهيم القمّي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضى الرحمن، الطاعة للإمام بعد معرفته، أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره، وتصدّق بجميع ماله، وحجّ جميع دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه، وتكون جميع أعماله بدلالته ما كان له على الله حقّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان».

وبالتالي فقد تحصل من هذه الأخبار وغيرها من الأخبار الكثيرة

---

(١) وسائل الشيعة ١: ١٢٢/ ح ١٣/٣٠٩، وص ١٢٣/ ح ١٥/٣١١، وص ١١٩/ ح ٢/٢٩٨.

أنّ معرفة الإمام والطاعة له شرط في صحّة الفروع والأصول، كما ظهر أنّ اللازم أخذ الأحكام الشرعية والمسائل الدينية عنهم، لأنّهم الباب الذي أمر الله أن يؤتى منه، حيث قال: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها﴾.[1]

روي في (تفسير الصافي)[2] عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «نحن البيوت التي أمر الله أن يؤتى أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه، فمن تابعنا وأقرّ بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها، ومن خالفنا وفضّل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها، إنّ الله لو شاء عرّف نفسه حتّى يعرفونه ويأتونه من بابه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله، وبابه الذي يؤتى منه»، قال: «فمن عدل عن ولايتنا وفضّل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها، وما لهم عن الصراط لناكبون».

* * *

وفي (الكافي)[3] بإسناده عن محمّد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «كل من دان الله عزّ وجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول وهو ضالّ متحيّر، والله شانيء لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها وقطيعها، فهجمت ذاهبة أو جائية يومها، فلمّا جنّها الليل بصرت بقطيع غنم مع غير راعيها، فحنّت إليها واغترت بها فباتت معها في مربضها، فلمّا أن ساق الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها فهجمت متحيّرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصرت

(١) البقرة: ١٨٩.
(٢) تفسير الصافي ١: ٢٢٨.
(٣) ج ١: ٨٣/ ح ٨.

بغنم مع راعيها فحنّت إليها واغترت بها، فصاح بها الراعي إلحقي براعيك وقطيعك فأنت تائهة متحيّرة عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة متحيّرة تائهة لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها أو يردّها، فبينا هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها، وكذلك والله يا محمّد من أصبح من هذه الأمّة ولا إمام له من الله ﷻ، ظاهر عادل أصبح ضالاً تائهاً، وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمّد أنّ أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله ﷻ، قد ضلّوا وأضلّوا فأعمالهم التي يعملونها ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[١]».

* * *

---

(١) إبراهيم: ١٨.



قوله عليه السلام:

وَفِي الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ.

(نهج البلاغة ٤: ٧٤/ ٣١٣)



[القرآن شاهد على الأمّة]

قال ابن أبي الحديد:

هذا حقّ لأنّ فيه أخبار القرون الماضية، وفيه أخبار كثيرة عن أمور مستقبلة، وفيه أخبار كثيرة شرعية، فالأقسام الثلاثة كلّها موجودة فيه.[1]

* * *

وقال الشيخ ابن ميثم البحراني:

فنبأ ما قبلهم أخبار القرون الماضية، وخبر ما بعدهم ذكر أحوال الموت والقيامة والوعد والوعيد، وحكم ما بينهم بيان الأحكام الخمسة المتعلّقة بأفعالهم، وهو في معرض مدح القرآن والحثّ على قراءته وفهمه.[2]

* * *

قال ابن مغنية:

يرينا القرآن صور الكائنات أمثلاً وأضداداً، ويخبرنا عن الأمم الماضية والقرون الخالية، وعن مصيرنا وعاقبة أمرنا، وأيضاً فيه تفصيل لأحكام ما نحتاجه في سلوكنا وحياتنا.[3]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦٠١.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٤٠٤.

قال الخوئي ميرزا حبيب الله في (منهاج البراعة):[١]

الظاهر أن غرضه عليه السلام من هذا الكلام، بيان أنّ القرآن كتاب كاف للمسلم فيما يحتاج إليه من المعارف وتتوق إليه نفسه من العلوم، فإنّ الإنسان يريد أن يعرف نفسه من أين جاء، وكيف يكون، وكيف يعيش، وإلى أين يصير؟ والقرآن بيّن تطوّر الإنسان من عالم المادّة ومبدء التراب إلى أن نفخ فيه الروح وإنشائه خلقاً آخر، وقرّر ما يحتاج إليه من الآداب والأحكام في طول حياته إلى أن يموت، وبيّن ما يعرض له بعده من البرزخ والقيامة وما يؤول إليه أمره من الجنّة والنار.

ويريد أن يعرف أحوال بني جلدته وسائر ما بحضرته، ففي القرآن أخبار القرون الماضية وأخبار عن أُمور مستقبلة، وفيه أحكام وآداب فيما بين الناس من شتّى وجوه الحياة والمعيشة.

* * *

أقول: وقال عليه السلام أيضاً في مقام آخر: «ليس لأحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً».[٢]

فهو عليه السلام يعني بقوله: «ليس لأحد بعد القرآن من فاقة...».

يعني بقوله هذا: أنّ أحداً درس القرآن ووقف على ما فيه من علوم وفنون وأخلاق، ثمّ خرج إلى معترك الحياة وناله عوز أو فقر أو حرمان، هذا الدارس لم يوجد ولن يوجد في العالم إلى نهاية العالم؛ لأنّ القرآن قد ضمن الحياة في الدارين للحي القائم في توجيه الحياة على

---

(١) ج ٢١: ٤٠١.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٩١/ خ ١٧٦. وفيه: «ليس على أحد بعد القرآن...».

الإخلاص في دراسة القرآن والخضوع لأوامره ونواهيه والإعتصام بجوهره عن أعراض الحياة التي تفضي بأبنائها إلى الفاقة والبؤس والشقاء.

أمّا أنّ أكثر من يعوزهم القوت في العالم هم من أتباع القرآن، فإنّ ذلك ناشئ فيهم عن الجهل في تفهّم القرآن والتنكّر لما جاء به من ناموس يضمن لهم الحياة ويجعل السيادة في العالم وقفاً على الإعتصام به.

إنّ القرآن مشحون بالدعوة إلى الإسلام في العالم، وبالحثّ على العلوم والتفكير في خلق السماوات والأرض، ولا نرى أثراً لشيء من هذا في صدور المسلمين، وعلى العكس نجده كلاً أو بعضاً في رؤوس الغربيين الذين أخذوا علومهم من تراث العرب والمسلمين في الشرق والغرب، وهذا التراث لولا القرآن لم يكون له وجود في العالم، إذن فقد صدق الإمام عليه السلام بقول: «ليس لأحد بعد القرآن من فاقة...».

إنّ وسائل الحياة السامية الحرّة أصبحت في العالم وقفاً على العلوم والفنون القائمة على نهضة الإسلام من قبل، لذلك تراهم قد استهلكوا العالم الإسلامي باستعبادهم لتلك الوسائل، وحرمانهم من الحياة التي أفضت بالغرب إلى الخلود والشرق إلى الفناء.

أمّا الشقّ الثاني من كلمته عليه السلام وهو قوله: «ولا لأحد قبل القرآن من غنى». وليس يعني الإمام بقوله هذا: قبل نزول القرآن، وإنّما يعني به: قبل دراسة القرآن والإيمان بما فيه، ثمّ العمل على تنفيذه.

وإذا رجعنا إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] علمنا

---

(١) المنافقون: ٨.

أنّ العزّة وقف على الإيمان، وأنّ الإيمان لا يقوم إلاّ على دراسة القرآن واتّباع أوامره ونواهيه، وهذا هو عين الغنى مادياً وأدبياً، ومن عجائب ما يمرّ علينا فيما نقرأ من سير أئمّتنا أهل البيت: أنّ تاجراً لم يفلح فيما يتجر به، شكا لأحد الأئمّة إخفاقه في عمله هذا. فقال له الإمام عليه السلام: «بكّر في النزول إلى متجرك واكنس أمامه، واقرأ القرآن»، ففعل الرجل ذلك، ففتح الله عليه.

إنّ قول الإمام هذا ليس من عنده وإنّما هو من صميم الدين الذي نزل به القرآن، فأمره بالتبكير في فتح متجره مأخوذ من قول الرسول الأعظم: «بكّروا تسعدوا» وقوله صلى الله عليه وآله: «بورك لأمّتي في بكورها»[1] وأمر الإمام للتاجر بكنس الشارع أمام متجره مأخوذ من قوله صلى الله عليه وآله: «النظافة من الإيمان».[2] وأمّا أمره إياه بقراءة القرآن فليتفقّه في دينة ويدرس أحكامه ويعمل بواجبه في مهنته التي هي كلّ وسيلة للحياة في القرآن، فالأوامر التي أسداها الإمام لسائله هي من صميم الدين؛ لأنّ الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.[3]

وإذن فالمقصود للإمام بقوله: «قبل القرآن وبعده» وإنّما هو قبل دراسته والأخذ به، وبعد هذه الدراسة والعمل بها، فليس لنزول الوحي دخل في هذا فيقال: قبل نزوله وبعد نزوله، لأنّ قبل نزوله كان هنالك كتاب إلهي هو الإنجيل يصدق عليه ما يصدق على الفرقان، في أنّه عاصم الإنسان بعد الأخذ به وخاذل له قبل التفقّه فيه.

---

(١) كنز العمال ٢: ٣٢١/ ح ٣٥٢٠٥.

(٢) مستدرك سفينة البحار ٦: ٦٠٥.

(٣) الحشر: ٧.

ويجمل التصرّف بالفاقة والغنى، فليست الفاقة قاصرة على الحاجة إلى المال في سبيل العيش، وإنّما هي أعمّ في الإنسان، فهو مفتقر إلى الكرامة والعزّة في حياته، فوق افتقاره إلى المال، فربّ مثرٍ من حطام الدنيا ولكنّه أحوج ما يكون إلى الكرامة على الله والهيبة في صدور الناس، والإنسان ذو فاقة إلى العلم الذي يضمن له الحياة أدباً ومادّة، ثمّ هو محتاج إلى الخلق الفاضل الذي يفتح لمحبّته صدور إخوانه وشركائه في الحياة، فلم يكن الإنسان إلاّ من الإنس والإيناس، وإذا لم يأنس به جليسه ولم يؤنس هو عشيره كان وحشياً وكان غريباً في أهله وقومه، ثمّ كان بعد ذلك أفقر الناس إلى الحياة.

هذا كلّه يضمنه القرآن للمؤمن به، وهكذا القول في الغنى، فليس هو قاصراً على المال، وإنّما هو إلى ذلك قناعة تفضي بصاحبها إلى أن يكفّ بصره عن متع الحياة خشية أن يفتتن بها فتعرض نفسه إلى أسوأ الفاقة، والغنى بالورع والعلم والأدب ومكارم الأخلاق التي تضمن له العزّة في قومه والكرامة عند ربّه، فقد يكون المرء في بحبوحة من العيش ولكنّه فقير في عقله ذليل في نفسه، وهذا ما يقع فيه الإنسان إذا لم يتجمّل بخُلُق الفرقان ويتنوّر بعلومه وحكمه.

قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[1].

فكم في هذه الآيات الكريمة من تعزيز لقول الإمام عليه السلام، بأنّ

---

(١) الليل: ٥ – ١١.

القرآن يهدي للتي هي أحسن، وأنّ الإنسان قبل قراءته والعمل به لا يدرك الحكمة التي هي وضع كلّ شيء في محلّه، وانظر بتأمّل في هذه الآيات إلى أين تسوق القارئ المؤمن؟

فالتقوى من الله، والبذل في سبيل الله، والتصديق بلا إله إلاّ الله التي هي الكلمة الحسنى، هذا كلّه هو الدين كلّه، إذ جمع في قلب المؤمن ما يربطه بربه، وما يربطه بأخيه الإنسان، هل الحياة شيء غير ذلك؟ وأمّا الإثراء المشفوع بالبخل، والكفر بالله المعبّر عنه بتكذيب الحسنى، فهو عين الشرك والإلحاد، إذ جمع في قلب الكافر ما يفصل بينه وبين ربّه، ثمّ جمع في هذا القلب الأعمى ما يقطع بينه وبين أبناء جلدته، وهل الموت شيء غير هذا؟

* * *

قال رسول الله ﷺ: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفّع وما حل مصدّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعروف لمن عرف النصفة، فليرع رجل بصره، وليبلغ الصفة نظره ينجو من عطب ويخلص من نشب، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، يحسن التخلّص ويغلّ التربّص».[1]

---

(١) بحار الأنوار ٧٤: ١٣٤.

وقال عليّ عليه السلام (يصف القرآن على ما في النهج): «ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض...»(١) الخطبة.

هذا هو الصراط المستقيم والصراط السويّ الذي سلكه معلّموا القرآن وهداته عليهم السلام.

* * *

يقول محمود شلتوت شيخ الأزهر:(٢)

عني المسلمون منذ فجر الإسلام، وانبثاق نور الهداية الإلهية على ربوع العالم بالقرآن الكريم، مصدر تلك الهداية، ومنبع ذلك الإشراق، عناية كبرى شملت جميع نواحيه، وأحاطت بكلّ ما يتصل به، وكان لها آثارها المباركة الطيّبة في حياة الإنسان عامّة، والمسلمين خاصّة.

أفاد منها العلم، وأفاد منها العقل، وأفاد منها الدين، وأفاد منها الفنّ، وأفاد منها القانون والتشريع، وأفادت منها الفلسفة والأخلاق، وأفادت منها السياسة والحكم، وأفاد منها كلّ مظهر من مظاهر النشاط الفكري والعملي عرفه الناس في حياتهم المادية والروحية.

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية من آثار هذا النشاط العظيم؛ بل زخرت مكتبات أُخرى في لغات أُخرى وأُمم أُخرى، بكنوز رائعة يقف العقل أمامها حائراً مندهشاً، يخالجه مزيج من الإعجاب والمهابة، ويملكه معنى عميق من معاني الخشوع، أمام هذه العظمة التي لا كفاء لها إلاّ الإقرار بالعجز والخضوع!

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٧.

(٢) هو صاحب الفضيلة شيخ جامع الأزهر بمصر في وقته، وكان رحمه الله قد أفتى بجواز العمل طبق المذهب الجعفري...

ولكي ندرك مدى هذه العناية الكبرى التي تلقّى بها المسلمون القرآن الكريم في جميع عصورهم ومراحل حياتهم، وعلى أيدي علمائهم وملوكهم ووزرائهم وأُمرائهم وأغنيائهم، وأرباب الفنّ فيهم، وأهل الإحسان في كلّ ناحية من نواحي الإحسان، لكي ندرس مدى هذه العناية الكبرى علينا أن نلتفت إلى ما سجله التاريخ الفكري للمسلمين واشتغالهم بالعلوم المختلفة لخدمة القرآن.

لا نكاد نعرف علماً من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطويل، إلاّ كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم.

فالنحو الذي يقوم اللسان ويعصمه من الخطأ، أُريد به خدمة النطق الصحيح للقرآن.

وعلوم البلاغة التي تبرز خصائص اللغة العربية وجمالها، أُريد بها بيان نواحي الإعجاز في القرآن، والكشف عن أسراره الأدبية.

وتتبع مفردات اللغة، والتماس شواردها وشواهدها وضبط ألفاظها، وتحديد معانيها، أُريد بها صيانة ألفاظ القرآن ومعانيه أن تعدو عليها عوامل التحريف أو الغموض.

والتجويد والقراءات لضبط أداء القرآن وحفظ لهجاته.

والتفسير لبيان معانيه، والكشف عن مراميه.

والفقه لاستنباط أحكامه.

والأصول لبيان قواعد تشريعه العام وطريقة الإستنباط منه.

وعلم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد، وأُسلوبه في الإستدلال عليها.

وقلّ مثل هذا في التاريخ الذي يشتغل به المسلمون تحقيقاً لما أوحى به الكتاب الكريم في مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.[1] ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾.[2] ﴿وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأَنباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.[3] وقلّ مثل هذا أيضاً في علوم تقويم البلدان وتخطيط الأقاليم، الذي يوحي به مثل قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾.[4] ﴿فَامْشُوا فِي مَناكِبِها﴾.[5] وفي علوم الكائنات التي يوحي بها مثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.[6] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ * يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصارِ * وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[7]

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطبّ، وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من علوم الإنسان، لا يخلو علم منها أن يكون الإشتغال به ـ في نظر من اشتغل به من المسلمين ـ مقصوداً به خدمة القرآن، أو تحقيق إيحاء

---

(١) يوسف: ٣.

(٢) هود: ١٢٠.

(٣) القمر: ٤.

(٤) الأنعام: ١١.

(٥) الملك: ١٥.

(٦) الأنبياء: ٣٠.

(٧) النور: ٤٣ – ٤٥.

أوحى به القرآن.. حتّى الشعر إنّما اشتغلوا به ترقية لأذواقهم، وتربية لملكاتهم، وإعداداً لها كي تفهم القرآن وتدرك جمال القرآن، وحتّى العروض كان من أسباب عنايتهم به أنّه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين: إنّ محمّداً شاعر، وإنّ ما جاء به شعر.

* * *

[**القرآن يتجلى في العلم الحديث**] :

أقول: اكتشف العلم الحديث في العصور الأخيرة أسراراً وعلوماً لبعض الآيات القرآنية الكريمة لم يتوّصل إليها القدماء من العلماء، وهذه الأسرار العلمية هي ذخيرة وكنوز عالية، لذلك رأينا من الخير أن نستعرض بعضها للقرّاء في كتابنا هذا (أنوار الحكم ومحاسن الكلم) ننقلها من كتاب (القرآن والعلوم) لمؤلّفه سعيد ناصر الدهّان.

يقول المؤلّف: سمعت بأذني من بعض المسيحيين، يقولون: إنّ القرآن ألّفه فيلسوف يدعى عليّ بن أبي طالب ونشره رجل يدعى محمّداً.

وهذا القول لا يقوله حتّى الأطفال، من عدّة نواحي: منها أنّ محمّداً كان أكبر من عليّ عليه السلام بكثير، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله هو الذي ربّى عليّاً، وأن عليّاً أخذ جميع علومه من النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ هل يتمكّن من تأليف كتاب فيه علوم الأوّلين والآخرين، وإذا كان البشر يتمكّن من الإتيان بمثله، فلماذا عجز الناس عن الإتيان بمثله وقد تحدّاهم القرآن بذلك.

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا

شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.[1]

ولذا فإنّني أُحاول في كتابي هذا شرح بعض الآيات الغامضة التي اكتشفها العلم في عصرنا هذا، منها المتعلّقة بماهية الإنسان.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.[2]

من أي شيء خُلق الإنسان؟

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾.[3]

الصلصال هو الطين اليابس، والطين هو التراب الممزوج مع الماء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.[4]

وهذه صريحة بأن خلقنا من التراب لا ريب فيها، هذه بداية الإنسان، ثمّ يمرّ في مراحل حتّى يكون نطفة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.[5]

الأَمشاج أي المختلط. فهذه النطفة تتولّد من الدم الذي يتكوّن من المادّة اللبنية الناتجة من الكيلوس، ومادّة الكيلوس عبارة عن نواتج هظم الغذاء الذي أصله من الحيوان والنبات والماء، فأمّا الحيوانات فمعتمدة على الحيوانات الأُخرى والنباتات، والحيوانات الثانية جميعها معتمدة

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) الإسراء: ٧٠.

(٣) الرحمن: ١٤.

(٤) الروم: ٢٠.

(٥) الإنسان: ٢.

على النباتات، والنباتات معتمدة على الماء والتربة، والمواد الموجودة في الماء نفسها موجودة في التربة، فالأصل يرجع إلى التربة.

أمّا الأشياء العلمية التي اكتشفت حديثاً بواسطة علم التشريح واختراع الآلات الدقيقة المساعدة للفحوص، فنتج منها أخيراً أنّ المواد الموجودة في التربة نفسها موجودة في جسم الإنسان بعد التحليل الدقيق للمادتين، ولكن يختلف أحدهما عن الآخر في النسب.

وأنّهما يتكوّنان من: الكاربون، والهيدروجين، والأوكسجين، والكبريت، والفسفور، والنتروجين، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والفلور (الفلورين)، والمنغنيز، والمغنيسيوم، والنحاس، والحديد، والسيلكون، والزنك (الخارصين)، واليود، والكوبلت، والألمنيوم.

إنّ هذه العناصر نفسها موجودة في التراب وجسم الإنسان، ولكن توجد نسبة بينهما كما توجد نسبة بين إنسان وآخر.

وهذه إحدى العلوم الساطعة في الآيات اللامعة.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

أين محلّ النطفة من جسم الإنسان؟

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾[2].

إنّ هذه الآية الكريمة هي إحدى الآيات التي فيها العلوم الساطعة،

---

(١) النور: ٤٥.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

يقول تعالى على ما جاء في التفسير:[1] إنّ الله عندما خلق آدم، أخرج ذريّته من أصلاب آبائهم إلى أرحام أمّهاتهم، فعرّفهم بما خلق من آيات ربّهم من القدرة، فأشهدهم: ألست أنا الذي خلقتكم، قالوا: بلى أنت الربّ ونشهد بتوحيدك، بعد أن جعل في عقولهم أدلّة على وحدانيته.

وبعد معرفتنا علم الأجنّة يظهر لنا سرّ قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ تقول المصادر الموثوقة بأنّ الجنين عند تكوينه في الرحم تنبت الخصيتان في ظهره عند أسفل الكليتين تماماً، وتبقيان كذلك في ظهره حتّى أشهره الأخيرة في بطن أُمّه، ثمّ تتحدّران إلى الأسفل وعند الولادة تكونان في المركز المعتاد.

وفي بعض الأحوال يتأخّر انحدارها فيولد الجنين وخصيتاه في ظهره، فيسمّى عندئذ (بذي الخصية غير النازلة).

وكذلك مركز المبيض في الأنثى، فإنّه في الظهر تماماً تحت الكلية ذكراً كان أم أُنثى.

ومعلوم أنّ الخصيتين والمبيض هما مستقرّا النطفة التي هي مبدأ تخلق الإنسان وهما في الظهر.

وهذا هو ما صرّح به القرآن قبل ألف وأربعمائة سنة تقريباً.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.[2]

---

(١) أنظر: تفسير مجمع البيان ٤: ٣٩١.

(٢) النحل: ٨٩.

من أين يخرج الإنسان؟

﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.[1]

الصلب: هو عظام فقرات الظهر السفلى.

أمّا الترائب: جمع تريبة، وهو عظام الصدر السفلى.

والآية الكريمة تقول ـ والله العالم ـ إنّ حويمن الرجل وبويضة المرأة منشأهما ومخرجهما من بين الصلب والترائب.

أمّا العلوم الساطعة في هذه الآيات اللامعة حسب ما اكتشفه علم التشريح. فتقول إحدى المصادر الموثوقة: بعد الشهر الأوّل وآخر الشهر الثاني من حياة الجنين المتكوّن في الرحم ينشأ جسم (وولف) وقناته على كلّ جانب من جوانب العمود الفقري، ثمّ ينشأ من جزء منه الكِلى وبعض المجاري البولية، كما تنشأ من الجزء الآخر خصية الذكر ومبيض الأنثى، وإنّهما مجاوران للكلية ـ أي واقعان بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع. أي أنّهما واقعان بين الصلب والترائب.

وعن مصدر آخر يقول: إنّ الخصية والمبيض يعتمدان على الأعصاب التي تتصل بالصغيرة اللاورطية، ثمّ بالعصب الصدرى العاشر الذي يخرج من النخاع بين الضلع العاشر والحادي عشر، وهذا أيضاً بين الصلب والترائب، ونرى في السنين الأخيرة أنّ العلم يكشف لنا العلوم الساطعة.

فتقول إحدى المصادر: إنّ منيّ الرجل يتكوّن من صلبه ـ أي ظهره، وأنّ بويضات المرأة تتكوّن من عظام صدرها ـ أي ترائبها.

---

(١) الطارق: ٥ ـ ٧.

ونرى أن جميع المصادر تتفق مع هذا القول، فانظر كيف كانت هذه العلوم الساطعة مخزونة في هذه الآية اللامعة، مع العلم (أنها) نزلت في عصر همجي جاهلي.

﴿هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.(١)

كيف يتكوّن الجنين؟

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾.(٢)

إنّ هذه الآيات البيّنات فيها من أهمّ العلوم الساطعة، وسنشرحها إن شاء الله بالتفصيل.

شرحنا سابقاً كيف يتكوّن الإنسان من الطين، أمّا الآن فنشرح النطفة:

النطفة: هي حويمن الرجل وبويضة المرأة.

حويمن الرجل عند التناسل: يفرز الرجل (٢٦) مليون حويمن، وهو حيوان مجهري صغير طوله (٥٥) ميكروමليمتر، ولا يرى بالعين. ويتكوّن من ثلاثة أقسام من رأس مفلطح بيضي الشكل، وعنق قصير، وذنب طويل ينتهي بالإستطالة.

البويضة: هي حجيرة صغيرة جداً بيضوية الشكل تحوي على قشرة فيها مادّة البروتوبلازم، وفي وسطه النواة.

---

(١) آل عمران: ١٣٨.

(٢) المؤمنون: ١٢ – ١٤.

وعند الجماع يدخل الحويمن إلى الرحم ويتحرّك بكلّ سرعة يمنة ويسرة للحصول على البويضة، والبويضة تكون راكدة في البوق.[١]

وعند شعور البويضة بالخطر من جهة هجوم الحويمنات يظهر على سطحها من الجانب المقابل للحويمن إنتفاخ صغير ثمّ يرقّ قشره إستعداداً لهجومه، فيهجم عليها حويمن واحد من ذلك الإنتفاخ ويثقبه برأسه ويبقى ذنبه خارجاً فتنكمش عليه البويضة حتّى تقطع الذنب فيمتزج الحويمن بالنواة داخل البويضة، وهذا ما يسمى بالتلقيح، وبعد التلقيح تنزل البويضة من البوق إلى الرحم.[٢]

وعن أحد المصادر يقول: وفي الرحم تنقسم البويضة قسمين ثمّ أربع فثمان فستّ عشر، وهكذا تكوّن شكلاً مستطيلاً مشابهاً لعلقة الناموس التي تعرف باليرقات.

ويستمرّ الجنين علقة بشكله المستطيل مدّة تقرب من أربعين يوماً، وبعد ذلك تستدير هذه النطفة التي زادت بإنقسامها وتتكوّر بغير انتظام، وتشابه عندئذٍ قطع اللحم الممضوغة في تكويرها وليونتها وتسمّى بالمضغة، ولا يزيد طولها عن ربع إنج، والآن أصبح خمسين مرّة بقدر البويضة، وتأخذ بعد ذلك المضغة بالإنقسام، فالجزء الخارجي من المضغة يكون الجلد والجهاز العصبي، والجزء الأوسط يكون العظام والعضلات والأوعية، والجزء الداخلي يكوّن الأحشاء.

---

(١) البوق قناة على طرفي الرحم من الداخل مكسوة بغشاء مخاطي ولها ذبذبات حريرية تنتهي بشرفات كثيرة تجلس عليها البويضة المنحدرة من المبيض ثمّ تنزل إلى الرحم.

(٢) الرحم جسم عضلي كمّثري الشكل يقع في تجويف البطن بين المثانة والمستقيم ويتكون من عضلات وألياف قوية لها قابلية الإمتداد والتقلّص لحفظ الجنين حال الحمل ودفعه عند الولادة.

ففي الشهر الأوّل: تكون البويضة بقدر حجم بيضة الحمامة تقريباً، وتتغذّى من الحويصلة السرية.

وفي الشهر الثاني: تكون البويضة بقدر حجم بيضة الدجاجة ويظهر بعض نقاط عظيمة في الترقوة والفكّ السفلي.

وفي الشهر الثالث: تصبح البويضة بقد حجم البرتقالة، وأنّ أعضاء التناسل تبدأ بالظهور ولا يمكن تميّزها، ويبدأ ظهور بعض آثار الأظافر وظهور آثار بعض العظام.

وفي الشهر الرابع: تتضح الأعضاء التناسلية، ويبدأ ظهور الوبر على الجلد.

وفي الشهر الخامس: يظهر الشعر في الرأس.

وفي الشهر السادس: بظهور الأهداب والحاجبين وظهور الصفراء في الأمعاء، وتبدأ المواد الشحمية تحت الجلد.

وفي الشهر السابع: يبدأ الوبر بالزوال، وإنّ الجنين يعتبر قابلاً للحياة إذا ولد في نهاية هذا الشهر.

وفي الشهر الثامن: إزدياد المواد الشحمية تحت الجلد وزوال الوبر.

وفي الشهر التاسع: زوال اللون الأحمر اللامع للجلد.

وفي الشهر العاشر: وهو نهاية الحمل يصبح طول الجنين (٥٠) سم ووزنه (٣١٧٥) غرام، والذكر أثقل من الأنثى، وأنّ الوبر قد يزول من جميع الجسم ما عدا الأكتاف.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

---

(١) فصلت: ٣.

ما حالة الإنسان في الرحم؟

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾.(١)

لقد شرحنا الفقرات الأولى من الآيات الكريمة.

جاء في التفسير أنّ في الرحم يوجد ماء يحافظ على الجنين، ولكن أكثر من هذا لم يعرفوا، مع العلم أنّهم كانوا في عصر متأخّر من الناحية العلمية، فكيف يتمكّن النبي ﷺ أن يفهّمهم وأنّهم على تلك الحال من قلّة العلم.

فقد أعطاهم النبي ﷺ الرؤوس المهمّة فقط.

أمّا القرار المكين فيقول العلم ما هو نصّه: إنّ المضغة تتكوّن من قرص مضغي أسفله كهف يسمّى الكيس الصفاري الذي ينفصل في الشهر الثاني للمضغة، وأعلاه كهف آخر تنشأ منه قربة ممتلئة بالماء، وهذا الماء هو الذي يدعى بـ(القرار المكين) تسمّى السلى تحيط بالمضغة إحاطة تامّة إلى حيث يتّصل بها الحبل السرّي الغليظ، وهكذا تسبح المضغة في غلاف مائي يمنع عنها الصدمات. وهو يحافظ على توازن الرحم ويشدّ أزر الجنين ويحميه من الميل والسقوط، يطول معه إذا ارتفع عند تقدّم الحمل ويقصر إلى طوله الطبيعي تدريجيّاً بعد الولادة، وعند نهاية الحمل تفرز غدد، فمن الغدد ما هو يساعد على إنقباضات الرحم وتقلّصاته. وغدد تساعد على عملية إنزلاق الجنين، وغدد تساعد الجنين على نزوله بصورة طبيعية، فأيّ مكان أأمن من هذا المكان؟

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.(٢)

---

(١) المؤمنون: ١٢ و١٣.

(٢) النحل: ١٨.

كيف موضع الجنين؟

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ﴾.(١)

أمّا خلقاً من بعد خلق فقد فسّرت في تكّوين الجنين ومراحله، أمّا في ظلمات ثلاث فقد فسّره ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، فجميعهم قالوا: الظلمات الثلاث: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.(٢)

أمّا العلوم الساطعة في هذه الآيات اللامعة فظهرت في العصور المتأخّرة جدّاً بعد الكشف الدقيق.

فتقول التقارير المتأخّرة: إنّ الجنين في بطن أُمّه محاط بثلاث أغشية صمّاء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة، وهذه الأغشية تعرف بالمنباري، والأميوني، والخرزبوني، والغشاء الذي لا ينفذ منه الضوء والحرارة والماء يدعى باللغة العربية ظلمة.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾.(٣)

كيف يخرج الإنسان إلى عالم الدنيا؟

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.(٤)

---

(١) الزمر: ٦.

(٢) أنظر: مجمع البيان ٨: ٣٨٧.

(٣) الزمر: ٢٣.

(٤) النحل: ٧٨.

هـذه الآيـة تـدلّ علـى أنّ الله هـو الـذي يخرجنـا مـن بطـون أمّهاتنـا، ولـيس للإنسـان دخـل فـي هـذا الموضـوع، وقـد قـرّرت التقـارير الـواردة أنّ العلـم لـم يـتمكّن مـن تعيّن يـوم الـولادة بالضـبط، حيـث أنّـه يخـرج قبـل اليـوم المعتاد بعدّة أيّام، أو يتأخّر عن اليوم المعتاد.

وإنّ التقرير يقول: مدّة الحمل تتراوح بين (٢٧٢ ـ ٢٨٨) يوماً، وفي بعض الحالات وصلت إلى (٣٤٩) يوماً، وكذلك يقرّر العلماء أنّ الولادة لا دخل لأيّ إنسان فيها، وكم مليون مولود ولد بدون مساعدة أحد سوى الله.

حيث ينقبض الرحم على الجنين ليطرده إلى الخارج.

وأمّـا العلـوم السـاطعة فـي هـذه الآيـة اللامعـة فتقـول إحـدى المصـادر: إنّ الطفـل عنـدما يولـد يسـمع ولا يـرى لعـدّة أيّـام، ثـمّ يبـدأ فـي تميّـز الضـوء والظلام ولا يرى إلاّ بعد خمسة عشر يوماً.

وأمّـا العقـل (الأفئـدة جمـع فـؤاد وهنـا جـاء بمعنـى العقـل حيـث لـه عـدّة معاني) والحواس الأخرى فلا يستطيع استعمالها إلاّ بعد مدّة طويلة.

فـالآن ارجـع إلـى الآيـة الكريمـة، فـانظر كيـف أنّهـا مرتّبـة حسـب التكوين: السمع، والبصر، والفؤاد.

إنّ الله يقـول: نحـن نخبـركم بهـذه ولـم تعلموهـا مـن قبـل، فهـل أنـتم شاكرون لنعمتي؟

﴿رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.(١)

كيف تتمّ تغذية الرضيع؟

﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾.(٢)

---

(١) آل عمران: ٥٣.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

الرضاعة تتمّ بواسطة الثدي، (الثدي عبارة عن أوعية شبكية كبيرة العدد، دقيقة الحجم، وأوعية الثدي تتميّز عن غيرها من الأوعية الدموية بكثرة مرور الدم فيها.

هذه الأوعية تحيط بفجوات متّسعة مبطّنة بالخلايا الصانعة للبن الذي تستخلصه من الدم المارّ، ويخرج اللبن من هذه الفجوات إلى مستودعات يبلغ عددها من (١٥ ـ ٢٠)، مكانها تحت دائرة حلمة الثدي، وتضيق قنوات هذه المستودعات كلّما قربت من سطح الحلمة حتّى تصبح فتحات ضيّقة بهذا العدد، وتوزّع اللبن توزيعاً عادلاً. وكلّما تمرّ الأيام على المولود يزداد تركيز اللبن، وهذه من أهمّ مميّزاتها.

ومن العجيب أنّ الثدي متصل بالجهاز التناسلي، وحين ترضع الأمّ طفلها ينتعش جسمها وتلتذّ بلذّة بليغة ولولاها لما جلست الأمّ في منتصف الليل ترضع طفلها حين يبكي، فسبحان المدبّر لأنّ لبنها مكيّف تكيّفاً مناسباً لحالة وبنية الطفل الرضيع منذ الساعات الأولى من ولادته، ولا شيء يساوي قيمته الغذائية والصحيّة.

ولا يغني عن لبن أُمّ الطفل لبن امرأة أُخرى، حيث في المرحلة الأولى من ولادته يتغذّى الطفل باللبأ (الصمغة) مدّة ثلاثة أيّام أو أربعة قبل ظهور اللبن، وله فائدة كبيرة حيث يقوم بدفع ما في أمعاء الطفل من المواد المسودة المتجمّعة أثناء مدّة الحمل.

هذه العلوم الساطعة اكتشفها العلم الحديث في فرعه الطبي، وهذا هو التفسير لما جاء في صدر الآية اللامعة ﴿وَالوالداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ﴾.[1]

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنّ اللبن يبدأ بتركيز مادّته كلّما فاته يوم عن يوم الرضاعة.

ولكن أمّهاتنا لا يلاحظنّ ذلك، فنفس التركيز التي كانت تضع الحليب لطفلها في أوائل أيّامه تضعه في أواخر أيّامه، وهذه من الأخطاء الكبيرة.

ونقلاً عن المصادر عن الدكتور (الكسيس كاريل) أنّه يهيب بالأمّهات أن يؤدّين ما خلقن للطفل، فإنّ لبن الأمّ حقّ طبيعي للطفل.

وقد ثبت في الفحص الطبي أنّ عدد الوفيات في الأطفال الذين يرضعون بطرق صناعية عشرة أضعاف عدد الوفيات في الذين يرضعون بالرضاعة الطبيعية من الأمّهات.

وعلاوة على هذا تجعل الطفل أقلّ مرضاً، كما أنّها تمنحه قدرة على الصبر وسكينة النفس، بينما تسبّب الرضاعة الصناعية علاوة على أمراض الجهاز الهضمي بروز الفكّ العلوي، وتشوّه الأنف وتفطح قبوة الفمّ ممّا يؤثّر على نبت الأسنان، ويعرض الرضيع لتلوث اللوزتين والبلعوم والآذان والجيوب الأنفية.

هذا عن مصدر الآية، أمّا عن ﴿حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾، فاختلف الأطباء في هذا منذ نزول هذه الآية إلى القرون السابقة، وأخيراً بعد الفحوص الدقيقة عن عصر الإستكشافات ذكرت التقارير أنّ في حولين أي أربع وعشرين شهراً يكمل الطفل جهازه الهضمي من ناحية قابلية المضغ (مضغ الأطعمة).

أمّا الدكتور عبد العزيز إسماعيل فيقول في كتابه (الإسلام والطب الحديث): إنّ آخر ما تقرّر في هذا الشأن أنّ مدّة الرضاعة يجب أن يكون فوق السنة، ويستحسن أن يكون سنتين كاملتين.

هذه العلوم الساطعة في هذه الآيات اللامعة.

القرآن كلّه علوم ساطعة، فأين الذي يخرجها؟

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾.[1]

ما هي أهمية العظام؟

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.[2]

نرى في هذه الآية اللامعة أنّ الله ﷻ ركّز الكلام في عصر كانوا يحسبون أنّ العظام لا حياة فيها وما هي إلاّ سوى دعائم للجسم وكذلك في:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾.[3]

وهنا يركّز الإستنكار على تعجّبهم، إنّ العظام إذا كانت متحوّلة إلى تراب والتراب ينتقل من مكان إلى آخر بواسطة المياه والرياح وغير ذلك، فيختلط عظام هذا بذاك، كيف يتمكّن الله على أن يفصل بينهما؟

عزيزي القارئ: لا تتعجّب من هذا فإنّ الله قد خلق آيات في هذا الكون تدلّ على البعث، آتيك بمثال واحد، إذا أحضرنا قطعاً من الحديد والنحاس والذهب والفضّة والرصاص والألمنيوم ومعادن أُخر، وجئنا بقطعة ممغنطة (مغناطيسية) فقرّبنا القطعة من تلك المعادن، فأي معدن سوف ينجذب نحو القطعة المغناطيسية، فهل كلّ المعادن أم معدن واحد؟

سوف ينجذب معدن واحد هو الحديد فقط، فهذا أحد الأمثلة

---

(١) الكهف: ١٠٩.

(٢) يس: ٧٨.

(٣) الإسراء: ٨٩.

والدلالات على أنّ الله سوف يبعث من في القبور يوم القيامة، ونحن لا نعلم بأي طريقة سوف يجمع عظام كلّ واحد منّا.

فالذي أودع قوّة الجذب في المغناطيس يجوز أن يخلق قوّة الجذب في العظام حتّى تتجاذب عظام كلّ فرد إلى بعضها، وإنّ العلم لم يدركه لحدّ الآن، ونرجع الآن إلى كلامنا في العظام.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(١).

إنّ في عصرنا نرى أنّ التحريّات تأخذ صورة بصمة الإبهام من المجرمين الذين أجرموا حتّى يعرفوا، ومن عامّة الناس المشبوهين لئلا يرتكبوا الجرائم.

إنّ أهميّة الإبهام لم تكن معروفة إلى العصور المتأخّرة، وأخيراً توصّل العلم بأن لم يوجد في العالم رجلان صورتا إبهامهما متشابهتان، وهذا أخيراً عرفه العلم وأجرى عليه هذه الخطّة لطبع الأصابع، ولعلّ قول الله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(٢) يشير إلى هذا، أي أن نسويّ نفس صورة الإبهام والأصابع التي كانَ يملكها الشخص في حياته، وهل ترى أين كانت هذه العلوم الساطعة، ونتبع القول في بحث العظام، فيقول الله في:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾(٣).

إنّ في هذه الآية اللامعة من أهمّ العلوم الساطعة، فهذه الآية تقرّر بأنّ زكريا عندما طلب غلاماً قال: إنّ عظمي وهن (ضعف) فكيف يكون

---

(١) القيامة: ٣ و٤.

(٢) القيامة: ٤.

(٣) مريم: ٤.

لي ولد؛ لأنّه كان شيخاً كبيراً، وهذه الآية تدلّ على أنّ العظام جزء من الجسم، إذا ضعف الجسم أيضاً يضعف العظم.

واهتمّ القرآن بالجهاز العظمي إهتماماً كبيراً.

أمّا العلوم الكامنة في هذه الآيات، فتقول المصادر: إنّ العظام تحتوي على مواد يحتاج إليها الجسم: كالفسفور، والكالسيوم، وتوزّع هذه المواد توزيعاً دقيقاً إلى جميع أنحاء الجسم، وأنّ العظام تنتج كريّات الدم الحمراء والبيضاء في جسم الإنسان طول حياته، ونعرف بأنّ في الدقيقة الواحدة تموت من الكريّات الحمر (١٨٠) مليون كُريّة وعلى العظام تعويض ذلك. وكذلك تقول المصادر الموثوقة: بأنّ الهيكل العظمي يحدّد حياته بعد موت صاحبه وجنسه وعمره، وتدلّ العظام على الوقت الذي استغرقه قبل الموت وبعد الموت، وكذلك يعيّن الأمراض التي أصابت صاحبه وسبب موته.

هذه عن صدر الآية، أمّا ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾[١] فأيضاً أهميّة الشعر في الإنسان، حيث أنّ الشيب يصيب الكهول والشيوخ، أمّا الشيب المبكّر فهو من أمراض الشعر.

أمّا أهميّة الشعر فوقاية الرأس من الحرارة والبرودة والتغيّرات الجوية وحفظ حرارة البدن، وخروج بواسطة الثقب المكوّن في داخلها، وكذلك إمتصاص الرطوبة وغيرها من الأشياء التي تدركها عقولنا.

أمّا الشعر الذي أُصيب بالشيب: فإنّه لا يقوم بواجباته تماماً مثل ما يقوم به الشعر العادي. وهذا من العلوم الساطعة في هذه الآيات اللامعة.

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾[٢].

---

(١) مريم: ٤.

(٢) النساء: ١٧٤.

ما هي صورة الإنسان؟

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.[1]

والتقويم خلق الإنسان في أحسن صورة وكمال. عن إبراهيم ومجاهد، وقتادة.[2]

حقاً انّ الإنسان في أحسن تقويم، ونرى منظره الخارجي جميلاً.

أوّلاً: حجمه، فنراه متوسّط الحجم فلا هو صغير جداً ولا هو كبير جداً، فإنّ في الموجودات ما هو من أصغر الأشياء ومنها ما هو من أكبر الأشياء، فالذرّة مثلاً هي من أصغر المواد المتفاعلة ولا ترى بالعين ولا بأكبر المجاهير، حيث أنّها تعرف من تفاعلاتها الكيمياوية مع المواد. والنجم مثلاً في الكبر قد يكون أكبر من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية هي الشمس والأرض، والمريخ وزحل والزهرة والمشتري وعطارد، والنجميات وأورانوس ونبتون وبلوتو. بملايين المرّات وبعضها أكثر من مليار.

أمّا منظره الخارجي فترى له الشعر وقد مرّت فائدة الشعر، وعيناه كلّ واحدة منهنّ على جهة، فلو كانت لنا عين واحدة لرأيت لو أصابها مصيبة فلا تقدر على النظر بتاتاً بالرغم أنّها تحرسها جفنان، ولكلّ جفن شعر يعكس الشمس عنها.

والعينان في أعلى موقع في الجسم لئلا يصيبها أذى، ولو أنّها كانت في الرجل للقيت صعوبة فادحة، ولذهبت عن الحياة بسرعة، مع العلم أنّ العين في أعلى منطقة تدرك الأشياء التي تصادفها، فلو كانت في الأسفل لما أدركت طريقها لأقل حاجب.

---

(١) التين: ٤.

(٢) أنظر: مجمع البيان ١٠: ٣٩٣.

والأنف، ففي داخله شعيرات تحجب الغبار والتراب، ولو كان هذا الشعر في العين لرأيت الأذى.

وجعله الله أنفاً واحداً في منطقة واحدة، إذ لا يحتاج الإنسان إلى أكثر من ذلك.

وكذلك الفمّ خلقه إليه واحداً إذ لا يحتاج الإنسان إلى أكثر، لأنّ ليس دائماً يتكلّم، وليس دائماً يأكل. فقس على هذا المثال اليدين والرجلين والكليتين والخصيتين والرئتين والأذنين.

ونرى أيضاً أنّ الله قد خلق الرئتين والقلب ووضعهما في قفص من العظم واللحم لمحافظتهما، لأنهما مهمّان، ونرى أنّ المخّ والمخيخ قد وضعهما في قفص عظمي صلابته وسمكه أكثر من أي عظم في جسم الإنسان، مع العلم أنّهما مبطّنين بأغشية ومواد سائلة ولزجة فإنّهما موضع التفكير في الإنسان، وأمّا القفص الصدري فالقلب من الجهة اليسرى ويقابله الكبد من الجهة اليمنى.

وأختصر الكلام: لو أردنا أن نعرف ما هي ماهية الإنسان لما كفانا مجلّدات.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

هذا جزء يسير من العلوم الساطعة في الآيات اللامعة التي اختصّت بالإنسان، وليس لنا مجال لذكرها جميعاً.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

* * *

---

(١) النحل: ١٨.

(٢) فصلت: ٥٣.

٥٥

قوله عليه السلام في ذكر خبّاب:

يَرْحَمُ اللَّهُ خَبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً، وَهَاجَرَ طَائِعاً، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللّهِ، وَعَاشَ مُجَاهِداً.

(نهج البلاغة ٤: ١٣)



[أسباب نزول الرحمة
على العبد خبّاب بن الأرت نموذجاً]

قال ابن أبي الحديد:

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، يكنّى أبا عبد الله، وقيل: أبا محمّد، وقيل: أبا يحيى، أصابه سبي فبيع بمكّة، وكانت أُمّه ختانة، وخباب من فقراء المسلمين وخيارهم، وكان به مرض، وكان في الجاهلية قيناً حداداً يعمل السيوف، وهو قديم الإسلام، قيل إنّه كان سادس ستّة، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وهو معدود من المعذّبين في الله، وسأله عمر بن الخطاب أيّام خلافته: ما لقيت من أهل مكّة؟ فقال: أُنظر إلى ظهري، فنظر فقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل، فقال خباب: أوقدوا لي ناراً وسخنت عليها فما أطفأها إلاّ وَدَك ظهري.

وجاء خباب إلى عمر فجعل يقول أدنه أدنه، ثمّ قال له: ما أحد أحقّ بهذا المجلس منك إلاّ أن يكون عمّار بن ياسر، نزل خباب إلى الكوفة ومات بها في سنة سبع وثلاثين، وقيل: سنة تسع وثلاثين، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام صفين والنهروان، وصلّى عليه عليّ عليه السلام، وكان سنّه يوم مات ثلاثاً وسبعين سنة ودُفن بظهر الكوفة، وهو أوّل من دفن بظهر الكوفة،

وعبد الله بن خباب هو الذي قتلته الخوارج فاحتجّ عليّ عليه السلام به وطلبهم بدمه.[١]

* * *

قال الشيخ ابن ميثم البحراني:

خُبّاب بالخاء المعجمة والباء المشدّدة، كان من المهاجرين ومن أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومات بعد إنصرافه من صفّين بالكوفة، وهو أوّل من قبره أمير المؤمنين عليه السلام بها، وقد مدحه عليه السلام بأوصاف ثلاثة من أوصاف الصالحين:

أحدها: إسلامه عن رغبة وهو الإسلام المنتفع به.

الثاني: مهاجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله طائعاً، وهي الهجرة التامّة عن رغبة في الله ورسوله.

الثالث: كونه عاش مجاهداً أمّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فللكفّار، وأمّا في وقته عليه السلام فللبغاة والخوارج والناكثين.[٢]

* * *

وقال ابن مغنية في: (في ظلال نهج البلاغة):[٣]

قال ابن عبد البرّ في الإستيعاب: اختلفوا في نسب خباب، والصحيح أنّه تميمي النسب، خزاعي الولاء، لحقه سباء في الجاهلية، فاشترته امرأة من خزاعة وأعتقته، وكان حداداً يعمل السيوف، وفاضلاً

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٧١.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن ميثم ٢: ٥١٠.

(٣) ج ٤: ٢٤٢.

قديم الإسلام، وممّن عُذّب في الله، وصبر على دينه، ومن المهاجرين الأوّلين، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ.

وقال ابن حجر في الإصابة: روي أنّه أسلم سادس ستّة، ونزل الكوفة ومات بها سنة سبع وثلاثين.

وقال ابن أبي الحديد: صلّى عليه أمير المؤمنين... وقد تقدّم قوله.

«أسلم راغباً» عن بصيرة ويقين، وصدق وإخلاص، وأُوذي بالكثير من عتاة قريش في سبيل الإسلام، من ذلك أنّهم أوقدوا النار على ظهره كي يرتدّ عن دينه، فثبت وصبر.. ولا جهاد أعظم من الصبر على التنكيل والأذى من أجل الحقّ ونصرته، وجاء يوماً إلى رسول الله ﷺ وقال له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال له: «قد كان من قبلكم يؤخذ فيحفر له، ثمّ يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الراكب إلى حضرموت فلا يخاف إلاّ الله.. ولكنّكم تستعجلون».

«وهاجر طائعاً» نشأ الإسلام في مكّة فتألّب عليه صناديد الشرك والطغيان، وساموا أهله سوء العذاب وهم لا يملكون أيّة قوّة سوى الصبر والثبات، وبعد (١٣) سنة من صبر الأحرار على البلاء هاجر النبي ﷺ بالإسلام ليكون قوّة رادعة لأهل الضلال، وحلقة جديدة من النضال والتضحية والفداء، فهاجر معه لهذه الغاية جماعة من الصحابة، منهم خبّاب، وأنشأوا معسكراً للدفاع عن الدين وحماية المستضعفين، وتأديب المعتدين، فصدق

عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾.[1]

«وقنع بالكفاف» رضي من الرزق بما يكفيه ويغنيه عن الناس بالزيادة وهذه فضيلة من أعظم الفضائل؛ لأنّه بهذا الرضا قدّم خباب خدمة كبرى للإنسانية بعامّة، وللمعوزين بخاصّة حيث ساواهم بنفسه، ولو أخذ الزائد عن سدّ حاجته، وتمتّع به لكان قد حرم المحتاجين قوتهم الضروري، وصدق عليه قول الإمام في الحكمة الآتية: «فما جاع فقير إلاّ بما متّع به غني».

«ورضي عن الله» أي فرح بجزائه وثوابه، «وعاش مجاهداً» يقاتل دفاعاً عن الدين، وصيانة لأرواح المستضعفين، وضماناً لحريّتهم وكرامتهم.

* * *

وجاء في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[2]

كان خباب بن الأرت من أفذاذ أصحاب النبي ﷺ المخلصين والحاملين لأسرار الشريعة الإسلاميّة، ممّن تلمّسوا الحقيقة بقلوبهم، وبلغوا الدرجة القصوى من اليقين بالنسبة إلى معالم الدين، ومن الذين كانوا شهداء على الناس وموازين للحقّ عند ظهور الخلاف، فكونه في صفّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام مجاهداً معه في صفّين من الأدلّة القاطعة على أنّ عليّاً مع الحقّ، والحقّ مع عليّ يدور معه أينما دار، فمثله في أصحابه عليه السلام مثل عمّار.

وقال الشارح المعتزلي: وهو قديم الإسلام، قيل: إنّه كان سادس ستّة، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وهو معدود في المعذّبين في الله.

---

(١) البقرة: ٢١٨.

(٢) ج ٢١: ٨١.

وفي (التنقيح) قال العلاّمة الطباطبائي رحمه الله: إنّ فيه وفي سلمان وأبي ذرّ وعمّار أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.(١)

وفي (رجال المامقاني): وذلك أنّ المؤلّفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وفيهم عيينة بن حصين والأقرع بن حابس، فقالوا: إن نحّيت عنّا هؤلاء ـ وكانت عليهم جباب الصوف ـ جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلاّ هؤلاء. فنزلت هذه الآية، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يجلس معهم حتّى إذا أراد أن يقوم قام وتركهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾.(٢)

وعن الخصال: عن عليّ عليه السلام: «السبّاق خمسة: فأنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة، وصهيب سابق الروم، وخباب سابق النبط».

وفي (حاشية التنقيح): عن اليافعي في تاريخه: أنّ فضائل صهيب وسلمان وأبي ذر وخباب لا يحيط بها كتاب.

وقد وصفه عليّ عليه السلام في هذا الوجيز من الكلام بما لا مزيد عليه، وأثبت له فضيلة الرغبة إلى الإسلام والطموع على الهجرة، وصرف الحياة في الجهاد، فناهيك بهذه الفضائل عن التتبّع للأقوال، وثناء سائر الرجال، والظاهر أنّ ما ذكره عليه السلام في الجمل التالية تغبط على خباب عرضه على سائر الأصحاب، وحثّهم بذلك على سلوك سيرته والإقتداء بطريقته.

---

(١) الأنعام: ٥٢.

(٢) الكهف: ٢٨.

ذكر ابن هشام في سيرته (مجلّد ١ ص ٣٦٧ ط مصر):

في إسلام عمر بن الخطاب، قال ابن إسحاق:

وكان إسلام عمر فيما بلغني أنّ أُخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام من مكّة رجل من قومه من بني عدي بن كعب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرؤها القرآن... الخ. انتهى.

وكفى بذلك دليلاً على أنّ خباب أحد دعاة الإسلام السابقين الذين يعاونون النبي ﷺ في بثّ الدعوة الإسلاميّة أبّان غربة الإسلام واضطهاده من أعدائه الألدّاء.

قال ابن أبي الحديد: إنّه أوّل من دُفن بظهر الكوفة من الصحابة.[1]

* * *

أقول: وفي (سفينة البحار):[2] خبّاب _ كشدّاد _ ابن الأرت، بالراء المهملة والتاء المثنّاة المشدّدة، كأحبّ، صحابي بدري، وكان من فضلاء المهاجرين الأوّلين، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان قديم الإسلام ممّن عذّب في الله وصبر على دينه.

* * *

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٧٢.

(٢) ج ٢: ٧.

[ما لاقاه خبّاب من عذاب قريش] :

روي أنّ قريشاً أوقدت له ناراً وسحبوه عليها فما أطفأها إلاّ ودك ظهره، وكان أثر النار ظاهراً عليه في جسده، ولمّا رأى عمر ظهره قال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل مثله.[1]

وعن (أُسد الغابة)[2] أنّهم ألبسوه الدرع الحديد وصهروه في الشمس فبلغ منه الجهد ولم يعط الكفّار ما سألوه.

روي أنّه كان في سفر فشكت بنيّته إلى النبي ﷺ نفاد النفقة، قال النبي ﷺ: «إيتيني بشويهٍ لكم، فمسح يده على ضرعها فكانت تدرّ إلى إنصراف خبّاب».[3]

الطبرسي: كان خبّاب رجلاً غنيّاً وله على العاص بن وائل دين فأتاه يتقاضاه، فقال له: لا أقضيك حتّى تكفر بمحمّد، قال: لن أكفر به حتّى نموت ونبعث. وباع خبّاب سيوفاً من العاص بن وائل، فجاءه يتقاضاه، فقال: أليس يزعم محمّد أن في الجنّة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضّة وثياب وخدم؟ قال: بلى، قال: فانظرني أقضك هناك حقّك، فوالله لا تكون هناك وأصحابك عند الله آثر منّي. فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً * كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾[4][5].

* * *

---

(١) أسد الغابة ٢: ٩٩.

(٢) أنظر: ج ٢: ٩٨.

(٣) بحار الأنوار ١٧: ٣٨٢.

(٤) مريم: ٧٧ – ٨٠.

(٥) أنظر: مجمع البيان ٦: ٤٤٧.

ومِمّا جاء في (قاموس الرجال):[١]

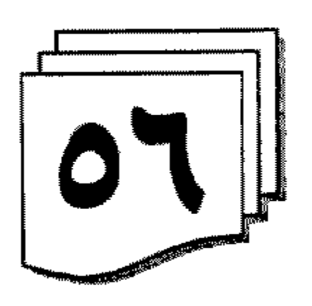
روي أنّ خبّاباً أسلم سادس ستّة. وروي عن الشعبي قال: أعطوهم ما أرادوا حين عذّبوا إلاّ خباب بن الأرت فجعلوا يلصقون ظهره بالأرض على الرضف حتّى ذهب ماء متنه. وروي عن خبّاب قال: قد أوقد المشركون لي ناراً ثمّ سلقوني فيها، ثمّ وضع رجل رجله على صدري فما أتيت الأرض إلاّ بظهري، ثمّ كشف عن ظهره فإذا هو قد برص.

وروي عن قيس بن أبي حازم، قال: دخلنا على خبّاب نعوده وقد اكتوى في بطنه سبعاً، وقال: لولا أنّ النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت بالموت.

وروي عن أبي صالح قال: كان خبّاب قيناً، وكان قد أسلم فكان النبي ﷺ يألفه ويأتيه، فأُخبرت بذلك مولاته، فكانت تأخذ الحديدة وقد أحمتها فتضعها على رأسه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «اللهم انصر خبّاباً»، فاشتكت مولاته رأسها ــ وهي أمّ أنمار ــ فكانت تعوي مع الكلام، فقيل لها: اكتوي، فكان خبّاب يأخذ الحديدة قد أحماها فكان يكوي بها رأسها...

* * *

(١) ج ٤: ١٥٤.



قوله عليه السلام:

لمّا بلغه قتل محمّد بن أبي بكر رضي الله عنه: إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إِلاَّ أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً وَنَقَصْنَا حَبِيباً.

(نهج البلاغة ٤: ٧٧)

[ربيب عليّ عليه السلام محمّد ابن أبي بكر]

قال ابن أبي الحديد:

قال عليه السلام: إنّ حزننا به في العِظَم على قدر فرحهم به، ولكن وقع التفاوت بيننا وبينهم من وجه آخر، وهو إنّا نقصنا حبيباً إلينا، وأمّا هم فنقصوا بغيضاً إليهم.

فإن قلت: كيف نقصوا ومعلوم أنّ أهل الشام ما نقصوا بقتل محمّد شيئاً؛ لأنّه ليس في عددهم؟ قلت: لمّا كان أهل الشام يعدّون في كلّ وقت أعداءهم وبغضاءهم من أهل العراق وصار ذلك العدد معلوماً عندهم محصور الكميّة نقصوا بقتل محمّد من ذلك العدد واحداً، فإنّ النقص ليس من عدد أصحابهم، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربّصون بهم الدوائر ويتمنّون لهم الخطوب والأحداث؛ كأنّه يقول: استراحوا من واحد من جملة جماعة كانوا ينتظرون موتهم.[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

قوله عليه السلام: «فإنّ حزننا عليه قدر سرورهم به» أي بفقده، أراد أنّه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٣٧.

يناسبه في الشدّة، وأشار إلى الفرق بين إعتبار نقصانه منهم ونقصانه منه، وذلك في معرض التألّم لفقده.[١]

* * *

وقال ابن مغنية:

إذا كان موت الأبرار يحزن المتّقين فمن الطبيعي أن يسرّ المنافقين، وقد مدح الإمام عليّ عليه السلام محمّد بن أبي بكر لمّا بلغه قتله ووصفه بأنّه كان ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً.[٢]

* * *

وفي (منهاج البراعة)[٣] قال:

نبّه عليه السلام إلى عظيم قدر محمّد في أصحابه وأنصاره، وعظمة تأثيره في ردّ مخالفيه وأعدائه، فإنّه كان بمكان من الإخلاص بحضرته، وبموقع عال في قلوب المسلمين، لمكانته من أبيه أبي بكر، فكان قتله فتّ في عضد عليّ عليه السلام ونصر مبين لأعدائه، فقال عليه السلام: إنّ حزننا عليه يساوي فرح أعدائنا بقتله، فإنّهم نقصوا بغيضاً مؤثّراً لهم، ونقصنا حبيباً وفيّاً لنا.

* * *

أقول: ومن المستحسن بهذه المناسبة أن نستعرض حياة محمّد بن أبي بكر رضي الله عنه.

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦٠٤.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٤١٠.

(٣) ج ٢١: ٤١٣.

قال ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج (ص ٢١ ط الأولى بمصر):

[أسماء بنت عميس أمّ محمّد]:

أمّ محمّد بن أبي بكر، أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم. كانت تحت جعفر بن أبي طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبد الله بن جعفر الجواد، ثمّ قتل عنها يوم مؤتة، فخلّف عليها أبو بكر فأولدها محمّداً ثمّ مات عنها، فخلّف عليها عليّ بن أبي طالب. وكان محمّد ربيبه وخرّيجه وجارياً عنده مجرى أولاده، رضع الولاء والتشيّع من زمن الصبا، فنشأ عليه فلم يكن يعرف له أباً غير عليّ ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتّى قال عليّ عليه السلام: «محمّد ابني من صلب أبي بكر»، وكان يكنّى بأبي القاسم في قول ابن قتيبة، وقال غيره: بل كان يكنّى أبا عبد الرحمن.

وكان محمّد من نسّاك قريش، وكان ممّن أعان على عثمان في يوم الدار، واختلف هل باشر قتل عثمان أم لا، ومن ولد محمّد القاسم بن محمّد بن أبي بكر فقيه الحجاز وفاضلها، ومن ولد القاسم عبد الرحمن بن القاسم بن محمّد وكان من فضلاء قريش ويكنّى أبا محمّد، ومن ولد القاسم أيضاً أمّ فروة تزوّجها الباقر أبو جعفر محمّد بن عليّ فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام، وإلى أمّ فروة أشار الرضي أبو الحسن بقوله:

يفاخرنا قوم بمن لم تلدهم	بتيم إذا عدّ السوابق أو عدي
وينسون من لو قدّموه لقدموا	عذار جواد في الجياد مقلدِ

فتـى هاشـم بعـد النبـي وباعهـا لمرعـى عـلاً أو نيـل مجـد وسؤددِ

ولـولا علـيّ مـا علـوا سـرواتها ولا جعجعـوا فيهـا بمرعـى وموردِ

أخـذنا علـيكم بـالنبي وفـاطم طلاّع المساعي من مقام ومقصدِ

وطئنـا بسـبطي أحمـد ووصـيّه رقاب الورى من متّهمين ومنجدِ

وحزنـاً عتيقـاً وهـو غايـة فخـركم بمولـد بنـت القاسـم بـن محمّـدِ

فجـدّ نبـيّ ثـمّ جـدّ خليفـة فـأكرم بجـدينا عتيـق وأحمـدِ

ومـا افتخـرت بعـد النبـي بغيـره يـد صـفقت يـوم البيـاع علـى يـدِ

قولـه: (ولـولا علـيّ مـا علـوا سـرواتها) البيـت، ينظـر فيـه إلـى قـول المأمون في أبيات يمدح فيها عليّاً، أوّلها:

ألام على حبّ الوصي أبا الحسن وذلك عندي من أعاجيب ذا الزمن

والبيت المنظور إليه منها قوله:

ولـولاه مـا عُـدت لهاشـم إمـرة وكان مدى الأيّام يعصى ويمتهن

[عهد عليّ عليه السلام لمحمّد حينما ولاه مصر]:

بعـث أميـر المـؤمنين عليه السلام محمّـد بـن أبـي بكـر واليـاً علـى مصـر بعـد قيس بن سعد بن عبادة، وزوّده بكتاب مطوّل جاء في بعض فقراته:

«واعلـم يـا محمّـد أنّ أفضـل الفقـه الـورع فـي ديـن الله والعمـل بطاعتـه، فعليـك بتقـوى الله فـي سـرّ أمـرك وعلانيتـه، أوصـيك بسـبع هـنّ جوامـع الإسـلام: اخـش الله ولا تخـش النـاس فـي الله، خيـر القـول مـا صـدّقه العمـل، ولا تقـض فـي أمـر واحـد بقضـائين مختلفـين فيتنـاقض أمـرك وتزيـغ عـن الحقّ، وأحـبّ لعامّـة رعيّتـك مـا تحبّـه لنفسـك، واكـره لهـم مـا تكـره لنفسـك،

وأصلح أحوال رعيّتك، وخض الغمرات إلى الحقّ ولا تخف لومة لائم، وانصح لمن استشارك، واجعل نفسك أُسوة لقريب المسلمين وبعيدهم، جعل الله خلقنا وودّنا خلّة المتّقين وودّ المخلصين، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان أخواناً على سرر متقابلين إن شاء الله».

قال إبراهيم بن سعد الثقفي: فحدّثني محمّد بن عبد الله بن عثمان بن عليّ بن محمّد بن أبي سيف عن أصحابه: أنّ عليّاً عليه السلام لمّا كتب إلى محمّد بن أبي بكر هذا الكتاب، كان ينظر فيه ويتأدّب بأدبه، فلمّا ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجّب منه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية وقد رأى إعجابه به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه لا رأي لك، فقال الوليد: أفمن الرأي أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلّم منها، قال معاوية: ويحك أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا، والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم، فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله؟ فقال: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخذنا عنه، ثمّ سكت هنيهة ثمّ نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول إنّ هذه من كتب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولكن نقول هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمّد فنحن ننظر فيها ونأخذ منها، قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أُميّة حتّى ولي عمر بن عبد العزيز فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام وكلامه.

قلت: الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه ويتعجّب منه، ويفتي به ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد عليّ عليه السلام إلى الأشتر، فإنّه نسيج وحده ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة،

وهذا العهد صار إلى معاوية لمّا سمّ الأشتر ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق مثله أن يقتنى في خزائن الملوك...

قال ابن أبي الحديد بعد كلام طويل: ولمّا قتل مالك الأشتر بالسمّ، وجّه معاوية جيشاً كثيفاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص لقتال محمّد.

قال إبراهيم: فحدّثنا محمّد بن عبد الله عن المدائني، قال: فأقبل عمرو بن العاص يقصد قصد مصر، فقام محمّد بن أبي بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد يا معاشر المؤمنين فإنّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ويغشون أرض الضلالة ويستطيلون بالجبرية قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بالجنود، فمن أراد الجنّة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم في الله، انتدبوا رحمكم الله مع كنانة بن بشر، ثمّ ندب معه نحو ألفي رجل، وتخلّف محمّد في ألفين، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدّمة محمّد، فلمّا دنا عمرو من كنانة سرّح إليه الكتائب كتيبة بعد كتيبة، فلم تأته من كتائب الشام كتيبة إلاّ شدّ عليها بمن معه فيضربها حتّى يلحقها بعمرو، ففعل ذلك مراراً، فلمّا رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن خديج الكندي فأتاه في مثل الدهم، فلمّا رأى كنانة ذلك الجيش نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه وهو يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾[1] فلم يزل يضاربهم بالسيف حتّى استشهد رحمه الله.

قال إبراهيم: حدّثنا محمّد بن عبد الله عن المدائني، عن محمّد بن يوسف، أنّ عمرو بن العاص لمّا قتل كنانة أقبل نحو محمّد بن أبي بكر

---

(١) آل عمران: ١٤٥.

وقد تفرّق عنه أصحابه، فخرج محمّد متمّهلاً فمضى في طريقه حتّى انتهى إلى خربة فآوى إليها، وجاء عمرو بن العاص حتّى دخل الفسطاط، وخرج معاوية بن خديج في طلب محمّد حتّى انتهى إلى علوج على قارعة الطريق فسألهم هل مرّ بهم أحد ينكرونه، قالوا: لا، قال أحدهم: إنّي دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل جالس، قال ابن خديج هو هو وربّ الكعبة، فانطلقوا يركضون حتّى دخلوا على محمّد فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فقال: اسقوني قطرة من الماء، فقال له معاوية بن خديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، والله لأقتلنّك يا بن أبي بكر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم والغسلين.

فقال له محمّد: يا ابن اليهودية النسّاجة ليس ذلك اليوم إليك إنّما ذلك إلى الله يسقي أوليائه ويظمئ أعداءه وهم أنت وقرناؤك ومن تولاّك وتولّيته، والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم منّي ما بلغتم، ثمّ قدّمه معاوية بن خديج فضرب عنقه وأدخله في جوف حمار ميّت وأحرقه بالنار، إنتهى مختصراً عن ابن أبي الحديد.

* * *

قال القزويني في (الجزء الثالث) من كتاب (شرح نهج البلاغة):

محمّد بن أبي بكر، وأمّه أسماء بنت عميس، قال ابن أبي الحديد: وكان محمّد ربيب عليّ وخرّيجه، وجارياً عنده مجرى أولاده، رضع الولاء والتشيّع منذ زمن الصبا، فنشأ عليه، فلم يكن يعرف له أباً غير عليّ، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتّى قال عليّ عليه السلام: «محمّد ابني من صلب أبي بكر»، ويكنّى بأبي القاسم... ومن ولد محمّد القاسم... ومن ولد

القاسم أمّ فروة تزوّجها الباقر أبو جعفر محمّد بن عليّ، فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام... الخ.

* * *

قال المامقاني رحمه الله في (تنقيح المقال):

محمّد بن أبي بكر، ولد في حجّة الوداع، وقتل سنة سبع وثلاثين من الهجرة في مصر، وكان عاملاً عليها، وقد عدّه رجال الدراية من خواص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحواريه.

وقد وردت في شأنه أحاديث متواترة عن أهل البيت عليهم السلام، وإليك بعضها ليظهر لك شيء من عظمة الرجل وجلالة قدره وصلابة إيمانه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كان عمّار بن ياسر ومحمّد بن أبي بكر لا يرضيان أن يعصى الله عزّ وجلّ».

وذكروا محمّد بن أبي بكر عند الإمام الصادق عليه السلام فقال الإمام: «رحمه الله وصلّى عليه»، قال لأمير المؤمنين عليه السلام يوماً: ابسط يدك أبايعك، فقال: «أوَما فعلت؟» قال: بلى، فبسط يده، فقال محمّد: أشهد أنّك إمام مفترض الطاعة، وأنّ أبي في النار.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كان النجابة من قبل أمّه أسماء بنت عميس، رحمة الله عليها لا قبل أبيه».

وقال الإمام الرضا عليه السلام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إنّ المحامدة ـ جمع محمّد ـ تأبى أن يعصى الله عزّ وجلّ»، قال الراوي: ومن المحامدة؟ قال: «محمّد بن جعفر، ومحمّد بن أبي بكر، ومحمّد بن حذيفة، ومحمّد بن أمير المؤمنين».

تزوّج عليّ عليه السلام بأمّه أسماء بنت عميس، وكان محمّد صغيراً فربّاه الإمام، حتّى قال: «هو ابني من ظهر أبي بكر».

هذا قليل من كثير ممّا يدلّ على سموّ قدره وعلّو منزلته، فلنأت الآن إلى ولايته في مصر:

لمّا قتل المسلمون عثمان بن عفّان في المدينة، طرد المصريون عامل عثمان على مصر، وهو عبد الله بن أبي سرح، وانتقلت الخلافة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أرسل الإمام قيس بن سعد بن عبادة والياً على مصر، وكان قيس من شيعة عليّ ومناصحيه.

فخرج قيس إلى مصر ودخلها ومعه كتاب من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل مصر، فصعد قيس المنبر وقرأ على المصريين كتاب الإمام عليه السلام، ولمّا فرغ خطب فيهم خطبة، وطلب منهم أن يبايعوا للإمام، فبايعوا واستقامت مصر ونواحيها لقيس بن سعد، إلاّ قرية واحدة فإنّهم عظّموا مقتل عثمان ولم يبايعوا لعليّ، فهادنهم قيس ولم يجبرهم على البيعة.

وكتب معاوية كتاباً إلى قيس قبل واقعة صفين يخدعه بالطلب بدم عثمان، ويذكر له أنّ عليّاً أغرى الناس بعثمان حتّى قتلوه. فلم ينخدع قيس من كتاب معاوية؛ لأنّ قيس كان في المدينة يوم مقتل عثمان، وكان يعلم القاتل والخاذل ويعرف موقف الإمام تجاه عثمان، ومحاولة الإمام إصلاح الأمر والدفاع عنه، ولكن ذلك الكتاب المختوم بخاتم عثمان هو الذي أفسد الأمر وآل الأمر إلى قتل عثمان، كان قيس يعلم هذه الأشياء كلّها، وفي نفس الوقت كان يعرف معاوية ودسائسه وخدائعه، ولهذا جعل يصانعه ويجامله، فلا يحاربه ولا ينقاد له، ففطن معاوية لذلك فهدّده بالخيل والرجال إن لم يستسلم لأوامر معاوية، فأجابه قيس بكتاب كالصاعقة، كشف له الغطاء عن رأيه حول معاوية وسوابقه

ولواحقه، فيئس معاوية من قيس وعرف أنّه لا يستطيع التغلّب عليه عن الطرق الطبيعية المتعارفة، فجعل يدسّ له الدسائس، وذلك أنّه أخرج كتاباً مزوراً اختلقه إلى قيس بن سعد، وذكر في ذلك الكتاب إستنكار قيس وإستياءه من قتل عثمان، وأنّه يريد الطلب بدم عثمان، وأنّه جعل نفسه تحت تصرف معاوية وعند إرادته.

قرأ معاوية ذلك الكتاب المزوّر على أهل الشام وقال لهم: إنّ قيساً بايعكم فادعوا الله له، وانتشر الخبر فيما بين الناس حتّى وصل إلى الإمام عليه السلام فتعجّب من هذه المفاجأة.

فتقدّم عبد الله بن جعفر إلى الإمام وطلب منه أن يعزل قيساً عن الإمارة، فقال عليه السلام: «والله إنّي غير مصدّق بهذا على قيس». وبينما هم كذلك إذ ورد كتاب من قيس إلى أمير المؤمنين يخبره بالقرية التي امتنع أهلها عن البيعة للإمام، وأنّ قيساً تركهم وحالهم رعاية للظروف واتّباعاً للحكمة، وإنّما تركهم بصورة مؤقتة حتّى يستقيم أمر الناس فيتّخذ التدابير اللازمة في حق الإنفصاليين.

لمّا اطّلع عبد الله بن جعفر على كتاب قيس خاف من انتشار الإنفصالية واختلاف الكلمة، فأصرّ على عمّه الإمام أن يكتب إلى قيس بمحاربة تلك القرية، فكتب الإمام إليه بذلك، فتعجّب قيس وكتب إلى الإمام مستغرباً هذا الأمر، وذكر أنّ تلك الطائفة لا يخاف شرّهم، وإنّ الأصلح ترك قتالهم.

فهنا ألزموا الإمام عليه السلام أن يعزل قيساً ويرسل مكانه محمّد بن أبي بكر، فاستجاب الإمام عليه السلام لذلك وبعث محمّداً والياً على مصر، ولمّا علم قيس ذلك تعجّب عن سبب ذلك التغيّر، وخرج من مصر متوجّهاً نحو المدينة، وكان عليّ عليه السلام يوم ذاك في الكوفة ولم يتّجه نحو

الكوفة، فلمّا نزل المدينة جاءه حسّان بن ثابت شامتاً به، وقال له: نزعك عليّ بن أبي طالب وقد قتلت عثمان، فبقي عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر، فزجره قيس وقال له: يا أعمى القلب يا أعمى البصر، والله لولا أُلقي بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك، ثمّ أخرجه من عنده.

وبعد زمن أقبل قيس إلى الكوفة ودخل على الإمام وأخبره بحوادث مصر من خبر تلك القرية وغيرها، فصدّقه عليّ عليه السلام، وشهد قيس مع عليّ صفّين ولم يزل موالياً مناصحاً إلى أن مات.

[معاوية ومحمّد]:

فلننتقل الآن إلى موقف معاوية تجاه محمّد بن أبي بكر:

وصل محمّد إلى مصر والياً من قبل عليّ عليه السلام ومعه كتاب العهد الذي كتبه عليّ عليه السلام إلى أهل مصر، فقرأ محمّد كتاب العهد على الناس، ولما فرغ خطب فيهم خطبة ونزل عن المنبر، ولبث شهراً كاملاً، ثمّ بعث إلى أولئك النفر الذين اعتزلوا ولم يبايعوا، وتركهم قيس على حالهم، أرسل إليهم وقال لهم: يا هؤلاء إمّا أن تدخلوا في طاعتنا وإمّا أن تخرجوا من بلادنا، فلم يوافقوا على الطاعة ولا الجلاء، واستمهلوا محمّد بن أبي بكر، وفي تلك الأيّام وقعت واقعة صفّين وآل الأمر إلى تحكيم الحكمين واختلاف كلمة أصحاب عليّ وضعف شوكتهم.

تجرّأ المعتزلون على محمّد وتظاهروا بالمخالفة والعصيان والتمرّد، فأرسل إليهم محمّد رجلين فقتلوهما، وأرسل إليهم ثالثاً فقتلوه، وقام فيهم رجل يدعو إلى الطلب بدم عثمان فأجابته تلك العصابة وأُناس آخرون، وفسدت مصر على محمّد، فلمّا سمع الإمام عليّ عليه السلام ذلك

قال: «ما أرى لمصر إلاّ أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه بالأمس (قيس) أو مالك الأشتر بن الحرث الأشتر».

وبالتالي تقرّر إرسال قيس بن عبادة إلى أذربيجان والياً، وإرسال الأشتر إلى مصر والياً، فأمر عليه السلام الأشتر أن يتوجّه إلى مصر، ولمّا خرج نحو مصر قتله معاوية بعسل مسموم فقضى نحبه قبل أن يصل إليها.

وعلم محمّد بخروج الأشتر نحو مصر فشقّ عليه ذلك، وكتب الإمام كتاباً إلى محمّد يعطف عليه ويجبر قلبه.

أمّا معاوية فقد أرسل عمرو بن العاص الذي بايع معاوية لتكون مصر طعمة له، ولهذا لمّا انتهى أمر صفّين لم يكن لمعاوية همّ إلاّ مصر، فجمع شياطينه واستشارهم في أمر مصر، فأشاروا عليه أن يبعث جيشاً إلى مصر.

فكتب كتاباً إلى ابن خديج ومسلمة بن مخلد الأنصاري، وكانا من المناوئين لعليّ عليه السلام، وذكر لهما الطلب بدم عثمان ويحرّضهما على ذلك، وأخبرهما أنّ الجيش الأموي قد توجّه نحو مصر لإمدادهما، وأرسل الكتاب مع عبده.

كان محمّد بن أبي بكر يومذاك أميراً ووالياً على مصر، والعصابة المتمرّدة كانت تهابه ولا تتجرّأ على التمرّد والتجاهر، فلمّا قرأ الرجلان كتاب معاوية، كتبا إليه الموافقة.

فعند ذاك أرسل معاوية ابن العاص مع جيش كثيف إلى مصر، ولمّا اقترب ابن العاص من مصر كتب إلى محمّد يأمره بالإنسحاب من مصر والتسليم، وأرسل إليه كتاب معاوية وفيه التهديد والوعيد، فأرسل محمّد الكتابين إلى أمير المؤمنين عليه السلام وكتب إليه يخبره بقدوم ابن

العاص وفشل أصحابه واستمدّه بالمال والرجال، فكتب إليه الإمام عليه السلام يشجّعه ويقوّي عزمه لمحاربة ابن العاص.

فكتب محمّد إلى ابن العاص كتاباً خشناً يذكر فيه إستعداده للحرب، وكتب كتاباً آخر إلى معاوية قريباً من الكتاب الأوّل. وقام خطيباً في أصحابه وجعل يحثّهم على الجهاد، فأرسل ألفي رجل مع كنانة بن بشير وبقي معه ألفان، واشتعلت نار الحرب، وكان الجيش المصري يحمل على كتائب الشام فيفرّقها ويردّها إلى مكانها.

فأقبل معاوية بن خديج في جيش جرّار، فنزل كنانة بن بشير ونزل معه أصحابه فلم يزالوا يقاتلون حتّى استشهد كنانة، وأقبل عمرو بن العاص إلى محمّد بن أبي بكر وقد تفرّق عنه أصحابه، فخرج محمّد حتّى وصل إلى خربة فاختفى فيها، وخرج معاوية بن خديج في طلبه فأخذ يسأل الناس عنه حتّى ظفر به، وأقبل الناس يركضون حتّى دخلوا عليه فأخرجوه من الخربة وقد أخذ العطش منه مأخذاً عظيماً حتّى كاد يموت عطشاً...

فقال محمّد: اسقوني قطرة من الماء، فقال معاوية بن خديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، ثمّ قدّمه فضرب عنقه وجعله في جوف حمار ميّت وأحرقه بالنار، ولمّا بلغ أمير المؤمنين عليه السلام قتله حزن عليه حزناً شديداً حتّى رؤي ذلك فيه وتبيّن في وجهه وقال: «كان إليَّ حبيباً ولي ربيباً».

* * *

قال الشيخ ابن مغنية في (المجلّد الثالث) من كتابه في ظلال نهج البلاغة (ص ٥٣٩):

ولد محمّد بن أبي بكر قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ببضعة شهور.

وأمّه أسماء بنت عميس الخثعمية، تزوّجها جعفر بن أبي طالب، فرزق منها أولاداً. منهم عبد الله الشهير بكرمه، ثمّ تزوّجها من بعده أبو بكر، فولدت له محمّداً، ومن بعد أبي بكر تزوّجها الإمام، فولدت يحيى.

فمحمّد هو ابن أبي بكر وربيب الإمام، وكان يحبّه ويثني عليه، وولاّه مصر.. ثمّ رأى أن يستبدل به الأشتر، ليكون حصناً منيعاً لمصر من معاوية وابن العاص، فكتب له العهد المشهور، ولمّا علم محمّد بن أبي بكر بذلك عتب وتألّم.. ودسّ معاوية للأشتر السمّ بالعسل قبل أن يصل إلى مصر، فبقي محمّد والياً عليها، وكتب الإمام له هذه الرسالة:

«إلى محمّد بن أبي بكر: أمّا بعد، فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك، وإنّي لم أفعل ذلك استبطاءاً لك في الجهد ولا ازدياداً في الجدّ، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لولّيتك ما هو أيسر عليك مؤونة، وأعجب إليك ولايةً، إنّ الرجل الذي كنت ولّيته أمر مصر كان لنا رجلاً ناصحاً وعلى عدوّنا شديداً ناقماً، فرحمه الله فلقد استكمل أيّامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون، أولاه الله رضوانه وضاعف الثواب له، فاصحر لعدوّك وامض على بصيرتك وشمّر لحرب من حاربك، وادع إلى سبيل ربّك، وأكثر الإستعانة بالله يكفك ما أهمّك ويعينك على ما نزل بك إن شاء الله».

قوله عليه السلام: «أمّا بعد، فقد بلغني موجدتك...» الخ.

لماذا صعب عليك إختياري للأشتر؟ أتظنّ أنّه أعزّ عليَّ منك، أو أنّي أتّهمك بالتقصير في عملك.. كلا، ولكن الحكمة والمصلحة قضت بذلك.. هذا، إلى أنّي ما أردت طردك وعزلك، وإنّما أردت نقلك إلى بلد آخر يسرّك ويعجبك، ولا يجرّ عليك المتاعب والمصاعب كمصر القريبة من معاوية والتي جعلها طعمة لابن العاص، فهوّن عليك.

«إنّ الرجل الذي ولّيته أمر مصر...» الخ. وهو الأشتر، كان مخلصاً لله ولنا، وأنت كذلك يا محمّد، ولكن معاوية كان يهاب الأشتر ويتحاماه، حيث فعل به الأفاعيل في صفّين، ولولا رفع المصاحف لقضى عليه الأشتر، وما اغتاله معاوية إلاّ خوفاً من بأسه وصلابته، «فرحمه الله.. وضاعف الثواب له».

قال ابن أبي الحديد: لا أشكّ في أنّ الله يغفر للأشتر ذنوبه، ويدخله الجنّة بهذه الدعوة؛ لأنّها كدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويا طوبى لمن حصل على بعضها من عليّ عليه السلام...[1]

* * *

[**شهادة محمّد**] :

قال المسعودي في (مروج الذهب):[2]

في سنة (٣٨هـ) وجّه معاوية عمرو بن العاص إلى مصر في أربعة آلاف، منهم معاوية بن خديج وأبو الأعور السلمي، فالتقوا هم ومحمّد بن أبي بكر بالموضع المعروف بالمسناة، فاقتتلوا وانهزم محمّد بعد أن فرّ أصحابه عنه وأسلموه لأعدائه، وصار إلى موضع بمصر واختفى فيه، وأُحيط به فخرج إليهم وقاتلهم حتّى قتل، فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وجعلوه في جلد حمار، وأضرموه بالنار، وقيل: فعل به ذلك وفيه شيء من الحياة.

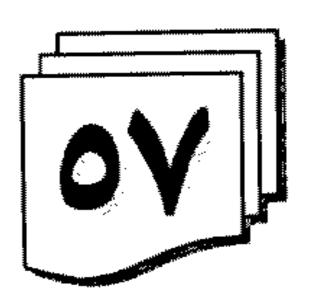
وحزن عليه عليّ وسرّ معاوية.

وقال الإمام: «جزعنا عليه قدر سرورهم. كان لي ربيباً وكنت أعده ولداً، وكان بي برّاً».

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٤٤.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٩.



قوله عليه السلام وقد جاءه نعي الأشتر رحمه الله:

مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، وَاللّهِ لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْداً، وَلَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً، لا يَرْتَقِيهِ الْحَافِرُ وَلا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ.

(نهج البلاغة ٤: ١٠٣/ ح ٤٤٣)



[مالك الأشتربطل التشيع]

قال ابن أبي الحديد:

قوله عليه السلام: «لو كان جبلاً لكان فنداً»؛ لأنّ الفند قطعة من الجبل طولاً، وليس الفند القطعة من الجبل كيفما كانت، ولذلك قال: «لا يرتقيه الحافر»؛ لأنّ القطعة المأخوذة من الجبل طولاً في دقّة لا سبيل للحافر إلى صعودها، ولو أخذت عرضاً لأمكن صعودها، ثمّ وصف تلك القطعة بالعلوّ المعظم، فقال: «ولا يوفى عليه الطائر» أي لا يصعد عليه، يقال وفى فلان على الجبل: أشرف.[1]

نسب مالك الأشتر:

قال ابن أبي الحديد في المجلد الثالث من شرح النهج (ص ٤١٦ ط الأولى بمصر):

هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد.

وكان فارساً شجاعاً، رئيساً من أكابر الشيعة وعظمائها، شديد التحقّق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعد موته: «رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله...».

وقد روى المحدّثون حديثاً يدلّ على فضيلة عظيمة للأشتر رحمه الله

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٩٣.

وهي شهادة قاطعة من النبي ﷺ بأنه مؤمن. روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب الإستيعاب في حرف الجيم في باب جندب:

قال أبو عمر لمّا حضرت أبا ذرّ الوفاة وهو بالربذة، بكت زوجته أمّ ذرّ، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض وليس عندي ثوب يسعك كفناً، ولا بدّ لي من القيام بجهازك، فقال: ابشري ولا تبكي فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يموت بين امرئين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً»، وقد مات لنا ثلاثة من الولد. وسمعت أيضاً رسول الله ﷺ يقول: «النفر أنا فيهم: ليموتنّ أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين»، وليس من أولئك النفر أحد إلاّ وقد مات في قرية وجماعة، فأنا لا أشكّ ذلك الرجل، والله ما كَذبت ولا كُذبت، فانظري الطريق، قالت أمّ ذرّ: فقلت: أنّى وقد ذهب الحاج وتقطّعت الطرق، فقال: إذهبي فتبصّري، قالت: فكنت أشتدّ إلى الكثيب فأصعده فأنظر ثمّ أرجع إليه فأُمّرضه، فبينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركابهم كأنّهم الرخم تخبّ بهم رواحلهم، فأسرعوا إليّ حتّى وقفوا عليّ وقالوا: يا أمة الله ما لك؟ فقلت: امرؤ من المسلمين يموت تكفّنونه، قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذرّ، قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟! قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأُمّهاتهم وأسرعوا إليه حتّى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «النفر أنا فيهم: ليموتنّ رجل منكم بفلاة في الأرض تشهده عصابة من المؤمنين» وليس من أولئك النفر إلاّ وقد هلك في قرية وجماعة، والله ما كَذبت ولا كُذبت، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً

أو لامرأتـي لـم أُكفَّـن إلاّ فـي ثـوب لـي أو لهـا، وإنّـي أنشـدكم الله أن لا يكفّنني رجـل منكم كـان أميراً أو عريفاً أو بريـداً أو نقيباً، قالـت: ولـيس فـي أُولئك النفر أحد إلاّ وقـد قـارف بعـض ما قـال إلاّ فتـى مـن الأنصـار قـال لـه: أنـا أُكفّنك يا عـمّ في ردائـي وفـي ثوبين معي في عيبتي من غزل أمّي. فقال أبـو ذرّ: أنـت تكفّنـي، فمـات فكفّنـه الأنصـاري وغسّـله النفـر الـذين حضـروه وقاموا عليه ودفنوه في نفر كلّهم يمان.

روى ابـن عمـر بـن عبـد البرّ قبل أن يـروي هـذا الحـديث فـي أوّل بـاب جندب: كان النفر الذين حضروا موت أبي ذرّ بالربذة مصادفة جماعة منهم حجر بن الأدبر، ومالك بن الحرث الأشتر، قلت: حجر بن الأدبر هو حجر بن عدي الذي قتله معاوية وهو من أعلام الشيعة وعظمائها، وأمّا الأشتر فهو أشهر في الشيعة من أبي الهذيل في المعتزلة...

أمّـا ثنـاء أميـر المـؤمنين عليه السلام عليـه فقـد بلـغ مـع إختصـاره مـا لا يبلـغ بـالكلام الطويـل، ولعمـري لقـد كـان الأشـتر أهـلاً لـذلك، كـان شـديد البـأس، جـواداً رئيسـاً حليمـاً فصـيحاً شـاعراً، وكـان يجمـع بـين اللـين والعنـف، فيسـطو في موضع السطوة، ويرفق في موضع الرفق، إنتهى قول ابن أبي الحديد.

* * *

[صفات مالك الأشتر]:

وفي كتاب (الراعي والرعية) لمؤلّفه توفيق الفكيكي:

كان مالك الأشتر من عليّ عليه السلام كما كان هو من رسول الله صلى الله عليه وآله، عاملاً نصيحاً، وعلى عدوّه شديداً، كان من زعماء العراق الأشدّاء، وضبارمه، نجيد من النجداء، وفارساً صنديداً لا يشقّ له غبار، كان شديد البأس، ورئيس أركان

الجيش لعساكر أبي الحسن عليه السلام في حرب الجمل وصفّين والنهروان، وهو من لهاميم مذحج الأبطال المغاوير، وسيّد قروم نخع وشجعانها المساعير، ومن رواسي الجبال في الحلم، ومن السحاب الثقال في الكرم والسخاء.

كان من الأكياس العارفين في السياسة والتدبير، يجمع بين اللين والعنف، فيسطو في موضع السطوة، ويرفق في موضع الرفق، وقد شهد بذلك سيّده وإمامه أبو الحسن عليه السلام:

«إنّه ممّن لا يخاف وهنه ولا سقطته، ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل».[1]

وهو مع ذلك خطيب منبر مصقع، وقائد عسكر مرجب، خطير قاهر، ولا عيب فيه غير أنّه شاعر فصيح، وناشر بليغ، قد استطاع أن يخمد بذلاقة لسانه من الفتن العمياء ما أعيا حسامه إطفاءها في كثير من المواقف والمشاهد التي نصر فيها الحقّ وحارب الباطل وخذل أهله، تعرف ذلك فيه من قول أستاذه وسيّده حين بلغه مقتله فقال: «إنّا لله وإنا إليه راجعون، مالك وما مالك وهل موجود مثل مالك، لو كان من حديد لكان فِنداً، أو من حجر لكان صلداً، على مثله فلتبك البواكي».

كان شديد الصراحة في كلامه وأقواله، والصراحة من شيمة الأحرار وسجيّة الصادقين والطابع الخاصّ لأهل الإباء والأنفة، وهي من أهمّ خصائص أصحاب الجرأة الأدبية الذين لا يهابون ولا يخشون في نصرة الحقّ لومة لائم.

ولله درّ القائل وقد سئل عن الأشتر: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام، وهزم موته أهل العراق.

---

(١) أنظر: نهج البلاغة ٣: ١٤.

لقد ترجم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قائده الأشتر بكلمة من قصار كلماته فقال: «كان لي مالك كما كنت لرسول الله»، فهذه الكلمة القصيرة فتحت لنا ألف باب نصل منها إلى تلك النفس الزكيّة القدسية.

كان أمير المؤمنين عليه السلام خالصاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، لا لأنّه ابن عمّه ومن أقرب الناس إليه نسباً ولحمة؛ بل لأنّه النبي الصادق الأمين، جاء بالحقّ من عند الله فصدع به وبلّغه، وهكذا يقضي التشبيه لمالك، ويدلّ عليه مأثور فعله وقوله في حالتي الغضب والإطمئنان والشدّة والرخاء، وهو وإن لم يبت على فراش علي ولكنّه عرض نفسه للفداء له في كلّ موقف وقفه ومشهد شهده.

كان الأشتر رضوان الله عليه متكلّماً فصيحاً مفوّهاً، وكاتباً ألمعيّاً بارعاً، وخطيباً لوذعيّاً، مصقعاً، وشاعراً عبقرياً مجيداً مبدعاً، له قريحة خصبة وقّادة، وشعور ملتهب حي، وقلب نابض حسّاس، وقد رزقه الله حظّاً وافراً من الذكاء والفطنة، وحباه بطبع رقيق شفّاف، وبمزاج صاف متلألأ، وذوق مستقيم سليم ما جعله آية من آيات الأدب العربي، وسورة بديعة من سور الفصاحة والبلاغة، ومعجزة لغة الناطقين بالضادّ.

نظم الشعر وأجاد فيه فجاء شعره كما يتطلّبه الفنّ وتقتضيه الصناعة، متيناً رصيناً أخّاذاً رائعاً غاية في الجودة والإبداع، يهزّ النفس ويملأ الفمّ ويشعّ بالحيوية والجاذبية، وقد تغلغلت بين طيّاته وفي قوافيه روح صاحبه ونفسيته العالية الرفيعة ما دفعه عن مستوى الشعر ونزّهه عمّا يشينه من الإبتذال، وصرفه عن أبواب المديح والهجاء والتشبّب بالنساء والغلمان، والبكاء على الطلل والدمن والرسوم إلى أبواب الفخر والحماسة لا غير، فكان أصدق صورة عن تلك الشخصية الفذّة الممتازة، وأصفى مرآة عن روحه الطاهرة النبيلة، ولم يكن

نثره أقلّ خطراً من نظمه، ولا يقصر في الجودة والإبداع عن شعره، فلقد كادت كلماته أن تبلغ من الفصاحة والبلاغة حدّ الإعجاز، وأوشكت أن تقارب خطبه خطب أُستاذه أمير المؤمنين عليه السلام لولا تلك الروعة الهادئة التي تتجلّى في كلامه عليه السلام، وإن كان قد قاربه في سرعة الخاطر وحضور البديهة، وقوّة الإرتجال وجمال الأُسلوب. (وسوف نستعرض قطعاً منها فيما يأتي).

* * *

رأي الإمام عليه السلام فيه:

جاء في كتاب (مالك الأشتر) لمؤلّفه السيّد محمّد رضا الحكيم:

أمّا رأي الإمام عليه السلام في مالك الأشتر، فقد كان رأياً حسناً وحسناً جداً؛ فإنّه كان شديد الثقة به كثير الاطمئنان إليه، معجباً به غاية العجب، مكبراً له إلى أبعد حدّ، وكان يرى فيه المثل الأعلى للإنسانية الكاملة التي تسامت بفضائلها عن مستوى هذه البشرية المتواضعة الناقصة، والتي تستحقّ أن تكون في أوّل صفّ من صفوف عباقرة الإسلام الأفذاذ الذين كتب لهم الخلود على صفحة الأبد اللانهائي.

هكذا كان رأي الإمام عليه السلام في صاحبه الأشتر رضوان الله عليه، وهكذا كان عليه السلام يراه وينظر إليه، وهكذا كان يعرّفه بين حين وآخر لخواصه ورجال شيعته، وينوّه بجلالة قدره بين المسلمين، ولا تعوزنا النصوص للتدليل على ذلك، فبين يدينا كثرة منها تدلّنا بكلّ وضوح وجلاء على مدى تقدير الإمام له وإعجابه به، فمن ذلك كتابه إلى أهل مصر حين بعثه أميراً عليهم، وإليك نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من بمصر

من المسلمين الذين غضبوا لله حين عصي في الأرض، وضرب الجور بأرواقه على البرّ والفاجر، فلا حقّ يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه:

سلام عليكم، فإنّي أحمد الله إليكم الذي لا إله إلاّ هو.

أمّا بعد، فإنّي قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينام أيّام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء، حذار الدوائر، لا ناكل من قِدم، ولا واه في عزم، من أشدّ عباد الله بأساً، وأكرمهم حسباً، أضرّ على الفجّار من حريق النار، وأبعد الناس عن دنس أو عار، وهو مالك بن الحارث الأشتر، حسام صارم، لا نابي الضريبة، ولا كليل الحدّ، حليم في السلم، رزين في الحرب، ذو رأي أصيل، وصبر جميل، فاسمعوا له وأطيعوا أمره، فإن أمركم بالنفر فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، فإنّه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي، نصيحة لكم، وشدّة شكيمة على عدوّكم، عصمكم الله بالهدى، وثبّتكم بالتقوى، لما يحبّ ويرضى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».[1]

أقول: وبالتالي لمّا أحرز الإمام عليه السلام من مالك الكفاءة التامّة من جميع النواحي: كياسة وسياسة وعلماً وشجاعة، وحسن إدارة.

لمّا أحرز ذلك عقد له ولاية عامّة على مصر، وكتب إليه عهده المشهور الذي هو قانون دولي عام، لو عمل به المسلمون لسعدوا واستغنوا عن الغرب وقوانينه، ولكن من سوء الحظّ تُرك هذا القانون الإسلامي وتُرك العمل به.

[**عهد الإمام عليه السلام لمالك**]:

لمّا ولاّه عليه السلام ولاية مصر كتب إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به عبد الله عليّ أمير

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٦٣/ ٣٨.

المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولاّه مصر، جباية خراجها، وجهاد عدوّها، وإستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتّباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلاّ باتّباعها، ولا يشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنّه جلّ اسمه قد تكفّل بنصر من ينصره، وإعزاز من أعزّه.

وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات، وينزعها (يزعها) عند الجمحات فإنّ النفس أمّارة بالسوء إلاّ ما رحم الله.

ثمّ اعلم يا مالك أنّي قد وجّهتك إلى بلاد قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدل وجور، وأنّ الناس ينظرون من أُمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنّما يستدلّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك، فإنّ الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبّت أو كرهت...».[1]

* * *

جاء في (المجلّد العشرين)[2] من كتاب (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):

في هذا الفصل عقد الإمام عليه السلام لمالك ولاية عامّة على كلّ أُمور مصر وجمعها في أربع:

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٨٢.

(٢) ص: ١٦٨.

١ ـ الأمور المالية والإقتصادية التي تتركّز في ذلك العصر في جمع الخراج، فإنّ مصر من الأراضي المفتوحة عنوة، إنتقلت أراضيها العامرة إلى المسلمين، فقرّروا فيها الخراج.

٢ ـ في الأمور العسكرية: فأثبت له القيادة العامة على القوى المسلّحة، والجامع لها جهاد الأعداء.

٣ ـ الأمور الإجتماعية والنظم الحقوقية الراجعة إلى كلّ فرد، فعبّر عنها بقوله: «وإستصلاح أهلها».

٤ ـ عمران البلاد بالزراعة والغرس وسائر ما يثمر للناس في معاشهم.

ثمّ ابتدأ بما يلزم عليه في نفسه من التأديب والحزم ليقدر على إجراء أمره عليه السلام، وحصرها في أمور:

١ ـ تقوى الله وإيثار طاعته.

٢ ـ اتّباع ما أمر الله في كتابه من الفرائض والسنن.

٣ ـ نصرة الله بالقلب واليد واللسان.

قال الشارح المعتزلي: نصرة الله باليد: الجهاد بالسيف، وبالقلب الإعتقاد للحقّ، وباللسان: قول الحقّ.

أقول: لا تنحصر نصرة الله باليد على الجهاد بالسيف، فإنّها تحقّق في كلّ أعمال الجوارح المرضية لله تعالى، ومنها الجهاد بالسيف إذا حان وقته وحضر شرطه.

ثمّ وصّاه عليه السلام بحفظ نفسه عن التغلّب عليه في أموره، وأمر بكسر شهواته وميوله نحو اللذائذ المادية وحذّره منها أشدّ الحذر.

ثمّ خاطبه باسمه فقال: «ثمّ اعلم يا مالك أنّي قد وجّهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور».

فقد أثبت عليه السلام لمصر في تاريخها الماضي دول وحكومات ووصفها بأنها عدل وجور، فلا بدّ من الفحص عن هذه الدول والفحص عن ما هي عادلة أو جائرة.

فهل المقصود من هذه الدول هي (العمّال الإسلاميين) بعد فتح مصر، وهل يصحّ التعبير عنهم بأنها دول عدل ولو باعتبار شمول السلطة الإسلاميّة من أواخر خلافة أبي بكر إلى أيّام عمر وعثمان، فالدول الجارية دولة عمر وعثمان مثلاً، أو حكومة عمرو بن العاص فاتح مصر ومن وليه من أمثال ابن أبي سرح، وهل توصف واحدة منها بأنّها عادلة؟ أو المراد من الدول الجارية المتتالية في مصر، الدول قبل الإسلام في قرون كثيرة وأشكال شتّى، فلا بدّ من بيان إجمالي لهذه الدول، وهل يمكن (أن) تعرف دولة عادلة فيها أم لا.

[مصر عبر التاريخ]:

فنقول: نتوجّه إلى دول مصر في ضوء القرآن الكريم، فإنّه قد تعرّض لشرح بعض دولها إجمالاً فيما يأتي:

١ ـ دولة مصر المعاصرة ليوسف النبي عليه السلام المعبّر عنها بدولة عزيز مصر:

﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1].

والظاهر أنّ عزيز مصر هو حاكمها ورئيسها في ذاك العصر المعبّر عنه بفرعون، وقد قيل أنّ عزيز مصر غير فرعون مصر؛ بل هو رئيس

---

(١) يوسف: ٣٠.

جندها أو أحد أركان دولتها، ولكن سياق الآيات الواردة يأباها، فانظر إلى آية (٤٣) في بيان رؤيا الملك:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1].

فسياق هذه الآيات يشهد بوضوح أنّ زوج زليخا وعزيز مصر رجل واحد، وهو حاكم مطلق على أمور مصر وليس فوقه أحد، ويستفاد من نصّ الآيات الأخيرة من سورة يوسف أنّ عزيز مصر لمّا اطّلع على مقام يوسف وطهارته وعصمته ونبوّته تنزّل عن عرش مصر وفوّض إليه أمور مصر كافّة، فصار عزيز

---

(١) يوسف: ٤٣ - ٥٤.

مصر، كما في آية (٧٨): ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[1].

فعزيز مصر وهو زوج زليخا، وإن لم يتنزّل عن العرش رسماً بحيث تتحوّل الحكومة من بيت إلى بيت، لكنّه آمن بيوسف وانقاد له وفوّض إليه أموره كما يستفاد من الآية (٣٤) عن قول مؤمن آل فرعون موسى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾.

فعلى ضوء هذا التفسير كانت دولة عزيز مصر في زمن يوسف عليه السلام دولة عادلة، ودولة فرعون مصر المعاصر لموسى بن عمران دولة

---

(١) يوسف: ٧٨ - ٨٨.

جائرة من كلّ النواحي، منكراً الله تعالى ولعبادته، ومنادياً على رؤوس الأشهاد: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1] وظالماً لبني إسرائيل إلى حيث يذبح أبنائهم ويستحيي نسائهم، ويجرّ عليهم بلاءاً عظيماً ليستأصلهم عن شأفتهم حتّى صارت الأمثال السائرة العالمية في الجور والظلم والعدوان.

هذا بالنظر إلى مجمل التاريخ المنعكس في الكتب السماوية.

وقد انتهت حكومة مصر قبل الإسلام إلى بطالسة يونان فأثّروا في بسط الفلسفة اليونانية فيها، وأسّسوا دوراً لتعليم الفلسفة ومكتبة عامّة بقيت إلى عصر الفتح الإسلامي، وكان حاكم مصر وواليها في ذلك العصر المقوقس الذي كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وآله كتاباً يدعوه إلى قبول الإسلام...

قال ابن هشام: وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله رسلاً من أصحابه وكتب معهم كتاباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحيّة بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أُميّة الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية... الخ. والمقوقس هذا رجل يوناني يحكم على مصر بعد ملوك البطالسة، وكان تحت حماية ملوك الروم البيزانطية في ذلك العصر، فلمّا جاءه رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إليه الكتاب، لقيه ببشر وإحترام وردّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مصحوباً بهدايا، منها مارية القبطية التي قبلها رسول الله صلى الله عليه وآله بقبول حسن وسرّ بها واتّخذها لفراشه وأولدها، فولدت له إبراهيم ابن النبي، ونالت حظوة عند رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد دخلت مصر في حوزة الإسلام سنة عشرين من الهجرة،

---

(١) النازعات: ٢٤.

وأقدم على فتحها عمرو بن العاص بعدما استتبّ للمسلمين فتح سورية وتسلّطوا عليها وفرّ هرقل ملك الروم الشرقية إلى القسطنطينية.

قد عرفت ممّا ذكرنا من ملخّص تاريخ فتح مصر بيد المسلمين، أنّه لم يحكم في مصر إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام وإلى حين صدور هذا العهد التاريخي للأشتر النخعي إلاّ عمرو بن العاص، وعبد الله بن سرح بن أبي سرح، الذي ولاّه عثمان على مصر بعد عزل فاتحها عمرو بن العاص، فثار عليه الرومان، فاستعان عثمان بعمرو فسار إلى مصر وأخمد ثورة الرومان وأخرجهم من مصر، ولكن لم يرض عثمان بعزل عبد الله، فاشتركا في إدارة أُمور مصر، وتنازعا ورجّح عثمان عبد الله بن سرح عليه، فرجع عمرو إلى المدينة ناقماً على عثمان، معيناً لأعدائه ومحرّضاً للقيام عليه حتّى قتل وهما واليان على مصر.

ولا يصدق على حكومتهما باعتبار أنّهما عاملان للخليفة لفظ الدولة، ولا يمتازان بالعدل والجور؛ بل كلاهما من نسيج واحد ومن أهل النفاق ومن أعداء أهل البيت والمخالفين لولاية أمير المؤمنين عليه السلام ومن الحكّام الجائرين، فإنّ عمرو بن العاص توجّه إلى مصر لجمع المال والإدّخار حتّى بلغت ثروته إلى حيث ظهر للملأ إغتصابه لأموال المسلمين وأخذه من بيت المال فوق حقّه وسهمه، وبلغ الخبر إلى عمر بن الخطّاب فكتب إليه معاتباً له...

إنّ الدول التي وقع ذكرها في صدر هذا العهد، ووصفها عليه السلام بأنّ فيها عادل وجائر لا يصحّ أن تكون حكومة عمرو بن العاص وابن أبي سرح؛ لأنّها ليست دولة إلاّ بتكلّف، ولا يطلق عليها دول بلفظ الجمع، مع أنّهما جائران لأتباعهما، وحالهما معلومة أنّهما عريقان في النفاق.

فلا بدّ أن يكون المقصود من هذه الدول الحاكمة على مصر قبل الإسلام ممّا بقيت آثارها وأخبارها في كتب التاريخ.

فوجّه عليه السلام مالكاً إلى هذا القطر العميق العريق في القدم، وملأ عهده هذا من القوانين السائدة في مصر القديمة، ومن بعض سير ملوكها العدول.

ولا ينافي توصيف بعض دول مصر بالعدالة مع كونهم وثنيين؛ لأنّ عدالة الدولة بالنسبة إلى رعاياها وحفظ النظم والحقوق لا يرتبط بمذهبها، ويمكن أن يعدّ ذلك من كراماته عليه السلام وإحاطته بالعلوم والأخبار. انتهى ما نقلناه ملخّصاً عن منهاج البراعة.

صفات الأشتر الكمالية:

قال العلاّمة الشيخ عبد الواحد مظفّر في كتابه (قائد القوّاد العلوية):

مالك بن الحارث الأشتر، حسام صارم لا نابي الضريبة ولا كليل الحدّ، حليم في السلم، رزين في الحرب، ذو رأي أصيل وصبر جميل، قال عليّ عليه السلام في كتابه إلى أهل مصر: «فاسمعوا له وأطيعوا، فإن أمركم بالنفر فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، فإنّه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي، نصيحة لكم وشدّة شكيمة على عدوّكم، عصمكم الله بالهدى وثبّتكم بالتقوى...».

لا تحسب أنّ الإقليم المصري الواسع الأطراف الكثير المدن، يحتاج إلى رجل حربي فقط؛ بل هو إلى رجل سياسي قدير له خبرة تامّة بشؤون الإدارة، ومعرفة واسعة بأطوار السياسية أحوج، وكما يحتاج إلى رجل حربي قدير وشخص سياسي خبير، يحتاج أيضاً إلى علاّمة بجلّ العلوم.

فقد دلّ هذا الإختيار على تفوّق الأشتر بكلّ هذه المزايا، وتميّزه على غيره بعامّة الخلال الفاضلة، وإلاّ لما كان لقوله عليه السلام: «ليس لها إلاّ صاحبنا الذي عزلناه بالأمس ـ يعني قيس بن سعد بن عبادة ـ أو الأشتر»

أثـر. أثبـت عليه السلام فيـه للأشـتر أكثـر مزايـا الفضـل التـي تمتـدح بهـا نـبلاء الرجال، وتنفي عنه خلال الذمّ التي تتنكّب عنها عظماء الأقيال، فأثبت له التيقّظ والإحتراس بقوله: «لا ينام أيّام الخوف» وهذه الصفة من أفضل صفات القواد وأميز مزايا الأمراء والرؤساء، فإذا كان القائد متيقظاً حذراً لم يمكّن عدوّه من التسلّط عليه، وحمى شعبه وجنده بحراسته ويقظته.

وأثبت عليه السلام للأشتر صفة الإقدام والجرأة بقوله: «لا ينكل» وهذه المزيّة الفذّة واليتيمة المثمنة لا توجد إلاّ في الأفذاذ من الأبطال والنوادر من الرجال، فإنّ أغلب أهل الشجاعة والفروسية ربّما نكلوا وأحجموا في بعض المواطن، وربّما فرّوا، كما فرّ جماعة من أبطال العرب وفرسانهم المجمع على فروسيتهم، وأتفقوا على تميّزهم في البطولة وقالوا: إنّهم أفرس العرب قاطبة في العصر الجاهلي، مثل: عتيبة بن الحارث بن شهاب التميمي اليربوعي المعروف بصيّاد الفوارس، وأبي الصهباء بسطام بن قيس البكري الشيباني فارس ربيعة، وأبي علي عامر بن الطفيل العامري الكلابي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي صاحب الصمصامة، ومهلهل بن ربيعة أخو كليب التغلبي فارس الأراقم من ربيعة وغيرهم. فإنّهم فرّوا في بعض الوقائع ونكلوا عن أقرانهم ووقعوا في رقّ الأسر.

وأمير المؤمنين عليه السلام يثبت أنّ الأشتر لا ينكل.

وأثبت عليه السلام له المضاء في العزيمة: وهذه المزيّة أكمل من الأولى وأجلّ وأنبل، وحري بالإطراء من أتصف بالمضاء فإنّه يعمّ أوقات الحرب والسلم، فإنّ كثيراً من موارد المضاء في العزيمة يقع في المقربات والطاعات: كالمضي إلى الحج وبذل الأموال في إعانة المحتاجين وإعطاء الحقوق، فإذا كان الرجل ماضي العزيمة لم يصرفه حبّ الجمع والإدّخار عن صرف الأموال الطائلة في

مرضاة الله وتأدية الحقوق، ولا تصدّه نهنهة المعارض في كلّ ما يرى فيه الصلاح والإصلاح.

وإذا كان الإنسان واهي العزيمة انقبض عن الإنفاق وهاب الأعمال التي يوجبها الحزم، فوقف مع الضعف والوهن، وفاته حمد الدارين، وحرم فضيلة النشأتين الدنيا والآخرة.

وأثبت عليه السلام له شدّة البأس بقوله: «من أشدّ عباد الله بأساً» وهذه أكبر شهادة منه عليه السلام للأشتر بامتيازه على نظرائه وتفوقه على أقرانه، شجاعة ونجدة.

وشهد له عليه السلام بشرف الأصل وكرم الحسب، والحسب إن كان بمآثر الآباء، فحسب مذحج غير خفي، وإن كان الحسب بمكتسبات النفس من الفضائل، ففضائل الأشتر لا تُجهل.

وشهد له عليه السلام بالإيمان الخالص، إذ لا يضرّ الفجّار إلاّ من خلص إيمانه ورسخت عقيدته ونفذت بصيرته.

ثمّ نقّى عنه الدنس: وهو ما يلحق الأحساب الكريمة من الفعال المذمومة وما يعرض للديانات من مقارفة المنهيات والمزجور عنها، فيقارفها أمّا جهلا أو عمداً بدعوى التأويل والإجتهاد.

وشهد له بالحلم الذي هو من سجايا الصالحين وسمات المؤمنين، وأفخر ما تمدّحت به العرب في جاهليتها وإسلامها حتّى فضلوا بهذه الصفة قيس بن عاصم السعدي سيد أهل الوبر، والأحنف بن قيس السعدي وكلاهما من بني تميم على سائر العرب بهذه الخصلة.

وشهد له عليه السلام بالرزانة في الحرب، والرزانة ملكة نفسية تثيرها العواطف الإنسانية والشعور الروحي، وتعضدها قوّة الإيمان، فينبعث منها الثبات أمام الأهوال المزعجة، والإطمئنان عند الصدمة المروّعة التي

يشتدّ بها جيشان النفس عند الفزع، فلذا تجد الشجاع الجريء القوي الجنان لا يفزع إذا طاشت الحلوم وذهلت الألباب، كما قال الأشتر في بعض أهوال صفّين لأصحابه: غمرات ثمّ يجلينا.

وشهد له عليه السلام بجودة الرأي في الحرب والسلم كليهما، أمّا جودة الرأي في الحرب، فإنّها تمدّ الجيش بالقوّة المعنوية، فإنّ جيّد الرأي البصير في الحرب دائم التيقّظ شديد الإحتراس فلا يستطيع العدوّ له كيداً، ولا يتمكّن أن يصيب منه غرّة، وهكذا كانت حالة الأشتر في الحرب، ثمّ يصيب بجودة رأيه كيد الأعداء فينال من الظفر بهم بغيته ويحصل في إصابة الغرّة منهم أُمنيته، ولذا قيل: الحرب خدعة.

أمّا جودة الرأي في السلم: فهي ضرب من ضروب السياسة وفنّ من فنون الإدارة، فإنّ بالرأي تساس الرعية وتدار شؤون البلاد، وبها يكون إصلاح الشعوب ونظام المملكة، ولهذا قالوا: أعظم الناس سياسة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لأنّه دخل العراق وهي تموج بالفتن، وقد انقسمت إلى حزبين سياسيين: حزب عثماني يرى من أعظم الواجبات الإنتصار لعثمان والإنضمام إلى صفّ نصرائه، وحزب علوي يرى من أعظم القرب إلى الله إبادة الحزب العثماني، وبسياسة عليّ عليه السلام ألّف بين الحزبين المتضادّين، وضمّ أحدهما إلى الآخر، فجهّز منهما جيشاً ضخماً صكّ به جيش أهل الشام المتحزّب لعثمان...

وشهد عليه السلام له بالصبر الجميل، وهذه الصفة محمودة شرعاً وعقلاً؛ لأنّ الإنسان إذا صبر عن اللذّات الشهوانية أمن من الوقوع في الورطة المهلكة، وإذا صبر على صدمات الأهوال ومعامع القتال، فقد أدّى واجب الجهاد المفترض أحسن تأدية، وإذا صبر على البلاء فقد نال أجراً وحصل ذخراً لمعاده.

سخاء مالك:

السخاء عند العرب خلق طبيعي لهم، قلّ أن يخلو عربيٌ من السخاء، وذلك أنّ العرب تعدّ السخاء مفخرة من مفاخرها ومنقبة من مناقبها.

وسخاء مالك يشهد له قول أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه المتقدّم، وقول الأشتر نفسه في سينيته:

بقيت وفري وانحرفت عن العُلا ... ولقيت أضيافي بوجه عبوس

صرّح بأنّه يلقى أضيافه بوجه هشّ بشّ، طلق المحيّا، تعلو أساريره لمعات الفرح بالأضياف، وأنّه لشدّة سخائه وعظم جوده وكرمه لا يبقي وفراً، وينفق ثروته في العطاء والبذل والسماح بها لذوي الحاجات، وهذا نظير قول حاتم:

لقد علم الأقوام لو أنّ حاتماً ... أراد ثراء المال كان له وفر

رأفة الأشتر ورقته:

إنّك إذا استعرضت سيرة الأبطال، ولاحظت أخبار الشجعان، وجدت القسوة والغلظة فيهم وفي طبائعهم الواشجة وعرفتها في أخلاقهم المتمكّنة، وقلّ أنّ شجاعاً راحماً وبطلاً عطوفاً تأخذه الرقّة ويقوده الحنان والعطف، إنّ مثل هذا مستغرب وعجيب في صفات البطولة، حتّى أنّ العرب ليمدحون البطل بالعبوسة والشجاع بالغلظة.

لكن إذا رزق الله البطل الإيمان وغمس روحه الطيّبة بروحانية القداسة الدينية، وقطرت عليها قطرات الرضوان، ذهبت تلك الغطرسة والخيلاء وتبدّل العنف والقسوة بالرقة والعطف إلاّ على أعداء الدين وأضداد الملّة وبغاة الإسلام بالكيد والغوائل، فإنّه يزداد عليهم حنقاً وغلظة، ويمطر عليهم حاصباً من قسوة، وقد اجتاح هذه الصفات أبو

إبراهيم مالك، فكان كما قال فيه أمير المؤمنين: «أضرّ على الفجّار من حريق النار» مع قوله: «حليم».

حدّثنا نصر بن مزاحم في كتاب (صفّين)[1] قال: كان من أهل الشام رجل بصفّين يقال له الأصبغ بن ضرار الأزدي، وكان طليعة ومسلّحة لمعاوية، فندب عليّ عليه السلام له الأشتر فأخذه أسيراً من غير أن يقاتل، وكان عليّ عليه السلام ينهى عن قتل الأسير الكافّ، فجاء به ليلاً وشدّ وثاقه وألقاه مع أضيافه، وكان الأصبغ شاعراً مفوّهاً، ولمّا نام أصحابه رفع صوته ليسمع الأشتر:

ألا ليت هذا الليل طبّق سرمداً	على الناس لا يأتيهم بنهار
يكون كذا حتّى القيامة أنّني	أُحاذر في الإصباح ضرمة نار
فيا ليل طبّق إنّ في الليل راحة	وفي الصبح قتلي أو فكاك أساري
ولو كنت تحت الأرض ستّين وادياً	لما ردّ عنّي ما أخاف حذاري
فيا نفس مهلاً إنّ للموت غاية	فصبراً على ما ناب يا بن ضرار
أأخشى ولي في القوم رحم قريبة	أبي الله أن أخشى والأشتر جاري
ولو أنّه كان الأسير ببلدة	أُطاع بها شمّرت ذيل أزاري
ولو كنت جار الأشعث الخير فكّني	وقلّ من الأمر المخوف فراري
وجار سعيد أو عدي بن حاتم	وجار شريح الخير قرّ قراري
وجار المرادي العظيم وهانئ	وزجر بن قيس ما كرهت نهاري
ولو أنّني كنت الأسير لبعضهم	دعوت رئيس القوم عند حذاري
أُولئك قومي لا عدمت حياتهم	وعفوهم عنّي وستر عواري

---

(١) ص ٤٦٦.

فغدا به الأشتر على عليّ عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل من المسلّحة لقيته بالأمس، فوالله لو علمت أنّ قتله الحقّ قتلته، فقال عليّ عليه السلام: «إذا أصبت أسيراً فلا تقتله»، فرجع به الأشتر إلى منزله وقال: لك ما أخذناه منك ليس لك عندنا غيره.

حلم مالك الأشتر:

الحلم وهو ترك العقوبة للجاني والتساهل مع المسيء في الغضّ على إساءته، وعدم سرعة الإنتقام مع القدرة عليها، وهي من أفضل أخلاق العرب وأجلّ سجايا الملوك، وقد حثّت الشريعة الإسلاميّة على الحلم وندبت المؤمنين إلى العفو، ويكفي في بيان فضلها أنّها من صفات الله تعالى وصفات رسوله صلى الله عليه وآله...

وقد امتاز الأشتر بهذه العفّة فكان فيها كامل المروءة تامّ الإنسانية، قويّاً في دينه متأنّياً في نفسه، هاضماً لها عند النزوة والطموح، كابحاً لجماحها، قاهراً لها عن التعدّي على الضعفاء، ومن لا يستطيع الإنتصار.

قال المجلسي في (البحار):[١] حكي أنّ مالك الأشتر رضوان الله عليه كان مجتازاً في السوق وعليه قميص وعمامة، فرآه بعض السوقة فازدرى به ورماه ببندقة تهاوناً به، فمضى ولم يلتفت، فقيل له: ويلك أتعرف لمن رميت؟ فقال: لا، فقيل له هذا مالك صاحب أمير المؤمنين عليه السلام فارتعد الرجل ومضى ليعتذر إليه، وقد دخل مسجداً وهو قائم يصلّي فلمّا انفتل أكبّ الرجل على قدميه يقبّلهما، فقال له مالك: ما هذا الأمر؟ فقال: أعتذر إليك ممّا صنعت، فقال: لا بأس عليك فوالله ما دخلت هذا المسجد إلاّ لأستغفر الله لك.

---

(١) ج ٤٢: ١٥٧، مع اختلاف في الألفاظ.

شاعريته:

فالأشتر شاعر الحماسة، وخطيب الفراسة، إن نظم كان شاعراً حماسياً يقطر شعره شجاعة وحماساً، وإن خطب كان خطيباً مصقعاً ومتكلّماً مفوّهاً، كما كان شاعراً مفلقاً، يعرب عن حكمة وينطق ببيان، فمن شعره بعد إنتهاء واقعة الجمل، لمّا دخل على عائشة في البصرة، وعاتبته عمّا صنع بابن أُختها عبد الله بن الزبير:

أعائش لولا أنّني كنت طاوياً ... ثلاثاً لألفيت ابن أُختك هالكا

غداة ينادي والرماح تنوشه ... كوقع الصياصي اقتلوني ومالكا

فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمّه ... خدبٌ عليه في العجاجة باركا

فنجّاه منّي شبعه وشبابه ... وإنّي شيخ لم أكن متماسكا

وقالت على أي الخصال صرعته ... بقتل أتى أم ردّة لا أباً لكا

أم المحصن الزاني الذي حلّ قتله ... فقلت لها لابدّ من بعض ذالكا

* * *

وقال في الكوفة لمّا خوّفه جرير بن عبد الله البجلي بأبطال أهل الشام:

لعمرك يا جرير لقول عمرو ... وصاحبه معاوية الشآمي

وذي كلع وحوشب ذي ظليم ... أخفّ عليَّ من زفّ النعام

إذا اجتمعوا عليَّ فخلّ عنهم ... وعن باز مخالبه دوام

فلست بخائف ما خوّفوني ... وكيف أخاف أحلام النيام

وهمّهم الذي حاموا عليه ... من الدنيا وهمّي ما أمامي

فإن أسلم أُعمّهم بحرب — يشيب لهولها رأس الغلام
وإن أهلك فقد قدّمت أمراً — أفوز بفلجه يوم الخصام
وقد زأروا إليّ وأوعدوني — ومن ذا مات من خوف الكلام

* * *

وقال في الحدل التي كانت مع هاشم بن عتبة المرقال يوم صفّين:

وإنّا إذا ما احتسبنا الوغى — أدرنا الرحى بصنوف الحدل
وضرباً لهاماتهم بالسيوف — وطعناً لهم بالقنا والأسل
عرانين من مذحج وسطها — يخوضون أغمارها بالهبل
ووائل تسعر نيرانها — ينادونهم أمرنا قد كمل
أبو حسن صوت خيشومها — بأسيافه كلّ حام بطل
على الحقّ فينا له منهج — على واضح القصد لا بالميل

* * *

وقال في صفّين يتهدّد معاوية ليلة أراد الإمام أن يحمل في صبيحتها:

قد دنا الفصل في الصباح — وللسلم رجال وللحروب رجال
فرجال الحروب كلّ خدب — مقحم لا تهدّه الأهوال
يضرب الفارس المدجّج بالسيف — إذا فلّ في الوغى الأكفال
يا بن هند شدّ الحيازيم للموت — ولا يذهبنّ بك الآمال
إنّ في الصبح إن بقيت لأمراً — تتفادى من هوله الأبطال

فيه عزّ العراق أو ظفر الشام بأهل العراق والزلزال

فاصبروا للطعام بالأسل السمر وضرب تجري به الأمثال

إن تكونوا قتلتم النفر البيض وغالت أولئك الآجال

فلنا مثلهم وإن عظم الخطب قليل أمثالهم أبدال

يخضّبون الوشيخ طعناً إذا جرت من الموت بينهم أذيال

طلبوا الفوز في المعاد وفي ذا تستهان النفوس والأموال

* * *

وقال أيضاً يتهدّده:

بقيت وفري وانحرفت عن العُلا ولقيت أضيافي بوجه عبوس

إن لم أشن على ابن هند غارة لم تخل يوماً من نهاب نفوس

خيلاً كأمثال السعالي شزّباً تغدو ببيض في الكريهة شوس

حمّى الحديد عليهم فكأنّه ومضاء برق أو شعاع شموس

* * *

وقال في صفّين:

وسار ابن هند بالغواية يبتغي قتال عليّ والجيوش مع الحفّل

فسرنا إليهم جهرة في بلادهم فصلنا عليهم بالسيوف وبالنبل

فأهلكهم ربّي وفرّق جمعهم وكان لنا عوناً وذاقوا ردى الخبل

نسير إليكم بالقنابل والقنا وإن كان فيما بيننا سرف القتل

فلا يرجع الله الذي كان بيننا ولا زال بالبغض امرءاً جلّكم تغلي

فـدونكم حربـاً عوانـاً ملحّـة عزيـزكم عنـدي أذلّ مـن البغـل

* * *

وقال أيضاً:

ومـا برحـت مثـل المهـاة وسـابح وخطّـارة عبـر السـرى مـن عياليـا

أُقاسـمهنّ العيش في الفقـر والغنـى ونـدفع عـنهنّ السـنين احتباليـا

فهـذا لأيّـام الهيـاج وهـذه للهـوى وهـذي عـدّة لإرتحاليـا

* * *

وقال أيضاً في صفّين لمّا افتخر أهل الشام بقتل عمّار وشمتوا:

نحـن قتلنـا حوشـباً لمّـا غـذا قـد أعلمـا

وذا الكـلاع قبلـه ومعبـداً إذ أقـدما

إن تقتلـوا منّـا أبـا اليقظـان شـيخاً مسـلما

فقـد قتلنـا مـنكم سـبعين رأسـاً مجرمـا

أضـحوا بصفّيـن وقـد لاقـوا نكـالاً موتمـا

خطبه:

الأشتر أحد الخطباء الأبطال الفصحاء، وخطبه كثيرة وبديعة الأسلوب حسنة السبك.

روى نصر بن مزاحم في كتاب (صفّين)[1] عن الفضل بن أدهم، قال: حدّثني أبي:

---

(١) ص ٢٣٨.

إنّ الأشتر قام يخطب الناس بقنسرين وهو على فرس أدهم مثل الغراب فقال:

(الحمد لله الذي خلق السماوات العُلا، الرحمن على العرش استوى له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء، حمداً كثيراً بكرةً وأصيلاً، من يهده الله فقد اهتدى ومن يضلل الله فقد غوى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بالصواب والهدى وأظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ﷺ.

ثمّ قد كان ما قضى الله وقدّر أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض، ولفّت بيننا وبين عدوّنا، فنحن بحمد الله ونعمته ومنّه وفضله قريرة أعيننا طيّبة أنفسنا، نرجو في قتالهم حسن الثواب والأمن من العقاب. معنا ابن عمّ نبيّنا، سيف من سيوف الله عليّ بن أبي طالب، صلّى مع رسول الله ﷺ لم يسبقه بالصلاة ذكر، حتّى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة، فقيه في دين الله عالم بحدود الله، ذو رأي أصيل وصبر جميل وعفاف قديم، فاتّقوا الله وعليكم بالحزم والجدّ.

واعلموا أنّكم على الحقّ وأنّ القوم على الباطل، يقاتلون مع معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مائة بدري سوى ذلك من أصحاب محمّد ﷺ، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله ﷺ، ومع معاوية رايات كانت مع المشركين على رسول الله ﷺ، فما يشكّ في قتال هؤلاء إلاّ ميّت القلب، فإنّما أنتم على إحدى الحسنيين أمّا الفتح وأمّا الشهادة، عصمنا الله وإيّاكم بما عصم به من أطاعه واتّقاه، وألهمنا طاعته وتقواه، واستغفر الله لي ولكم).

وروى الخوارزمي في (المناقب)[١] قال:

كان الأشتر يرتّب الصفوف ويقول: اثبتوا في مواضعكم وأقيموا صفوفكم، فلمّا كتّب الكتائب ورتّب الصفوف أقبل عليها بوجهه ثمّ قال:

(أمّا بعد فقد كان سابقاً في علم الله إجتماعنا في هذه البقعة من الأرض لآجال اقتربت وأُمور تصرّفت، يسوسنا سيّد الأوصياء ويرأسنا ابن عمّ سيّد الأنبياء، فإمامنا المؤيّد بنصر الله من السماء، وسيف من سيوف الله الذي أنار الله به معالم الدين بعد إنخماد، وهاجم الجبابرة والمشركين بيوم بدر عن خير المرسلين، ورئيسهم معاوية بن آكلة أكباد الشهداء، يسوقهم إلى دار الشقاء، ونحن نرجو الثواب وهم ينتظرون العقاب، فإذا حمي الوطيس وحفّ الرئيس، وثار القتام وطال العتاب والملام، والتقت حلقتا البطان وتقصّف المران، وجالت الخيل بالأبطال، وبلغت النفوس الآجال، فلا أسمع إلاّ غماغم الفرسان وهماهم الشجعان، كان الله ولّينا وعلي إمامنا والنصر لواؤنا.

أيّها الناس غضّوا الأبصار وعضّوا على النواجذ والأضراس، فإنّها أشدّ لشؤون الرأس، واستقبلوا القوم بهامكم وخذوا قوائم سيوفكم بأيمانكم واطعنوا الشرّ سوف الأيسر فإنّه تقتل، وشدّوا شدّة قوم موتورين بآبائهم وبدينهم ودماء إخوانهم، حنقين على عدوّهم قد وطّنوا على الموت أنفسهم لئلاّ يسبقوا بثار ولا تلحقوا في الآخرة بنار.

واعلموا أنّ الفرار من الزحف مسبّة عند الله وفيه الخزي والمذمّة إلى يوم القيامة، وفيه كثرة تلف الأنفس في قبيلة ولّت الأدبار، والثبات

(١) أنظر: ص ٢٢٠.

والوقوف محمدة، والحمد أفضل من الذمّ، أعاننا الله وإيّاكم على طاعته واتّباع مرضاته ونصرة أوليائه وقهر أعدائه فإنّه خير معين)، انتهى.

ومن خطبه الرائعة في الكوفة يستحثّهم على الجهاد لمّا خذلهم الأشعري عن نصرة أمير المؤمنين عليه السلام:

قال الشيخ المفيد في كتاب (الجمل):[1] ثمّ خرج الأشتر رحمه الله وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

(أيّها الناس اصغوا لي بأسماعكم، وافقهوا لي بقلوبكم، إنّ الله عزّ وجلّ قد أنعم عليكم بالإسلام نعمة لا تقدّرون قدرها ولا تؤدّون شكرها، كنتم أعداءاً يأكل قويّكم ضعيفكم وينتهب كثيركم قليلكم وتنتهك حرمات الله بينكم، والسبيل مخوف والشرك عندكم كثير، والأرحام عندكم مقطوعة، وكلّ أهل دين لكم قاهرون، فمنّ الله عليكم بمحمّد فجمع شمل هذه الفرقة وألّف بينكم بعد العداوة، وكثّركم بعد أن كنتم قليلين، ثمّ قبضه الله وحوّله إليه، فجرى بعده رجلان، ثمّ ولي بعدهما رجل نبذ كتاب الله وراء ظهره وعمل في أحكام الله بهوى نفسه، فسألناه أن يعزل لنا نفسه فلم يفعل، وأقام على أحداثه فاخترنا هلاكه على هلاك ديننا ودنيانا، ولا يبعد الله إلاّ القوم الظالمين.

وقد جاءكم الله بأعظم الناس مكاناً وأعظمهم في الإسلام سهماً ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأفقه الناس في الدين وأقرأهم للكتاب وأشجعهم عند اللقاء يوم البأس، وقد استنفركم فما تنتظرون؟

أسعيد أم الوليد الذي شرب الخمر وصلّى بكم على سكر، والثاني منهما قد استباح ما حرّمه الله فيكم، أيّ هذين تريدون؟ قبّح الله من له هذا الرأي، ألا فانفروا مع الحسن ابن بنت نبيّكم ولا يتخلّف رجل له

---

(١) أنظر: ص ١٣٧.

قوّة، فوالله ما يدري رجل منكم ما يضرّه وما ينفعه، وإنّي لكم ناصح شفيق عليكم إن كنتم تعقلون أو تبصرون، اصبحوا إن شاء الله غداً غادين مستعدّين، وهذا وجهي إلى ما هناك بالوفاء...) إنتهى.

وللأشتر خطب كثيرة وكثيرة إكتفينا بهذه القطعة منها.

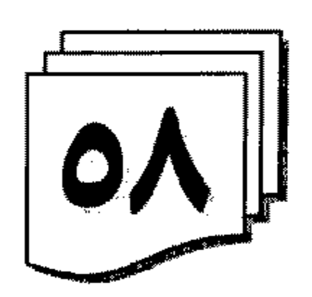
شهادته:

لمّا قتل محمّد بن أبي بكر أرسل الإمام عليّ عليه السلام إليه وقال له: أُخرج إلى مصر رحمك الله، فإنّي لا أُوصيك اكتفاءاً برأيك، واستعن بالله على ما أهمّك، واخلط الشدّة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم على الشدّة حين لا تغني عنك إلاّ الشدّة، فخرج الأشتر ممتثلا لأمر الإمام عليه السلام وإرشاده وتوجّه سائراً إلى مصر.

وبلغ معاوية خروج الأشتر إلى مصر، فقلق أشدّ القلق، وأخذ يفكّر في رفع هذا الخطر الدائم ويقلّب وجه الحيلة ليحول بين الأشتر وبين الوصول لمصر، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به في القلزم، وقال له: إنّ الأشتر قد ولي مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت، فاحتل في هلاكه ما قدرت عليه.

فلمّا انتهى الأشتر إلى القلزم استقبله ذلك الرجل وعظّمه، وقال له هذا منزل فيه طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج فأقم واسترح، فنزل الأشتر عنده فقدّم له ذلك الرجل الطعام حتّى إذا أكل سقاه شربة من عسل قد جعل فيها سمّاً، فلمّا شربها سرى السمّ في جميع بدنه واستولى على جميع عروقه حتّى قضى عليه، فأخذ في تجهيزه ودفن فيها، وكانت وفاته في سنة ثمانية وثلاثين هجرية رضوان الله عليه.

* * *



قوله عليه السلام لكميل بن زياد:

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ، النَّاسُ ثَلاثَةٌ...

(نهج البلاغة ٤: ٣٥/ ١٤٧)



[نصيحة عليّ عليه السلام لكميل]

قَالَ كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ: أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَّانِ فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ثُمَّ قَالَ:

«يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ.

يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْلُ هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً _ وأشار بيده إلى صدره _ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً، بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالِادِّخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى لا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ، وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولَئِكَ، أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَداً وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ، انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ».[1]

* * *

[نسب كميل]:

أقول: كميل بن زياد بن بهيل بن هيثم بن سعد بن مالك بن الحارث بن صهبان بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن وعلة بن خالد بن مالك بن أدد.

صاحب أمير المؤمنين عليه السلام وحامل سرّه، طالما كان عليّ عليه السلام يردفه على راحلته، وسرّه بأسرار لم يطلع عليها أحداً غيره.

كان يعدّ في طليعة الثقات، ومن رجالات أهل الكوفة.

كميل العبد الصالح، التقي، الورع، حافظ الدعاء المشهور، المنسوب إليه ـ دعاء كميل ـ الذي هو آية من آيات البلاغة.

كان من خلّص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وصاحب سرّه وتلميذه المبرّز من بين أصحابه، وكان ثبتاً شجاعاً عالماً كريماً عارفاً،

(١) نهج البلاغة ٤: ٣٥/ ١٤٧.

إختاره أمير المؤمنين عليه السلام من جملة من اختارهم للولاية، أرسله والياً على هيت، ومعلوم ما لهيت في ذلك الحين من الأهميّة الكبرى.

اطراء أرباب التاريخ له:

كميل بن زياد، قدم دمشق زمن عثمان، وشهد صفّين مع عليّ عليه السلام، وكان شريفاً مطاعاً ثقة عابداً على تشيّعه، قليل الحديث، قتله الحجّاج. (الذهبي).(١)

كميل بن زياد، شهد مع عليّ صفّين، وكان شجاعاً فاتكاً، وزاهداً عابداً، عاش مائة سنة، وقد روى عن كميل جماعة من التابعين، وله الأثر المشهور عن عليّ بن أبي طالب، الذي أوّله: «القلوب أوعية فخيرها أوعاها...» وهو طويل، وقد رواه جماعة من الحفّاظ الثقاة، وفيه مواعظ وكلام حسن رضي الله عن قائله. (ابن كثير الدمشقي).(٢)

كميل بن زياد كان رجلاً ركيناً، وكان خصيصاً بأمير المؤمنين. (ابن الأثير).

كميل بن زياد النخعي، صاحب عليّ رضي الله عنه، وكان شريفاً مطاعاً شيعيّاً متعبّداً. (الحنبلي عبد الحي).

كميل بن زياد بن نهيك، ويقال ابن عبد الله النخعي، التابعي الشهير، له إدراك. (ابن حجر صاحب الإصابة).(٣)

---

(١) هذا الكلام لابن سعد في الإصابة ٥: ٤٨٦، راجع قول الذهبي فيه أيضاً، قال: كميل بن زياد، صاحب عليّ... قال ابن حبان: كان من المفرطين في حب عليّ»... وثّقه ابن سعد وابن معين. أنظر: ميزان الإعتدال ٣: ٤١٤.

(٢) البداية والنهاية ٩: ٥٧.

(٣) الإصابة ٥: ٤٨٥.

كميل بن زياد، شهد مع عليّ صفّين، وكان شريفاً مطاعاً في قومه، فلمّا قدم الحجّاج بن يوسف الكوفة دعا به فقتله. (ابن سعد صاحب الطبقات).

كميل بن زياد، أنّه ثقة رمي بالتشيّع، من الثانية ـ أي الطبقة الثانية ـ، مات سنة (٨٣). (ابن حجر الشافعي المكّي).[١]

كميل ـ مصغّراً ـ بن زياد النخعي الكوفي، عن عليّ، وشهد معه صفّين، وعنه عبد الرحمن بن جندب وثقّه ابن سعد. (تفاريق الخزرجي).

كان كميل بن زياد رضي الله عنه تلميذ عليّ عليه السلام. (السيّد حيدر عبد الأعلى).

كميل بن زياد، من أصحاب عليّ عليه السلام وشيعته وخاصّته، وقتله الحجّاج على المذهب فيمن قتل من الشيعة. (ابن أبي الحديد).[٢]

كميل بن زياد النخعي، صاحب عليّ رضي الله عنه، روى عنه عبّاس بن ذريح وعبد الرحمن بن زياد، قال ابن حيّان: كان من المفرطين في عليّ، ممّن يروي عنه المعضلات، منكر الحديث جداً تتقى روايته، ولا يحتجّ به ووثّقه ابن سعد وابن معين. (الذهبي صاحب الميزان).[٣]

كميل بن زياد النخعي، صاحب الدعاء المشهور، كان من أعاظم خواص أمير المؤمنين عليه السلام وأصحاب سرّه. (القمّي).[٤]

كميل بن زياد بن نهيك النخعي اليماني، المنسوب إليه الدعاء المشهور الخضري المرتضوي، كان من كبار أصحاب مولانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وولده السبط المجتبى الحسن الزكي عليهما صلوات

---

(١) تهذيب التهذيب ٨: ٤٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٧: ١٤٩.

(٣) ميزان الإعتدال ٣: ٤١٥.

(٤) الكنى والألقاب ٣: ٢٤٥.

الله الملك الغني ومن أجلاّء علماء وقته، وعقلاء زمانه، ونسّاك عصره، وفضلاء أوانه. (صاحب الروضات).

كميل بن زياد رحمه الله كان صاحب أمير المؤمنين، وحقائقه ومكاشفته بلا واسطة، فلا حاجة إلى شرح حاله فهو كامل مكمّل... (السيّد محمّد نور بخش).

كميل، وهو المنسوب إليه الدعاء المشهور، وهو من أعاظم أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومن أصحاب سرّه، وكان عامله على هيت، قتله الحجّاج، وكان أخبره عليه السلام بذلك. (تعليقات البهبهاني).

كميل بن زياد بن نهيك النخعي، تابعي ثقة من أصحاب عليّ بن أبي طالب، كان شريفاً مطاعاً في قومه، شهد صفّين مع عليّ، وسكن الكوفة وروى الحديث، قتله الحجّاج صبراً. (خير الدين الزركلي).[١]

كميل بن زياد، كان من رؤساء الشيعة. (ابن عمّار).[٢]

وفي الكوفة من العبّاد: أويس، وعمرو بن عنبسة، ويزيد بن معاوية، والربيع بن خثيم، وهمام بن الحرث ومعضد الشيباني، وجندب بن عبد الله، وكميل بن زياد. (المدائني).[٣]

كميل بن زياد، كان ثقة، قليل الحديث، وقال إسحاق بن منصور عن ابن معين ثقة، وقال العجلي كوفي تابعي ثقة، وقال ابن عمّار: رافضي، وهو ثقة من أصحاب عليّ، وقال في موضع آخر: كان من رؤساء الشيعة، وذكره ابن حبّان في الثقاة، وذكره المدائني في عبّاد أهل الكوفة. (العسقلاني).[٤]

---

(١) الأعلام ٥: ٢٣٤.

(٢) أنظر: تهذيب الكمال ٢٤: ٢١٩.

(٣) أنظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٠: ٢٥٠.

(٤) تهذيب التهذيب ٨: ٤٠٢.

... كان كميل يعدّ من كبار علماء عصره ومن الحكماء المعدودين، يعتبره الفلاسفة في عداد عظمائهم، وتعتبره الصوفية من مشايخهم، كان عابداً زاهداً شريفاً في قومه مطاعاً، وهو من فرسان العراق المشهورين وشجعانهم الذين لا يشقّ لهم غبار. (المصعبي).

ولنكتف بهذا القدر، وإلاّ فالأعلام الذين أطروا عليه أكثر ممّا يحصون.

ولنعد الآن إلى تفسير كلمات الإمام عليه السلام الواردة في كلامه لكميل:

قال ابن أبي الحديد:

الجبان والجبانة الصحراء، وتنفّس الصعداء أي تنفّس تنفّساً ممدوداً طويلاً، قوله عليه السلام: «ثلاثة» قسمة صحيحة، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأمور الإلهية: إمّا عالم على الحقيقة يعرف الله تعالى، وإمّا شارع في ذلك فهو بعد في السفر إلى الله يطلبه بالتعلّم والإستفادة من العالم، وإمّا لا ذا ولا ذاك وهو العامي الساقط الذي لا يعبأ الله به.

وصدق عليه السلام في أنّهم همج رعاع أتباع كلّ ناعق، ألا تراهم ينتقلون من التقليد لشخص إلى تقليد الآخر لأدنى خيال وأضعف وهم.

[أفضلية العلم على المال] :

ثمّ شرع عليه السلام في ذكر العلم وتفضيله على المال، فقال: «العلم يحرسك وأنت تحرس المال»، وهذا أحد وجوه التفضيل، ثمّ ابتدأ فذكر وجهاً ثانياً، فقال: «المال ينقص بالإنفاق منه والعلم لا ينقص بالإنفاق بل يزكو»، وذلك لأنّ إفاضة العلم على التلامذة تفيد المعلّم زيادة إستعداد وتقرّر في نفسه تلك العلوم التي أفاضها على تلامذته وتثبّتها وتزيدها رسوخاً، وأمّا قوله: «وصنيع المال يزول بزواله»، فتحته سرّ دقيق حكمي، وذلك لأنّ المال إنّما يظهر أثره ونفعه في الأمور

الجسمانية والملاذ الشهوانية: كالنساء والخيل والأبنية والمأكل والمشرب والملابس ونحو ذلك، وهذه الآثار كلّها تزول بزوال المال أو بزوال ربّ المال، ألا ترى أنّه إذا زال المال اضطرّ صاحبه إلى بيع الأبنية والخيل والإماء ورفض تلك العادة من المآكل الشهيّة والملابس البهيّة، وكذلك إذا زال المال بالموت فإنّه يزول آثار المال عنده فإنّه لا يبقى بعد الموت آكلاً شارباً لابساً.

وأمّا آثار العلم فلا يمكن أن تزول أبداً والإنسان في الدنيا، ولا بعد خروجه عن الدنيا، أمّا في الدنيا فلأنّ العالم بالله تعالى لا يعود جاهلاً به؛ لأنّ إنتفاء العلوم البديهيّة عن الذهن وما يلزمها من اللوازم بعد حصولها محال، فإذاً قد صدق قوله عليه السلام: في الفرق بين المال والعلم، أنّ صنيع المال يزول بزواله، أي وصنيع العلم لا يزول ولا يحتاج إلى أن يقول بزواله؛ لأنّ تقدير الكلام وصنيع المال يزول، المال يزول، وأمّا بعد خروج الإنسان من الدنيا فإنّ صنيع العلم لا يزول، وذلك لأنّ صنيع العلم في النفس الناطقة اللذّة العقلية الدائمة لدوام سببها، وهو حصول العلم في جوهر النفس الذي هو معشوق النفس مع إنتفاء ما يشغلها عن التمتّع به والتلذّذ بمصاحبته، والذي كان يشغلها عنه في الدنيا إستغراقها في تدبير البدن وما تورده عليها الحواس من الأمور الخارجية، ولا ريب أنّ العاشق إذا خلا بمعشوقه وانتفت عنه أسباب الكدر، كان في لذّة عظيمة، فهذا هو سرّ قوله عليه السلام: «وصنيع المال يزول بزواله».

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام: «معرفة العلم دين يدان به» وهل هذا إلاّ بمنزلة قولك معرفة المعرفة أو علم العلم، وهذا كلام مضطرب؟ قلت: تقديره معرفة فضل العلم أو شرف العلم أو وجوب العلم دين يدان به، أي المعرفة بذلك من أمر الدين، أي ركن من أركان الدين واجب مفروض.

ثمّ شرح عليه السلام حال العلم الذي ذكر أنّ معرفة وجوبه أو شرفه دين يدان به:

فقال: «العلم يكسب الإنسان الطاعة في حياته».

أي من كان عالماً كان لله مطيعاً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] ثمّ قال عليه السلام: «وجميل الأحدوثة بعد وفاته» أي الذكر الجميل بعد موته.

ثمّ شرع في تفضيل العلم على المال من وجه آخر فقال:

«العلم حاكم والمال محكوم عليه» وذلك لعلمك أنّ مصلحتك في إنفاق هذا المال تنفقه ولعلمك بأنّ المصلحة في إمساكه تمسكه، فالعلم بالمصلحة داع وبالمضرّة صارف، وهما الأمران الحاكمان بالحركات والتصرّفات إقداماً وإحجاماً، ولا يكون القادر قادراً مختاراً إلاّ بإعتبارهما وليسا إلاّ عبارة عن العلم أو ما يجري مجرى العلم من الإعتقاد والظنّ، فإذن قد بان وظهر أنّ العلم من حيث هو علم حاكم، وأنّ المال ليس بحاكم بل محكوم عليه.

ثمّ قال عليه السلام: «هلك خزّان المال وهم أحياء» وذلك لأنّ المال المخزون لا فرق بينه وبين الصخرة المدفونة تحت الأرض، فخازنه هالك لا محالة؛ لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه ولم يصرفه في الوجوه التي ندب الله تعالى إليها، وهذا هو الهلاك المعنوي وهو أعظم من الهلاك الحسّي.

ثمّ قال عليه السلام: «والعلماء باقون ما بقي الدهر».

هذا الكلام له ظاهر وباطن: فظاهره قوله عليه السلام: «أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة» أي آثارهم وما دوّنوه من العلوم فكأنّهم

---

(١) فاطر: ٢٨.

موجودون، وباطنه أنّهم موجودون حقيقة لا مجازاً على قول من قال ببقاء الأنفس، وأمثالهم في القلوب كناية ولغز، ومعناه ذواتهم في حظيرة القدّوس، والمشاركة بينها وبين القلوب ظاهرة؛ لأنّ الأمر العامّ الذي يشملهما هو الشرف، فكما أنّ تلك أشرف عالمها كذلك القلب أشرف عالمه، فاستعير لفظ أحدهما وعبّر به عن الآخر.

قوله عليه السلام: «ها إنّ ههنا لعلماً جمّاً» وأشار بيده إلى صدره، هذا عندي إشارة إلى العرفان والوصول إلى المقام الأشرف الذي لا يصل إليه إلاّ الواحد الفذّ من العالم ممّن لله تعالى فيه سرّ وله به إتّصال، ثمّ قال: «لو أصبت له حملة» ومن الذي يطيق حمله؛ بل من الذي يطيق فهمه فضلاً عن حمله.

[أصناف حملة العلم]:

ثمّ قال: «بلى أُصيب» ثمّ قسّم الذي يصيبهم خمسة أقسام:

أحدهم: أهل الرياء والسمعة الذين يظهرون الدين والعلم ومقصودهم الدنيا، فيجعلون الناموس الديني شبكة لإقتناص الدنيا.

وثانيها: قوم من أهل الخير والصلاح ليسوا بذوي بصيرة في الأمور الإلهية الغامضة، فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تنقدح في قلوبهم شبهة بأدنى خاطر، فإنّ مقام المعرفة مقام خطر صعب لا يثبت تحته إلاّ الأفراد من الرجال الذين أُيّدوا بالتوفيق والعصمة.

وثالثها: رجل صاحب لذّات وطرب مشتهر بقضاء الشهوة، فليس من رجال هذا الباب.

ورابعها: رجل مغرم بجمع المال وإدّخاره لا ينفقه في شهواته ولا في غير شهواته، فحكمه حكم القسم الثالث.

ثمّ قال عليه السلام: «كذلك يموت العلم بموت حامليه» أي إذا متّ مات العلم الذي في صدري؛ لأنّي لم أجد أحداً أدفعه إليه وأورثه إيّاه، ثمّ استدرك فقال: «اللهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجّة الله تعالى كيلا يخلو الزمان ممّن هو مهيمن لله تعالى على عباده ومسيطر عليهم».

وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية، إلاّ أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عنهم أنّهم في الأرض سائحون، فمنهم من يُعرف ومنهم من لا يُعرف، وأنّهم لا يموتون حتّى يودعوا السرّ وهو العرفان عند قوم آخرين يقومون مقامهم.

ثمّ استنزر عليه السلام عددهم فقال: «وكم ذا» أي كم ذا القبيل وكم ذا الفريق، ثمّ قال: «وأين أولئك» استبهم مكانهم ومحلّهم، ثمّ قال: «هم الأقلّون عدداً الأعظمون قدراً»، ثمّ ذكر أنّ العلم هجم بهم على حقيقة الأمر، وانكشف لهم المستور المغطّى، وباشروا راحة اليقين وبرد القلب وثلج العلم، واستلانوا ما شقّ على المترفين من الناس، ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشهوات وخشونة المعيشة، قال: وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، يعني العزلة ومجانبة الناس وطول الصمت وملازمة الخلوة ونحو ذلك ممّا هو شعار القوم.

قال: «وصحبوا الدنيا بأرواح أبدانها معلّقة بالمحلّ الأعلى» هذا ممّا يقوله أصحاب الحكمة من تعلّق النفوس المجرّدة بمبادئها من العقول المفارقة، فمن كان أزكى كان تعلّقه بها أتمّ، ثمّ قال عليه السلام: «أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه» لا شبهة أنّ بالوصول يستحقّ الإنسان أن يسمّى خليفة الله في أرضه، وهو المعنيّ بقوله سبحانه للملائكة: ﴿إِنِّي

جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١] وبقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾.[٢]

ثمّ قال عليه السلام: «آه آه شوقاً إلى رؤيتهم» هو عليه السلام أحقّ الناس بأن يشتاق إلى رؤيتهم؛ لأنّ الجنسية علّة الضمّ والشيء يشتاق إلى ما هو من سنخه وسوسته وطبيعته، ولمّا كان هو عليه السلام شيخ العارفين وسيّدهم لا جرم اشتاقت نفسه الشريفة إلى مشاهدة أبناء جنسه، وإن كان واحداً من الناس دون طبقته.

ثمّ قال عليه السلام لكميل: «انصرف إذا شئت» وهذه الكلمة من محاسن الآداب ومن لطائف الكلم؛ لأنّه لم يقتصر على أن قال: انصرف كيلا يكون أمراً حكماً بالإنصراف لا محالة، فيكون فيه نوع علو عليه، فأتبع ذلك بقوله: «إذا شئت»، ليخرجه من ذلّ الحكم وقهر الأمر إلى عزّة المشيئة والإختيار. انتهى.[٣]

* * *

جاء في (المجلّد الواحد والعشرين)[٤] من (منهاج البراعة):

كميل بن زياد من خواص أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ومن أصحاب سرّه، لم يعرّف كما هو حاله، ولم تنشر عنه ترجمة تليق به فصار سرّاً في سرّ.

قال في الرجال الكبير: كميل بن زياد النخعي من خواصهما، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من اليمن.

كميل بن زياد النخعي كذا _ في الخلاصة _ نقلاً عنه، وعلّق عليه الوحيد البهبهاني في حاشيته: كميل هذا هو المنسوب إليه الدعاء

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الأنعام: ١٦٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٤٧ - ٣٥٣.

(٤) ص ٢١٩.

المشهور، قتله الحجّاج، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبره بأنّه سيقتله، وهو من أعاظم خواصّه، إلى أن قال: وفي النهج ما يدلّ على أنّه كان من ولاته على بعض نواحي العراق. انتهى.

ومعرّف مقام كميل دعاؤه المعروف الذي سار وطار إلى جميع الأقطار، وهو ذكر الأخيار في ليالي الجمعة بالإعلان والإسرار، وحديثه المشهور في بيان النفس وأصنافها، ذكره الشيخ البهائي رحمه الله في كشكوله، وحديثه في السؤال عن الحقيقة، وهو من غرائب الحديث، ولم أجد له سنداً وإن كان متنه عالياً ومن الأسرار الدقيقة في مراتب العرفان.

ومصاحبته هذا مع عليّ عليه السلام، وهو مشهور مستفيض بين الفريقين يقطع بصحّته عنه عليه السلام ويستفاد منه مقام شامخ لكميل، حيث أنّه عليه السلام بنى مكتباً خاصّاً به في هذا الحديث.

[المكاتب وتأسيسها في الأمّة الإسلاميّة]:

وقد ابتكر عليّ عليه السلام بناء المكاتب في الأمّة الإسلاميّة، وشرع في درس شتّى العلوم: من أدب وعرفان وفقه وتفسير وغيرها، فالطرق العلمية الإسلاميّة كلّها تنتهي إليه بإذعان من الموافق والمخالف، وله عليه السلام مكتب عام في مسجد الكوفة يعلّم الناس من أي مذهب ومسلك من صديق وعدو.

وله مكتب خاصّ بشيعته ومعتقديه، وأحبّائه ومعتمديه، يشرح لهم فيه المعارف الحقّة والأصول المحقّة لمذهب الإمامية.

وهذا مكتب بناه لكميل بن زياد، مكتب خاصّ في خلوة عن الأجانب وضوضاء العامّة.

مكتب صحراوي تحت ظلّ السماء الصافية، وعلى الأرض الطبيعية الخالية عن كلّ صنعة وفنّ بشري، فلا تجد فيه إلاّ الحق والحقيقة، وصفحات كتاب الكون والطبيعة المؤلف بيد القدرة الإلهيّة.

مكتب مشّائي المظهر، يمثّل سيرة ارسطاطاليس في تعليماته العالية لخواصّ تلاميذه.

مكتب إشراقي المخبر، يمثّل سيرة أفلاطون في الكشف عن الحقائق عند زوايا الإعتزال عن الخلائق.

مكتب تربوي أخلاقي يوسم بالرفض والسقوط أكثر طلاّب العلم وأصحاب الدعاوي الطنّانة الفارغة، ويشير إلى ما حكي عن فيثاغورس من أنّه أسّس مكتباً أخلاقياً لطلاّب العلم مقسوماً على صفوف معيّنة: صفّ للتربية بالحلم، وصفّ للتربية بالعفّة، إلى أن يصل الطالب بعد الفوز في هذه الصفوف إلى صفّ يعرض عليه أن يموت فيكفّن ويجعل في تابوت ويدفن في سرداب إلى حين ما، وهو الإمتحان النهائي، فإن فاز في هذا الإمتحان يدخل على الأستاذ فيثاغورس في قاعة كتب أسرار علمه على جدرانه فيقول: يا ولد الأب طابت لك الإستفادة من هذه السطور العلمية والأسرار العرفانية.

ولم يذكر في الحديث أنّ إخراج كميل إلى الجبان كان تحت ستار الليل، ولكن يظهر من التأمّل في تحصيل هذه الخلوة الروحانية أنّه كانت في الليل، فتدبّر.

ويا ليت أوخّرت هذه المصاحبة، وأنّها كانت قبل حرب صفّين أو بعدها، وإن كان يستشمّ من تنفّسه الصعداء والتجائه إلى الصحراء أنّها كانت بعد حرب صفّين وظهور فتنة الخوارج وخذلان أهل الكوفة، فقد تشتعل من خلاله لوعات قلبه الشريف الأسيف.

ويظهر أنّ كميل رضوان الله عليه جاهد في سبيل عقيدته وإيمانه حتّى قُتل شهيداً، ومثّل في حياته حياة الأحرار المناضلين ـ إنّ الحياة عقيدة وجهاد ـ.

وقام عليه السلام في هذه الخلوة مقام أُستاذ إجتماعي خبير بروحية الأمّة، وحلّلها تحليلاً دقيقاً، وحصرها في ثلاث:

العالم الربّاني الذي كلّمه الله من وراء حجاب، أو يوحى إليه كتاب، أو يرسل رسولاً إليه، ومن قام مقامه من الأوصياء الذين تلقّوا علمهم عن الأنبياء وقذفاً في القلوب.

والمتعلّم من هؤلاء الأنبياء والأوصياء على صحيح الرواية وطريق النجاة.

والعامّة العمياء يدورون كالذباب هنا وهنا، ويميلون مع كلّ ريح، ويركضون وراء كلّ ناعق، قلوبهم مظلمة وهم على حيرة وشكّ في حياتهم.

ثمّ توجّه إلى مفاضلة دقيقة بين العلم والمال، وأتى بما لا مزيد عليه ترغيباً على طلب العلم، وتزهيداً عن جمع المال والإدّخار.

ثمّ شرع في تنظيم برنامج أخلاقي لطلاّب العلم، وأسقط منهم أربعة أصناف، رفضهم باتاً وأخرجهم من مكتبه الروحاني:

١ ـ الملقّن الغير المأمون عليه، وهو المنافق الذي لا إيمان له بما يتعلّمه، وكان علمه على لسانه لا يتجاوزه إلى قلبه، وغرضه من كسب العلم طلب الدنيا والتسلّط على العباد بتصدّي المناصب العالية والرتب الحكومية، كأمثال طلحة والزبير ومعاوية في عصره، وهم الأكثرون الذين تشكّلوا في الجمل وصفّين تجاه أمير المؤمنين عليه السلام وفرّقوا جمع المسلمين تفريقاً، واحتجّوا بما تعلّموه على عليّ عليه السلام وخدعوا العامّة الهمج وجرّوهم إلى نعيقهم.

٢ ـ المنقاد، المعتقد الأحمق الذي لا بصيرة له في تطبيق العلم على الحوادث، فينقدح الشكّ في قلبه بتجدّد الحوادث التي لا يستأنسها،

وهم الخوارج الذين ثاروا عليه بعد قضيّة الحكمين، وهم جلّ أصحابه، المجتهدون العبّاد، قوّام الليل الصائمون في النهار، ولكن المبتلون بنحو من الحمق ظهر فيما ارتكبوه بعد ظهورهم نشير إلى شطر منهم:

أ ـ بعد مفارقتهم عنه عليه السلام كانوا يقتلون المسلمين ويغنمون أموالهم على عادة الغزو والغارة التي اعتادوها في الجاهلية، فإنّ أكثرهم من بدو نجد.

ب ـ يحاكمون أسراءهم ومن يلقونه بالسؤال عن عليّ عليه السلام أكافر أم مسلم؟ فلو قال المسؤول عنه: إنّه كافر رحّبوا به وصافحوه وأدخلوه معهم، ولو قال: إنّه مسلم كفّروه وقتلوه فوراً، وهل هذا إلاّ حمق واضح.

ج ـ دخلوا النخيلة في ضواحي النهروان، فأخذ أحدهم تمرة ضئيلة اسقطتها الريح من النخلة وأراد أن يأكلها فنهروه بحجّة أنّه مال غير مأذون عليه، ولقد رأوا عبد الله بن خبّاب بن الأرت، ابن صحابي كبير مع زوجته الحبلى فقتلوه، وقتلوا زوجته الحبلى، وهل هذا إلاّ حمق.

والحمق خفّة ونقصان في التعقّل عبّر عنه عليه السلام بعدم البصيرة في جوانب العلم وعدم القدرة على تحليل القضايا، ولا ينافي كون صاحبه عالماً ومجتهداً ومرجعاً ومقلّداً، فإنّ أكثر الخوارج أفاضل العلماء المجتهدين الذين أخذوا العلم عن النبي صلى الله عليه وآله وعن عليّ عليه السلام.

والعجب من ابن ميثم رحمه الله حيث حمل كلامه في الصنف الثاني من طلاّب العلم على العوام المقلّدين فقال: وأمّا الثاني ممّن لا يصلح لحمله فهو المقلّد... الخ.

٣ ـ من غلبت عليه الشهوة وخصوصاً الجنسية منها بحيث تجرّه إلى مناظرها ومحالها، ولا يقدر أن يمنع شهوته، فصار سلس القياد لها،

كبعير يمشي وراء من يجرّه ولو كانت فارة البئر، كأمثال المغيرة بن شعبة، فإنّهم مقهورون لشهواتهم، ولا يؤثّر علمهم في ردعهم عنها.

وقد ثبت في كتب التاريخ أنّه بعد أن صار عاملاً لعمر على الكوفة في سنين شيبته لم يملك نفسه أن فجر بأمّ جميل ذات البعل على منظر جمع من الصحابة، ورفع إلى محكمة برئاسة عمر نفسه، ونجّاه زياد بن أبيه وهو أحد الشهود بإشارة من عمر رئيس المحكمة، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى التاريخ.

٤ ـ الطالب للعلم، ولكنّه المغرم بالجمع والإدّخار للأموال، فهو طالب الدينار والدرهم، وقد غلب عليه حبّ الصفراء والبيضاء حتّى أنساه ما وراءه، وتوجّه إلى أنّ هذه الأوصاف على سبيل منع الخلو، فربّما يجتمع في طالب أكثر من واحدة منها.

ولمّا كانت نتيجة هذا التحليل الدقيق الإجتماعي من روحية الناس عموماً، ومن أصناف طلاّب العلم الذين يرجى أن يهتدى بهم، هؤلاء الرعاع خصوصاً، منفيّة وموجبة لليأس لقلّة العلماء الربانيين والمتعلّمين على سبيل النجاة، فيخاف من إندراس الحقّ ومحو العلم بموت حامليه بوجه مطلق.

إستدرك عليه السلام في آخر كلامه بما أثبت بقاء العلم والعالم ودوام الحقّ والمعالم ولو في فئة قليلة حتّى يظهر الحجّة القائم عليه السلام، وتظهر حقيقة الإسلام على الدين كلّه ولو كره المشركون.

فقال عليه السلام: «اللهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة» وصرّح بأنّهم الأقلّون عدداً، والأعظمون أجراً وقدراً، بهم يحفظ الله حججه وبيّناته حتّى يودعوها نظراءهم، ثمّ وصفهم بما وصفهم من العلم واليقين، وقرّر صريحاً ما عليه الإمامية في أمر الدين.

والعجب من الشارح المعتزلي، الظاهر من كلامه القطع بصدور هذا الحديث من فم أمير المؤمنين عليه السلام فقال في شرح قوله عليه السلام: «بلى لا تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحجّة». وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية، إلاّ أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عنهم... الخ.

فيا ليت خلّص نفسه من حبالة كيد كاد، وإعترف بهذا الحقّ الصريح، وضرب أخبار الأبدال الموضوعة على الجدار، وفارق هؤلاء الأصحاب الضالّين الحائرين ولحق بأصحاب الحقّ واليقين. انتهى.

وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لكميل:

جاء في كتاب (الكميل بن زياد) تأليف الخطيب السيّد عليّ الهاشمي، نقلاً عن (تحف العقول):[١]

أخبرنا الشيخ أبو البقا إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم البصري، بقراءتي عليه في المحرّم سنة عشر وخمسمائة بمشهد مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عن أبي طالب محمّد بن الحسن (بن عتبة) عن أبي الحسن محمّد بن الحسين بن أحمد عن محمّد بن وهبان النيلي، عن عليّ بن أحمد بن كثير العسكري، عن أحمد بن أبي سلمة محمّد بن كثير، عن أحمد بن أحمد بن الفضل الاصفهاني، عن أبي راشد بن عليّ بن وائل القرشي، عن عبد الله بن جهض المدني، عن أبي محمّد بن إسحاق عن سعيد بن زيد بن أرطاة.

قال: لقيت كميل بن زياد النخعي وسألته عن فضل أمير المؤمنين

---

(١) ص ١٧١.

عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال: ألا أُخبرك بوصيّة أوصاني بها خير لك من الدنيا بما فيها، فقلت: بلى، فقال: أوصاني يوماً فقال لي:

«يا كميل، سمّ كلّ يوم باسم الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وتوكّل على الله، واذكرنا وسمّ بأسمائنا وصلّ علينا، واستعذ بالله وبنا، وادرأ بذلك على نفسك وما تحوطه عنايتك تكفَ شرّ ذلك اليوم إن شاء الله.

يا كميل، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أدّبه الله عزّ وجلّ، وهو أدّبني وأنا أُؤدّب المؤمنين وأُورث الأدب المكرّمين.

يا كميل، ما من علمٍ إلاّ وأنا أفتحه، وما من سرّ إلاّ والقائم عليه السلام يختمه.

يا كميل، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يا كميل، لا تأخذ إلاّ عنّا تكنْ منّا.

يا كميل، ما من حركة إلاّ وأنت محتاج فيها إلى معرفة.

يا كميل، إذا أكلت الطعام فسمّ بالله الذي لا يضرّ مع اسمه داء، وهو الشفاء من جميع الأدواء.

يا كميل، إذا أكلت الطعام، فواكل الطعام ولا تبخل عليه، فإنّك لم ترزق الناس شيئاً والله يجزل لك الثواب بذلك.

يا كميل، أحسن خلقك، وأبسط جليسك، ولا تنهر خادمك.

يا كميل، إذا أكلت فطوّل أكلك ليستوفي من معك، وترزق منه غيرك.

يا كميل، إذا استوفيت طعامك، فاحمد الله على ما رزقك، وارفع بذلك صوتك يحمده سواك فيعظم بذلك أجرك.

يا كميل، لا توقرن معدتك ودع فيها للماء موضعاً وللريح مجالاً.

يا كميل، لا ينفد طعامك، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم ينفده.

يا كميل، لا ترفعنّ يدك عن الطعام إلاّ وأنت تشتهيه، فإذا فعلت ذلك فأنت تستمريه.

يا كميل، صحّة الجسد من قلّة الطعام وقلّة الماء.

يا كميل، البركة في المال من إيتاء الزكاة ومواساة المؤمنين وصلة الأقربين ــ وهم الأقربون ــ.

يا كميل، زد قرابتك المؤمن على ما تعطي سواه من المؤمنين، وكن لهم أرأف وعليهم أعطف، وتصدّق على المساكين.

يا كميل، لا تردّن سائلاً ولو بشقّ تمرة، أو من شطر حبّة.

يا كميل، الصدقة تنمى عند الله.

يا كميل، حسن خُلُق المؤمن التواضع، وجماله التعفّف، وشرفه الشفقة، وعزه ترك القال والقيل.

يا كميل، إيّاك والمراء فإنّك تغري بنفسك السفهاء إذا فعلت وتفسد الإخاء.

يا كميل، إذا جادلت في الله تعالى، فلا تخاطب إلاّ من يشبه العقلاء ــ وهذا قول ضرورة.

يا كميل، هم على كلّ حال سفهاء، كما قال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾.[1]

يا كميل في كلّ قوم صنف أرفع من قوم، وإيّاك ومناظرة الخسيس منهم، وإذا أسمعوك فاحتمل وكن من الذين وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾.[2]

---

(١) البقرة: ١٢.

(٢) الفرقان: ٦٣.

يا كميل، قل الحقّ على كلّ حال، ووازر المتّقين، واهجر الفاسقين.

يا كميل، جانب المنافقين ولا تصاحب الخائنين.

يا كميل، إيّاك والتطرّق على أبواب الظالمين والإختلاط بهم والإكتساب منهم، وإيّاك أن تطيعهم أو تشهد في مجالسهم بما يسخط الله عليك.

يا كميل، إذا اضطررت إلى حضورهم فداوم ذكر الله تعالى، وتوكّل عليه واستعذ بالله من شرّهم وأطرق عنهم وأنكر بقلبك فعلهم، وأجهر بتعظيم الله تعالى لتسمعهم فإنّهم يهابوك وتكفى شرّهم.

يا كميل، إنّ أحبّ ما امتثله العباد إلى الله بعد الإقرار به وبرسوله وأوليائه عليهم السلام التجمّل والتعفّف والإصطبار.

يا كميل، لا بأس بأن لا يُعلم سرّك.

يا كميل، لا تُري الناس افتقارك واضطرارك، واصبر عليه احتساباً بعزٍ وتستّر.

يا كميل، لا بأس بأن تُعلم أخاك سرّك.

يا كميل، ومن أخوك، أخوك الذي لا يخذلك عند الشدّة، ولا يقعد عنك عند الجريرة، ولا يخدعك حين تسأله، ولا يتركك وأمرك حتّى تعلمه، فإن كان مميلاً أصلحه.

يا كميل، المؤمن مرآة المؤمن لأنّه يتأمّله ويسدّ فاقته، ويجمّل حاجته.

يا كميل، المؤمنون اُخوة، ولا شيء آثر عند كلّ أخ من أخيه.

يا كميل، إن لم تحبّ أخاك فلست أخاه.

يا كميل، المؤمن من قال بقولنا، فمن تخلّف عنّا قصر عنّا، ومن قصر عنّا لم يلحق بنا، ومن لم يكن معنا ففي الدرك الأسفل من النار.

يا كميل، كلّ مصدور ينفث فمن نفث إليك منّا بأمر فأسرّه، وإيّاك أن تبديه فليس لك من إبدائه توبة، فإذا لم تكن توبة فالمصير إلى لظى.

يا كميل، إذاعة سرّ آل محمّد عليهم السلام لا يقيل الله تعالى منها، ولا يحتمل أحد عليها.

يا كميل، وما قالوه لك مطلقاً فلا تعلمه إلاّ مؤمناً موافقاً.

يا كميل، لا تعلّموا الكافرين من أخبارنا فيزيدوا عليها فيبدوكم بها إلى يوم يعاقبون عليها.

يا كميل، لا بدّ لماضيكم من أوبة، ولا بدّ لنا فيكم من غلبة.

يا كميل، سيجمع الله تعالى لكم خير البدء والعاقبة.

يا كميل، أنتم ممتوعون بأعداءكم تطربون بطربهم وتشربون بشربهم وتأكلون بأكلهم وتدخلون مداخلهم، وربّما غلبتم على نعمتهم، أي والله على إكراه منهم لذلك، ولكن الله عزّ وجلّ ناصركم وخاذلهم، فإذا كان والله يومكم وظهر صاحبكم، لم يأكلوا والله معكم ولم يردوا مواردكم ولم يقرعوا أبوابكم ولم ينالوا نعمتكم، أذلّة خاسئين أينما ثقفوا أُخذوا وقتلوا تقتيلاً.

يا كميل، احمد الله تعالى والمؤمنين على ذلك وعلى كلّ نعمة.

يا كميل، قل عند كلّ شدّة: (لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم) تكفها، وقل عند كلّ نعمة: (الحمد لله) تزداد منها، وإذا أبطأت الأرزاق عليك فاستغفر الله يوسّع عليك فيها.

يا كميل، إذا وسوس الشيطان في صدرك فقل: (أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي، وأعوذ بمحمّد الرضي من شرّ ما قدّر وقضى، وأعوذ بإله الناس من شرّ الجِنّة والناس أجمعين)، تكفى مؤونة إبليس والشياطين معه، ولو كلّهم أبالسة مثله.

يا كميل، إنّ لهم خدعاً وشقائق وزخارف ووساوس وخيلاء على كلّ أحد قدر منزلته في الطاعة والمعصية، فبحسب ذلك يستولون عليه بالغلبة.

يا كميل، لا عدو أعدى منهم ولا ضارّ أضرّ بك منهم، أمنيتهم أن تكون معهم غداً إذا جثوا في العذاب، ولا يفتر عنهم بشرره، ولا يقصر عنهم، خالدين فيها أبداً.

يا كميل، الله محيط بمن لم يحترز منهم باسمه وبنبيّه وجميع عزائمه وعوّذه جلّ وعزّ، صلّى الله على نبيّه وآله وسلّم.

يا كميل، إنّهم يخدعون بأنفسهم، فإذا لم تجبهم مكروا بك وبنفسك لتجيبهم شهواتك، وإعطائك أمانيك وإرادتك، ويسألون وينسونك وينهونك ويأمرونك، ويحسنون ظنّك بالله ﷻ حتّى ترجوه، فتغترّ بذلك فتعصيه وجزاء العاصي لظى.

يا كميل، احفظ قول الله ﷻ: ﴿الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى﴾،[1] والمسوّل الشيطان والمملي الله.

يا كميل، اذكر قول الله تعالى لإبليس لعنه الله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾.[2]

يا كميل، إنّ إبليس لا يعد عن نفسه، وإنما يعد عن ربّه ليحملهم على معصيته فيورّطهم.

يا كميل، إنّه يأتي لك بلطف كيده، فيأمرك بما يعلم أنّك قد ألفته من طاعة لا تدعها، فتحسب أنّ ذلك ملك كريم وإنّما هو شيطان رجيم، فإذا أسكنت إليه واطمأننت، حملك على العظائم المهلكة التي لا نجاة معها.

---

(١) محمّد: ٢٥.

(٢) الإسراء: ٦٤.

يا كميل، إنّ له فخاخاً ينصبها فاحذر أن يوقعك فيها.

يا كميل، إنّ الأرض مملوءة من فخاخهم، فلن ينجو منها إلاّ من تشبّث بنا، وقد أعلمك الله أنّه لن ينجو فيها إلاّ عباده أولياؤنا، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾[1] وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.[2]

يا كميل، انج بولايتنا من أن يشركك في مالك وولدك كما أمر.

يا كميل، لا تغترّ بأقوام يصلّون فيطيلون، ويصومون فيداومون، ويتصدّقون فيحسبون أنّهم موفّقون.

يا كميل، أقسم بالله لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (إنّ الشيطان إذا حمل قوماً على الفواحش: مثل الزنا وشرب الخمر والربا وما أشبه ذلك من الخنا والمآثم، حبّب إليهم العبادة الشديدة والخشوع والركوع والخضوع والسجود، ثمّ حملهم على ولاية الأئمّة الذين يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون).

يا كميل، إنّه مستقرّ ومستودع فاحذر أن تكون من المستودعين.

يا كميل، إنّما تستحقّ أن تكون مستقرّاً إذا لزمت الجادّة الواضحة التي لا تخرجك إلى عوج ولا تزيلك عن منهج ما حملناك عليه وما هديناك إليه.

يا كميل، لا رخصة في فرض، ولا شدّة في نافلة.

يا كميل، إنّ الله عزّ وجلّ لا يسألك إلاّ على فرض، فإنّما قدّمنا النوافل بين أيدينا للأهوال العظام والطامّة يوم القيامة.

يا كميل، إنّ الواجب لله أعظم من أن تزيله الفرائض والنوافل، وجميع الأعمال وصالح الأموال، ولكن من تطوّع خيراً فهو خير له.

---

(١) الإسراء: ٦٥.

(٢) النحل: ١٠.

يا كميل، إنّ ذنوبك أكثر من حسناتك، وغفلتك أكثر من ذكرك، ونعم الله عليك أكثر من عملك.

يا كميل، لا تخلو من نعمة الله ﷻ عندك وعافية، فلا تخل من تحميده وتمجيده وتسبيحه وتقديسه وشكره وذكره على كلّ حال.

يا كميل، لا تكوننّ من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنساهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1] ونسبهم إلى الفسق فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

يا كميل، ليس الشأن أن تصلّي وتصوم وتتصدّق، الشأن أن تكون الصلاة فعلت بقلب نقي وعمل عند الله مرضي، وخشوع سوي وإبقاء للجدّ فيها.

يا كميل، إنّ اللسان ينزح من القلب، والقلب يقوم بالغذاء، فانظر فيما تغذّي قلبك وجسمك فإن لم يكن ذلك حلالاً لم يقبل الله تعالى تسبيحك ولا شكرك.

يا كميل، افهم واعلم أنّا لا نرخص في ترك أداء الأمانات لأحد من الخلق، فمن روى عنّي في رخصة فقد أبطل وأثم وجزاؤه النار بما كذّب، أقسم سمعت رسول الله ﷺ يقول لي قبل وفاته بساعة مراراً ثلاثة: (يا أبا الحسن أدّ الأمانة إلى البرّ والفاجر فيما قلّ وجل. حتّى في الخيط والمخيط).

يا كميل، لا غزو إلاّ مع إمام عادل، ولا نفل إلاّ مع إمام عادل.

يا كميل، أرأيت لو لم يظهر نبي وكان في الأرض مؤمن تقي لكان في دعائه إلى الله مخطئاً أو مصيباً، بلى والله مخطئاً حتّى ينصبه الله ﷻ ويؤهّله.

يا كميل، الدين لله فلا تغترنّ بأقوال الأمّة المخدوعة التي قد ضلّت بعد ما اهتدت وأنكرت وجحدت بعد ما قبلت.

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) نفس المصدر.

يا كميل، الدين لله تعالى فلا يقبل الله تعالى من أحد القيام به إلاّ رسولاً أو نبيّاً أو وصيّاً.

يا كميل، هي نبوّة ورسالة وإمامة، ولا بعدّ ذلك إلاّ متولّين ومتغلّبين، وضالّين ومعتدين.

يا كميل، إنّ النصارى لم تعطّل لله تعالى حدّاً، ولا اليهود، ولا جحدت موسى ولا عيسى، ولكنّهم زادوا ونقّصوا وحرّفوا وألحدوا، فلعنوا ومقتوا ولم يتوبوا ولم يقبلوا.

يا كميل، إنّما يتقبّل الله من المتّقين.

يا كميل، إنّ أبانا آدم لم يلد يهوديّاً ولا نصرانياً، ولا كان ابنه إلاّ حنيفاً مسلماً، فلم يقم بالواجب عليه، فأراه أن لا يقبل الله قربانه؛ بل قبل من أخيه فحسده وقتله وهو من المسجونين في الفلق الذي عدّتهم إثني عشر، ستّة من الأوّلين وستّة من الآخرين، والفلق الأسفل من النار ومن بخاره حرّ جهنّم، وحسبك حرّ جهنّم من بخاره.

يا كميل، نحن والله الذين اتّقوا والذين هم محسنون.

يا كميل، إنّ الله عزّ وجلّ كريم حليم عظيم رحيم، دلّنا على أخلاقه، وأمرنا بالأخذ بها، وحمل الناس عليها، فقد أدّيناها غير مختلفين، وأرسلناها غير منافقين، وصدّقناها غير مكذّبين، وقبلناها غير مرتابين، لم يكن لنا والله شياطين نوحي إليها وتوحي إلينا، كما وصف الله تعالى قوماً ذكرهم الله عزّ وجلّ بأسمائهم في كتابه لو قرئ كما أنزل: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾.[1]

---

(١) الأنعام: ١١٢.

يا كميل، الويل لهم سوف يلقون غيّاً.

يا كميل، لست والله متملّقاً حتّى أُطاع، ولا ممنّاً حتّى أُعصى، ولا ما يرى مهاناً لطعام الأعراب حتّى أنتحل امرة المؤمنين وأُدعى بها.

يا كميل، نحن الثقل الأصغر والقرآن الثقل الأكبر، وقد أسمعهم رسول الله وقد جمعهم، فنادى الصلاة جامعة يوم كذا وكذا وأيّاماً سبعة وقت كذا وكذا، فلم يتخلّف أحد، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: (معاشر الناس إنّي مؤدٍّ عن ربّي ﷻ ولا مخبر عن نفسي، فمن صدّقني فقد صدق الله ﷻ ومن صدق الله أثابه الجنان، ومن كذّبني فقد كذّب الله ﷻ ومن كذّب الله أعقبه النيران)، ثمّ ناداني فصعدت فأقامني دونه ورأسي إلى صدره والحسن والحسين عن يمينه وعن شماله، ثمّ قال: (معاشر الناس أمرني جبرئيل عن الله ﷻ ربّي وربّكم أن أُعلمكم أنّ القرآن هو الثقل الأكبر، وأنّ وصيي هذا وابناي ومن خلفهم من أصلابهم هم الثقل الأصغر، يشهد الثقل الأكبر للثقل الأصغر، ويشهد الثقل الأصغر للثقل الأكبر، كلّ واحد منهما ملازم لصاحبه غير مفارق له حتّى يردا على الله فيحكم بينهما وبين العباد).

يا كميل، فإذا كنّا كذلك فعلام يتقدّمنا من تقدّم ويتأخّر عنّا من تأخّر.

يا كميل، قد أبلغهم رسول الله ﷺ رسالته، ونصح لهم، ولكن لا يحبّون الناصحين.

يا كميل، قال رسول الله ﷺ قولاً أعلنه، والمهاجرون والأنصار متوافرون يوماً بعد العصر يوم النصف من شهر رمضان، وهو قائم على

قدميه من فوق منبره: علي منّي وإبناي منه والطيّبون منّي ومنهم، وهم الطيّبون بعد أُمّتهم، وهم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هوى، الناجي في الجنّة والهاوي في لظى.

يا كميل، الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

يا كميل، ما يحسدونا والله شأناً قبل أن يعرفونا، أتراهم بحسدهم إيّانا عن ربّنا يزيلونا.

يا كميل، من لا يسكنه الجنّة فبشّره بعذاب أليم، وخزي مقيم، وأكبال ومقاطع وسلاسل طوال ومقطّعات النيران، ومقارنة كلّ شيطان، الشراب صديد، واللباس حديد، والخزنة فظظة، والنار ملتهبة، والأبواب موثّقة مطبقة، ينادون فلا يجابوا ويستغيثون فلا يغاثوا ولا يرحمون نداءهم، ﴿يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ * لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾[١].

يا كميل، نحن والله الحقّ الذي قال الله ﷻ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[٢].

يا كميل، ثمّ ينادون الله تقدّست أسماؤه بعد أن يمكثوا أحقاباً اجعلنا على الرخاء، فيجيبهم: ﴿اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾[٣].

يا كميل، فعندها يئسوا من الكرّة واشتدّت بهم الحسرة، وأيقنوا بالهلكة والمكث، جزاءً بما كسبوا عذّبوا.

---

(١) الزخرف: ٧٨.

(٢) المؤمنون: ٧١.

(٣) المؤمنون: ١٠٨.

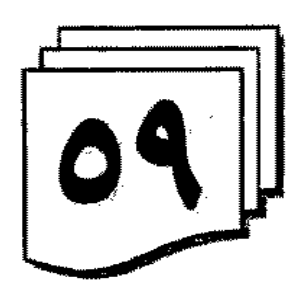
يا كميل، أنا أحمد الله على توفيقه إيّاي والمؤمنين على كلّ حال.

يا كميل، ما من حظى بدنيا زائلة مدبرة فانية، وإنّما حظى من حظى بآخرة باقية ثابتة.

يا كميل، كلّ يصير إلى الآخرة، والذي يرغب فيه منها ثواب الله ﷻ والدرجات العُلا من الجنّة التي لا يورثها إلاّ من كان تقيّاً.

يا كميل، إن شئت فقم».

* * *



قوله عليه السلام:

نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي.

(نهج البلاغة ٤: ٢٦)



[مقام أهل البيت عليهم السلام]

قال ابن أبي الحديد:

النمرق والنمرقة بالضمّ فيهما: وسادة صغيرة، ويجوز النمرقة بالكسر فيهما، ويقال للطنفسة فوق الرحل نمرقة، والمعنى أنّ كلّ فضيلة فإنّها مجنّحة بطرفين معدودين من الرذائل... والمراد أنّ آل محمّد عليه وعليهم السلام هم الأمر المتوسط بين الطرفين المذمومين، فكل من جاوزهم فالواجب أن يرجع إليهم، وكل من قصر عنهم فالواجب أن يلحق بهم.

فإن قلت: فلِمَ استعار لفظ النمرقة لهذا المعنى؟ قلت: لمّا كانوا يقولون قد ركب فلان من الأمر منكراً وقد ارتكب الرأي الفلاني، وكانت الطنفسة فوق الرحل ممّا يركب، إستعار لفظ النمرقة لما يراه الإنسان مذهباً يرجع إليه ويكون كالراكب له والجالس عليه والمتورّك فوقه، ويجوز أيضاً أن يكون لفظة الوسطى يراد بها الفضلى، يقال هذه الطريقة الوسطى والخليقة الوسطى، أي الفضلى، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[1] أي أفضلهم، ومنه ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[2][3].

* * *

---

(١) القلم: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٧٣.

وقال ابن ميثم البحراني:

النمرقة الوسادة الصغيرة، واستعار لفظها له ولأهل بيته بصفة الوسطى، باعتبار كونهم أئمّة الحق ومستنداً للخلق، في تدبير معاشهم ومعادهم على وجه العدل المتوسّط بين طرفي الإفراط والتفريط، ومن حقّ الإمام الحقّ المتوسّط في الأمور أن يلحق به التالي أي المفرط المقصّر، وأن يرجع إليه الغالي المفرط المتجاوز لحدّ العدل.[1]

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

وندع الكلام هنا للشيخ محمّد عبده وحده الذي قال بإيجاز وإعجاب: والنمرقة _ بضمّ فسكون، فضمّ ففتح _ الوسادة، وآل البيت أشبه بها للإستناد إليهم في أُمور الدين، كما يستند إلى الوسادة لراحة الظهر وإطمئنان الأعضاء، ووصفها بالوسطى لإتّصال سائر النمارق بها، فكأنّ الكل يعتمد عليها، إمّا مباشرة وإمّا بواسطة ما بجانبه، وآل البيت على الصراط الوسط العدل، ويلحق بهم من قصر، ويرجع إليهم من غلا وتجاوز.

وكلّ شرح دون هذا الشرح فضول، وكلّ عطف عليه نافلة.[2]

* * *

وممّا ورد في (منهاج البراعة):[3]

(النمرقة) الوسادة الصغيرة، قال في مجمع البحرين: قوله تعالى: ﴿وَنَمارِقُ

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٣١.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٨٤.

(٣) ج ٢١: ١٦٦.

مَصْفُوفَةٌ﴾[١] وهي الوسادة واحدتها النمرقة بكسر النون وفتحها، وفي حديث الأئمّة: «نحن النمرقة الوسطى بنا يلحق التالي وإلينا يرجع الغالي»، استعار عليه السلام لفظ النمرقة بصفة الوسطى له ولأهل بيته بإعتبار كونهم أئمّة العدل يستند الخلق إليهم في تدبير معاشهم ومعادهم، ومن حقّ الإمام العادل أن يلحق به التالي المفرط المقصّر في الدين، ويرجع إليه الغالي المفرط المتجاوز في طلبه حدّ العدل، كما يستند على النمرقة المتوسّطة من على جانبيها.

* * *

أقول: أهل البيت عليهم السلام هم شجرة النبوّة، ومحطّ الرسالة، ومنبع الرحمة، ومعدن العلم، وينابيع الحكمة، وكنوز الرحمن، ناصرهم ومحبّهم ينتظر رحمة الله ونفحاته، وعدوّهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله وسطوته، بهم هدايتنا من الظلمات، وهم موضع سرّ المصطفى صلى الله عليه وآله.

وما أصدق ما قاله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصفهم:

«هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام، وولائج الإعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإنّ رواة العلم كثير، ورعاته قليل».

وقال عليه السلام ثانياً فيما ذكره ابن أبي الحديد في (مجلّد ١) من شرح النهج (ص ٤٥ ط الأولى بمصر):

ومنها: يعني آل النبي صلى الله عليه وآله: «هم موضع سرّه ولجاء أمره، وعيبة

---

(١) الغاشية: ١٥.

علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائصه».

قال ابن أبي الحديد: إنّ أمر النبي ﷺ أي شأنه ملتجئ إليهم، وعلمه مودع عندهم: كالثوب يودع العيبة، وحكمه أي شرعه يرجع ويؤول إليهم، وكتبه يعني القرآن والسُّنّة عندهم، فهم كالكهوف له لإحتوائهم عليه، وهم جبال دينه لا يتحلحلون عن الدين، أو أنّ الدين ثابت بوجودهم كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال، ولولا الجبال لمادت بأهلها.

وقال الشيخ محمّد عبده: إنّ حكمه وشرعه ـ أي النبي ﷺ ـ يرجع إليهم، وهم ـ أي أهل البيت ـ حفّاظ كتبه يحوونها كما تحوي الكهوف ما فيها، والكتب القرآن وجمعه، لأنّه فيما حواه كجملة ما تقدّمه من الكتب، ويزيد عليها ما خصّ الله به هذه الأمّة ـ ثمّ قال: ـ وهذه صفات أهل البيت لإستعدادهم لأسرار الله وحكمته.

قوله عليه السلام: «بهم أقام إنحناء ظهره، وأذهب إرتعاد فرائصه».

قال الشيخ محمّد عبده: كنّى بإنحناء الظهر عن الضعف في بدء الإسلام، وبإقامة الدين عن القوّة، وبهم أمنه من الخوف الذي ترتعد منه الفرائص. انتهى.[1]

فكلام الشيخ محمّد عبده صريح في أنّ الإسلام نما وقوى وامتدّ بأهل البيت عليهم السلام.

وبعد، فإنّ الأوصاف التي ذكرها الإمام لأهل البيت، تشهد بها آية المباهلة (٦١) من سورة آل عمران، وآية التطهير (٣٣) من سورة

(١) نهج البلاغة ١: ٢٩ (الشرح).

الأحزاب، وحديث الثقلين الذي ساوى النبي صلى الله عليه وآله فيه بين القرآن وأهل بيته، وقد جمع أسانيد هذا الحديث المتواتر من طريق السُنّة، جمعها الشيخ قوام الدين الوشنوي القمّي في رسالة خاصة، أسماها (حديث الثقلين) ونشرتها دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة.

أمّا آية المباهلة فقد دلّت على أنّ نفس علي هي نفس محمّد بالذات، حيث قال: ﴿وَأَنفُسَنا﴾ وأراد نفسه وعليّاً الذي أخرجه معه، وقال: ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ ولم يكن معه عند المباهلة واحدة من النساء إلاّ فاطمة، وأمّا أزواجه فبقين في بيوتهنّ، وقال: ﴿أَبناءَنا﴾ وما كان من الأبناء إلاّ الحسن والحسين باتّفاق المفسّرين.

وأغرب ما قرأت في التناقضات أنّ بعض السُنّة يقولون: إنّ آية التطهير نزلت في نساء النبي، وفي الوقت نفسه يقولون: إنّ المراد من ﴿نِساءَنا﴾ في آية المباهلة فاطمة لا أزواج النبي.. فأين وجه الجمع؟ ابن مغنية.

وقال عليه السلام أيضاً يصف أهل البيت عليهم السلام ذكره ابن أبي الحديد في (المجلد الأوّل ص ٤٥ ط الأولى بمصر):

قال عليه السلام: «لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأُمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة، الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله، ونقل إلى منتقله».

قال ابن أبي الحديد في معنى قوله عليه السلام: «هم أصول الدين إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي». قال: جعلهم كمقنب يسير في فلاة، فالغالي منه أي الفارط المتقدّم الذي قد غلا في سيره يرجع إلى ذلك

المقنب إذا خاف عدواً، ومن قد تخلّف عن ذلك المقنب فصار تالياً له يلتحق به إذا أشفق من أن يتخطّف...

[معنى قوله عليه السلام: لا يقاس بآل محمّد أحد]:

فإن قيل: ما معنى قوله عليه السلام: «لا يقاس بآل محمّد من هذه الأمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً»؟

قيل: لا شبهة أنّ المنعم أعلى وأشرف من المنعم عليه، ولا ريب أنّ محمّداً عليه السلام وأهله الأدنين من بني هاشم، لاسيّما عليّ عليه السلام أنعموا على الخلق كافّة بنعمة لا يقدّر قدرها، وهي الدعوة إلى الإسلام والهداية إليه، فمحمّد صلى الله عليه وآله وإن كان هدى الخلق بالدعوة التي قام بها بلسانه ويده، ونصرة الله تعالى له بملائكته، وتأييده، وهو السيّد المتبوع والمصطفى المنتخب، الواجب الطاعة، إلاّ أنّ لعليّ عليه السلام من الهداية أيضاً، وإن كان ثانياً لأوّل، ومصلّياً على أثر سابق ما لا يجحد، ولو لم يكن إلاّ جهاده بالسيف أوّلاً وثانياً، وما كان بين الجهادين من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى ما لم تكن له فاهمة ولا متصوّرة، لكفى في وجوب حقّه وسبوغ نعمته عليه السلام.

فإن قيل: لا ريب أنّ كلامه هذا تعريض بمن تقدّم عليه، فأي نعمة له عليهم؟ قيل: نعمتان؛ الأولى منهما: الجهاد عنهم وهم قاعدون، فإنّ من أنصف علم أنّه لولا سيف عليّ عليه السلام لأصطلم المشركون من أشار إليه وغيرهم من المسلمين، وقد علمت آثاره في بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين، وإنّ الشرك فيها فغر فاه، فلولا أنّ سدّه بسيفه لالتهم المسلمين كافّة.

والثانية: علومه التي لولاها لحُكِم بغير الصواب في كثير من الأحكام، وقد اعتُرف له بذلك والخبر مشهور (لولا علي لهلك عمر)...

واعلم أنّ علياً عليه السلام كان يدّعي التقدّم على الكل، والشرف على الكل، والنعمة على الكل بابن عمّه صلى الله عليه وآله وبنفسه وبأبيه أبي طالب عليه السلام، فإنّ من قرأ علوم السير عرف أنّ الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئاً مذكوراً.

وليس لقائل أن يقول كيف يقال هذا في دين تكفّل الله تعالى بإظهاره، سواءاً كان أبو طالب موجوداً أو معدوماً؟ لأنّا نقول: فينبغي على هذا أن لا يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يقال أنّه هدى الناس من الضلالة وأنقذهم من الجهالة، وأنّ له حقّاً على المسلمين، وأنّه لولاه لما عبد الله تعالى في الأرض، وأن لا يمدح أبو بكر ولا يقال أنّ له أثراً في الإسلام، وأنّه لولا عمر لما كانت الفتوح ولا جهّزت الجيوش ولا قوي أمر الدين بعد ضعفه ولا انتشرت الدعوة بعد خمولها، فإن قلتم في كلّ ذلك أنّ هؤلاء يحمدون ويثنى عليهم؛ لأنّ الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم ووفّقهم لها، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى وهؤلاء آلة مستعملة ووسائط تجري الأفعال على أيديها، فحمدهم والثناء عليهم والإعتراف لهم إنّما هو باعتبار ذلك، قيل لكم في شأن أبي طالب مثله.

* * *

وقال ميرزا حبيب الله الخوئي في (منهاج البراعة)، في المجلّد الثاني (ص ٣٢٤) في معنى قوله عليه السلام: «لا يقاس بآل محمّد من هذه الأمّة أحد»:

يعني لا يوازيهم غيرهم، ولا يقاسون بمن عداهم، كما صرّح عليه السلام به أيضاً فيما رواه في البحار من كتاب المحتضر للحسن بن سليمان من كتاب الخصائص لابن البطريق، رفعه إلى الحرث، قال: قال عليّ عليه السلام: «نحن أهل بيت لا نقاس بالناس»، فقام رجل فأتى عبد الله بن

العبّاس فأخبره بذلك، فقال: صدق عليّ عليه السلام أوليس كان النبي صلى الله عليه وآله لا يقاس بالناس، ثمّ قال ابن عبّاس: نزلت هذه الآية في عليّ عليه السلام:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.(١)

ومن كتاب (المحتضر) أيضاً من كتاب الخطب لعبد العزيز بن يحيى الجلودي، قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني فأنا عيبة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأنا فقأت عين الفتنة باطنها وظاهرها سلوا من علم المنايا والبلايا والوصايا وفصل الخطاب، سلوني فأنا يعسوب المؤمنين حقّاً، وما من فئة تهوى مائة أو تضلّ مائة إلاّ وقد أتيت بقائدها وسائقها، والذي نفسي بيده لو طويت لي الوسادة فأجلس عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل الزبور بزبورهم، ولأهل الفرقان بفرقانهم»، قال: فقام ابن الكوّا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب الناس، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن نفسك، فقال: «ويلك أتريد أن أزكّي نفسي وقد نهى الله عن ذلك، مع أنّي كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني، وإذا سكت ابتدأني، وبين الجوانح منّي علم جمّ، ونحن أهل بيت لا نقاس بأحد».

وبالجملة فهم عليهم السلام لا يقاسون بأحد ولا يقاس أحد بهم، ولا يستحقّ أحد بلوغ مراتبهم ونيل مقاماتهم، (ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً). هذا العطف بمنزلة التعليل لإبطال قياس المساواة بينهم وبين غيرهم، وفي هذه الجملة على وجازتها إشارة إلى مطالب نفيسة كلّ واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأوّل: أنّهم أولياء النعم شاهدها وغائبها، وظاهرها وباطنها.

الثاني: أنّ نعمتهم جارية على العباد أبد الدهر، لا تختص بآن دون آن، وفيوضاتهم متواترة لا تنحصر بوقت دون وقت.

---

(١) البينة: ٧.

الثالث: ما هو كالنتيجة لسابقيه، وهو أنّ التسوية بينهم وبين غيرهم حينئذٍ باطلة، ضرورة أنّ المنعم أفضل من المنعم عليه.

أمّا الأوّل فلأنّهم أُصول نعم الله سبحانه، وخزائن كرمه، ولوجودهم خلقت الدنيا وما فيها، وبوجودهم ثبتت الأرض والسماء، كما قال الصادق عليه السلام فيما رواه في الكافي عن مروان بن ميّاح عنه عليه السلام، قال: «إنّ الله خلقنا فأحسن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدلّ عليه، وخزّانه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السماء ونبت عشب الأرض، وبعبادتنا عبد الله، ولولا نحن ما عبد الله».

فقد ظهر منه أنّهم عليهم السلام وسائط الفيوضات النازلة والنعم الواصلة، وأنّهم يد الله المبسوطة، كما يظهر أنّ إيجادات الخلق وما تضمّنت من العبادات والشرعيات وتكاليف المكلّفين، وما تضمّنت من الوجودات كلّها آثارهم ومن مسنونات ولايتهم.

لهم خلق الله العوالم كلّها ... وحكّمهم فيها بها من خليقةِ
فهم علّة الإيجاد والله موجد ... بهم قال للأشياء كوني فكانتِ

[أهل البيت عليهم السلام هم النعمة في القرآن]:

وإلى هذه النعمة أُشير في آيات كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.[1]

---

(١) لقمان: ٢٠.

قال الباقر عليه السلام: «النعمة الظاهرة النبي صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفته (الله) وتوحيده، وأمّا النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا».

ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.(١)

روي في (البحار) عن أبي خالد الكابلي، قال: دخلت على محمّد بن عليّ عليهما السلام، فقدّم إلينا طعاماً لم آكل أطيب منه، فقال لي: «يا أبا خالد كيف رأيت طعامنا؟» فقلت: جعلت فداك ما أطيبه غير أنّي ذكرت آية في كتاب الله فنغصته، قال عليه السلام: «وما هي؟» قلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾،(٢) فقال عليه السلام: «والله لا تسأل عن هذا الطعام أبداً»، ثمّ ضحك حتّى افترّ ضاحكاً وبدت أضراسه، وقال: «أتدري ما النعيم؟» قلت: لا، قال: «نحن النعيم الذي تُسألون عنه».

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾.

روي في (تفسير العياشي) عن الأصبغ بن نباتة في هذه الآية، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نحن نعمة الله التي أنعم على العباد».

ومنها قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾.(٣)

روي في (الكافي) عن أبي يوسف البزاز، قال: تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية، قال عليه السلام: «أتدري ما آلاء الله؟» قلت: لا، قال: «هي أعظم نعم الله على خلقه، وهي ولايتنا».

ومنها قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.(٤)

---

(١) التكاثر: ٨.

(٢) التكاثر: ٨.

(٣) الأعراف: ٦٩.

(٤) الرحمن: ١٣.

قال أبو عبد الله عليه السلام في مروي داود الرقي: «أي بأي نعمتي تكذّبان، محمّد صلى الله عليه وآله أم بعليّ عليه السلام فبهما أنعمت على العباد»، إلى غير ذلك من الآيات التي يطول ذكرها.

وبالجملة فوجود الأئمّة عليهم السلام نعمة، وولايتهم نعمة.

وما نعمة إلاّ وهم أولياؤها   فهم نعمة منها أتت كلّ نعمة

وأمّا الثاني: وهو عدم إختصاص فيوضاتهم بوقت دون وقت، وجريان نعمتهم أبد الدهر، فقد ظهر وجهه إجمالاً من رواية الكافي السابقة عن مروان بن مياح عن الصادق عليه السلام.

وتفصيله أنّ النعم على كثرتها إمّا دنيوية أو أُخروية.

أمّا الدنيوية فقد ظهر من الرواية السابقة أنّهم سبب إبداع الموجودات وإيجاد المبدعات، وأنّهم عين الله الناظرة ويده الباسطة، وخزّان الله في الأرض والسماء، وبابه الذي منه يؤتى.

إنّ نظام العباد وانتظام البلاد إلى يوم التناد، إنّما هو بوجود الإمام، وأنّ الأرض لو تبقى بغير حجّة لساخت وانخسفت.

ويدلّ على ذلك مضافاً إلى ما سبق، ما رواه في البحار من كتاب إكمال الدين وأمالي الصدوق، بالإسناد عن الأعمش عن الصادق عن أبيه عن عليّ بن الحسين عليهم السلام قال: «نحن أئمّة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين وقادة الغرّ المحجّلين وموالي المؤمنين، ونحن أمان أهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض»، ثمّ قال عليه السلام: «ولم تخلّ الأرض منذ خلق الله آدم من حجّة لله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم

الساعة من حجّة لله فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله»، قال سليمان: فقلت للصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟ قال عليه السلام: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب»، ومثله في الإحتجاج إلى قوله: «لم يعبد الله».

وأمّا النعم الأُخروية: فإنّما هي كلّها متفرّعة على معرفة الله سبحانه وعبادته، وهم أُصول المعرفة، إذ بهم عرف الله وبهم عبد الله ولولا هم ما عبد الله، كما دلّت عليه في رواية الكافي السالفة وغيرها من الأخبار المتواترة أنّ ولايتهم عليهم السلام شرط صحّة الأعمال وقبولها، وبها يترتّب عليها ثمراتها الأخروية، وبدونها لا ينتفع بشيء منها.

هم العروة الوثقى التي كلّ من بها ... تمسّك لم يسأل غداً عن خطيئة

فبولائهم تنال السعادة العظمى، وتدرك الشفاعة الكبرى، وتكتسب الجنان ويحصل الرضوان الذي هو أعظم الثمرات وأشرف اللذّات، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وأمّا الثالث: وهو أفضلية المنعم من المنعم عليه، فضروري مستغن عن البيان، خصوصاً إذا كان الإنعام بمثل هذه النعم الجليلة التي أشرنا إليها، وأعظمها الهداية إلى الله والدلالة على الله، والإرشاد إلى رضوان الله.

قوله عليه السلام: «هم أساس الدين» أي بهم قوامه ودوامه، كما أنّ قوام البناء على الأساس، وقد ظهر وجهه في شرح قوله عليه السلام: بهم أقام انحناء ظهره... الخ (وعماد اليقين) ودعامته وعليهم اعتماده وبهم ثباته، إذ بهم ترتفع الشبهات وتدفع الشكوك.

---

(١) التوبة: ٧٢.

ويحتمل أن يكون المراد باليقين خصوص المعارف الحقّة والعقائد اليقينية، ولعلّه الأنسب بقوله عليه السلام أساس الدين، «إليهم يفيء» أي يرجع «الغالي وبهم يلحق التالي».

قال البحراني: أشار بقوله: «إليهم يفيء الغالي» إلى أنّ المتجاوز للفضائل الإنسانية التي مدارها على الحكمة والعفّة والشجاعة والعدالة، إلى طرف الإفراط منها يرجع إليهم ويهتدي بهم في تحصيل هذه الفضائل، لكونهم عليها، وبقوله عليه السلام: «وبهم يلحق التالي» إلى أنّ المقصّر عن بلوغ هذه الفضائل؛ بل المرتكب لطرف التفريط في تحصيلها يلحق بهم عند طلبه لها، ومعاونة الله له بالهداية إلى ذلك.

* * *

أقول: ما ذكره رحمه الله ممّا لا غبار عليه، إلاّ أنّ الأظهر بملاحظة السياق وسبق قوله: هم أساس الدين: أنّ المراد بالغالي هو المفرط في الدين، وبالتالي المقصّر فيه بخصوصه، وإن كان وظيفتهم عليهم السلام العدل في كلّ الأمور، وهم الأئمّة الوسط، والنمط الأوسط، كما في الحديث: «نحن النمط الأوسط ولا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي»، وفي حديث آخر: «نحن النمرقة الوسطى، بنا يلحق التالي وإلينا يرجع الغالي».

قال بعض شارحي الحديث: استعار عليه السلام لفظ النمرقة بصفة الوسطى لهم عليهم السلام بإعتبار كونهم أئمّة العدل يستند الخلق إليهم في تدبير معاشهم ومعادهم، ومن حقّ الإمام العادل أن يلحق به التالي المفرط والمقصّر في الدين، ويرجع إليه الغالي المتجاوز في طلبه حدّ العدل، كما يستند إلى النمرقة المتوسّطة من على جانبيها.

* * *

وفي (البحار) من أمالي الشيخ بإسناده عن فضل بن يسار، قال: قال الصادق عليه السلام: «احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم، فإنّ الغلاة شرّ خلق الله يصغّرون عظمة الله ويدّعون الربوبية لعباد الله، والله إنّ الغلاة لشرّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا»، ثمّ قال عليه السلام: «إلينا يرجع الغالي فلا نقبله وبنا يلحق المقصّر فنقبله»، فقيل له: كيف ذلك يا بن رسول الله؟ قال عليه السلام: «لأنّ الغالي قد اعتاد ترك الصلاة والصيام والزكاة والحجّ فلا يقدر على ترك عادته وعلى الرجوع إلى طاعة الله عزّ وجلّ، وأنّ المقصّر إذا عرف عمل وأطاع» انتهى.

وهنا أزهار عبقة نيّرة مضيئة في فضائل أهل البيت عليهم السلام نقتطفها من الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعي ففي ص (٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٦، ١٠١/ ط مصر سنة ١٣٢٤هـ) منه ما يأتي:

[الآيات الواردة في حقهم عليهم السلام]:

الفصل الأوّل الآيات الواردة في حقّهم:

الآية الأولى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.(١)

أكثر المفسّرين على أنها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين لتذكير ضمير عنكم وما بعده.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.(٢)

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

صحّ عن كعب بن عجرة، قال: لمّا نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلّم عليك، فكيف نصلّي عليك؟ فقال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد».

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ﴾.[١]

فقد نقل جماعة من المفسّرين عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ المراد بذلك سلام على آل محمّد، وكذا قاله الكلبي.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾.[٢]

أخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري، أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «وقفوهم إنّهم مسؤولون عن ولاية عليّ» وكأنّ هذا هو رواية الواحدي بقوله: روى في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾،[٣] أي عن ولاية عليّ وأهل البيت؛ لأنّ الله أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يعرف الخلق أنّه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً إلاّ المودّة في القربى، والمعنى أنّهم يُسألون هل والوهم حقّ الموالاة كما أوصاهم النبي صلى الله عليه وآله أم أضاعوها وأهملوها، فتكون عليهم المطالبة والتبعة؟

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾.[٤]

أخرج الثعلبي في تفسيرها عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنّه قال: «نحن حبل الله الذي قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[٥]».

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

---

(١) الصافات: ١٣٠.

(٢) الصافات: ٢٤.

(٣) الصافات: ٢٤.

(٤) آل عمران: ١٠٣.

(٥) النساء: ٥٤.

أخرج أبو الحسن المغازلي عن الباقر رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: «نحن الناس والله».

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.[1]

أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى وجود ذلك المعنى في أهل بيته، وأنهم أمان لأهل الأرض كما كان هو صلى الله عليه وآله وسلم أماناً لهم.

وجاء في طرق عديدة يقوّي بعضها بعضاً، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا».

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾.[2]

قال ثابت البناني: إهتدى إلى ولاية أهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم.

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.[3]

قال في الكشّاف: لا دليل أقوى من هذا على فضل أصحاب الكساء، وهم عليّ وفاطمة والحسنان؛ لأنها لمّا نزلت دعاهم صلى الله عليه وآله وسلم فاحتضن الحسين وأخذ بيد الحسن ومشت فاطمة خلفه وعليّ خلفها، فعُلم أنهم المراد من الآية، وأنّ أولاد فاطمة وذريّتهم يُسمّون أبناءاً وينسبون إليه نسبة صحيحة نافعة في الدنيا والآخرة.

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) طه: ٨٢.

(٣) آل عمران: ٦١.

الآية العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.(١)

نقل القرطبي عن ابن عبّاس أنّه قال: رضى محمّد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، وقاله السدي.

الآية الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.(٢)

أخرج الحافظ جمال الدين عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ هذه الآية لمّا نزلت قال ﷺ لعليّ: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين».

الآية الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾.(٣)

قال مقاتل بن سليمان، ومن تبعه من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت في المهدي.

الآية الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.(٤)

أخرج الثعلبي في تفسير هذه الآية عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: الأعراف موضع عالٍ من الصراط عليه العبّاس والحمزة وعليّ بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين، يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسواد الوجوه.

الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾(٥) إلى آخر الآية.

---

(١) الضحى: ٥.

(٢) البينة: ٧.

(٣) الزخرف: ٦١.

(٤) الأعراف: ٤٦.

(٥) الشورى: ٢٣.

أخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عبّاس أنّ هذه الآية لمّا نزلت قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء (الذين) وجبت علينا مودّتهم؟

قال: «عليّ وفاطمة وابناهما».

وللشيخ الجليل شمس الدين ابن العربي قوله:

رأيت ولائي آل طه فريضة ... على رغم أهل البعد يورثني القربا

فما طلب المبعوث أجراً على الهدى ... بتبليغه إلاّ المودّة في القربى

ونكتفي بهذا القدر وإلاّ فالآيات الواردة في فضلهم كثيرة.

هذا وهناك أحاديث كثيرة وكثيرة جدّاً في فضلهم، نقتطف من وردها الفياح العبق، مستمطرين رحمة الباري ﷻ في ذكرهم، وإليك نزراً من ذلك، نقلاً عن كتاب الغدير (ج ٢ ص ٣٠٠ ط النجف):

[**الأحاديث الواردة في حقهم** عليهم السلام] :

الحديث الأوّل: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «لمّا خلق الله تعالى آدم أبو البشر ونفخ فيه من روحه، التفت آدم يمنة العرش فإذا في النور خمسة أشباح سجداً وركعاً، قال آدم: هل خلقت أحداً من طين قبلي؟ قال: لا يا آدم، قال: فمن هؤلاء الخمسة الأشباح الذين أراهم في هيأتي وصورتي؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقت الجنّة والنار ولا العرش ولا الكرسي ولا السماء ولا الأرض ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجنّ، فأنا المحمود وهذا محمّد، وأنا العالي وهذا عليّ، وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين، آليت بعزّتي أن لا يأتيني أحد بمثقال ذرّة من خردل من بغض أحدهم إلاّ أدخله ناري، ولا أُبالي، يا آدم هؤلاء صفوتي بهم أُنجّيهم وبهم

أهلكهم، والعبارة هكذا (ويقتضي أن تكون بهم أُنجّي وبهم أُهلك) فإذا كان لك إليّ حاجة فبهؤلاء توسّل». فقال النبي صلى الله عليه وآله: «نحن سفينة النجاة، من تعلّق بها نجا، ومن حاد عنها هلك، فمن كان له إلى الله حاجة فليسأل بنا أهل البيت».

أخرجه شيخ الإسلام الحمويني في الباب الأوّل من فرائد السمطين، وروى قريباً منه الخطيب الخوارزمي في المناقب. وحديث السفينة رواه الحاكم في المستدرك (ج ٣ ص ١٥١) عن أبي ذرّ وصحّحه بلفظ: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (ج ١٢ ص ٩١) عن أنس، والبزار عن ابن عبّاس وابن الزبير، وابن جرير. والطبراني عن أبي ذرّ وأبي سعيد الخدري، وأبو نعيم، وابن عبد البرّ ومحبّ الدين الطبري، وكثيرون آخرون، وأشار إليه الإمام الشافعي بقوله المأثور عنه في رشفة الصادي (ص ٢٤):

ولمّا رأيت الناس قد ذهبت بهم ... مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله في سفن النجا ... وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وأمسكت حبل الله وهو ولائهم ... كما قد أمرنا بالتمسّك بالحبل

الحديث الثاني: عن ابن عبّاس في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «لو أنّ رجلاً صفّن قدميه (أي صفّ) بين الركن والمقام، فصلّى وصام، ثمّ لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمّد دخل النار».

أخرجه الحاكم في المستدرك (ج ٣ ص ١٤٩) وصحّحه، والذهبي في تلخيصه.

الحديث الثالث: وأخرج الطبراني في الأوسط من طريق أبي ليلى عن الإمام السبط الشهيد عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إلزموا مودّتنا

أهل البيت، فإنّه من لقي الله ﷻ وهو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلاّ بمعرفة حقّنا».

ذكره الهيثمي في المجمع (ج ٩ ص ١٧٢)، وابن حجر في الصواعق، ومحمّد سليمان محفوظ في أعجب ما رأيت (ج ١ ص ٨)، والنبهاني في الشرف المؤبّد (ص ٩٦)، والحضرمي في رشفة الصادي (ص ٤٣).

الحديث الرابع: عن أمّ سلمة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يا أمّ سلمة أتعرفينه؟» قلت: نعم هذا عليّ بن أبي طالب، قال: «صدقت سجيّته سجيتي ودمه دمي، وهو عيبة علمي، فاسمعي واشهدي لو أنّ عبداً من عباد الله ﷻ عبد الله ألف عام بين الركن والمقام، ثمّ لقي الله ﷻ مبغضاً لعليّ بن أبي طالب وعترتي أكبّه الله تعالى على منخره يوم القيامة في نار جهنّم».

أخرجه الحافظ الكنجي باسناده من طريق الحافظ أبي الفضل السلامي، ثمّ قال: هذا حديث سنده مشهور عند أهل النقل.

الحديث الخامس: ما أخرجه الديلمي أنّه ﷺ قال: «الدعاء محجوب حتّى يصلّى على محمّد وأهل بيته، اللهمّ صلّ على محمّد وآله».

ورواه عنه ابن حجر في الصواعق (ص ٨٨).

الحديث السادس: أخرج الحافظ الطبري وابن عساكر بعدّة طريق عن أبي أُمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله خلق الأنبياء من أشجار شتّى، وخلقني من شجرة واحدة، فأنا أصلها وعليّ فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمرها، فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاغ عنها هوى، ولو أنّ عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثمّ ألف

عام ثمّ ألف عام ثمّ لم يدرك صحبتنا أكبّه الله على منخريه في النار، ثمّ تلا: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[1]».

وذكره الكنجي في الكفاية (ص ١٧٨).

الحديث السابع: أخرج أبو الشيخ ابن حبّان في كتابه (الثواب) من طريق الواحدي عن عليّ عليه السلام قال: «فينا آل حم آية لا يحفظ مودّتنا إلاّ كلّ مؤمن، ثمّ قرأ ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾».

وذكره ابن حجر في الصواعق (ص ١٠١ و١٣٦). والسمهودي في جواهر العقدين.

الحديث الثامن: قال ابن حجر في الصواعق (ص ٨٩): أخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري، أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[2] عن ولاية عليّ»، وكأنّ هذا هو مراد الواحدي بقوله روي في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أي عن ولاية عليّ وأهل البيت؛ لأنّ الله أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يعرّف الخلق أنّه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً إلاّ المودّة في القربى، والمعنى إنّهم يسألون هل والوهم حقّ الموالاة كما أوصاهم النبي صلى الله عليه وآله أم أضاعوها وأهملوها، فتكون عليهم المطالبة والتبعة.

وذكر في الصواعق (ص ١٠١) للشيخ شمس الدين ابن العربي في قوله:

رأيت ولائي آل طه فريضة	على رغم أهل البعد يورثني القربا
فما طلب المبعوث أجراً على الهدى	بتبليغه إلاّ المودّة في القربى

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) الصافات: ٢٤.

وذكر ابن الصبّاغ المالكي في الفصول (ص ١٣) لقائل:

هـم العـروة الـوثقى لمعتصـم بهـا ... منـاقبهم جـاءت بـوحي وإنـزال

مناقب في شورى وسورة هل أتى ... وفي سورة الأحزاب يعرفها التالي

وهـم آل بيت المصطفى فودادهم ... على الناس مفروض بحكم واسجال

وقال الآخر:

هم القوم من أصفاهم الودّ مخلصاً ... يمسك في أُخراه بالسبب الأقوى

هـم القـوم فـاقوا العـالمين مناقبـاً ... محاسنهم تجلى وآثـارهم تـروى

مـوالاتهم فـرض وحبّهـم هـدى ... وطاعتهـم ودّ وودّهـم تقـوى

وذكر الشبلنجي في نور الأبصار (ص ١٣) لأبي الحسن بن جبير:

أحـبّ النبـي المصـطفى وابـن عمّـه ... عليّـاً وسـبطيه وفاطمـة الزهـرا

هم أهل بيت أذهب الرجس عنهم ... وأطلعهـم أُفق الهـدى أنجماً زهـرا

مـوالاتهم فـرض علـى كـلّ مسـلم ... وحـبّهم أسـنى الـذخائر للأُخـرى

ومـا أنـا للصـحب الكـرام بمبغـض ... فإنّي أرى البغضاء في حقّهم كفرا

الحديث التاسع: عن أبي الطفيل قال: خطبنا الحسن بن عليّ أبي طالب، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام خاتم الأوصياء ووصي الأنبياء، وأمين الصدّيقين والشهداء، ثمّ قال: «أيّها الناس لقد فارقكم رجل ما سبقه الأوّلون ولا يدركه الآخرون، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطيه الراية فيقاتل جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتّى يفتح الله عليه، ولقد قبضه الله في الليلة التي قبض فيها وصي موسى، وعرج بروحه في الليلة التي عرج فيها بروح عيسى بن مريم، وفي الليلة التي أنزل الله عزّ وجلّ فيها الفرقان، والله ما ترك ذهباً ولا فضّة، وما

في بيت ماله إلاّ سبعمائة وخمسون درهماً فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادماً لأمّ كلثوم»، ثمّ قال:

«من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمّد»، ثمّ تلا هذه الآية قول يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[1] ثمّ أخذ في كتاب الله، ثمّ قال: «أنا ابن البشير أنا ابن النذير، أنا ابن النبي أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه وأنا ابن السراج المنير، وأنا ابن الذي أُرسل رحمة للعالمين، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله ﷻ مودّتهم وولايتهم، فقال فيما أُنزل على محمّد: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2]».

أخرجه البزار والطبراني في الكبير، وأبو الفرج في مقاتل الطالبيين، وابن أبي الحديد في شرح النهج (ج ٤ ص ١١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٩ ص ١٤)، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول (ص ١٦٦) وقال: رواه جماعة من أصحاب السير وغيرهم، والحافظ الكنجي في الكفاية (ص ٣٢) من طريق ابن عقدة عن أبي الطفيل، والنسائي عن هبيرة، وابن حجر في الصواعق (ص١٠١ و١٣٦)، والصفوري في نزهة المجالس (ج ٢ ص٢٣١)، والحضرمي في الرشفة (ص ٤٣).

الحديث العاشر: أخرج الثعلبي في (الكشف والبيان) في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3] قال مسلم بن حيّان: سمعت أبا بريدة يقول: صراط محمّد وآله.

---

(١) يوسف: ٣٨.

(٢) الشورى: ٢٣.

(٣) الفاتحة: ٦.

الحديث الحادي عشر: وفي (تفسير وكيع بن الجراح) عن سفيان الثوري عن السدي عن أسباط ومجاهد عن عبد الله بن عبّاس في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: قولوا معاشر العباد ارشدنا إلى حبّ محمّد وأهل بيته.

الحديث الثاني عشر: وأخرج الحمويني في الفرائد بإسناده عن أصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[1] قال: «الصراط ولايتنا أهل البيت».

الحديث الثالث عشر: ما أخرجه ابن عدي والديلمي كما في الصواعق (ص ١١١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أثبتكم على الصراط أشدّكم حبّاً لأهل بيتي وأصحابي».

الحديث الرابع عشر: وأخرج شيخ الإسلام الحمويني بإسناده في فرائد السمطين في حديث عن الإمام جعفر الصادق قوله: «نحن خيرة الله، ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم إلى الله».

الحديث الخامس عشر: أخرج القاضي عياض في الشفا عن النبي صلى الله عليه وآله إنّه قال: «معرفة آل محمّد براءة من النار، وحبّ آل محمّد جواز على الصراط، والولاية لآل محمّد أمان من العذاب».

ويوجد في الصواعق (ص ١٣٩)، والإتحاف (ص ١٥)، ورشفة الصادي (ص ٤٥٩).

الحديث السادس عشر: ذخائر العقبى (ص١٧) عن أياس بن سلمة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمّتي». أخرجه أبو عمرو الغفاري.

---

(١) المؤمنون: ٧٤.

الحديث السابع عشر: عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض» أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الثامن عشر: ذخائر العقبى (ص ١٨): عن عبد العزيز باسناده أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «من حفظني في أهل بيتي فقد اتّخذ عند الله عهداً» أخرجه أبو سعيد والملا.

الحديث التاسع عشر: وعنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «استوصوا بأهل بيتي خيراً، فإنّي أُخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار» أخرجه أبو سعد والملا في سيرته.

الحديث العشرون: عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي حوائجهم، والساعي في أُمورهم عند اضطرارهم إليه، والمحبّة لهم بقلبه ولسانه» أخرجه عليّ بن موسى الرضا عليه السلام.

الحديث الحادي والعشرون: عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحبّوا الله ممّا يغذوكم به، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي بحبّي» أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

الحديث الثاني والعشرون: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أبغض أهل البيت فهو منافق» أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الثالث والعشرون: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يحبّنا أهل البيت إلاّ مؤمن تقي، ولا يبغضنا إلاّ منافق شقي» أخرجه الملا.

الحديث الرابع والعشرون: عن عليّ كرّم الله وجهه، قال: قال

رسول الله ﷺ: «يرد الحوض أهل بيتي ومن أحبّهم من أمّتي كهاتين السبّابتين» أخرجه الملا.

الحديث الخامس والعشرون: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: لقيني كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من رسول الله ﷺ؟ فقلت: بلى فاهدها، قال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنّك حميد مجيد، اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنّك حميد مجيد». أخرجه البخاري.

وعن جابر رضي الله عنه إنّه كان يقول: لو صلّيت صلاة لم أصلّ فيها على محمّد وعلى آل محمّد ما رأيت أنّها تقبل.

الحديث السادس والعشرون: عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صنع مع أحد من أهل بيتي يداً كافأته عنها يوم القيامة».

الحديث السابع والعشرون: وفي طريق آخر من حديث غير عليّ: «من صنع إلى أحد من أهل بيتي معروفاً فعجز عن مكافأته في الدنيا، فأنا المكافئ له يوم القيامة». أخرجه سعد وتابعه الملا على الأوّل.

الحديث الثامن والعشرون: عن الربيع بن منذر عن أبيه، قال: كان حسين بن عليّ رضي الله عنهما يقول: «من دمعت عيناه فينا دمعة أو قطرت عيناه فينا قطرة آتاه الله عزّ وجلّ الجنّة». أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث التاسع والعشرون: عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربّي أن لا يدخل النار أحداً من أهل بيتي، فأعطاني ذلك» أخرجه أبو سعد والملا في سيرته.

الحديث الثلاثون: عن عليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهمّ إنّهم عترة رسولك فهب مسيئهم لمحسنهم، وهبهم لي»، قال: «ففعل وهو فاعل»، قال: قلت: ما فعل؟ قال: «فعله بكم ويفعله بمن بعدكم» أخرجه الملا.

الحديث الواحد والثلاثون: عن عليّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله حرّم الجنّة على من ظلم أهل بيتي، أو قاتلهم، أو أغار عليهم، أو سبّهم» أخرجه الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام.

وأكتفي بهذا القدر من ذكر الآيات الكريمة والأحاديث النبوية، في ذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام إذ ذكر جميع ما ورد فيهم يحتاج إلى مجلّدات ومجلّدات، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه والله حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

وبالتالي قال الشيخ ابن مغنية:

فإنّ الحديث عن آل الرسول عليه وعليهم أفضل الصلوات سهل يسير، وصعب مستصعب، سهل على من أراد أن يسرد ما تواتر على الألسن، ودوّن في كتب الفضائل والمناقب، وصعب إذا حاول الكشف عمّا فيها من كنوز وأسرار، وما تهدف إليه من غايات سامية، ومقاصد رفيعة، لأنّ الحديث عن كلّ أولئك؛ بل عن بعضها يحتاج إلى رصيد ضخم من العلم الصحيح والخُلُق الكريم.

هذا ولو كان لغير الشيعة مثل عليّ وأولاده، لملأوا الكون بمفاخرهم ومآثرهم، ومنذ أمد غير بعيد قرأنا كتاباً ضخماً للحفناوي وضعه في أبي سفيان الأموي، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال يوم فتح مكّة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» ومن قبله قال الشيخ الخضري في محاضراته: إنّ قول الرسول: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، لشرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن.

هذا مع العلم بأنّ النبي ﷺ قال يومذاك: «من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن أغمد سيفه فهو آمن» أي وإن لم يدخل داراً بالمرّة، وبالرغم من كلّ ذلك فإنّ شرف أبي سفيان عند الخضري والحفناوي لم ينل مثله أحد من الأوّلين والآخرين، حتّى علي الذي حمله النبي على منكبه، وكسّر الأصنام التي ألّهها وعبدها أبو سفيان![1]

تذييل:

في كتاب (سكينة بنت الحسين عليها السلام) تأليف العلاّمة السيّد عبد الرزّاق المقرم الموسوي رحمه الله:

عترة المصطفى ﷺ هم عنصر الشرف، واسرة كلّ فضيلة رابية، وقد ثبتت لهم الرفعة والجلالة بانتمائهم إلى المنبت الزاكي والشجرة الطيّبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ولا تنكر جهود أبيهم الأقدس، ومساعيه الجبّارة في إنتشال الأمّة إلى ساحل النجاة والسعادة، على حين كانت ترامى بهم أمواج الضلال، وتلتطم بهم الفتن، وهم لا ينقذون من هوّة الهوان إلاّ ويسفون إلى أعمق منها، وكانوا يرسفون في أسر مهانة مخزية، بين أصنام منحوتة ونواميس مهتوكة، ودماء مهدورة، وغارات متواصلة، وعادات خرافية، وبنات موؤدة، إلى أمثالها ممّا يقهقر سير الإنسانية، ويعرقل مسعى البشر عمّا فيه الخير والصلاح.

فباغتهم (نبي الإسلام) بتعاليمه الناصعة، وطقوسه الراقية، فأسّس لهم بها كياناً خالداً وعزّاً باقياً ودولة مرعية الجانب، خضعت لها الدول ودانت لها الأمم، وبطل مسعى الإلحاد، وأعلن في أنحاء المعمورة دين التوحيد والسلام والوئام.

---

(١) في ظلال نهج البلاغة:

يقول الشيخ كاظم الأزري:

لم يزالوا في مركز الجهل حتّى بعث الله للورى أزكاها

فأتى كامل الطبيعة شمساً تستمدّ الشموس منه سناها

طربت لاسمه الثرى فاستطالت فوق علوية السما سفلاها

ثمّ أثنت عليه إنس وجنّ وعلى مثله يحقّ ثناها

وإلى طبّه الإلهي باتت علل الدهر تشتكي بلواها

كيف لا تشتكي الليالي إليه ضرّها وهو منتهى شكواها

إذاً فمن واجب شكره تعظيم ذريّته الطاهرة (فإنّ المرء يحفظ في ولده)، على أنّ أولئك النفر البيض دعاة إلى مبدأ الحقّ سبحانه، المهيمن على البشر بوجودهم، دعاة إليه بألسنتهم، دعاة بأقلامهم، دعاة بنظمهم ونثرهم، دعاة بخطبهم، دعاة بفواضلهم وفضائلهم، دعاة بأخلاقهم، وأعمالهم. وإذا فات البعض منهم بعض الفواضل والدعوات فلا يفقد الآخر مجموعها، فأي أحد من الأُمّة يلتفت إلى أنّ المشرف لهم هو نبي الرحمة، المنتشل للبشر من مهاوي السقوط والضعّة، فلا يذعن بأنّ الواجب في شريعة الحفّاظ الخضوع لذريّته، كرامة لذلك الجدّ الأقدس، والشجرة الطيّبة التي أظلّت العالم بفيئها الوارف.

ومن ذا الذي يجد في آحاد منهم ما يتناسب مع منبتهم الكريم من الخُلق الطيّب، فلا يعتقد أنّ هذا ممّا عرقه فيهم ذلك المنقذ الأكبر صلى الله عليه وآله ولا يروقه إلاّ التحلّي بما استحسنه منهم، وأمّا الذي حصلوا على أصلهم الطاهر بشيء من دعوة اللسان والسنان، فغناؤهم أوفر، وإستفادة الأُمّة منهم أكثر.

فهم على كلّ حال أدلاّء على الخير، ومسالك النجاة يحملون

فضيلة الشرف والسؤدد، فضيلة الدعوة إلى السلام والوئام، فضيلة الإصلاح والرشاد، وليس لسائر الأمّة إلا إلى الإحسان ذريّة الرسول والمودّة لهم التي هي أجر الرسالة بنصّ الكتاب العزيز.

﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾.[1]

والقربى هنا بمعنى الأقارب قطعاً، وليس المراد منه قرب النبي من قريش، ولا تقرب الأمّة إلى الله تعالى بالطاعة؛ لأنّ الأوّل يصحّ استعماله أوّلاً وهو المتبادر إلى الفهم من الإطلاق ثانياً، وأمّا المعنيين الآخرين فيحتاج إرادتهما من الإطلاق إلى قرينة وهي مفقودة.

على أنّ الأخبار المتواترة دلّت على أنّ قرابته المعنيّين بالآية، هم عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وذريّتهم، وقد استشهد عليه الأئمّة المعصومون، فيقول سيّد الوصيين عليه السلام: «فينا آية في حم لا يحفظ مودّتنا إلاّ كلّ مؤمن، ثمّ قرأ آية المودّة». ويوم خطب الحسن عليه السلام بعد وفاة أبيه قال: «أنا من أهل البيت الذين إفترض الله مودّتهم»، ثمّ قرأ آية المودّة، كما في الصواعق المحرقة (ص ١٠١) الآية الرابعة عشرة.

ولمّا أُوقف الإمام السجاد عليه السلام مع حرم النبوّة على درج مسجد الشام، قال له الشامي: الحمد لله الذي استأصلكم، فقال عليه السلام: «أما قرأت: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾؟»، قال الشامي: نعم وأنتم هم؟ فقال الإمام عليه السلام: «نعم»، فبكى واستغفر. كما في تفسير روح المعاني للآلوسي (ج ٢٥ ص٣١). والصواعق المحرقة (ص ١٠١) ومقتل الخوارزمي (ج ٢ص٦١). وتفسير ابن كثير (ج ٤ ص١١٢).

---

(١) الشورى: ٢٣.

فدلّ هذا على معروفية المعنى المتبادر من لفظ القربى بين الناس في ذلك الزمن القريب من عهد النزول، ولو كان لغير هذا المعنى نصيب من الواقع لما صدر من المعصومين الإستشهاد بالآية على كونها فيهم، ولما سكت من سمع الخطاب عن النقاش.

وفي هذا المعنى يقول محيي الدين (ابن) العربي:

رأيت ولائي آل طه فريضة ... على رغم أهل البعد يورثني القربا

فما طلب المبعوث أجراً على الهدى ... بتبليغه إلاّ المودّة في القربى

[**أجر الرسالة مودة أهل البيت عليهم السلام**]:

ذكر ذلك الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية (ج ٧ ص٩)، والصواعق المحرقة (ص ١٠١).

وحينئذٍ فلا موقع للإشكال على الآية، بأنّ طلب النبي صلى الله عليه وآله الأجر على تبليغ الوحي لا يليق بمقام الأنبياء، مع أنهم صارحوا بنفي الأجرة على التبليغ، ففي الحكاية عن نوح عليه السلام: ﴿فما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلا عَلى اللهِ﴾.[1] وعن هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: ﴿وَما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلا عَلى رَبِّ العالَمِينَ﴾.[2]

وفي الحكاية عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلى اللهِ﴾.[3] وقوله صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إلا ذِكْرى لِلعالَمِينَ﴾.[4]

---

(١) سبأ: ٤٧.

(٢) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤ و ١٨٠.

(٣) سبأ: ٤٧.

(٤) الأنعام: ٩٠.

فإنّ التدبّر في هذه الآيات الشريفة يفيدنا عدم المنافاة بينها وبين آية الآية؛ لأنّ الأجر المنفي في هذه الآيات هو المال، والأنبياء أرقى من أن يأخذوا المال على تبليغ الدعوة الإلهية، مع ما فيه من المشقّة على الناس التي أشار الكتاب العزيز إلى ثقلها على الطباع، فقال تعالى: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾[١] وقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٢].

والأجر المطلوب في آية المودّة لم يكن من سنخ المال حتّى يثقل على الطباع البشرية تحمّله؛ لأنّ المقصود منه موالاة آل الرسول، وهذا من سنخ الدعوة الإلهية، فيليق بمقام النبوّة الدعوة إليه والتعريف به، ومن المناسب جداً للرسول المشرّع الأقدس إعلام الأمّة بما تستفيد منه السعادة الخالدة، والزلفى إلى المهيمن سبحانه. فإذاً يكون طلب النبي ﷺ من أُمّته مودّة آله الأقربين لطفاً وحناناً عليهم، لإنارته لهم سبيل الخير، وتعريفهم بالطريق اللاحب، وهكذا المصلحون يتحرّون بمن يريدون إصلاحهم كلّ وسيلة تأخذ بهم إلى أسمى الغايات.

على أنّ المحبّة لآل الرسول تستوجب مودّة النبي ﷺ المستلزمة لمحبّة الله تعالى وطاعته، كما جاء في المأثور عنه ﷺ: «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي» وإنّي أُخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصيمه خصمه الله، ومن خصمه الله أدخله النار»، إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار (ص ١١٤).

وبهذه العناية يكون المعنى الثالث للفظ القربى في آية المودّة،

---

(١) الطور: ٤٠.

(٢) المؤمنون: ٧٢.

وهو تقرّب الأمّة إلى الله تعالى بالطاعة لازماً لمودّة أهل البيت لكونها محبوبة للرسول ومحبوبة لله سبحانه، وهذا عين الطاعة إليه جلّ شأنه.

فالرسول الأعظم لم يسأل الأمّة مالاً عوض تحمّله المشاقّ في سبيل هدايتهم وإنقاذهم من مخالب الضلال والعمى، والإرشاد إلى ما فيه حياتهم وجمع شملهم، حتّى يشكل عليه بعدم المناسبة لمقام النبوّة والرسالة، وإنّما طلب منهم ما يعود نفعه إليهم، وبه يستوجبون شمول العطف الإلهي، ألا وهو مودّة أهل بيته وقرباه وهم: (عليّ وفاطمة والحسن والحسين وذريّتهم).

وتفسير القربى بأهل البيت رواه الآلوسي عن زاذان عن عليّ عليه السلام قال: وإليه يشير الكميت الأسدي:

وجدنا لكم في آل حم آية ... تأوّلها منّا تقي ومعرب

ولله درّ السيّد عمر الهيثمي أحد الأقارب المعاصرين حيث يقول:

بأيّ آية يأتي يزيد ... غداة صحائف الأعمال تتلا

وقام رسول ربّ العرش يتلو ... وقد صمّت جميع الخلق قل لا

تفسير الآلوسي (ج ٢٥ ص ٣١) آية المودّة.

وأي أحد يتخيّل طلب النبي صلى الله عليه وآله من الأمّة التعويض بالمال عن تلك المتاعب التي لم يلاقها نبي غيره، ولم يؤذ في سبيل نشر دعوته أحد من الأنبياء كما أوذي نبي الإسلام.

وهل يقابل ذلك الخطر الإلهي بهذا العرض الزائل المتخلّي عنه صفي الله وحبيبه صلى الله عليه وآله وقد عرضت عليه كنوز الأرض بأجمعها، فآثر الأخرى الباقية على ما فيه الفناء، حتّى كان يبيت الأيّام طاوياً ويشدّ الحجر على بطنه من الجوع ويسمّيه المشبع، فالرسول الأقدس في سيره وأعماله لا يدعو إلاّ إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فآية المودّة لا تنافي سيرة الأنبياء ولا سيرة نبيّنا الأعظم ﷺ، ولا يعارضها ما في سورة (سبأ: ٤٧) ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ ...﴾ ولا ما في سورة (الأنعام: ٩٠) ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ ...﴾ لأنّ الأجر المنفي في هاتين الآيتين المال الذي يشقّ على الناس بذله، ويتنزّه عنه مقام من كان من ربّه كقاب قوسين أو أدنى، والمطلوب في آية المودّة لم يكن مالاً وإنّما هو محبّة آله، وهذا من سنخ العبادة والطاعة، ومثل المنقذ الأكبر يعرّف الأمّة ما فيه صلاحها، ويرشدها إلى ما يقرّبها من المولى سبحانه زلفى.

ولعلّ الآية في سورة سبأ ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[1] تساعد عليه، فإنّ ظاهرها كالتمهيد للجواب عن مثل هذا الإشكال، فإنّ معنى الآية أنّ ما يطلبه الرسول من الأجر إنّما يعود نفعه إلى الأمّة، فالأجر الذي أراده من آية المودّة وهو مودّة أهل بيته معه لهم خاصّة، وحينئذٍ فيتّفق هذا مع قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ﴾[2] لأنّ مودّة آله وذريّته ذكرى للعالمين ورحمة لهم، لما فيها من إحترام شخص النبوّة وتقدير أعماله الجبّارة.

وما جاء في هذه الآية من طلب مودّة القربى لا يتنافى مع ما في الفرقان ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[3] فإنّ الهداية إلى الله تعالى التي هي المطلوب السامي لنبي الإسلام عوضاً عن التبليغ والإرشاد يتّفق مع مودّة القربى المراد لرسول الله ﷺ في آية الشورى، فإنّ مودة آله من مصاديق الهداية إلى المهيمن سبحانه بامتثال أوامره واجتناب معاصيه، والقيام بما

---

(١) سبأ: ٤٧.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) الفرقان: ٥٧.

يقرّب منه عزّ شأنه زلفى، لا ندحة له من مودّة قربى النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنّ الله تعالى حثّ على حبّهم واقتفاء آثارهم.

ولو أعرضنا عن جميع ذلك لا تكون الآيتان المنفي فيهما الأجر معارضتين لآية المودّة؛ لأنهما مكيّتان وآية المودّة مدنية نازلة بعدهما والمدني لا يعارضه المكّي بوجه.

ودعوى ابن تيمية (عدم الريب في كون آية المودّة مكيّة لأنّها من سورة الشورى التي هي كباقي الحواميم مكيّة، وحينئذٍ فأين تزويج عليّ من فاطمة وأين أولادهما؟)، منهاج السُّنّة (ج ٢ ص ١١٨، وص ٢٥٠).

تدلّنا على عدم اطّلاعه على كلمات المفسّرين، أو أنّه غضّ النظر عنها، فإنّه لم يصرّح أحد بأنّ الآية مكيّة، وكأنّه تخيّل من إطلاق قولهم الشورى مكيّة أنّها بتمام آياتها، وهذا غير لازم، فإنّ جملة من الآيات المكيّة في السور المدنية وبالعكس؛ لأنّ تأليف القرآن لم يكن على حسب النزول، ويحكي الزرقاني عن تفسير ابن عطيّة أنّ الآية مدنية. وحديث ابن عبّاس ينصّ على أنّ المراد من القرابة فيها عليّ وفاطمة وأبنائهما. كما في شرح المواهب اللدنية (ج ٧ ص ٣).

ثمّ لو فرضنا عدم نزول (آية المودّة) في أهل البيت لأفادنا ما ورد من محبوبية الإحسان إليهم والعطف عليهم وإيتاء المعروف لهم وقضاء حوائجهم والسعي في أُمورهم، تأكّده في ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لكونه مشرّفهم ومودع الفضل فيهم، وهو أصل هذه الدوحة الميمونة، ووصاياه في حقّهم متواترة لا تبقي ريباً وتشكيكاً لمن يتطلّب النصّ بالخصوص، وقد جاء عنه صلى الله عليه وآله: «لا يؤمن عبد حتّى أكون أحبّ إليه من عترته، وأهلي أحبّ إليه من أهله، وذاتي أحبّ إليه من ذاته».

«وإنّ لله حرمات ثلاث من حفظهنّ حفظ الله دينه ودنياه: حرمة الإسلام، وحرمتي، وحرمة رحمي» كما في الصواعق المحرقة (ص ١٣٧ وص ١٣٩).

فمقارنة حرمة أهل بيته بحرمة شخص النبوّة، الواجب على الأمّة مراعاتها، وإنّ التقصير فيها يستوجب سخط الربّ جلّ شأنه، دليل واضح على إمتياز الذرية على سائر المسلمين، لحصولهم على هذا العنوان أعني كونهم ذريّة الرسول مطلقاً، سواءاً كانوا سائرين على منهاج مشرّفهم الأعظم أو متأخّرين عنه.

نعم الحبّ لمن هو متّبع لقوانين جدّهم الأكرم يكون آأكد، وحيث يكون التقصير بإزاء حقّ الذرية والحطّ من كرامتهم مستوجباً للوهن بمقام النبي ﷺ إستحقّ البعد من الله تعالى كلّ من أعرض عن إكرام الذرية.

ومن هنا جاء التحذير منه ﷺ: «من احتقرهم فهو ملعون، أذهب الله عنه السمع والبصر». فضائل السادات (ص ٣٨٩).

وليس المراد منه فقد هاتين الحاسّتين لما يشاهد بالوجدان خلافه، بل المراد منه عدم التوفيق لاستماع أو إبصار ما يقرّب إلى الخير ويبعّد عن درك العقاب على حدّ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾[1] وهذا هو المراد من قوله ﷺ: «ملعون» فإنّ اللعن ليس إلاّ الطرد والبعد عن الرحمات الإلهية والفيوضات الربوبية، فلا تهطل سحائب الرحمة على من احتقر الذرية، وأشار إلى هذا قوله ﷺ: «عليكم بحبّ أولادي فإنّه يُدخل الجنّة لا محالة، وبغضهم يُدخل النار» جامع الأخبار.

وهذه الكلمات الذهبية من نبي الرحمة تلقي على الأمّة ضوءاً

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

تبصر منه المكانة السامية لذرّيته الصالحة، وأمّا من كان بظاهره حائداً عن قانون الشرع، فيكون الإحسان إليه من باب تكريم صاحب الدعوة الإلهية، لكون الإهانة إليه تستلزم التوهين بمقام الرسول.

وإليه يشير النبي صلى الله عليه وآله: «أكرموا أولادي، الصالحين لله تعالى والطالحين لي» جامع السعادات (ص ٣١٤ ط ايران).

ولمّا لمح النبي العجب ممّن سمع خطابه في إكرام الطالح منهم قال مرشداً له: «أليس الولد العاقّ يلحق بالنسب» عن فضائل السادات (ص ٣٧٣).

على أنّ الرسول الأعظم سأل الله سبحانه أن يثبت القائم بالحقّ من أهل بيته، ويهدي ضالّهم، ويعلّم جاهلهم ويجعلهم رحماء نجباء، ويهب مسيئهم لمحسنهم، ويهبهم له، فأجاب الله تعالى سؤاله، وأكرمه تعالى بتوفيق ذرّيته للفوز الأكبر، وهو الممات على ولاية الأئمّة المعصومين والتوبة عمّا اقترفوه من الآثام ولو في آخر ساعة من أيّامهم، كما يفصح عنه قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يخرج أحدنا من الدنيا حتّى يقرّ لكلّ ذي فضل فضله»، وفي آخر عنه: «ليس لكم أن تدخلوا فيما بيننا إلاّ بسبيل خير، إنّه لم تمت نفس منّا إلاّ وتدركها السعادة قبل أن تخرج نفسه ولو بفواق ناقة» مرآة العقول (ج ١ ص٢٦٢).

وممّا يفيدنا وضوحاً في هذا الحكم الذي لا يرتاب فيه من يبصر الحقائق بعين صحيحة، ما احتفظ به من وصايا المعصومين بإكرام ذريّتهم ومن ينتسب إليهم، نذكر بعضاً منها كمثل يتعرّف منه مكانة الذريّة:

[فضل ذرية النبي بشكل عام]:

١ ـ حدّث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، أنّه دخل على أخيه محمّد سحراً بعد مدّة من قتله ليحيى بن عمر العلوي،

فرآه مطرقاً برأسه مهموماً حزيناً كأنّه عرض على السيف، وجواريه لا يتجاسرون على مسألته، وأخته واقفة، فسألها، قالت: رؤيا أهالته، فقلت له: أيّها الأمير روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا رأى أحدكم ما يكره في منامه فليتحوّل من جانبه إلى الآخر وليقل ثلاثاً: استغفر الله ويلعن إبليساً ويستعيذ بالله ثمّ ينام».

فرفع إليّ رأسه وقال: يا أخي كيف إذا كانت الطامّة من جهة رسول الله ﷺ، ثمّ قال لي: ألست ذاكراً رؤيا طاهر وهو صغير للنبي في منامه وهو يقول له: «يا طاهر إنّك ستبلغ من الدنيا أمراً عظيماً فاتّق الله واحفظني في ولدي، فإنّك لا تزال محفوظاً ما حفظتني في ولدي».

فما تعرّض طاهر لقتال علوي قطّ، وندب إلى ذلك غير دفعه، ثمّ قال محمّد: يا أخي إنّي رأيت البارحة رسول الله ﷺ في منامي وهو يقول: «يا محمّد نكثتم؟» فانتبهت فزعاً وتحوّلت واستغفرت الله وتعوّذت من إبليس ولعنته ونمت، فرأيت رسول الله ﷺ الثانية وهو يقول: «يا محمّد نكثتم؟».

ففعلت كما فعلت في الأولى، ونمت فرأيته ﷺ الثالثة وهو يقول: «نكثتم وقتلتم أولادي والله لا تفلحون بعدها أبداً».

فانتبهت وأنا على هذا الحال منذ نصف الليل ما نمت، واندفع يبكي وبكيت معه فما مضت على ذلك إلاّ مدّة يسيرة حتّى مات محمّد ونكبنا بأسرنا أقبح نكبة وصرفنا عن ولايتنا، ولم يزل أمرنا يخمل حتّى لم يبق لنا اسم على منبر ولا علم في جيش ولا إمارة وصرنا إلى الآن تحت المحن. عن نشوان المحاضرة للقاضي التنوخي (ج ١ ص ٢٢٣).

وبعد قتل يحيى جلس محمّد بن عبد الله يُهنأ بقتله، وجماعة الهاشميين والطالبيين حضور، وسمعهم أبو هاشم الجعفري يهنّونه فقال:

أيها الأمير إنك لتُهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله حيّاً لكان هو المعزّى، فما ردّ عليه محمّد شيئاً، ثمّ خرج أبو هاشم يقول.. كما في الطبري (ج ١١ ص ٩٠):

يابني طاهر كلوه وبيّاً	إنّ لحم النبي غير مري
إنّ وتراً يكون طالبه الله	لوتر نجاحه بالحري

ويحيى هو ابن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام وأمّة أمّ الحسين فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر الطيّار.

كان يحيى ورعاً ديّناً كثير البرّ والمعروف، واصلاً لأهل بيته مؤثراً لهم على نفسه عطوفاً على الطالبيات[1] لم تر منه زلّة، ولذا جزعت عليه النفوس ورثاه القريب والبعيد، خرج بالكوفة ليلة الإثنين لثلاث عشر من رجب سنة (٢٥٠) أيّام المستعين، وكانت الوقعة في ظهر خندق الكوفة، حمل رأسه إلى محمّد بن عبد الله بن طاهر، فطلب من يقوّره فلم يقدم عليه أحد حتّى من كان في السجن من الذبّاحين إلاّ رجل من عمّال السجن الجديد فإنّه صنع فيه كما أراد محمّد، وأرسله إلى سامراء فنصبه إبراهيم بن إسحاق الديزج على باب العامّة لحظة وأنزله لكثرة إنكار العامّة، وأرجعه إلى محمّد فلم يقدر أن ينصبه على الجسر لتجمّع الناس وإنكارهم، فخبّأه في بيت السلاح في داره.

[قصة أحمد بن إسحاق القمي وذرية النبي]:

٢ ـ حدّث أحمد بن إسحاق القمّي، وكان وكيلاً بقم عن أبي الحسن عليّ الهادي وأبي محمّد الحسن العسكري عليهما السلام: أنّ الحسين بن

---

(١) في مروج الذهب ٤: ١٤٨... مؤثراً لهم على نفسه، مثقل الظهر بالطيبات...

الحسن بن جعفر بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام كان بقمّ يشرب الخمر علانية، فاعترته نائبة فقصد بها أحمد بن إسحاق، فلم يأذن له، فرجع إلى أهله مهموماً منكسراً، ولمّا توجه أحمد بن اسحاق إلى الحجّ وبلغ سرّ من رأى، إستأذن على أبي محمّد العسكري عليه السلام فلم يأذن له، فكبر عليه وداخله همّ شديد ولم يعلم السبب في ذلك حتّى تضرّع إليه طويلاً، فأذن له وسأله عمّا أوجب إعراضه؟ فعرّفه الإمام عليه السلام أنّ السبب منعه العلوي من الدخول عليه وقد قصده لأمر أهمّه، فقال ابن إسحاق لم يكن المنع إلاّ لأجل أن يتوب عمّا عليه من المآثم، فقال الإمام عليه السلام: «صدقت ولكن لابدّ من إكرامهم لإنتسابهم إلينا، فلا تكن يا ابن إسحاق من الخاسرين بالإعراض عمّن انتسب إلينا».

ولم يتباعد ابن إسحاق عن نصح الإمام الواقف على الأسرار العارف بمقتضيات الأحوال، علماً منه بأنّ إمام الحقّ لا يدعو إلاّ إلى حكمة بالغة أو حقيقة راهنة، فاحتفظ بهذه الوصية الثمينة، حتّى إذا رجع من الحجّ إلى مدينة قم زاره ذلك العلوي فيمن أتاه من الناس، فأظهر له ابن إسحاق أمام الحاضرين من التبجيل والإحترام ما أبهره وعجب منه الحاضرون.

فسأله العلوي عن هذا الحال الغريب مع ما شاهده منه من ذي قبل، فذكر له ما جرى من الإمام العسكري عليه السلام معه. فبكى العلوي وتاب عمّا كان عليه وصار من المتورّعين المتّخذين أقوال آبائه الهداة طريقاً مهيعاً في كلّ أعماله حتّى فاجأه الموت ودفن بقم قريباً من مشهد السيّدة الطاهرة فاطمة بنت الإمام الكاظم عليهما السلام. عن فضائل السادات (ص ٣٦٢) عن تاريخ قم.

[قصة الوزير الجراح وابن موسى بن جعفر]:

٣ ـ حدّث الوزير عليّ بن عيسى بن داود الجرّاح: أنّ علوياً من أولاد موسى بن جعفر عليهما السلام كان يأتيه في شهر رمضان فيعطيه خمسة آلاف درهماً مؤونة له ولعياله، وهذه حاله مع العلويين في هذا الشهر المبارك، فاتّفق أنّه رأى ذلك العلوي في الشتاء سكراناً، فندم على ما كان منه معه وعزم على حرمانه، ولمّا دخل شهر رمضان أتاه العلوي على عادته فزجره ومنعه، وفي تلك الليلة رأى الوزير النبي صلى الله عليه وآله مقبلاً على الناس وقد أعرض عنه، فقال للنبي صلى الله عليه وآله: أتعرض عنّي مع إحساني لأولادك وبرّي بهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّك قطعت جائزتك عن ولدي فلان»، فأخبره بأنّه لم يقطع عنه الجائزة إلاّ لأجل أن يقلع عن الآثام، فأجابه النبي صلى الله عليه وآله: «إنّك أكرمته لأجله أو لأجلي؟» قال: لأجلك يا رسول الله، فقال النبي: «هلاّ سترت عليه لأجلي؟» قال الوزير: حبّاً وكرامة.

ولمّا أصبح حمل إلى العلوي عشرة آلاف درهماً وطيّب خاطره وقال: إن أعوزك شيء عرّفني. فأبى العلوي أن يأخذ المال حتّى يعرف السبب الذي دعاه إلى هذا مع ما صنعه بالأمس، فقصّ عليه رؤيا النبي صلى الله عليه وآله، فعندها بكى العلوي وتاب إلى الله تعالى ممّا كان عليه وقال: إنّي لا أعود إلى شيء من ذلك ولا أحوج جدّي رسول الله أن يحاجّك من جهتي. عن دار السلام للنوري (ج ١ ص ١٥٩).

فرسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة الهداة عليهم السلام مقيّضون لتنبيه الأمّة من رقدة الجهل وإنارة سبيل الهدى لهم أحياءاً وأمواتاً، وهذا لطف من المولى سبحانه على هذه الأمّة ومنّة عليهم بإنقاذهم من مخالب الضلال، فشرع الطرق الموصلة إلى القرب منه جلّ شأنه، ولم يخصّها بأقوال المعصومين وأفعالهم الصادرة منهم حال الحياة؛ بل أفاض عليهم عطفه

وحنانه بإراءة تلك الأمثال القدسية في حال النوم مع شواهد تصدّق ذلك (الحلم) ليفوزوا بالرضوان الأكبر.

[قصة ابن عنين الشاعر مع العلويين]:

٤ ـ وكان لابن عنين الشاعر ـ قال ابن كثير في البداية (ج ١٣ ص ١٣٧): هو أبو المحاسن محمّد بن نصر الدين ـ أمر عجيب مع العلويين، فإنّه لمّا توجّه إلى مكّة ومعه مال وأقمشة، خرج عليه بعض بني داود بن الحسن فأخذوا ما كان معه وسلبوه وجرحوه، فكتب إلى الملك العزيز ابن أيّوب صاحب اليمن، وكان أخوه الملك الناصر أرسل إليه يطلب منه أن يقيم بالساحل المفتتح من أيدي الإفرنج، فزهده ابن عنين في الساحل وحرّضه على الأشراف الذين فعلوا به ما فعلوا، وأوّل القصيدة:

أعيت صفات نداك المصقع اللسنا ... وجدت بالجود حدّ الحسن والحسنا

وما تريد بجسم لا حياة له ... من خلّص الزبد ما أبقى لك اللبنا

ولا تقل ساحل الإفرنج أفتحه ... فما يساوي إذا قايسته (عدنا)

وإن أردت جهاداً فارو سيفك من ... قوم أضاعوا فروض الله والسننا

طهّر بسيفك بيت الله من دنس ... ومن خساسة أقوام به وفنا

ولا تقل أنّهم أولاد فاطمة ... لو أدركوا آل حرب حاربوا الحسنا

فلمّا قال هذه القصيدة رأى في النوم فاطمة الزهراء عليها السلام تطوف بالبيت وهي معرضة عنه، فتضرّع إليها وسألها عن ذنبه؟ فأنشأت عليها السلام:

حاشا بني فاطمة كلّهم ... من خسّة تعرض أو من فنا

وإنّما الأيّام في غدرها ... وفعلها السوء أساءت بنا

لـئن أسـا مـن ولـدي واحـد ... وجّهـت كـلّ السـبّ عمـداً لنـا

وأكـرم بعـين المصـطفى جـدّهم ... ولا تهـن مـن آلـه أعينـا

فتـب إلـى الله فمـن يقتـرف ... إثمـاً فـلا يـأمن ممـا جنـى

فكـلّ مـا نالـك منهـم عنّـاً ... تلـقى بـه فـي الحشـر منّـا هنـا

وانتبـه أبـو المحاسـن يحفـظ هـذه الأبيـات، وقـد عافـاه الله تعـالى مـن المرض، فخرق تلك القصيدة وقال:

عـذراً إلـى بنـت نبـي الهـدى ... تصـفح عـن ذنـب مسـيء جنـى

وتوبـة تقبلهـا مـن أخـي ... مقالـة توقعـه فـي العنـا

والله لـو قطّعنـي واحـد ... مـنهم بسـيف البغـي أو بالقنـا

لـم أر مـا يفعلـه سيّئـاً ... بـل أره فـي الفعـل قـد أحسنـا

قال في عمدة الطالب (ص ١١٩/ ط نجف): اختصرت ألفاظ هذه القصيدة وهي مشهورة مذكورة في ديوان ابن عنين، ورواها الشيخ تاج الدين أبو عبد الله محمّد بن معية الحسني، وجدّي لأمّي الشيخ فخر الدين محمّد بن الفاضل السعيد زين الدين حسين بن حديد الأسدي، كلاهما عن السيّد السعيد بهاء الدين داود بن أبي الفتوح عن أبي المحاسن نصر الله بن عنين صاحب الواقعة، وقد ذكرها البادراوي في كتاب (الدرّ النظيم) وغيره من المصنّفين، وذكرها الزبيدي في تاج العروس (ج ٩ ص ٢٨٥) مادّة (عون).

ديوان الشعر:

من قصيدة للناشي (الصغير) الأصغر البغدادي، أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن الوصيف الناشي المتوفّى (٣٦٥هـ):

بـآل محمّـد عـرف الصـواب ... وفـي أبيـاتهم نـزل الكتـابُ

هـم الكلمـات والأسـماء لاحـت ... لآدم حـين عـزّ لـه المتـابُ

وهـم حجـج الإلـه على البرايـا ... بهـم وبحكمهـم لا يسـترابُ

بقيّـة ذي العُـلا وفـروع أصـل ... بحسن بيـانهم وضـح الخطـابُ

وأنـوار تـرى فـي كـلّ عصـر ... لإرشـاد الـورى فهـم شـهابُ

ذراري أحمـد وبنـو علـيّ ... خليفتـه فهـم لـبٌّ لبـابُ

تنـاهوا فـي نهايـة كـلّ مجـد ... فطهّـر خلقهـم وزكـوا وطـابوا

إذا مـا أعـوز الطـلاب علـم ... ولـم يوجـد فعنـدهم يصـابُ

محبّـتهم صـراط مسـتقيم ... ولكـن فـي مسـالكه عقـابُ

ولا سـيّما أبـو حسـن علـيّ ... لـه فـي الحـرب مرتبـة تهـابُ

كـأنّ سـنان ذابلـه ضـمير ... فلـيس عـن القلـوب لـه ذهـابُ

وصـارمه كبيعتـه بخـمّ ... معاقـدها مـن القـوم الرقـابُ

علـيّ الـدرّ والـذهب المصـفّى ... وبـاقي النـاس كلّهـم تـرابُ

إذا لـم تبـر مـن أعـدا علـيّ ... فمـا لـك فـي محبّتـه ثـوابُ

إذا نـادت صـوارمه نفوسـا ... فلـيس لهـا سـوى نعمٌ جـوابُ

فبـين سـنانه والـدرع سـلم ... وبـين البـيض والبـيض اصـطحابُ

هـو البكّـاء فـي المحـراب لـيلاً ... هـو الضـحّاكُ إن جـدّ الضـرابُ

ومـن فـي خفّـه طـرح الأعـادي ... حبابـاً كـي يلسـبه الحبـابُ

فحـين أراد لـبس الخـفّ وافـى ... يمانعـه عـن الخـفّ الغـرابُ

وطار به فأكفأه وفيه حباب في الصعيد له انسيابُ
ومن ناجاه ثعبان عظيم بباب الطهر ألقته السحابُ
رآه الناس فانجفلوا برعب وأُغلقت المسالك والرحابُ
فكلّمه علي مستطيلا وأقبل لا يخاف ولا يهابُ
ودنّ لحاجر وانساب فيه وقال وقد تغيّبه الترابُ
أنا ملك مُسخت وأنت مولى دعاؤك إن مننت به يجابُ
أتيتك تائباً فاشفع إلى من إليه في مهاجرتي الإيابُ
فأقبل داعياً وأتى أخوه يؤمّن والدموع لها انسكابُ
فلمّا أن أُجيبا ظلّ يعلو كما يعلو لدى الجدّ العقابُ
وأنبت ريش طاوس عليه جواهر زانها التبر المذابُ
يقول لقد نجوت بأهل بيت بهم يصلى لظى وبهم يثابُ
هم النبأ العظيم وفلك نوح وباب الله وانقطع الخطابُ[1]

وله أيضاً:

يا آل ياسين من يحبّكم بغير شكّ لنفسه نصحا
أنتم رشاد من الضلال كما كلّ فساد بحبّكم صلحا
وكلّ مستحسن لغيركم إن قيس يوماً بفضلكم قبحا
ما محيت آية النهار لنا وآية الليل ذو الجلال محا
وكيف تمحى أنوار رشدكم وأنتم في دجى الظلام ضحى

---

(١) أنظر الغدير للأميني ٤: ٢٥.

أبــــوكم أحمـــــد وصـــاحبه الممنـوح مــن علـم ربّـه منحـا
ذاك علـــيّ الـــذي تفـــرّده فــي يـوم خـم بفضـله اتّضــحا
إذ قــال بـين الـورى وقـام بـه معتضــداً فــي القيـام مكتشــحا
مــن كنـت مـولاه فالوصـي لـه مـولى بـوحي مـن الإلـه وحـا
فبخبخـــوا ثــمّ بـايعوه ومـــن يبـــايع الله مخلصـــاً ربحــا
ذاك علـــيّ الـــذي يقـــول لـــه جبريـل يـوم النـزال ممتـدحا
لا سـيف إلاّ سـيف الوصـي ولا فتــى ســواه إن حــادث فـدحا
لـو وزنـوا ضـربه لعمـرو وأعمـال البرايــا لضـــربه رجحـــا
ذاك علـي الـذي تراجـع عـن فــتح ســواه وســار فافتتحـا
فـي يـوم حـضّ اليهـود حـين أ قل الباب من حصنهم وحين دحا
لـم يشـهد المسـلمون قـطّ رحـى حـرب وألفـوا سـواه قطـب رحـى
صلّــى علــيه الإلـــه تزكيـــة ووفّــق العبــد ينشــئ المدحــا

* * *

وقال العبدي أبو محمّد سفيان بن مصعب العبدي الكوفي:

محمّـــــد وصـــــنوه وابنتـــــه وابنيـه خيـر مـن تحفّـى واحتـذا
صـلّى علـيهم ربّنـا بـاري الـورى ومنشـئ الخلـق علـى وجـه الثـرى
صــــفاهم الله تعـــالى وارتضــى وإختــارهم مــن الأنــام واجتبـى
لـــولاهم الله مـــا رفـــع الســـما ولا دحـى الأرض ولا أنشـأ الـورى
لا يقبـــل الله لعبــــد عمــــلا حتّــى يـواليهم بـإخلاص الـولا

ولا تـتمّ لامـرء صـلاته ... إلاّ بـذكراهم ولا يزكـو الـدعا

لو لم يكونوا خير من وطئ الحصا ... ما نال جبريل بهم تحت العبا

هل أنا منكم شرفاً ثمّ علا ... يفاخر الأملاك إذ قالوا بلى

لو أنّ عبداً لقي الله بأعما ... ل جميع الخلق برّاً وتقى

ولم يكن والى عليّاً حبطت ... أعماله وكبّ في نار لظى

وإنّ جبريل الأمين قال لي ... عن ملكيه الكاتبين مذ دنا

إنّهما ما كتبوا قطّ على ... الطهر عليّ زلّة ولا خنا[1]

وقال في قصيدة أُخرى مطلعها:

أيا ربع هل فيك لي اليوم مربع ... وهل لليال كنّ لي فيك مرجع

إلى أن يقول فيها متخلّصاً في أهل البيت عليهم السلام:

وأنتم ولاة الحشر والنشر والجزا ... وأنتم ليوم المفزع الهول مفزع

وأنتم على الأعراف وهي كتائب ... من المسك ريّاها بكم يتضوّع

ثمانية بالعرش إذ يحملونه ... ومن بعدهم في الأرض هادون أربع[2]

ومن شعره في مدحهم:

لأنتم على الأعراف أعرف عارف ... بسيما الذي يهواكم والذي يشنا

أئمّتنا أنتم سندعى بكم غداً ... إذا ما إلى ربّ العباد معاً قمنا

بجدّكم خير الورى وأبيكم ... هدينا إلى سبل النجاة وأنقذنا

ولولاكم لم يخلق الله خلقه ... ولا لقبّ الدنيا الغرور ولا كنّا

---

(١) الغدير للأميني ٢: ٢٩٨.

(٢) مقتضب الأثر: ٤٩.

ومن أجلكم أنشأ الإله لخلقه سماءاً وأرضاً وابتلى الإنس والجنّا
تجلون عن شبه من الناس كلّهم فشأنكم أعلى وقدركم أسنا
إذا مسّنا ضرّ دعونا إلهنا بموضعكم منه فيكشفه عنّا
وإن دهمتنا غمّة أو ملّمة جعلناكم منها ومن غيرنا حصنا
وإن ضامنا دهر فعذنا بعزّكم فيبعد عنّا الضيم لمّا بكم عذنا
وإن عارضتنا خفية من ذنوبنا براة لنا منها شفاعتكم أمنا[1]

ويقول الشيخ صالح العرندس الحلّي في مدح أهل البيت في قصيدة مطلعها:

طوايا نظامي في الزمان لها نشر يعطّرها من طيب ذكركم نشر

إلى أن يتخلّص في مديحهم عليهم السلام بقوله:

هم النور نور الله جلّ جلاله هم التين والزيتون والشفع والوتر
مهابط وحي الله خزّان علمه ميامين في أبياتهم نزل الذكر
فلولا هم لم يخلق الله آدماً ولا كان زيد في الوجود ولا عمرو
ولا سطحت أرض ولا رفعت سماً ولا طلعت شمس ولا أشرق البدر
وأسماؤهم مكتوبة فوق عرشه ومكنونة من قبل أن يخلق الذرّ
ونوح بهم في الفلك لمّا دعا نجا وغيض به طوفانه وقضى الأمر
ولولاهم نار الخليل لما غدت سلاماً وبرداً وانطفى ذلك الجمر
ولولاهم يعقوب ما زال حزنه ولا كان عن أيّوب قد كشف الضرّ

---

(١) الغدير للأميني ٢: ٣٢٤.

ولانَ لـداود الحديـد بسـرّهم — فقـدر فـي سـرد يحير بها الفكـر
ولمّـا سـليمان البسـاط بهـم دعـى — أُسيلت لـه عـين يفيض بها القطـر
وسـخّرت الـريح الرخـاء بـأمره — فغـدوتها شـهر وروحتهـا شـهر
وهم سرّ موسى في العصا عندما عصى — أوامـره فرعـون وانـتقض السـحر
ولـولا هـم مـا كـان عيسى بـن مـريم — لإحيـاء مـن طـيّ اللحـود لهـا نشـر
سـرى سـرّهم فـي الكائنات وفضلهم — فكـلّ نبـي فيـه مـن سـرّهـم سـرّ[١]

الكميت بن زيد الأسدي ومديحه لأهل البيت عليهم السلام:

روى أبو الفرج في الأغاني (ج ١٥ ص١٢٤) بإسناده عن محمّد بن عليّ النوفلي، قال: سمعت أبي يقول: لمّا قال الكميت بن زيد الشعر، كان أوّل ما قال (الهاشميات)، فسترها ثمّ أتى الفرزدق بن غالب فقال له: يا أبا فراس، إنّك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي، قال له: صدقت أنت ابن أخي فما حاجتك؟ قال: نفث على لساني فقلت شعراً، فأحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره؟ فقال له الفرزدق: أمّا عقلك فحسن، وإنّي لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ما قلت، فأنشده:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب.

قال: فقال لي: فيم تطرب يا بن أخي؟ فقال:

ولا لعباً منّي وذو الشيب يلعب.

---

(١) الغدير للأميني ٧: ١٤، والقصيدة لابن العرندس الحلي أحد أعلام الشيعة. ومن مؤلفي علمائها في الفقه والأصول، توفي حدود (٨٤٠هـ).

فقال: بلى يا بن أخي، فالعب فإنّك في أوان اللعب، فقال:

ولم يلهني دار ولا رسم منزل ... ولم يتطرّبني بنان مخضّب

فقال: ما يطربك يا بن أخي؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشيّة ... أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب

فقال: أجل لا تتطيّر، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بني حوّاء والخير يطلب

فقال: ومن هؤلاء ويحك؟ فقال:

إلى النفر البيض الذين بحبّهم ... إلى الله فيما نابني أتقرّب

فقال: أرحني ويحك من هؤلاء؟ قال:

بني هاشم رهط النبي فإنّني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

خفضت لهم منّي جناحي مودّة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... محبّاً على أنّي أذمّ وأغضب

وأرمى وأرمي بالعداوة أهلها ... وإنّي لأوذى فيهم وأؤنّب

فقال له الفرزدق: يابن أخي، أذع ثمّ أذع، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى... الخ.

رواه المسعودي في مروج الذهب (ج ٢ ص١٩٤)، والعبّاسي في المعاهد (ج ٢/ ص٢٦)، والأميني في الغدير (ج ٢ ص ١٦٧ ط النجف).

وله أيضاً في مديحهم عليهم السلام:

مَن لقلب متيّم مستهام ... غير ما صبوة ولا أحلام

طارقات ولا ادّكار غوان ... واضحات الخدود كالآرام

بل هواي الذي أجنّ وأبدي ... لبني هاشم فروع الأنام
للقريبين من ندىً والبعيدين ... من الجور في عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ الناس ... ومرسي قواعد الإسلام
والحماة الكفاة في الحرب إن ... لفّ ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا ... س فمأوى حواضن الأيتام
والولاة الكفاة للأمر إن طر ... ق يتنأ بمجهض أو تمام
والأساة الشفاة للداء ذي ... الريبة والمدركين بالأوغام
والروايا التي بها يحمل الناس ... وسوق المطبعات العِظام
والبحور التي بها تكشف الحرّة ... والداء من غليل الأوام
لكثيرين طيّبين من الناس ... وبرين صادقين كرام
واضحي أوجهٍ كرام جدود ... واسطي نسبةٍ لهام لِهام[1]

إلى آخر القصيدة وهي طويلة.

وله أيضاً في مديحهم عليهم السلام:

ألا يفزع الأقوام ممّا أظلّهم ... ولمّا تجبهم ذات ودقين ضئيلُ
إلى مفزع لن ينجي الناس من عمىً ... ولا فتنة إلاّ إليه التحولُ
إلى الهاشميين البهاليل إنّهم ... لخائفنا الراجي ملاذ وموئلُ
إلى أيّ عدل أم لأيّة سيرةٍ ... سواهم يؤمّ الظاعنُ المترحلُ
وفيهم نجوم الناس والمهتدى بهم ... إذا الليل أمسى وهو بالناس أليلُ

---

(١) الهاشميات والعلويات: قصائد الكميت وابن أبي الحديد/ ٨.

إذا استحكمت ظلماء أمر نجومها ... غوامض لا يسري بها الناس أفِلُ
وإن نزلت بالناس عمياء لم يكن ... لهم بصرٌ إلاّ بهم حين تشكلُ
فإنّهم للناس فيما ينوبهم ... غيوث حياً ينفي به المحلّ ممُحلُ
وإنّهم للناس فيما ينوبهم ... أكفٌ ندى تجدي عليهم وتُفضّلُ
وإنّهم للناس فيما ينوبهم ... عُرى ثقةٍ حيث استقلّوا وحلّوا
وإنّهم للناس فيما ينوبهم ... مصابيح تهدي من ضلال ومنزلُ
لأهل العمى فيهم شفاء من العمى ... مع النصح لو أنّ النصيحة تقبلُ[1]

ولنقف عند هذا الحدّ في ذكر ما ورد من مديحهم، وإلاّ فما أتصوّر أنّ أحداً في إستطاعته وقدرته أن يجمع ما قيل في مديحهم منذ عصرهم حتّى عصرنا هذا وهو عصر سنة (١٤٠٦هـ).

وقال ابن أبي الحديد فيهم عليهم السلام:

بني الوحي هل أبقى الكتاب لناظم ... مقالة مدح فيكم أو لناثر
إذا كان مولى الشاعرين وربّهم ... لكم بانياً مجداً فما قدر شاعر
فأقسم لولا أنّكم سبل الهدى ... لظلّ الورى عن لاحب النهج ظاهر
ولو لم تكونوا في البسيطة زلزلت ... وأُخرب من أرجائها كلّ عامر
سأمنحكم منّي مودّة وامق ... يغضّ قليٌ عن غيركم طرف هاجر[2]

وما أحسن ما قاله العلاّمة الحفظي في أُرجوزته مندّداً على من والى معاوية ونزّهه عن القبائح الفظيعة والجرائم التي لا تصدر إلاّ منه،

---

(١) الهاشميات والعلويات: قصائد الكميت وابن أبي الحديد/ ٦١ - ٧١.

(٢) الهاشميات والعلويات: ١٣٢.

ثمّ تخلّص إلى مدح أهل البيت عليهم السلام والرجوع إليهم في كلّ الوسائل، كما ورد في النصائح الكافية. قال:

وإنّما الإنصاف ما قد قرّره ... أئمّة الذكر وأهل التذكره
أن نعبد الله بما أنزله ... وسُنّة الهادي الذي أرسله
وإنّ أهل البيت والقرآن لن ... يفترقا إلى ورود الحوض من
ولن نضلّ في الذي سلكنا ... إذا بكلّ منهما استمسكنا
على العموم لم يخصّ مذهبا ... عن مذهب أو أهل قطر اجتبى
ولم تكن طائفة منهم أحقّ ... من غيرهم على الصحيح المتّفق
ولم يقل فلاناً أو فلانا ... إلاّ الذي قد قارن القرآنا
وإنّ من نعمة ربّي الكبرى ... على جميع العالمين طرا
إنّهم تفرّقوا وانتشروا ... في كلّ إقليم وقطر فطروا
وملأوا الأنجاد والأغوارا ... وصيتهم بين العباد طارا
وكلّ من في بلد فمذهبه ... أصلاً وفرعاً معم ومشربه
أئمّة الدليل والمدلول ... وسادة الفروع والأُصول
وفي الترقي طبقاً عن طبق ... شهادة بالإجتهاد المطلق
إذ فسّروا أو للحديث شرحوا ... قالوا لمن قد قلّدوا تفسّحوا
لم يجمعوا إلاّ على ما علما ... من ديننا ضرورة فسلّما
أو يتواصوا كلّهم بمذهب ... معيّن إلاّ الكتاب والنبي
لا في مهمّات الأصول فاعلم ... ولا الفروع النادرات فافهم

والكـل مـنهم قائـل بأنـه | متّبع في كل ما قد ظنّه
ومقتف آثار قوم قدما | من أهله سفن النجاة العظما
أعني عليّاً والحسين والحسن | والشيخ زين العابدين المؤتمن
وباقر أو الحسن المثنّى | والمحض والصادق من يكنّى
ولم يكن لهؤلاء الكبرا | مذاهباً كما ترى وما جرى
ما ذهبوا إلاّ على تنزيله | وظاهر الحديث لا تأويله
وهكذا إلى الأخير فاحسب | الراسخون في مقامات النبي
هم الذين أورثوا الكتابا | والتحقت أبناؤهم بالآبا

وللإمام الشافعي محمّد بن إدريس، في فضل أهل البيت على ما ورد في (النصائح الكافية)[1] في شرح القصيدة العينية للعمري والشارح لها محمود الآلوسي:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم | فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم | من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

وقال أيضاً:

قالوا ترفّضت قلت كلاّ | ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن تولّيت دون شكّ | خير إمام وخير هادي
إن كان حبّ الوصي رفضاً | فإنّني أرفض العباد

وقال أيضاً:

يا راكباً قف بالمحصّب من منى | واهتف بقاعد خيفها والناهض

---

(١) ص ٢٢٤.

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حبّ آل محمّد فليشهد الثقلان إنّي رافضي

وقال أيضاً:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أُعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي

وله أيضاً:

إذا كان ذنبي حبّ آل محمّد فذلك ذنب لست عنه أتوب

وله أيضاً كما في شرح قصيدة العمري (ص ١٣٩) تأليف محمود الآلوسي:

إلامَ ألام وحتّى متى أعاتب في حبّ هذا الفتى

فهل غيره زوّجت فاطم وفي غيره هل أتى هل أتى

وله أيضاً في (ص ١٤٠):

إذا فتّشوا قلبي أصابوا به سطرين قد خطّا بلا كاتب

العدل والتوحيد في جانب وحبّ أهل البيت في جانب

وفي شرح القصيدة أيضاً (ص ١٣٩):

قال ابن فضلون اليهودي فيما قيل والعهدة على القائل:

عليّ أمير المؤمنين وقدره من الفلك الأعلى أجل وأرفع

له النسب العالي وإسلامه الذي تقدّم بل فيه الفضائل أجمع

ولو كنت أهوى ملّة غير ملّتي لما كنت إلاّ مسلماً أتشيّع

وله أيضاً:

ربّ هبْ لي من المعيشة سؤلي | واعف عنّي بحقّ آل الرسولِ
واسقني شربة بكفّ عليّ | سيّد الأولياء بعل البتولِ

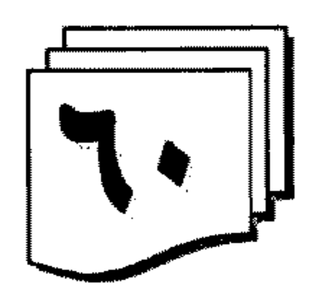
وقال ذنين بن إسحاق النصراني:

عدي وتيم لا أُحاول ذكرهم | بسوء ولكنّي محبّ لهاشم
وما تعتريني في عليّ وأهله | إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبّهم | وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم انّي لأحسب حبّهم | سرى في قلوب الخلق حتّى البهائم

قال الآلوسي: ولله درّ الشيخ فريد الدين محمّد النيسابوري المعروف بالعطّار حيث يقول:

فلا تعدل بأهل البيت خلقاً | فأهل البيت هم أهل السعاده
فبغضهم من الإيمان خسر | حقيقي وحبّهم عباده

* * *



قوله عليه السلام:

مَـنْ قَصَّـرَ فِـي الْعَمَـل ابْتُلِـيَ بِالْهَمِّ.

(نهج البلاغة ٤: ٣٠)



[الإخلاص في العمل والعبادة]

قال ابن أبي الحديد:

هذا مخصوص بأصحاب اليقين والإعتقاد الصحيح، فإنّهم الذين إذا قصّروا في العمل إبتلوا بالهمّ، فأمّا غيرهم من المسرفين على أنفسهم وذوي النقص في اليقين والإعتقاد، فإنّهم لا همّ يعروهم وإن قصّروا في العمل، وهذه الكلمة قد جربناها من أنفسنا فوجدنا مصداقها واضحاً، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخلّ بفريضة الظهر مثلاً حتّى تغيب الشمس، وإن كان أخلّ بها لعذر وجد ثقلاً في نفسه وكسلاً وقلّة نشاط، وكأنّه مشكول بشكال أو مقيّد بقيد حتّى يقضي تلك الفريضة، فكأنّما أنشط من عقال».[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

المقصّر في العمل لله يكون غالب أحواله متوفّراً على الدنيا مفرطاً في طلبها وجمعها، وبقدر التوفّر عليها يكون شدّة الهمّ في جمعها وتحصيلها أوّلاً، ثمّ في ضبطها والخوف على فواتها ثانياً، وفي المشهور «خذ من الدنيا ما شئت ومن الهمّ ضعفه»، فنفّر عليه السلام عن التقصير في الأعمال البدنية.[2]

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٣٠٣.

(٢) شرح نهج البلاغة/ابن ميثم ٥: ٣١٠.

قال الشيخ ابن مغنية:

قد يصاب المرء بصحّته أو ماله وأهله قضاءاً وقدراً، فإذا صبر وإحتسب ضاعف الله له الأجر والعوض، وهان عليه ما حلّ به، أمّا من تنزل به نازلة من تقصيره وصنع يده فهو مهموم ومذموم عند الله والناس حتّى ولو صبر، لأنّه هو الذي أساء إلى نفسه، وأوقعها في الهمّ والغمّ بسوء إختياره وإرادته.. وقد عرفت أفراداً يأنفون من بعض الأعمال؛ لأنّها لا تليق بالذوات والشخصيات، ولكنّهم لا يأنفون من العيش عبثاً على الآخرين، محمولين غير حاملين حتّى أنفسهم.[1]

* * *

وممّا ورد في (منهاج البراعة):[2]

اللام في قوله عليه السلام: «في العمل» يحتمل وجهين:

١ ـ لام الجنس، فالمقصود أنّ التقصير في كلّ عمل للدنيا أو الآخرة موجب للهمّ بالنسبة إليه؛ لأنّ التقصير سبب لإختلال العمل ونقصانه، فلا يحصل منه الغرض المقصود منه، فيورث الهمّ.

٢ ـ لام العهد الخارجي،[3] فيكون المقصود التقصير في العمل الشرعي، وترك أداء الوظيفة الدينية، فالإبتلاء بالهمّ عقوبة مترتبة عليه،

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٩٨.

(٢) ٢١: ٤٥.

(٣) فإن اللام على ثلاثة أقسام. العهد الذكري والذهني والخارجي، للتعريف والجنس. أما مثال الذكري قوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ (المزمل: ١٦) شرح ابن عقيل ١: ١٧٨، أما الذهني أو العلمي قوله: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ (طه: ١٢)، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ (التوبة: ٤٠)، أما الخارجي والحضوري كقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣). (إيضاح المسالك ١: ١٢٧).

فلا ربط له بالجملة التالية، وقد جعلها المعتزلي في شرحه جملة مستقلّة وفصلها من هذه الجملة.

* * *

أقول: لا ريب أنّ صاحب اليقين إذا قصّر في العمل أو تقاعد عنه وتكاسل، يعتريه الهمّ والغمّ وذلك لقوّة يقينه، كما أنّه معلوم لديه أنّ اليقين أقوى أسباب السعادة أو النجاة في الآخرة لا تحصل إلاّ به، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين.

وبديهي أنّ اليقين أشرف الفضائل الخُلُقية وأهمّها، وأفضل الكمالات النفسية.

كتب رجل من العبّاد إلى صديق له: إنّي رأيت الله تبارك وتعالى جعل اليقين بأعظم المواضع في أمر الدنيا والدين، فهو غاية علم العالم وبصر البصير، وفهم السامع، ليس كسائر الأشياء التي تدخلها الشبهات، ويجرحها الأغفال ويشوبها الوهن، وذلك أنّ الله تعالى جعل مغرسه القلب، وأغصانه العمل، وثمرته الثواب، وإنّما جعل القلب لليقين مغرساً؛ لأنّه جعل الخمس الجوالب لعلم الأشياء كلّها إلى القلب، السمع والبصر والمجسّة والمذاقة والإسترواح.

فإذا صارت الأشياء إليه ميّز بينها العقل، ثمّ صارت بأجمعها إلى اليقين، فكان هو المثبت لها والموجّه كلّ واحدة منها جهتها.

* * *

[حقيقة اليقين] :

في المجلّد الأوّل من الخلق الكامل (ص ٢٨١):

اليقين: يقن الأمر وضح، ويقن فلان الأمر علمه وتحقّقه، فاليقين

إزاحة الشكّ، ولا يزاح الشكّ إلاّ بالدليل القطعي الذي لا شبهة فيه، ولذلك قال صاحب المصباح المنير: اليقين، العلم الحاصل عن نظر وإستدلال.

وقال بعض أجلاّء العلماء: اليقين هو إعتقاد أنّ الشيء كذا ـ أي على حالة أو صفة معيّنة ـ مع إعتقاد أنّه لا يكون إلاّ كذا ـ على هذه الحالة أو الصفة المعيّنة ـ إعتقاداً مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال، ولأنّ اليقين عدوّ مبين للشكّ سمّى العلماء الموت يقيناً، قال البيضاوي: اليقين الموت؛ لأنّه متيقّن لحاقه لكلّ مخلوق.

قال الراغب الاصفهاني: اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية واخواتها يقال: علم يقين وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم، وعلم اليقين، وحقّ اليقين، وعين اليقين، وبينها فروق: (علم اليقين يعني علماً كعلم الأمر اليقين، وحقّ اليقين أي حقّ الخبر اليقين، أو الحقّ الثابت من اليقين) وعين اليقين أي الرؤية التي هي نفس اليقين، يعني المشاهدة التي هي أقصى مراتب اليقين، يليها في مراتب اليقين حقّ اليقين، ويلي حقّ اليقين علم اليقين.

ويقال استيقن وأيقن قال تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1] ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[2] ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3] وقوله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[4] أي ما قتلوه قتلاً تيقّنوه؛ بل إنّما حكموا تخميناً ووهماً.

---

(١) الجاثية: ٣٢.

(٢) الذاريات: ٢٠.

(٣) البقرة: ١١٨.

(٤) النساء: ١٥٧.

ولليقين بعد ذلك منزلة يعرف بها حال الضارّ والنافع في العاقبة عند الله تعالى، فلمّا صار اليقين في التشبيه كالشجرة النابتة في القلب، أغصانها العمل، وثمرتها الثواب، أخبر ذلك أنّه قد تكون الشجرة نابتة الأصل بلا أغصان، كما قد يكون اليقين نابتاً بلا عمل، وأنّه كما لا تكون الأغصان نابتة بلا أصل، فكذلك لا يكون العمل نافعاً إلاّ بيقين، وكما أنّه لا تخلف الثمرة في الطيب والكثرة إذا كان الأصل نابتاً والأغصان ملتفة، فكذلك يكون الثواب لمن صحّ يقينه وحسن عمله.

وقد تعرض للأعمال عوارض من العلل: منهنّ الأمل المثبّط، والنفس الأمّارة بالسوء، والهوى المزيّن للباطل، والشيطان الجاري من ابن آدم مجرى الدم، يضرّون بالعمل والثواب ولا يبلغ ضررهنّ اليقين، فيكون ذلك كبعض ما يعرض للشجرة من عوارض الآفات، فتذوى أغصانها، وتنثر ورقها، وتمنع ثمرتها، والأصل ثابت، فإذا تجلّت الآفة عادت إلى صلاحها.

فماذا يعجبك من عمل امرئ لا يشبه يقينه، وأنّ يقينه لا يرتبط رجاءه وخوفه على ربّه؟ إنّما العجب من خلاف ذلك! ولعمري لو أشبه عمل امرئ يقينه، فكان في خوفه ورجائه كالمعاين لما يعاينه بقلبه من الوقوف بين يدي الله، والنظر إلى ما وعد وأوعد، لكان ما يعتلج على قلبه من خطرات الخوف شاغلا له عن الرجاء، حتّى يأتي على نفسه أوّل لحظة ينظر بها إلى النار خوفاً لها، أو إلى الجنّة أسفاً عليها إذا حرمها، وإذن لكان الموقن بالبعث بقلبه كالمعاين له يوم القيامة، وكيف يستطيع من كان لذلك أن يعقل فضلا عن أن يعمل!

وأمّا قولك: كيف لم يكن خائف الآخرة لربّه كخائف الدنيا لسلطانه. فإنّ الله ﷻ خلق الإنسان ضعيفاً وجعله عجولاً: فهو لضعفه

موكّل يخوف الأقرب فالأقرب ممّا يكره، وهو بعجلته موكّل بحبّ الأعجل فالأعجل ممّا يشتهي. وزاده حرصاً على المخلص من المكروه وطلباً للمحبوب، حاجته إلى الإستمتاع بمتاع الدنيا الذي لو لا ما طبع عليه القلب من حبّه، وسهل على المخلوق من طلبه، ما إنتفع بالدنيا منتفع، ولا عاش فيها عائش، ومع ذلك، إنّ مكاره الدنيا ومحابها عند ابن آدم على وجهين: أمّا المكروه فيقول فيه: عسى أن أكون رزقته بحسنة كانت منّي، فهو ثواب عجل. وهو مع هذا يعلم أنّ حلول المخلوقين إلى الضيق، وأنّ قلوب أكثر مسلّطيهم إلى القسوة، وأنّ العيب عنهم مستور، فليس يلتمس ملتمسهم إلاّ علم الظاهر، ولا يلتفت من امرئ إلى صلاح سريرته دون صلاح علانيته.

ومن طباع الإنسان اللؤم: فليس يرضى إذا خيف إلاّ بأن يدلّ، ولا إذا رجي إلاّ بأن يتعب، ولا إذا غضب إلاّ بأن يخضع له، ولا إذا أمر بأن ينفذ أمره، ولا ينتفع المتشفّع بإحسانه عنده إذا أساء، ولا المطيع بكثرة طاعته في المعصية الواحدة إذا عصى، ولا يرى الثواب لازماً له ولا العقاب محجوراً عليه: فإن عاقب لم يستبق، وإن غضب لم يتثبّت، وإن أساء لم يعتذر، وإن أذنب إليه مذنب لم يغفر، واللطيف الخبير يعلم السريرة فيغفر بها العلانية، ويمحو بالحسنة عشراً من السيّئات، ويصفح بتوبة الساعة عن ذنوب مائة عام، إن دعي أجاب، وإن استغفر غفر، وإن أُطيع شكر، وإن عصي عفا، ومن وراء عبده بعد هذا كلّه ثلاث: رحمته التي وسعت كلّ شيء، وشهادة الحقّ التي لا يزكو عمل إلاّ بها، وشفاعة النبي ﷺ، وهذا كلّه مثبت لليقين، باسط للأمل، مثبّط عن العمل، إلاّ ما شاء الله، وقليل ما هم، فلا تحمل نطف عملك على صحّة يقينك، فتوهن

إيمانك، ولا ترخص لنفسك في مقارفة الذنوب، فيكون يقينك خصماً لك وحجّة عليك، وكذّب أملك، وجاهد شهوتك، فإنّهما داءاك المخوفان على دينك، وأسأل الله الغنيمة لنا ولك.

الرابطة بين الاعتقاد واليقين:

علمنا ممّا تقدّم أنّ الإعتقاد بشيء هو تصديقه وعقد القلب والضمير عليه، ويجوز، أن يكون ذلك التصديق وهذا العقد على حقّ، كما يجوز أن يكون على باطل لابس لباس الحقّ، وأمّا اليقين فهو إعتقاد الشيء على حالته إعتقاداً مطابقاً للحقيقة والواقع، غير ممكن الزوال، إذن اليقين إعتقاد بحقّ، أو إعتقاد حقّ فقط، فكلّ يقين إعتقاد وليس كلّ إعتقاد يقيناً؛ لأنّ الإعتقاد قد يكون في الحقيقة وقد يزايلها ويزيغ عنها، وأمّا اليقين فهو عين الحقيقة، والله ورسوله أعلم.

* * *

وممّا ورد في المجلّد الأوّل من (إرشاد القلوب)[1] للديلمي:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2] فمدح الموقنين بالآخرة، يعني المطمئنين بما وعد الله فيها من ثواب وتوعّد من عقاب، كأنّهم قد شاهدوا ذلك، كما روي أنّ سعد بن معاذ دخل على رسول الله فقال له صلى الله عليه وآله: «كيف أصبحت يا سعد؟» فقال: بخير يا رسول الله، أصبحت بالله موقناً، فقال: «يا سعد إنّ لكلّ قول حقيقة فما مصداق ما تقول؟» فقال: يا رسول الله ما أصبحت فظننت أنّي

(١) ص ٩٦.

(٢) البقرة: ٤.

أمسي، ولا أمسيت فظننت أنّي أصبح، ولا مددت خطوة فظننت أنّي أتبعها بأخرى، وكأنّي بكل أمّة جاثية، وبكلّ أمّة معها كتابها ونبيّها وإمامها تدعى إلى حسابها، وكأنّي بأهل الجنّة وهم يتنعّمون، وبأهل النار وهم معذّبون، فقال له رسول الله ﷺ: «يا سعد عرفت فالزم».

فلمّا صحّ يقينه كالمشاهدة أمره باللزوم، واليقين هو مطالعة أحوال الآخرة على سبيل المشاهدة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما إزددت يقيناً»،[1] فدلّ على أنّه يشاهد الآخرة مع الغيب عنها.

وقال عليه السلام: «ما من أحد منكم إلاّ وقد عاين الجنّة والنار» إن كنتم تصدّقون بالقرآن، وصدق عليه السلام لأنّ اليقين بالقرآن يقين بكلّ ما تضمّنه من وعد ووعيد، وهو أيضاً في قلب العارف كالعلم البديهي الذي لا يندفع، ولأجل هذا منعنا من أنّ المؤمن يكفر بعد المعرفة والإيمان، فإنّ عارض أحد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾[2] قلنا: آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، كما قال الله [تعالى]: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3] فالإسلام نطق باللسان والإيمان نطق باللسان وإعتقاد بالقلب، فلمّا علم سبحانه أنّهم لم يعتقدوا ما نطقوا به حقاً نفى عنهم أنّهم مؤمنون.

فأوّل مقامات الإيمان المعرفة، ثمّ اليقين، ثمّ التصديق، ثمّ الإخلاص، ثمّ الشهادة بذلك كلّه، والإيمان اسم لهذه الأمور كلّها، فأوّلها النظر بالفكر في الأدلّة ونتيجته المعرفة، فإذا حصلت المعرفة لزم التصديق، وإذا حصل التصديق والمعرفة لوجد اليقين، فإذا صحّ اليقين

---

(١) غرر الحكم: ٧٥٦٩؛ إرشاد القلوب: ٩٧.

(٢) النساء: ١٣٧.

(٣) الحجرات: ١٤.

جالت أنوار السعادة في القلب بتصديق ما وعد به من رزق في الدنيا وثواب في الآخرة، وخشعت الجوارح من مخافة ما توعّد من العقاب، وقامت بالعمل والزجر عن المحارم وحاسب العقل النفس على التقصير في الذكر والتنبيه على الفكر، فأصبح صاحب هذا الحال، نطقه ذكر، وصمته فكر، ونظره إعتبار، واليقين يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد ينتج النطق بالحكمة، لخلوّ البال من هموم الدنيا، لقوله صلى الله عليه وآله:[1] «من زهد في الدنيا إستراح قلبه وبدنه، ومن رغب فيها تعب قلبه وبدنه فلا يبقى له نظر إلاّ إلى الله ولا رجوع إلاّ إليه، كما مدح الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.[2]

يعني ارجاع إلى الله لا نظر له للدنيا، وعلى قدر يقين العبد يكون إخلاصه وتقواه، وهذه الأحوال الصحيحة توجب لصاحبها حالاً يراها بين اليقظة والنوم، ويحصل باليقين إرتفاع معارضات الوساوس النفسانية؛ لأنّه رؤية العيان بحقائق الإيمان، وهو أيضاً إرتفاع الريب بمشاهدة الغيب، وهو سكون النفس دون جولان الموارد، ومتى إستكمل القلب بحقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء مصيبة، حتّى أنّه يستعذب البلاء ويستوحش لمطالعة العافية.

علامات صاحب اليقين:

قال النراقي في (المجلّد الأوّل)[3] من جامع السعادات:

إنّ لصاحب اليقين علامات:

---

(١) إرشاد القلوب: ٩٧.

(٢) هود: ٧٥.

(٣) ص ١٥٤.

(منها): ألاّ يلتفت في أُموره إلى غير الله سبحانه، ولا يكون إتّكاله في مقاصده إلاّ عليه، ولا ثقته في أُموره إلاّ به، فيتبرّأ عن كلّ حول وقوّة سوى حول الله وقوّته، ولا يرى لنفسه ولا لأبناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لأثر، ويعلم أنّ ما يرد عليه منه تعالى وما قدّر له وعليه من الخير والشرّ سيساق إليه، فتستوي عنده حالة الوجود والعدم والزيادة والنقصان، والمدح والذمّ، والفقر والغنى، والصحّة والمرض، والعزّ والذلّ، ولم يكن له خوف ورجاء إلاّ منه تعالى، والسرّ فيه أنّه يرى الأشياء كلّها من عين واحدة هو مسبّب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط بل يراها مسخّرة تحت حكمه.

قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: «من ضعف يقينه تعلّق بالأسباب، ورخّص لنفسه بذلك واتّبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة، والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها، مقرّاً باللسان أنّه لا مانع ولا معطي إلاّ الله، وأنّ العبد لا يصيب إلاّ ما رزق وقسّم له، والجهد لا يزيد في الرزق، وينكر ذلك بفعله وقلبه، قال الله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[1]».

وقال عليه السلام: «ليس شيء إلاّ وله حدّ»، قيل: فما حدّ التوكّل؟ قال: «اليقين» قيل: فما حدّ اليقين؟ قال: «ألاّ تخاف مع الله شيئاً».

وعنه عليه السلام: «من صحّة يقين المرء المسلم ألاّ يرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإنّ الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا تردّه كراهية كاره، ولو أنّ أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت».

---

(١) آل عمران: ١٦٧.

ومنها: أن يكون في جميع الأحوال خاضعاً لله سبحانه، خاشعاً منه، قائماً بوظائف خدمته في السرّ والعلن، مواظباً على إمتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسُنن، متوجّهاً بشراشره إليه، متخضّعاً متذلّلاً بين يديه، معرضاً عن جميع ما عداه، مفرّغاً قلبه عمّا سواه، منصرفاً بفكره إلى جناب قدسه، مستغرقاً في لجّة حبّه وأنسه، والسرّ أنّ صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته، وبأنّ الله تعالى شاهد لأعماله وأفعاله، مطّلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره، وأنّ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾،[1] فيكون دائماً في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه، فلا ينفكّ لحظة عن الحياء والخجل والإشتغال بوظائف الأدب والخدمة، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل، وتحليته بالفضائل، لعين الله الكالئة أشدّ من تزيين ظاهره لأبناء نوعه.

وبالجملة من يقينه بمشاهدته تعالى لأعماله الباطنة والظاهرة، وبالجزاء والحساب يكون أبداً في مقام إمتثال أوامره وإجتناب نواهيه.

ومن يقينه بما فعل الله في حقّه من إعطاء ضروب النعم والإحسان، يكون دائماً في مقام الإنفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي.

ومن يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور وما أعدّه لخلّص عبيده ممّا لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، يكون دائماً في مقام الطمع والرجاء.

ومن يقينه باستناد جميع الأمور إليه سبحانه، وبأنّ صدور ما يصدر في العالم إنّما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى

---

(١) الزلزلة: ٧ و٨.

نظام الخير، يكون أبداً في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغيّر وتفاوت في حاله.

ومن يقينه بكون الموت داهية من الدواهي العظمى، وما بعده أشدّ وأدهى، يكون أبداً محزوناً مهموماً.

ومن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها، لا يركن إليها، قال الصادق عليه السلام في الكنز الذي قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[1] «[بسم الله الرحمن الرحيم] عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يركن إليها».[2]

ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوّته القاهرة، يكون دائماً في مقام الهيبة والدهشة، وقد ورد أنّ سيد الرسل صلى الله عليه وآله كان من شدّة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث إذا كان يمشي يظنّ أنّه يسقط على الأرض.

ومن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام، يكون دائماً في مقام الشوق والوله والحبّ، وحكايات أصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والأولياء الكاملين في الخوف والشوق، وما يعتريهم من الإضطراب والتغيّر والتلوّن وأمثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة، وفي كتب التاريخ والسير مسطورة، وكذا ما يأخذهم من الوله والإستغراق والإبتهاج والإنبساط بالله سبحانه، وحكاية حصول تكرّر الغشيان لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام في أوقات الخلوات والمناجاة، وغفلته عن نفسه في الصلوات ممّا تواتر عند الخاصّة والعامّة.

---

(١) الكهف: ٨٢.

(٢) أصول الكافي ٢: ٢٨/ باب اليقين/ ح ٩؛ بحار الأنوار ٧٠: ١٨٢/ ٥٢؛ سفينة البحار ٢: ٤٩٧.

وكيف يتصوّر لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله، وبإطّلاعه تعالى على دقائق أحواله، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الإنفعال والخشية والدهشة وحضور القلب، والتوجّه التامّ إليه عند القيام لديه والمثول بين يديه، مع أنّا نرى أنّ الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والأمراء مع رذالته وخساسته أوّلاً وآخراً يحصل له من الإنفعال والدهشة والتوجّه إليه بحيث يغفل عن ذاته.

(ومنها): أن يكون مستجاب الدعوات بل الكرامات وخرق العادات، والسرّ فيه أنّ النفس كلّما إزدادت يقيناً إزدادت تجرّداً، فتحصل لها ملكة التصرّف في موارد الكائنات، قال الإمام أبو عبد الله الصادق ﷺ: «اليقين يوصل العبد إلى كلّ حال سني، ومقام عجيب» كذلك أخبر رسول الله ﷺ من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أنّ عيسى بن مريم ﷺ كان يمشي على الماء، فقال ﷺ: «لو زاد يقينه لمشى في الهواء».

فهذا الخبر دلّ على أنّ الكرامات تزداد بإزدياد اليقين، وأنّ الأنبياء مع جلالة محلّهم من الله متفاوتون في قوّة اليقين وضعفه.

مراتب اليقين:

قد ظهر ممّا ذكر أنّ اليقين جامع جميع الفضائل، ولا ينفكّ عن شيء منها، ثمّ له مراتب:

(أوّلها): علم اليقين، وهو إعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع كما مرّ، وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان.

(وثانيها): عين اليقين، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة

والباطن، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «لم أعبد ربّاً لم أره»[1] بعد سؤال ذعلب اليماني عنه عليه السلام: أرأيت ربّك؟ وبقوله عليه السلام: «رأى قلبي ربّي»، وهو إنّما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرّد التامّ للنفس، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عياناً.

(وثالثها): حقّ اليقين: وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطاً به غير منفكّ عنه، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فيضانَ الأنوار والآثار منه إليه، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير إحتراق، وهذا إنّما يكون لكمّل العارفين بالله المستغرقين في لجّة جدّه وأُنسه، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس، وهم الصدّيقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله.

وحصول هذه المرتبة يتوقّف على مجاهدات شاقّة ورياضات قويّة، وترك رسوم العادات، وقطع أُصول الشهوات، وقلع الخواطر النفسانية، وقمع الهواجس الشيطانية، والطهارة عن أدناس جيفة الطبيعة، والتنزّه عن زخارف الدنيا الدنيّة، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة.

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ... سواها وما طهّرتها بالمدامع

ثمّ فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبّرون عنها (بحقيقة حقّ اليقين) والفناء في الله، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلاً

---

(١) في نهج البلاغة ٣: ٩٩ «أفأعبد ما لا أرى...».

في أنوار ذات الله، محترقاً من سبحات وجهه، بحيث لا يرى إستقلالاً ولا تحصيلاً أصلاً، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها وإحتراقه منها.

ثمّ لا ريب في أنّ اليقين الحقيقي النوراني المبرّئ عن ظلمات الأوهام والشكوك، ولو كان من المرتبة الأولى، لا يحصل من مجرّد الفكر والاستدلال؛ بل يتوقّف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق وصدأها، ليحصل لها التجرّد التامّ فتحاذي شطر العقل الفعّال، فتتّضح فيها جليّة الحقّ حق الاتّضاح، والسرّ أنّ النفس بمنزلة المرآة تنعكس إليها صور الموجودات من العقل الفعّال، ولا ريب في أنّ إنعكاس الصور من ذوات الصور إلى المرآة يتوقّف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها، وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما، والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة، فيجب في انعكاس حقائق الأشياء من العقل إلى النفس.

١ ـ عدم نقصان جوهرها، فلا يكون كنفس الصبي التي لا تنجلي لها المعلومات لنقصانها.

٢ ـ وصفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة وأخباث المعاصي، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات. وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ.

٣ ـ وتوجّهها التامّ وإنصراف فكرها إلى المطلوب، فلا يكون مستوعب الهمّ بالأمور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها، وهو بمنزلة المحاذاة.

٤ ـ وتخليتها عن التعصّب والتقليد، وهو بمثابة إرتفاع الحجب.

٥ ـ واستحصال المطلوب من تأليف مقدّمات مناسبة للمطلوب

علـى الترتيـب المخصـوص والشـرائط المقـرّرة، وهـو بمنـزلة العثـور علـى الجهة التي فيها الصورة.

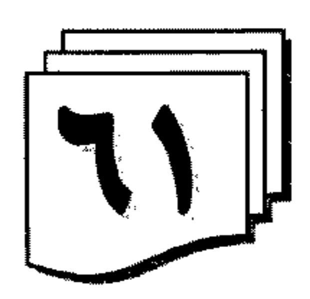
ولـولا هـذه الأسـباب المانعة للنفـوس عـن إفاضـة الحقـائق اليقينيـة إليهـا، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعّالة، إذ كلّ نفس لكونها أمراً ربّانياً وجوهراً ملكوتياً، فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق، ولذا إمتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والأرض والجبال، وصارت قابلة لحمل أمانة الله. التي هي المعرفة والتوحيد، فحرمان النفس عن معرفة أعيان الموجودات إنّما هو لأحد هذه الموانع، وقد أشار سيد الرسل ﷺ إلى مانع التعصّب والتقليد بقوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه ويمجّسانه وينصرّانه»، وإلى مانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله ﷺ: «لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض».

فلـو ارتفعـت عـن الـنفس حجـت السـيّئات والتعصّـب، وحـاذت شـطر الحـقّ الأوّل، تجلّـت لهـا صـورة عـالم الملـك والشـهادة بأسـره، إذ هـو متنـاه يمكـن لهـا الإحاطـة بـه، وصـورة عـالمي الملكـوت والجبـروت بقـدر مـا يـتمكّن منـه بحسـب مرتبتـه؛ لأنّهمـا الأسـرار الغائبـة عـن مشـاهدة الأبصـار المختّصـة بإدراك البصـائر، وهـي غيـر متناهيـة، ومـا يلـوح منهـا للـنفس متنـاه، وإن كانت في نفسها وبالإضافة إلى علم الله سبحانه غير متناهية.

ومجمـوع تلـك العـوالم يسـمّى (بالعـالم الربـوبي)، إذ كـلّ مـا فـي الوجـود من البدايـة إلى النهايـة منسـوب إلـى الله سـبحانه، ولـيس فـي الوجـود سـوى الله سـبحانه وأفعالـه وآثـاره، فالعـالم الربـوبي والحضـرة الربوبيـة هـو العـالم المحـيط بكـلّ الموجـودات، فعـدم تناهيـه ظـاهر بـيّن، فـلا يمكـن

للنفس أن تحيط بكلّه؛ بل يظهر لها منه بقدر قوّتها وإستعدادها، ثمّ بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلّى لها من الحقائق والأسرار، ومن عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله، تحصل لها السعادة والبهجة واللذّة والنعمة في نعيم الجنّة، وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وأفعاله، وكلّ منها لا نهاية له، ولذا لا تستقرّ النفس في مقام من المعرفة والبهجة والكمال والتفوّق والغلبة، تكون غاية طلبتها ولا تكون طالبة لما فوقها، وما اعتقده جماعة من أنّ ما يحصل للنفس من المعارف الإلهية والفضائل الخلقية، هي الجنّة بعينها، فهو عندنا باطل؛ بل هي موجبة لاستحقاق الجنّة التي هي دار السرور والبهجة.

* * *



قوله عليه السلام:

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ، وَمَا أَدْبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ.

(نهج البلاغة ٤: ٤٠)



[ماضي الإنسان ومستقبله وتقلبات الدنيا]

قال ابن أبي الحديد:

هذا معنى قد استعمل كثيراً جداً، فمنه المثل:

ما طار طير وارتفع إلاّ كما طار وقع

وقول الشاعر:

بقدر العلو يكون الهبوط وإيّاك والرتب العالية

وقال بعض الحكماء: حركة الإقبال بطيئة، وحركة الإدبار سريعة، لأنّ المقبل كالصاعد إلى مرقاة، ومرقاة المدبر كالمقذوف به من علوّ إلى أسفل. قال الشاعر:

في هذه الدار في هذا الرواق على هذي الوسادة كان العزّ فانقرضا

وقال آخر:

إنّ الأمور إذا دنت لزوالها فعلامة الإدبار فيها تظهر

وفي الخبر المرفوع كانت ناقة رسول الله ﷺ العصباء لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتدّ على الصحابة ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ حقّاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلاّ وضعه».

وقال شيخ من همدان: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع بهدايا، فمكثت تحت قصره حولاً لا أصل إليه، ثمّ أشرف اشرافة من

كوّة له، فخرّ له من حول العرش سجّداً، ثمّ رأيته بعد ذلك بحمص فقيراً يشتري اللحم ويستمطّه خلف دابته وهو القائل:

أفّ لدنياي إذا كانت كذا | أنا منها في هموم وأذى
إن صفا عيش امرئ في صبحها | جرّعته ممسياً كأس القذى
ولقد كنت إذا ما قيل من | أنعم العالم عيشاً قيل ذا

وقال بعض الأدباء في كلام له: بينا هذه الدنيا ترضع بدرتها، وتصرخ بزبدتها، وتلحف فضل جناحها، وتغرّ بركود رياحها، إذ عطفت عطف الضروس، وصرّحت صرح الشموس، وشنّت غارة الهموم، وأراقت ما حلبت من النعيم، فالسعيد من لم يغترّ بنكاحها، واستعدّ لوشك طلاقها.

شاعر هو أهاب بن همام بن صعصعة المجاشعي وكان عثمانياً:

لعمر أبيك فلا تكذبنّ | لقد ذهب الخير إلاّ قليلا
وقد فتن الناس في دينهم | وخلّى ابن عفّان شرّاً طويلا

وقال أبو العتاهية:

يعمر بيتٌ بخراب بيت | يعيش حيٌّ بتراث ميتِ

وقال أنس بن مالك: ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلاّ والذي قبله خير منه، سمعت ذلك من نبيّكم ﷺ.

فقال شاعر:

ربّ يوم بكيت منه فلمّا | صرت في غيره بكيت عليه

قيل لبعض عظماء الكتّاب بعد ما صودر: ما تفكّر في زوال نعمتك؟ فقال: لا بدّ من الزوال، فلأن تزول وأبقى خير من أن أزول وتبقى. ومن كلام الجاهلية الأولى: كلّ مقيم شاخص، وكلّ زائد ناقص.

قال شاعر:

إنّما الدنيا دول فراحل قبل نزل

إذ نازل قبل رحل

لمّا فتح خالد بن الوليد عين التمر، سأل عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر، فأتاها وسألها عن حالها؟ فقالت: لقد طلعت علينا الشمس وما من شيء يدبّ تحت الخورنق إلاّ وهو تحت أيدينا، ثمّ غربت وقد رحمنا كلّ من يلمّ به، وما بيت دخلته حبرة إلاّ ستدخله عبرة، ثمّ قالت:

بينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصّف

فأفٍ لدنياً لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتصرف

وجاءها سعد بن أبي وقّاص مرّة، فلمّا رآها قال: قاتل الله عدي بن زيد كأنّه ينظر إليها حيث قال لأبيها:

إنّ للدهر صرعة فاحذرنها لا تبيتنّ قد أمنت الدهورا

قد يبيت الفتى معافى فيردى ولقد كان آمناً مسرورا

وقال مطرف بن الشخير: لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم، وإنّ عمراً قصيراً يستوجب به صاحبه النار لعمر مشؤوم على صاحبه.

لمّا قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمّد وقعد على فراشه، قالت ابنة مروان له: يا عامر إنّ دهراً أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليها، لمبلغ في عظتك إن عقلت.[1]

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٣١٦.

وفي المجلّد الثاني من المستطرف (ص ٧٣):

قال يونس بن ميسرة: لا يأتي علينا زمان إلاّ بكينا منه، ولا يتولّى عنّا زمان إلاّ بكينا عليه، ومن ذلك قول القائل:

وما مرّ يوم أرتجي منه راحة ... فأخبره إلاّ بكيت على أمسي

ومن كلام ابن الأعرابي:

عن الأيّام عدّ ففي قليل ... ترى الأيّام في صور الليالي

وعن عليّ رضي الله عنه: «ما قال الناس لشيء طوبى إلاّ وقد خبّأ له الدهر يوم سوء». قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعهد

[حكايات وقصص ممن نكبهم الدهر] :

١ ـ ودخل داود عليه السلام غاراً فوجد فيه رجلاً ميّتاً، وعند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا فلان ابن فلان الملك، عشت ألف عام وبنيت ألف مدينة، وإفتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش ثمّ صار أمري إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم في رغيف فلم يوجد، ثمّ بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد، فدفعت الجواهر واستفيتها فَمِتّ مكاني، فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أنّ على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كما أماتني.

٢ ـ وممّن نكبه الدهر وغدر به، عبد الرحمن بن زياد، فإنّه لمّا ولي خراسان حاز من الأموال ما قدّر لنفسه إنّه إن عاش مائة سنة، ينفق في كلّ يوم ألف درهم على نفسه، انّه يكفيه، فرؤي بعد مدّة وقد إحتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها.

٣ ـ وممّن نكبه الدهر صالح مولى منارة.

قال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة في يوم شاتٍ، وهو جالس في قبّة مغشّاة بالسمور وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضّة يبخّر فيه بالعود، ثمّ رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس، قال مالك بن دينار: مررت بقصر تضرب فيه الجواري بالدفوف ويقلن:

ألا يا دار لا يدخلك حزن ... ولا يغدر بصاحبك الزمان

فنعم الدار تأوي كلّ ضيف ... إذا ما ضاق بالضيف المكان

ثمّ مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز، فسألتها عمّا كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إنّ الله يغيّر ولا يتغيّر، والموت غالب كلّ مخلوق، قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان.

٤ ــ وممّن نكبه الدهر بعد الملك والسلطان القاهر أحد الخلفاء، وقلعه من الملك، وخروجه إلى الجامع في بطانة جبّة بغير ظهارة، ومدّ يده يسأل الناس، بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء.

وقيل: كان لمحمّد المهلبي قبل اتّصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراب إلاّ أنّه من أهل الأدب، إذ أنشده يقول:

ألا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش ما لا خير فيه

ألا رحم المهيمن نفس حرّ ... تصدّق بالوفاة على أخيه

قال: فرقّ له رفيقه، وأحضر له بدرهم ما سدّ به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرّقا، ثمّ ترقّى المهلبي إلى الوزارة، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه، فتوصّل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قل للوزير فدته نفسي | مقالا مذكراً ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيش | ألا موت يباع فأشتريه

فلمّا قرأها تذكّر، فأمر له بسبعمئة درهم، ووقّع تحت رقعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾، ثمّ قلّده عملاً يرتزق منه.

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتى الشرّ من حيث يأتي الخير، وكان يقال: بتقلّب الدهر تعرف جواهر الرجال، وكان يقال: زمان العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب.

[**نكبة البرامكة**] :

٥ ـ وممّن نكبهم الدهر، وأخنى عليهم الزمن، بعد الملك الباذخ والعزّ الشامخ البرامكة.

جاء في (دائرة المعارف)[1] للبستاني، تحت عنوان (برامكة):

عائلة فارسية، أصلها من خراسان، وجدّهم برمك، كان طبيباً ومتوليّاً سدانة البوبهار ببلخ، وهو البيت الرابع من البيوت المعظّمة، قيل بناه منوجهر بمدنية بلخ على اسم القمر، وكان من يلي سدانته تعظّمه الملوك في ذلك الصقع وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه، وتحمل إليه الأموال، وكانت عليه الوقوف، وكان الموكّل بسدانته يدعى البرموك، وهو سمة عامّة لكلّ سدنته، ذكر ذلك المسعودي وقال: ومن أجل ذلك سمّيت البرامكة؛ لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت.

واتّصل البرامكة هؤلاء بالدولة العبّاسية وولّوا فيها الوزارة إلى أيّام

---

(١) ٥: ٢٥٣.

هارون الرشيد، وكان أوّل من وليها خالد بن برمك في دولة السفّاح أوّل الخلفاء العبّاسيين، قيل وأصل إتّصالهم بالعبّاسيين: أنّ قتيبة بن مسلم لمّا قدم خراسان سنة (٨٥ هـ)، وحارب أهل بلخ كان من جملة من سبى امرأة برمك أبي خالد، فصارت لعبد الله بن مسلم أخي قتيبة فوقع عليها، ثمّ إنّ أهل بلخ صالحوه وأمر قتيبة بردّ السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله: إنّي قد علقت منك وحضرت لعبد الله الوفاة أوصى أن يلحق به ما في بطنها ثمّ ردّت إلى برمك.

فذكر أنّ ولد عبد الله بن مسلم جاؤوا أيّام المهدي حين قدم الرأي إلى خالد فادّعوه فقال لهم مسلم بن قتيبة: إنّه لا بدّ لكم إن استلحقتموه ففعل أن تزوّجوه فتركوه، وكان خالد أيّام المنصور موكّلاً ببيت المال ثمّ صار والياً على الموصل، وكان ابنه يحيى والياً على آذربيجان وأرمينية، وفي أيّام المهدي جعل يحيى وزيراً ومؤدّباً لهارون الرشيد، وبمشوراته ودرايته ولي الرشيد الخلافة فاستوزره الرشيد وعلت عنده منزلته وكان بيده أمر بيت المال، ثمّ اعتزل يحيى وجعل الوزارة متداولة بين ولديه الفضل وجعفر، ثمّ اختصّ بها جعفر، وولج أولاد يحيى الآخرين مناصب عالية في الدولة، غير أنّ جعفراً هو الذي كان صاحب الشهرة والسيادة والأمر في أيّام الرشيد؛ لأنّ الرشيد كان يحبّه حبّاً شديداً حتّى صار بمنزلة أخيه، قيل: وكان لا يدخل معه دار الحرم غيره فينادمه هناك ويعاقر الخمر معه ولا يحجبه البتّة، حتّى آل الأمر إلى أن زوّجه العباسة أُخته لكي يحلّ له النظر إليها فقط دون أن يقربها، وذلك لأنّ الرشيد كان لا يصبر عن أُخته العباسة ولا عن جعفر، فاحتاج أن يجعلهما معاً في مجلسه ولم يكن له سبيل إلى ذلك إلاّ بهذه الواسطة.

ولم يزل آل برمك في عز وجاه وبقدم في الدولة وتصرّف في أُمورها إلى أن نكبهم الرشيد تلك النكبة العظمى التي لم يخل من ذكرها كتاب من كتب التاريخ.

[سبب النكبة]:

وأمّا سبب هذه النكبة فقد اختلف فيه على آراء.

فقيل: إنّ الرشيد دفع يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ إلى جعفر بن يحيى بن خالد فحبسه، ثمّ دعا به ليلة وسأله عن بعض أمره؟ فقال له يحيى: اتّق الله في أمري ولا تتعرّض أن يكون غداً خصمك محمّد ﷺ فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً، فرق له وقال: إذهب حيث شئت من بلاد الله، قال: فكيف أذهب ولا آمن من أن أُوخذ، فوجّه معه من أدّاه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كان له من خواص جعفر فرفعه إلى الرشيد، فقال له الرشيد: ما أنت وهذا؟ فعله عن أمري، ثمّ أحضر جعفراً للطعام فجعل يلقمه ويحادثه ثمّ سأله عن يحيى، فقال: هو بحاله في الحبس، فقال: بحياتي ففطن جعفر فقال: لا وحياتك وقصّ عليه أمره، وقال: علمت أنّه لا مكروه عنده، فقال: نعما ما فعلت، ما عدوت ما في نفسي، فلمّا قام عنه قال: قتلني الله إن لم أقتلك، فكان من الأمر ما كان.

وقيل: إنّ جعفراً ابتنى داراً غرم عليها عشرين ألف درهم، فرفع ذلك إلى الرشيد، وقيل: هذه غرامته على دار فما ظنّك بنفقاته وصلاته وغير ذلك فاستعظمه الرشيد.

قال ابن الأثير: كان من الأسباب أيضاً ما لا تعدّه العامّة سبباً وهو أقوى الأسباب، ما سمع من يحيى بن خالد وهو يقول: وقد تعلّق بأستار الكعبة في

حجّته: اللهم إن كان رضاك أن تسلبني نعمك عندي فاسلبني، اللهم إن كان رضاك أن تسلبني مالي وأهلي وولدي فاسلبني إلاّ الفضل، ثمّ ولّى فلمّا كان عند باب المسجد رجع فقال: مثل ذلك وجعل يقول: اللهم إنّه سمع بمثلي أن يستثني عليك، اللهم والفضل أيضاً، وسمع أيضاً يقول في ذلك المقام: اللهم إنّ ذنوبي جمّة عظيمة لا يحصيها غيرك، اللهم إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي بذلك في الدنيا وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري وولدي ومالي حتّى يبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة فأستجيب له، فلمّا انصرفوا من الحج ونزلوا الأنبار ونزل الرشيد العمر نكبهم.[1]

وقيل: إنّ الرشيد اشترى جارية بمئة ألف دينار، وأرسل إلى يحيى بن خالد أن يدفع المال، فقال يحيى: هذا مفتاح سوء إذا أخذ ثمن الجارية مئة ألف دينار فهو أحرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل يحيى إليه إنّني لا أقدر على هذا المال، فغضب الرشيد وقال: لابدّ منها، فأرسل يحيى قيمتها دراهم وأمر أن تجعل على طريق الرشيد ليستكثرها ففعل ذلك فاجتاز الرشيد بها فسأل عنها فقيل هذه ثمن الجارية، فاستكثرها فأمر بردّ الجارية وقال لخادم له ضمّ إليك هذا المال واجعل لي بيت مال لأضمّ إليه ما أُريد وسمّاه بيت مال العروس وأخذ في التفتيش على الأموال فوجد البرامكة قد فرّطوا فيها.

وكان يحضر مع سمّاره رجل يدعى بأبي العود فأمر له الرشيد ليلة بثلاثين ألف درهم فمطله بها يحيى، فاحتال أبو العود في تحريض الرشيد على البرامكة، وكان قد شاع تغيّر الرشيد عليهم، فبينما هو ليلة عند الرشيد يحدّثه ساق الحديث إلى أن أنشده قول عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) الكامل في التاريخ ٥: ١٢٨.

وعدت هند وما كانت تعد ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرّةً واحدة إنّما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد: أجل (إنّما العاجز من لا يستبدّ).

وكان يحيى قد اتّخذ من خدّام الرشيد خادماً يأتيه بأخباره، فعرّفه ذلك فأحضر أبا العود وأعطاه ثلاثين ألف درهم ومن عنده عشرين ألف درهم، وأرسل إلى ابنيه الفضل وجعفر فأعطاه كلّ واحد منهما عشرين ألفاً، وجدّ الرشيد في أمرهم حتّى أخذهم.

وقيل وهو أشهر الأسباب عند أكثر المؤرّخين:

إنّ الرشيد لما زوّج جعفراً أُخته العباسة وأمره أن لا يقربها كما مرّ، كان لا ينكر إجتماعهما على خلوة، ولذلك كان يقوم أحياناً ويخرج من مجلسه ويتركهما منفردين، فلمّا تكرّر الأمر وكان كلاهما في عنفوان الشباب وقد سنحت لهما الفرص وغرّهما الغرور وأعمى بصيرتهما الطمع والعزّ والجمال والدالّة على الرشيد، ولم يصبر أحدهما عن الآخر، فتزوّجها جعفر وولدت له غلاماً، فخافت الرشيد فسيّرت الغلام إلى مكّة وأعطته الجواهر والنفقات، ثمّ إنّ العباسة وقع بينها وبين بعض جواريها شرّ فأنهت الجارية الأمر إلى الرشيد، فحجّ الرشيد وبحث عن الأمر فعلمه، وكان جعفر يصنع للرشيد طعاماً بعسل إذا حجّ، فصنع ذلك ودعاه فلم يحضر عنده، فكان ذلك أوّل تغيّره عليهم.

[ابن خلدون ورأيه في نكبة البرامكة]:

وأمّا (ابن خلدون) فأبى قبول هذا الرأي كلّ الإباء ومنع كونه السبب كلّ المنع وذكر في سبب نكبة البرامكة:

ومن الحكايات المدخولة للمؤرّخين ما ينقلونه كافّة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصّة العباسة أُخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، وإنّه بمكانهما من معاقرته إيّاها الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على إجتماعهما في مجلسه، وأنّ العباسة تحيّلت عليه في إلتماس الخلوة به لمّا شغفها من حبّه حتّى واقعها، زعموا في حالة سكر فحملت، ووشي بذلك للرشيد فاستغضب، وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها، وأنّها بنت عبد الله بن عبّاس ليس بينها وبينه إلاّ أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملّة من بعده، والعباسة بنت محمّد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمّد السجاد بن عليّ أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العبّاس عمّ النبي صلى الله عليه وآله، ابنة خليفة أُخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملّة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين، بعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهبا عنها وأين توجد الطهارة والزكاة إذا فقدا من بيتها، وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولىً من موالي العجم بملكة جدّه من الفرس أو بولاء جدّها من عمومة الرسول وأشراف قريش، وغايته أن جذبت بضبعه وضبع أبيه وإستخلصتهم ورقّتهم إلى منازل الأشراف، وكيف يسوغ من الرشيد أن يعهد إلى موالي الأعاجم على بعد همّته وعظم آبائه، ولو نظر المتأمّل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها من مثله مع مولىً من موالي دولها وفي سلطان قومها، وإستنكره ولجّ في تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس.

وإنّما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجارهم أموال الجباية حتّى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرّف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمّروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم وإجتازوها عمّن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم.

يقال إنّه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً، بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتّى شبّ في حجره ودرج من عشّه وغلب على أمره، وكان يدعوه يا أبت، فتوجّه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالّة منهم وإنبسط الجاه عندهم وإنصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطّت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وسيّرت إلى خزائنهم في سبيل التزلّف والإستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المنن، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكّوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، وأسنّوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتّى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصّة وأعضوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبّت إلى مهادهم الوتيرة من الدولة عقاب السعاية، حتّى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، ولم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزّعتهم أواصر القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والإستنكاف من الحجر والأنفة وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالّة،

وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة، كقصّتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب أخي محمّد المهدي الملقّب بالنفس الزكية الخارج على المنصور، ويحيى هذا هو الذي استزلّه الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطّه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري، وإنّ جعفراً أطلقه، فكان ذلك أوّل أسباب تغيّر الرشيد عليه، حتّى ثلّ عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيّامهم.

ومن تأمّل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم، وجد ذلك محقّق الأثر ممهّد الأسباب، وانظر إلى ما نقله ابن عبد ربّه في مفاوضة الرشيد عمّ جدّه داود بن علي في شأن نكبتهم، وما ذكره في كتاب الشعراء من كتاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهّم انّهم إنّما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الإستبداد من الخليفة فمن دونه، وكذلك ما تحيّل به أعداؤهم من البطانة في ما دسّوه للمغنّين من الشعر إحتيالاً على أسماعه للرشيد وتحريك حفائظه لهم، حتّى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلّطوا عليهم بأس إنتقامه، فنعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال.[1]

قيل: وكان أوّل ما ظهر من فساد حالهم: أنّ عليّ بن يحيى بن ماهان سعى بموسى بن يحيى بن خالد واتّهمه في أمر خراسان، وأعلم الرشيد أنّه يكاتبهم ليسير إليهم ويخرجهم من الطاعة، فحبسه ثمّ أطلقه، وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير إذن، فدخل عليه يوماً وعنده جبريل بن بختيشوع الطبيب فسلّم فردّ الرشيد ردّاً ضعيفاً، ثمّ أقبل

---

(١) تاريخ بن خلدون ١: ١٥ – ١٧.

على جبريل فقال: أيدخل عليك منزلك أحد بغير إذن، قال: لا، قال: فما بالنا يدخل علينا بغير إذن، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين ما ابتدأت ذلك الساعة ولكن أمير المؤمنين خصّني به حتّى أنّي كنت أدخل وهو في فراشه مجرّداً وما علمت أنّ أمير المؤمنين كره ما كان يحبّ، فإذ قد علمت فإنّي سأكون في الطبقة التي تجعلني فيها، فاستحيا هارون وقال: ما أردت ما تكره.

وكان يحيى إذا دخل على الرشيد قام له الغلمان، فقال الرشيد لمسرور: الغلمان لا يقومون ليحيى إذا دخل الدار، فدخلها فلم يقوموا، فتغيّر لونه، وكانوا بعد ذلك إذا رأوه أعرضوا عنه، فلمّا رجع الرشيد من الحجّ ونزل العمر الذي عند الأنبار سلخ المحرّم، أرسل مسروراً الخادم ومعه جماعة من الجند إلى جعفر ليلاً وعنده ابن بختيشوع وأبو زكار المغنّي وهو في لهوه وأبو زكار يغنّي:

فلا تبعد فكلّ فتىً سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي

وكلّ ذخيرة لا بدّ يوماً ... وإن كرمت تصير إلى نفاد

قال مسرور: يا أبا الفضل الذي جئت له هو والله ذاك قد طرقك أجب أمير المؤمنين، فوقع على رجلي يقبّلها وقال: أدخل فأُوصي فقلت: أمّا الدخول فلا سبيل إليه، وأمّا الوصية فاصنع ما شئت، فأوصى بما أراد وأعتق ممّا يمسكه، وأتتني رسل الرشيد تستحثّني فمضيت به إليه فأعلمته وهو في فراشه، فقال: ائتني برأسه فأتيت جعفراً فأخبرته، فقال: الله الله والله ما أمرك إلاّ وهو سكران، فدافع حتّى أصبح أو راجعه فيّ ثانية، فعدت لأُراجعه فلمّا سمع حسّي انتهرني وقال: ائتني برأسه، فرجعت إليه فأخبرته، فقال: راجعه، فرجعت فخذفني بعمود كان في يده وقال: نفيت من المهدي إن لم تأتيني برأسه لأقتلنّك. قال: فخرجت فقتلته

وحملت رأسه إليه، وأمر بتوجيه من أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه، وحوّل إلى الفضل بن يحيى ليلاً فحبس في بعض منازل الرشيد، وحبس يحيى في منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك.

وأرسل من ليلته إلى سائر البلاد في قبض أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم وكل مالهم، فلمّا أصبح أرسل جعفراً إلى بغداد وأمر أن ينصب رأسه على جسر، ويقطع بدنه قطعتين تنصب كلّ قطعة على جسر، ولم يعرض الرشيد لمحمّد بن خالد بن برمك وولده، وأسبابه لأنّه علم براءته ممّا دخل فيه أهله، وقيل كان يسعى بهم. ثمّ حبس يحيى وبنيه الفضل ومحمّداً وموسى محبساً سهلاً، ولم يفرّق بينهم وبين عدّة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه من جارية وغيرها، ولم تزل حالهم سهلة حتّى قبض الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمّهم بسخطه وجدّد له ولهم التهمة عند الرشيد، فضيّق عليهم ومات يحيى وأولاده في السجن.

والذين ذكروا إنّ السبب من العباسة قالوا: إنّ الرشيد دفنها حيّة هي وولديها؛ لأنّها ولدت توأمين، ووجدهما الرشيد بمكّة حين حجّ.

وممّا يروى أنّه لما قتل جعفر قيل ليحيى قتل الرشيد ابنك، قال: كذلك يقتل ابنه، قيل: وقد خرّب ديارك، قال: كذلك تخرب دياره. فلمّا بلغ ذلك الرشيد قال: قد خفت أن يكون ما قاله؛ لأنّه ما قال شيئاً إلاّ رأيت تأويله، قال سلام الأبرش: دخلت على يحيى بن خالد وقت قبضه، وقد هتكت الستور وجمع المتاع، فقال: هكذا تقوم القيامة، فحدّثت الرشيد فأطرق مفكّراً.

وقيل: قال يحيى لمّا نكب: الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا

أُسوة، وفينا لمن بعدنا عبرة. وقال جعفر: الحظّ سمط الحكمة به تفصل شذورها وينظّم منثورها.[1]

وكانت هذه النكبة العظمى سنة (١٨٧هـ) ومات يحيى وأولاده سنة (١٨٨هـ)، وكانت مدّة وزارتهم (١٧) سنة وفيهم يقول بعض الشعراء:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي

فقل للمطايا قد أمنت من السرى ... وطيّ الفيافي فدفداً بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولم تظفري من بعده بمسوّد

وقل للعطايا بعد فضل تعطّلي ... وقل للرزايا كلّ يوم تجدّدي

ودونك سيفاً برمكيّاً مهنّداً ... أُصيب بسيف هاشمي مهنّد

وآثارهم في الكرم أشهر من أن تذكر حتّى ضرب بهم المثل في الآفاق وجعل اسمهم صفة لكلّ كريم جواد. ورثتهم الشعراء بقصائد تضيق دونها المجلّدات، وأسفت عليهم الناس مدّة طويلة؛ لأنّ إفضالهم كانت عامّة غامرة حتّى أنّ الرشيد ضجر من كثرة ما بكى عليهم الناس، ووضع عيوناً على من يصرّح بذكرهم أو ينشد فيهم أشعاراً، غير أنّ ذلك استمرّ في الخفاء ثمّ علانية إلى ما بعد الرشيد... انتهى.

* * *

[الإمام الكاظم عليه السلام يتحدّث عن البرامكة ونكبتهم] :

وقال القرشي في الجزء الثاني من (حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام) تحت عنوان (نكبة البرامكة):

---

(١) أنظر: تاريخ الطبري ٦: ٤٨٤ - ٤٩٢.

واستكشف الإمام موسى عليه السلام من وراء الغيب بما يجري على البرامكة من الخطوب والنكبات وزوال النعمة وفجأة النقمة، فأخبر عليه السلام بذلك وقال: «مساكين آل برمك! لا يعلمون ما يجري عليهم»، فكان كما أخبر عليه السلام فقد جرت عليهم أعظم نكبة شاهدها التاريخ، فبعد ما كانت الدنيا بأيديهم قد زهرت لهم وتمتّعوا بلذائذها، وظفروا بنعيمها صاروا من الذلّ والهوان بأقصى مكان، فصودرت أموالهم وقتل جعفر وقذف أبوه يحيى وباقي أسرته في ظلمات السجون، حتّى بلغ سوء حالهم أنّ من يذكر أيّامهم ومعروفهم ومكارمهم نال العقوبة والعذاب.

ويجدر بنا أن نشير إلى بعض أسباب نكبتهم، فقد اختلف المؤرّخون فيها إختلافاً كثيراً، وإلى القرّاء ذلك:

١ ـ خيانة جعفر للعبّاسة:

ويرى كثير من المؤرّخين أن السبب في نكبة البرامكة هي قصة (العبّاسة بنت المهدي)، وموجزها: أنّ الرشيد كان لا يصبر عن جعفر بن يحيى وأُخته العبّاسة إذا أراد الشراب، فأراد أن يحضرهما معاً في مجلسه، ولكن تعاليم الإسلام حجزت بينه وبين ما يروم؛ لأنّه لا علاقة بين جعفر وشقيقة هارون، فاحتال الرشيد، فزوّجها من جعفر وشرط عليه عدم الإتّصال بها، ولكن جعفر لم يف بعهده وشرطه، فاتّصل بها فحملت منه، وبعد وضعها خافت على طفلها من هارون، فأبعدته إلى مكّة، فلمّا علم الرشيد بذلك قتل الطفل ونكل بالبرامكة. (عن الطبري ٣: ٥٤٧).

وهذه الرواية لا يمكن المساعدة عليها بوجه من الوجوه.

أوّلاً: لأنّ الرشيد لم ير لهذه الجهة أهميّة، فقد كان خليعاً ماجناً،

ولو كان عنده أقلّ شعور ديني لما سمح لأخته عليّة أن تغنّيه في مجلسه وتهدي له الخمر، حتّى إنتشر تهتّكها وخيانتها عند جميع الأوساط.

ثانياً: إنّ جعفرَ قد استولى على الرشيد وملك قلبه ومشاعره، حتّى كان يجلس معه في حلّة واحدة قد اتّخذ لها جيبين، وبلغ من نفوذ جعفر أن زوّج العالية من إبراهيم بن عبد الملك بن صالح العبّاسي ولا يعلم هارون بذلك، فلمّا أخبره أجاز تصرّفه... إلى غير ذلك من الأعمال التي دلّت على مدى قربه عند الرشيد، وبعد هذا فكيف يظنّ هارون على خليله وأعزّ الناس عنده باتّصاله بأُخته العبّاسة.

وثالثاً: إنّ كثيراً من المصادر التاريخية الموثوق بها قد فنّدت هذه القصّة، وقد فنّدها (الجهشياري)[1] مستدلاً بقول مسرور خادم الرشيد، حيث سئل عن السبب في إيقاع الرشيد بالبرامكة، فقال: كأنّك تريد ما تقوله العامّة فيما إدّعوه من أمر المرأة، لا والله ما لشيء لهذا من أصل، أمّا ابن خلدون فينفي ذلك نفياً باتّاً ويرى أنّه من الأساطير، فيقول: إنّ مركز العبّاسة الديني والإجتماعي لا يسمح لها بإرتكاب جريمة كهذه، لاسيّما مع مولى من مواليها.

٢ ـ الاتّهام بالتشيّع:

وذهب فريق من المؤرّخين إلى أنّ العامل الوحيد في نكبة البرامكة هو ميلهم إلى العلويين، فقد ذكر (الطبري) عن أبي محمّد اليزيدي الذي كان من أعلم الناس بالبرامكة أنّه قال: من قال: إنّ الرشيد قتل جعفر بغير سبب يحيى بن عبد الله فلا تصدّقه.[2]

---

(١) الوزراء والكتاب: ٢٥٤.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٥٤٧.

وذكر (الجهشياري): إنّ الرشيد اتّهم يحيى بميله إلى يحيى العلوي، وإنّه أمدّه بمئتي ألف دينار إبّان ثورته.[١]

وذكر صاحب (الأغاني): إنّ البرامكة يكرهون تعصّب الرشيد على العلويين، ويعدّون عمله حراماً.[٢]

وهذا القول كالأوّل في ضعفه، فإنّ البرامكة كانوا يتقربون إلى الرشيد بالسعي على العلويين، وكانوا من المسبّبين لسجن الإمام عليه السلام وقتله، وقد روى الصدوق عن صفوان بن معن: أنّ يحيى البرمكي لم يكتف بإغرائه للرشيد في قتل الإمام الكاظم عليه السلام فأغراه بقتل الإمام الرضا عليه السلام، فقال له هارون: أما يغنينا ما صنعنا بأبيه؟ أتريد أن نقتلهم جميعاً؟[٣]

قال السيّد نعمة الله الجزائري:[٤] إنّ السبب في هلاك البرامكة هو دعاء أبي الحسن الرضا عليه السلام عليهم في موقف عرفة؛ لأنّهم سعوا بأبيه الكاظم عليه السلام.

إنّ البرامكة كانوا من ألدّ أعداء الشيعة، وقد أسرفوا في التنكيل بالعلويين باستثناء الفضل بن يحيى، فإنّه كان يميل إلى الإمام الكاظم عليه السلام وقد رفّه عليه حينما كان بالبصرة في سجنه، وهو الذي سمح ليحيى العلوي بالوفادة إلى بيت الله الحرام، ولعلّ القول بميلهم إلى التشيّع جاء بسببه.

٣ ـ سعة نفوذهم:

لعلّ من أهمّ الأسباب الرئيسية التي دعت الرشيد للتنكيل بالبرامكة، هي سعة نفوذهم وإستيلائهم على جميع مقدّرات الدولة،

---

(١) الوزراء والكتاب: ٢٥٤.

(٢) التمدن الإسلامي ٤: ١٤٦.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٩٦.

(٤) زهر الربيع: ٢٠٥.

حتّى خاف الرشيد من زوال ملكه، وقد مال إلى هذه الجهة الأستاذ محمّد كرد عليّ فقال: ولمّا ـ رأى الرشيد ـ أنّ ملكه في خطر محقّق من نفوذ آل برمك لإنصراف الوجوه إليهم، لكثرة ما أحسنوا إلى الناس، حتّى ساووا الخليفة وأربوا عليه في المكانة، أمر بالقبض عليهم ومصادرة أموالهم وقتلهم... وذلك لأنّه خافهم على ملكه.[1]

وقد ظهرت منهم بوادر تدلّ على عزمهم بقيام انقلاب عسكري يقضون فيه على الحكم القائم وينقلون الخلافة من العبّاسيين إلى غيرهم، فقد تحدّث جعفر عن أبي مسلم وأهميّته في نقل الخلافة من الأمويين إلى العبّاسيين فقال: إنّ أبا مسلم نقل الدولة من قوم إلى قوم بالقتل وإراقة الدم، وإنّما الرجل من ينقلها من غير سفك دم، وقد نقل حديثه إلى الرشيد فخاف وبادر إلى نكبة البرامكة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ العامل الوحيد الذي حفّز هارون إلى التنكيل بجعفر وباقي أسرته هو سعة نفوذهم، وقبضهم على زمام الحكم بيد من حديد، فقد كان بداره من الموظفين من أبناء يحيى بن خالد خمسة وعشرون ما بين صاحب سيف وقلم، وكان من الصعب القضاء عليهم لولا استعمال المباغتة والمفاجأة في البطش بهم، فإنّهم لو علموا بذلك لما تمكّن على القيام بأيّ حركة انقلابية، ولقضي عليه نظراً لاتّصالهم الوثيق بزعماء الجيش وقادته، ونعمهم الوفيرة على الكثير من الناس، فلو قاموا بانقلاب عسكري لوجدوا تأييداً شاملاً من الجماهير الإسلاميّة الكارهة لحكم العبّاسيين، بالإضافة إلى أنّ لهم الصلاة التامّة بالفرس الذين هم أهمّ ركيزة في الدولة الإسلاميّة.

---

(١) الإسلام والحضارة ٢: ٢١٣.

وهناك عوامل أُخرى ذكرها المؤرّخون ومالوا إليها أدّت إلى نكبة البرامكة، كالوشاية بهم من حاسديهم... وغيرها، ونكتفي بما ذكرناه من الأسباب خوفاً من الإطالة والخروج عن الموضوع.

إعدام جعفر:

كان جعفر في قصره يلهو ويلعب ولا يعلم ما دبّر له، وكان أبو زكار الأعمى يغنّيه بهذا البيت:

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتي   عليه الموت يطرق أو يغادي

وكان فيه تنبّؤ عن وقوع الحادث الخطير، فبينما كان المغنّون يعزفون له بهذا البيت، إذ دخل عليه مسرور الخادم بغير إذنه وهو مسلّح، فلمّا رآه جعفر جفل منه، وأخذته رعدة الذعر والخوف، وأخبره مسرور بما أُمر به، فجعل جعفر يتضرّع إليه ويذكره بأياديه ونعمه عليه، وطلب منه أن يمهله إلى الصبح لعلّ هارون يرجع إلى صوابه ورشده فيعفو عنه، فامتنع من إجابته، وأخيراً طلب منه أن يأتي به إلى مضرب الخليفة ليسمع مقالته وحكمه فيه، فأجابه إلى ذلك ونهضا معاً، ودخل مسرور على هارون، فقام إليه وهو ثائر لم يملك أعصابه قد تغيّرت أحواله، فبادره مسرور قائلاً له:

يا أمير المؤمنين! قد انتهى كلّ شيء، ورأس جعفر قريب منك.

ففهم هارون الأمر، فوعده بالقتل على تأخيره لحكم الإعدام قائلاً له:

نفيت من المهدي، إن أنت جئتني ولم تأتني برأسه لأرسلنّ إليك من يأتيني برأسك أوّلاً، ثمّ برأسه آخراً. فخرج ونفّذ بالفور الإعدام في جعفر وحمل برأسه إليه.

وبقي الرشيد ليلته لم يذق طعم الرقاد ينتظر بفارغ الصبر ضوء الصباح،

وقبل أن يندلع نور الفجر، أمره هرثمة بن أعين بحمل جثّة جعفر وإعطائها إلى مدير الشرطة العام ـ السندي بن شاهك ـ، ليعلّق رأسه في الساحة الوسطى من مدينة المنصور، ويقسّم جثّته إلى نصفين، فيصلب كلّ نصف منها على رأس جسر في بغداد، كما أمره بإعلان حالة الطوارئ، وأن يكون الجيش على أهبّة وإستعداد خوفاً من الإنتفاضات الشعبية، كما فرض المراقبة الشديدة على الجيش خوفاً من تمرّده وعصيانه، وأمر بالوقت بتطويق دور البرامكة ومصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة، وإعتقالهم وزجّهم في ظلمات السجون.

وانتشر حديث البرامكة في شرق البلاد وغربها، وصار أُحدوثة المجالس؛ بل حديث الأجيال والأحقاب. فذابت قلوب أنصارهم وأخوالهم، وشمت بهم خصومهم وحسّادهم، فقد اندكّ ذلك الحصن المنيع الشامخ، وذهبت صولة البرامكة أدراج الرياح.

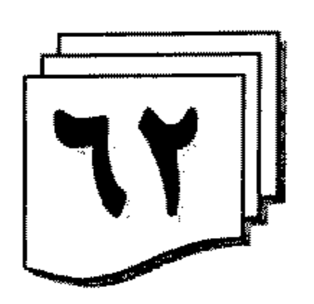
إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن نكبة البرامكة، وقد دلّت على بطش هارون وفتكه وكيده، فقد أنزل العقاب الصارم بأحبّ الناس إليه خوفاً على سلطانه، ومنه يعلم مدى القسوة البالغة التي عامل بها العلويين وشيعتهم انتهى.

وبالتالي مهما يكن من أمر البرامكة فقد كانوا مبغضين لآل رسول الله عليهم السلام مظهرين لهم العداء، جاء في (سفينة البحار):[1] أنّ الرضا عليه السلام كان واقفاً بعرفة يدعو، ثمّ طأطأ رأسه فسئل عن ذلك فقال: «إنّي كنت أدعو الله عزّ وجلّ على البرامكة بما فعلوا بأبي عليه السلام فاستجاب الله لي اليوم فيهم»، فلمّا انصرف لم يلبث إلاّ يسيراً حتّى بطش بجعفر ويحيى وتغيّرت أحوالهم.

* * *

---

(١) ١: ٧٣.



قوله عليه السلام:

مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ.

(نهج البلاغة ٤: ٦)



[الأمل وأثره في الحياة]

قال ابن أبي الحديد:

... قال الحسن عليه السلام: «لو رأيت الأجل ومصيره لنسيت الأمل وغروره، ويقدّر المقدّرون والقضاء يضحك». وروى أبو سعيد الخدري أنّ أُسامة بن زيد اشترى وليدة بمئة دينار إلى شهر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا تعجبون من أسامة يشتري إلى شهر، إنّ أُسامة لطويل الأمل».

أبو عثمان النهدي: قد بلغت نحواً من ثلاثين ومئة سنة، فما من شيء إلاّ قد عرفت فيه النقص إلاّ أملي فإنّه كما كان.

قال الشاعر:

أراك تزيدك الأيّام حرصاً ... على الدنيا كأنّك لا تموت

فهل لك غاية إن صرت يوماً ... إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال آخر:

من تمنّى المنى فأغرق فيها ... مات من قبل أن ينال مناه

ليس في مال من تتابع في اللذّا ... ت فضل عن نفسه لسواه[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

«من جرى في عنان أمله عثر بأجله» وهو تنفير عن تطويل الأمل

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٢٥٠.

بذكر قطعه بالأجل، وإستعار للفظ العنان له ملاحظة لشبهه بالفرس، ولفظ الجري للإندفاع في الأمل والعمل بحسب تطويله، ولفظ العثار للإمتناع عن ذلك الجري بعارض الأجل وقواطعه، كعثار العادي بما يعرض له من حجر ونحوه.[١]

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

كلّ الأعمال بالآمال، ولولا الأمل لبطل العمل، والمذموم هو أن تطلق العنان لأملك في الدنيا وحطامها، وتزاحم الآخرين، وتعلن الحرب من أجلها غير مكترث بواجب أو حرام، ولا بدين وشريعة، ومن كان هذا شأنه نسي الموت وما بعده، واختطفه على حين غرّة، وذهب به إلى خالقه بلا زاد وإستعداد.

والأمل هو الطاقة المحرّكة لحياة الإنسان، والقوّة الدافعة له على العمل، فالتاجر يفتح حانوته أملاً بالربح، والفلاح يزرع أملاً بالحصاد، والطالب يجدّ ويجتهد أملاً بالنجاح، .. وهكذا، وليس من شكّ أنّ طول الأمل ينسي الموت، وأنّ الإنسان في طريقه إلى الرحيل، ومن نسي هذا المصير تحدّى جميع القيم، وتعالى على الحقّ والعدل عناداً واستكباراً.[٢]

* * *

وممّا ورد في (منهاج البراعة):[٣]

(الأمل) الرجاء، أمل يأمّل أملاً، وأملّ تأميلاً: رجاه.

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٥: ٢٤٨.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٢٧.

(٣) ٢١: ٣٥.

فسرّ اللغويون الأمل بالرجاء، ولكن الأخبار مملوءة بذمّ الأمل ومدح الرجاء، فيظهر أنّه بينها فرق بيّن من ناحية الأخلاق، وقد ذمّ عليه السلام في هذه الجملة الأمل مطلقاً ولم يقيّده بطول الأمل كما في بعض الأخبار، فالأمل توقّع ما لا ينبغي ولم يحسن مآبه ولم يتهيّأ أسبابه، بخلاف الرجاء فإنّه توقّع ما ينبغي ويسرّ، وشبّه عليه السلام الأمل بفرس شموس لا بدّ من ضبط عنانها وصدّها عن الجري إلى حيث تشاء، فمن ألقى عنانه وأرسله وجرى معه، فحاله كحال من ركب فرساً شموساً فأرسل عنانها تركض حيث تشاء، فلم تلبث أن تعثر أو تقع في بئر ويهلك راكبها.

* * *

أقول: قال الطريحي في (مجمع البحرين):[1]

الأمل بالتحريك: الرجاء، وهو ضدّ اليأس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾،[2] وفي الحديث: «طول الأمل ينسي الآخرة».[3]

والسبب في طول الأمل كما قيل: حبّ الدنيا، فإنّ الإنسان إذا أنس بها وبلذّاتها ثقل عليه مفارقتها وأحبّ دوامها فلا يفتكر[4] بالموت الذي هو سبب مفارقتها، فإنّ من أحبّ شيئاً كره الفكر فيما يزيله ويبطله، فلا يزال يمنّي نفسه البقاء في الدنيا، ويقدّر حصول ما يحتاج إليه من أهل ومال وأدوات، فيصير فكره مستغرقاً في ذلك، فلا يخطر الموت بخاطره.

---

(١) ٥: ٣١٠.

(٢) الكهف: ٤٦.

(٣) وسائل الشيعة ١١: ٢٤٦/ باب ٨١/ ح٢.

(٤) يفكر.. أصح.

وإن خطر بباله التوبة والإقبال على الأعمال الأُخروية أخّر ذلك من يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر ومن سنة إلى سنة، فيقول: إلى أن اكتهل ويزول سنّ الشباب عنّي، فإذا اكتهل قال: إلى أن أصير شيخاً، فإذ شاخ قال: أن أُتتمّم عمارة هذه الدار وأُزوّج ولدي، وإلى أن أرجع من هذا السفر.

وهكذا يؤخّر التوبة شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة، وهكذا كلّ ما فرغ من شغل عرض له شغل آخر؛ بل أشغال حتّى يختطفه الموت وهو غافل غير مستعد، مستغرق القلب في أمور الدنيا، فتطول في الآخرة حسرته فتكثر ندامته، وذلك هو الخسران المبين.

* * *

وفي المجلّد الرابع من الخلق الكامل (ص ٤٩٢):

الأمل:

أ ــ وجه إمتداحه:

علمت ممّا ذكرنا في بحث الصبر والشجاعة ما لهما من الفضل والمزيّة والأمر البيّن في حياة البشر ونجاح مساعيهم أفراداً ومجتمعين، وقد بقي أن تعلم أنّ الصبر والشجاعة والثبات في الأعمال، لا يحييها في نفس المرء إلاّ (الأمل)، ولا يميتها إلاّ (اليأس)، كن آملاً فأنت شجاع صبور ثابت، وكن يائساً فأنت جبان جزوع مضطرب. الأمل قبس من نور يمشي أمامك في مسارب هذه الحياة، أمّا اليأس فدفّة من حلك الظلام تتكاثف أمام عينيك، فتعمي عليك السبل، وتسدّ في وجهك أبواب النجاح.

الأمل روح العمل، وكلّ عمل لا يتخلّله أمل كان كالجسد الذي ليس فيه روح، سرعان ما ينحلّ ويدركه الفساد، فكيف لا يكون الأمل إذن من أكبر

الفضائل النفسية! وإنّ من طلب من نفسه الجلد والثبات في العظائم وحين إشتداد الأهوال والمصائب وهو يائس قانط كان كمن يزاول عملاً بيد شلاّء.

ومن ثمّ شدّد القرآن الحكيم في النهي عن اليأس وجعله من سمات الجاحدين فقال تعالى:

﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾.(١)

وروح الله معونته؛ فإذا كان اليأس منهيّاً عنه أو محرّماً في الإسلام، كان ضدّه وهو الأمل مأموراً به، ومعدوداً من كريم خصال الإسلام.

وفي معنى الأمل الثقة والرجاء والتوكّل، ومع هذا فلا بدّ من أن نشترط لهذه الكلمات الأربع شرطاً حتّى يكون لمدلولها إعتبار وقيمة في نظر الشرع والعقل.

ذلك أن يكون لك وأنت واثق، راج، آمل، متوكّل، عمل أو سعي أو سوابق، أو أسباب تستند إليها تلك الثقة ويبتنى عليها الأمل؛ وإلاّ فإن كنت مفرّطاً، مهملاً، متقاعداً عن العمل والسعي ومراعاة سنن الله في خلقه، وقلت في نفسك إنّك واثق راج متوكّل آمل، عدّ هذا منك تمنّياً وغروراً وخداع نفس، وهي صفات مذمومة شرعاً وعقلاً.

قيل للحسن البصري: قوم يقولون: نرجو الله ويضيّعون العمل! فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيهم يترجّحون فيها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً اجتنبه.

فمحمود الأمل هو ما قارنه محمود العمل، قال تعالى: ﴿الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ

---

(١) يوسف: ٨٧.

ثَوابـاً وَخَيْـرٌ أَمَـلاً﴾[١] أي أنّ الأعمال الصالحة خير ما يعتمد عليه الآمل في أمله.

وفي هذا النوع من الأمل المحمود قال ﷺ: «إنّ الأمل رحمة من الله للأمّة؛ لولا الأمل ما أرضعت أمّ ولدها».

ومحصّل الله أنّ الأمل المحمود هو إنتظار أمر قد بذرت له البذور التي تنبته، ونصبت من أجله الشباك التي تمسكه. فأغرس، وتوقّع، واكدح، وارج الرزق، أمّا إذا أملت فيها من دون غرس ولا كدح كان فعلك باطلاً وأملك كاذباً، وإذا تعاطيت الأسباب قوي في نفسك الأمل في النجاح.

وأكمل ضروب الأمل وأوثقها أن تؤمّل بالله تعالى الذي بيده الأمر كلّه، وهو الذي منحك القوى والمشاعر، ويسرّ لك الأسباب والوسائط وأقدرك على إتّخاذها.

ومن الناس من يجعلون كلّ أملهم في عزائمهم وقوى نفوسهم وإحكام ما دبّروه من الوسائل والأسباب غير مستمسكين بالأمل في الله، وذلك جهل وغرور، فقد تتوافر الوسائل وتتمّ الأسباب ولا تنجح المقاصد؛ لأنّ الله لم يشأ تحقيقها: قال تعالى: ﴿لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[٢].

ومن أقبح ضروب اليأس أن يتقاعد المرء فلا يتعاطى سبباً في جلب خير أو دفع ضرّ توهّماً منه أنّ ذلك غير مجديه نفعاً، ولا منجيه ممّا هو فيه، فيعيش كاسب البال حزيناً، وإذا تفشّى هذا الداء الوبيل في الأمم واستحكم في نفوسها حتّى صرفها عن النظر في مستقبلها والعناية بمصالحها كان من أقوى العوامل في

---

(١) الكهف: ٤٦.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

تقويض بنيانها وتعفية آثارها وإدالة غيرها منها، وليس عاراً على الإنسان أن تصيبه نائبة من نوائب الدهر، وإنّما العار عليه أن يستسلم لليأس ويقنط حتّى إذا سقط لم ينشط، وإذا رقد لم ينهض، وقد أشار القرآن إلى أنّ خلق اليأس والجزع ممّا ركب في فطرة البشر، لكن الموفّق منهم من عاجله، فعالجه بتربية نفسه وتقويم ما أعوج من أخلاقه.

من ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ الإِنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلا الْمُصَلِّينَ﴾.(١)

على أنّ محاسن الأمل أنّه سبب العمران فيحمل الناس على العمل، ولولا أنّ الآخر يرتفق بما أنشأه الأوّل حتّى يصير به مستغنياً لأفتقر أهل كلّ عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه، فباتّساع الآمال عمّرت الدنيا وعمّ صلاحها، وإنتقل العمران من قرن إلى قرن، فتمّم الثاني ما أبقاه الأوّل، ورمّ الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة، وأمورها على ممرّ الدهور منتظمة، ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه.

ب ـ وجه ذمّه:

تقدّم في إمتداح الأمل ما أبان عظيم منزلته وجليل مزاياه، بيد أنّ النفوس بما جبلت عليه من حبّ العاجلة تغلو في الأمل لسببين: أحدهما الجهل، والآخر الحرص على الدنيا.

أمّا الجهل فسببه أنّ الإنسان قد يغترّ بشبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولو فكّر مليّاً لبان له أنّ مشايخ بلده لو عدّوا لكانوا أقلّ من

---

(١) المعارج: ١٩ ـ ٢٢.

عشر أهلها، وإنّما قلّوا لأنّ الموت في الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب.

وقد يستبعد الموت لصحّته، ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أنّ ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأةً غير بعيد، وكلّ مرض إنّما يقع فجأةً، على أنّ المرء لو تروّى فيما يقع حوله، لاستبان له أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وكهولة، ومن صيف وشتاء، وخريف وربيع، ولكن الجهل بهذه الأمور دعاه إلى الغلو في الأمل.

ومن غريب أمره أنّه يعلم أنّ الموت بين يديه، ولا يقدر نزوله به، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «ما رأيت يقيناً أشبه بالوهم من الموت».

وأمّا الحرص على الدنيا فذلك لأنّ المرء إذا أنس بها وبلذّاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة، فيمنّي نفسه بما يوافق مراده وإنّما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهّمه ويقدّره في نفسه، ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه: من مال، وأهل، ودار، وأصدقاء، وسائر أسباب الدنيا، فيعكف قلبه عليها، ويلهو عن مفارقتها؛ حتّى إذا خطر له في بعض الأحايين أمر مفارقتها سوّف ووعّد نفسه، وقال: الأيّام بين يدي كفيلة بقضاء لباناتي.

فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلاّ إلى أرب

وليس بدعاً أن يغلو الإنسان في الأمل، فقد جاء في الأثر: «يشيب ابن آدم، وتشبّ معه خصلتان: الحرص، وطول الأمل».[1]

---

(١) إرشاد القلوب: ٣٠؛ تنبيه الخواطر ١: ٢٧٢، (.. تشب منه اثنتان.. الحرص والأمل..).

وفي رواية: «يهرم ابن آدم ويبقى منه اثنان: الحرص، والأمل».[1]

وخير ما يكون عليه الأمل أن يجري على ما جاء في قول سيّد البشر: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً».[2]

فإنّه صريح في حثّ المرء على عمارة الدنيا، حتّى يسكن فيها ويستمتع بها، وينتفع بها، من يجيء بعده، كما إنتفع هو بعمل من كان قبله، أضف إلى ذلك أنّه إذا علم أنّه يطول عمره أحكم ما يعمله، وحرص على ما يكتسبه، وإذا تمثّل له أنّ الموت يوافيه اليوم أو غداً أخلص في عمله، واستنفد وسعه في إتقانه وسارع إلى إنجازه، فينال السعادة في الدنيا والآخرة، وذلك الفوز العظيم.

* * *

مراتب الناس في طول الأمل وقصره:

قال الفيض الكاشاني في المحجّة البيضاء (ج ٨ ص ٢٤٨):

إنّ الناس في ذلك يتفاوتون: فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً، قال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.[3]

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم، وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه، وهو الذي يحبّ الدنيا حبّاً شديداً، قال النبي صلى الله عليه وآله: «الشيخ شابّ في طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلاّ الذين اتّقوا وقليل ما هم».

ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما رواءها، ولا يقدّر

---

(١) روضة الواعظين: ٤٢٩.

(٢) تنبيه الخواطر ٢: ٢٣٤.

(٣) البقرة: ٩٦.

لنفسه وجوداً في عام قابل، ولكنّ هذا يستعدّ في الصيف للشتاء، وفي الشتاء للصيف، وإذا جمع ما يكفيه لسنة اشتغل بالعبادة.

ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء فلا يدّخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف.

ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعدّ إلاّ لنهاره، فأمّا للغد فلا.

قال عيسى عليه السلام: «لا تهتّموا برزق غد فإن يكن غداً من آجالكم فسيأتي [فيه] أرزاقكم مع آجالكم، وإن لم يكن [غداً] من آجالكم فلا تهتّموا [لآجال] غيركم».

ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح».

ومنهم من [لا] يقدّر البقاء أيضاً ساعة؛ ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنّه واقع وهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلّي صلاة مودّع، فهذه مراتب الناس ولكلّ درجات عند الله، وليس من أمله مقصوراً على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله، فإنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ثمّ يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكلّ إنسان يدّعي أنّه قصير الأمل وهو كاذب، وإنّما يظهر ذلك بأعماله، فإنّه يعتني بأسباب ربّما لا يحتاج إليها في سنة، فيدلّ ذلك على طول أمله، وإنّما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب عينيه لا يغفل عنه ساعة، فيستعدّ للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنّه لم يضيّع نهاره بل استوفى منه حظّه وادّخره

لنفسه، ثمّ يستأنف مثله إلى الصباح، وهكذا إذا أصبح، ولا يتيسّر هذا إلاّ لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم، وإن عاش سرّ بحسن الإستعداد ولذّة المناجاة، فالموت له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإنّ السير جادّ بك وأنت غافل عن نفسك، ولعلّك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا يكون كذلك إلاّ بمبادرة العمل إغتناماً لكلّ نفس أُمهلت فيه.

* * *

ديوان الشعر:

جاء في المجلّد الأوّل من المستطرف (ص ٧١):

ولقد أحسن أبو العبّاس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حرص تراه يلمّ وفراً ... لوارثه ويدفع عن حماه

ككلب الصيد يمسك وهو طاو ... فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً ... فأمسكها عن الشهوات أمسك

ولا تحرص ليوم أنت فيه ... وعدّ فرزق يومك رزق أمسك

قال عبد الصمد بن المعذل:

ولي أمل قطعت به الليالي ... أراني قد فنيت به وداما

قال قس بن ساعدة:

وما قد تولّى فهو لا شكّ فائت ... فهل ينفعني ليتني ولعلّي

وقال آخر:

ولا تتعلّل بالأماني فإنّها ... عطايا أحاديث النفوس الكواذب

وقال آخر وأجاد:

الله أصدق والأمالي كاذبة ... وجلّ هذي المنى في الصدر وسواس

وقال آخر:

شطّ المزار بسُعدى وانتهى الأمل ... فلا خيال ولا رسم ولا طلل

ألا رجاء فما ندري أندركه ... أم يستمرّ فيأتي دونه الأجل

وقال أبو العتاهية:

لقد لعبت وجد الموت في طلبي ... وإنّ في الموت لي شغلا عن اللعب

لو شمّرت فكرتي فيما خلقت له ... ما اشتدّ حرصي على الدنيا ولا طلبي

وله أيضاً:

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذلّ الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تقاد إليك عفواً ... أليس مصير ذلك للزوال

ولصاحب (المستطرف) وقد ضمّن هذا البيت:

أيا من عاش في الدنيا طويلا ... وأفنى العمر في قيل وقال

وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمّع من حرام أو حلال

هب الدنيا تقاد إليك عفواً ... أليس مصير ذلك للزوال

* * *

حمداً لولي النعم الذي وفّقنا لإتمام هذا السفر الكريم، ونرجو من منّه تعالى أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، وتستضيء بنور ما أودع فيه من صفو الأخلاق والحكم، المأخوذة من بيوت آل العصمة صلوات الله وسلامه عليهم، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فقد آن

للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله الذي تطمئن به القلوب ربّ اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين والمؤمنات يوم يقوم الحساب.

لقد تمّ بقلم مؤلّفه حسن السيد عليّ القبانجي النجفي، غفر الله له وأحسن عاقبة أمره في اليوم الثامن من شهر صفر الخير سنة (١٤٠٧هـ) في النجف الأشرف على صاحبه أفضل التحيّات والتزكيات.

* * *

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

الاحتجاج: الطبرسي/ ت محمّد باقر الخرسان/ ط ١٣٨٦هـ/ الناشر دار النعمان/ النجف الأشرف.

إحياء علوم الدين: الغزالي/ ط ١/ ١٤١٢هـ/ م دار الهادي/ بيروت.

أخبار الحمقى والمغفلين: ابن الجوزي/ ط ١/ ١٩٩٤م/ دار الكتاب العربي/ بيروت.

الأذكار النووية: يحيى بن شرف النووي/ ط ١٤١٤هـ/ دار الفكر للطباعة والنشر/ بيروت.

الإرشاد: المفيد/ ت مؤسسة آل البيت عليهم السلام/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ الناشر دار المفيد/ بيروت.

ارشاد القلوب: الديلمي/ ط ٤/ ١٣٩٨هـ/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت.

الاستبصار: الطوسي/ ت حسن الخرسان/ ط ٤/ ١٣٦٣ش/ مط خورشيد/ الناشر دار الكتب الإسلاميّة/ طهران.

أسد الغابة: ابن الأثير/ الناشر دار الكتاب العربي/ بيروت.

الاصابة: ابن حجر.

أصول الكافي: الشيخ الكليني.

الأعلام: الزركلي.

الأمالي: الصدوق/ ت مؤسسة البعثة/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ الناشر مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

الأمالي: المفيد/ ت حسين الأستاد ولي، عليّ أكبر الغفاري/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ م دار المفيد/ بيروت.

الأمالي: الطوسي/ ت مؤسسة البعثة/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ الناشر دار الثقافة/ قم.

الأنساب: السمعاني.

بحار الأنوار: المجلسي/ ط ٢ مصححة/ ١٤٠٣هـ/ الناشر مؤسسة الوفاء/ بيروت.

البداية والنهاية: ابن كثير/ ط ١/ ١٤٠٨هـ/ ت عليّ شيري/ الناشر دار احياء التراث العربي/ بيروت.

تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون/ ط ٤/ دار احياء التراث العربي/ بيروت.

تاريخ الطبري: الطبري/ ت نخبة من العلماء/ ط ٤/ ١٤٠٣هـ/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت.

تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر/ ت عليّ شيري/ ١٤١٥هـ/ م دار الفكر/ بيروت.

تحف العقول: ابن شعبة الحراني/ ت عليّ أكبر الغفاري/ ط ٢/ ١٤٠٤هـ/ الناشر مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.

تفسير الإمام العسكري: منسوب إلى الإمام العسكري/ ت مدرسة الإمام المهدي/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ م مهر/ قم.

تفسير البيضاوي: البيضاوي/ دار الفكر/ بيروت.

تفسير القرطبي: القرطبي/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

تفسير القمي: عليّ بن إبراهيم القمي/ ت طيب الجزائري/ ط ٣/ ١٤٠٤هـ/ الناشر دار الكتب العلمية/ بيروت.

التمدن الإسلامي: جرجي زيدان/ ١٩٠٢م/ مصر.

تنبيه الخواطر: الشيخ ورام.
تهذيب الأحكام: الطوسي/ ت حسن الخرسان/ ط ٣/ ١٣٦٤ش/ مط خورشيد/ الناشر دار الكتب الإسلاميّة/ طهران.
تهذيب التهذيب: ابن حجر/ ط ١/ ١٤٠٤هـ/ دار الفكر للطباعة/ بيروت.
تهذيب الكمال: المزي/ ت بشار عواد هرون/ ط ٤/ ١٤٠٦هـ/ مؤسسة الرسالة/ بيروت.
التوحيد: المفضل بن عمر الجعفي/ ت كاظم المظفر/ ط٢/ ١٤٠٤هـ/ الناشر مؤسسة الوفاء/ بيروت.
جامع السعادات: النراقي/ ت محمّد كلانتر/ مط النعمان/ النجف.
الجامع الصغير: السيوطي/ ط ١/ ١٤٠١هـ/ الناشر دار الفكر/ بيروت.
جواهر الأخبار: الصعدي.
الحدائق الناظرة: المحقق البحراني/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
الخصال: الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفاري/ ط ١٤٠٣هـ/ منشورات جماعة المدرسين/ قم.
الدر المنثور: السيوطي/ الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر/ بيروت.
روضات الجنات: خونساري.
روضة الواعظين: الفتال النيسابوري/ ت محمّد مهدي الخرسان/ منشورات الشريف الرضي/ قم.
زهر الربيع: نعمة الله الجزائري/ ١٤١٤هـ/ دار الجنان/ بيروت.
سبل السلام: محمّد بن إسماعيل الكحلاني/ ت محمّد عبد العزيز الخولي/ ط ٤/ ١٣٧٩هـ/ شركة مصطفى البابي الحلبي/ مصر.
سفينة البحار: عبّاس القمي/ ط ٢/ ١٤١٦هـ/ الناشر دار الأسوة للطباعة والنشر.

سنن الترمذي: الترمذي / ت عبد الوهاب عبد اللطيف / ط ٢/ ١٤٠٣هـ/ الناشر دار الفكر / بيروت.

السنن الكبرى: البيهقي / الناشر دار الفكر / بيروت.

سير أعلام النبلاء: الذهبي / ت حسين الأسد / ط ٩/ ١٤١٣هـ/ الناشر مؤسسة الرسالة / بيروت.

شجرة طوبى: محمّد مهدي الحائري / ط ٥/ ١٣٨٥هـ/ الناشر المكتبة الحيدرية / النجف الأشرف.

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي / ت محمّد أبو الفضل إبراهيم / ط ١/ ١٩٥٩م / الناشر دار احياء الكتب العربية.

شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني.

صحيح البخاري: البخاري / ط ١/ ١٤٠١هـ/ الناشر دار الفكر / قم.

الصحيفة السجادية: الإمام السجاد / ت عبد الرحيم أفشاري / ١٤٠٤هـ/ مؤسسة النشر الإسلامي / قم.

طب الأئمّة: ابن سابور الزيات / ط ٢/ ١٤١١هـ/ م أمير / قم.

عدة الداعي: ابن فهد الحلي / ت أحمد الموحدي القمي / الناشر مكتبة وجداني / قم.

العقد الفريد: ابن عبد ربه / ١٣٥٩هـ/ مصر.

عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور الاحسائي / ت مجتبى العراقي / ط ١/ ١٤٠٣هـ/ م سيد الشهداء / قم.

عيون الأخبار: ابن بابويه.

عيون أخبار الرضا عليه السلام: الصدوق / ت حسين الأعلمي / ط ١٤١٤هـ/ طبع ونشر مؤسسة الأعلمي / بيروت.

عيون الحكم والمواعظ: عليّ بن محمّد الليثي الواسطي/ ت حسين الحسيني/ ط ١/ مط دار الحديث/ قم.
الغدير: الأميني/ ط ٤/ ١٣٩٧هـ/ الناشر دار الكتاب العربي/ بيروت.
غرر الحكم: الآمدي/ ت مير سيد جلال/ ط ٣/ ١٣٦٠هـ/ جامعة طهران.
فتح الباري: ابن حجر/ ط ٢/ دار المعرفة للطباعة والنشر/ بيروت.
الفصول المهمة: ابن الصباغ/ ت سامي الغريري/ ط ١/ ١٤٢٢هـ/ مط السرور/ الناشر دار الحديث.
فقه القرآن: الراوندي.
فيض القدير: المناوي/ ت أحمد عبد السلام/ ط ١/ ١٤١٥هـ/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
في ظلال نهج البلاغة: محمّد جواد مغنية.
الكافي: الكيني/ ت عليّ أكبر الغفاري/ ط ٥/ ١٣٦٣/ مط حيدري/ الناشر دار الكتب الإسلاميّة/ طهران.
الكامل في التاريخ: ابن الأثير/ ١٣٨٦هـ/ م دار صادر/ بيروت.
كتاب الصمت وآداب اللسان: ابن أبي الدنيا.
كشف الخفاء: العجلوني/ ط ٣/ ١٤٠٨هـ/ الناشر دار الكتب العلمية/ بيروت.
كشف الظنون: حاجي خليفة/ الناشر دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
كشف المحجة: ابن طاووس/ ١٣٧٠هـ/ مط الحيدرية/ النجف.
الكنى والألقاب: عباس القمي/ الناشر مكتبة الصدر/ طهران.
كنز العمال: المتقي الهندي/ ت بكري حياني/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ الناشر مؤسسة الرسالة/ بيروت.

كنز الفوائد: أبو الفتح الكراجكي / ط ٢/ ١٣٦٩هـ/ مط الغدير / الناشر مكتبة المصطفوي / قم.

مجمع الأمثال: الميداني.

مجمع البحرين: الطريحي / ت أحمد الحسيني / ط ٢/ ١٤٠٨هـ/ الناشر مكتب النشر والثقافة الإسلاميّة.

مجمع البيان: الطبرسي / ت لجنة من العلماء / ط ١/ ١٤١٥هـ/ الناشر مؤسسة الأعلمي / بيروت.

مجمع الزوائد: الهيثمي / ط ١/ ١٤٢٨هـ/ الناشر دار الكتب العلمية / بيروت.

المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقي / ت جلال الدين الحسيني / ١٣٧٠هـ/ الناشر دار الكتب الإسلاميّة / طهران.

مروج الذهب: المسعودي.

مسائل عليّ بن جعفر: ابن الإمام الصادق / ت مؤسسة آل البيت / ط ١/ ١٤٠٩هـ/ مط مهر / قم.

مستدرك سفينة البحار: عليّ النمازي / ت حسن عليّ النمازي / ط ١٤١٨هـ/ الناشر مؤسسة النشر الإسلامي / قم.

مستدرك الوسائل: الميرزا النوري / ت مؤسسة آل البيت / ط ١ محققة / ١٤٠٨هـ/ الناشر مؤسسة آل البيت / بيروت.

المستطرف: شهاب الدين أحمد الأبهشي / ط مصر / الميمنية / ١٣١٤هـ.

مسند أحمد: أحمد بن حنبل / الناشر دار صادر / بيروت.

مشكاة الأنوار: عليّ الطبرسي / ت مهدي هوشمند / ط ١/ ١٤١٨هـ/ م ن دار الحديث.

مصباح الشريعة: منسوب للإمام الصادق عليه السلام / ط ١/ ١٤٠٠هـ/ الناشر مؤسسة الأعلمي/ بيروت.

المصنف: ابن أبي شيبة الكوفي/ ت سعيد اللحام/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ الناشر دار الفكر للطباعة/ بيروت.

معاني الأخبار: الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفاري/ ط ١٣٧٩هـ/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.

المعجم الأوسط: الطبراني/ ت دار الحرمين/ ١٤١٥هـ/ الناشر دار الحرمين.

المعجم الكبير: الطبراني/ت حمدي عبد المجيد السلفي/ ط ٢/ دار احياء التراث العربي.

معدن الجواهر: أبو الفتح الكراجكي/ ط ٢/ ١٣٩٤هـ/ مط مهر استوار/ قم.

مقتضب الأثر: أحمد بن عياش الجوهري/ مط العلمية/ الناشر مكتبة الطباطبائي/ قم.

مكارم الأخلاق: الطبرسي/ ط ٦/ ١٣٩٢هـ/ الناشر منشورات الشريف الرضي.

مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب/ ت لجنة أساتذة من النجف الأشرف/ ط ١/ ١٩٥٦م/ م الحديرية/ النجف.

من لا يحضره الفقيه: الصدوق: ت عليّ أكبر الغفاري/ ط ٢/ الناشر مؤسسة النشر الإسلاميّة/ قم.

منية المريد: الشهيد الثاني/ ت رضا المختاري/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ طبع ونشر مكتب الإعلام الإسلامي.

ميزان الاعتدال: الذهبي/ ت عليّ محمّد البجاوي/ ط ١/ ١٣٨٣هـ/ دار المعرفة/ بيروت.

ميزان الحكمة: محمّد الريشهري/ ت دار الحديث/ ط ١/ مطبعة ونشر دار الحديث.

نهج البلاغة: ت محمّد عبده/ ط ١/ ١٤١٢هـ/ مطبعة النهضة/ قم/ الناشر دار الذخائر.

نهج السعادة: الشيخ المحمودي/ الناشر مؤسسة الأعلمي/ بيروت.

الوزراء والكتاب: الجهشياري.

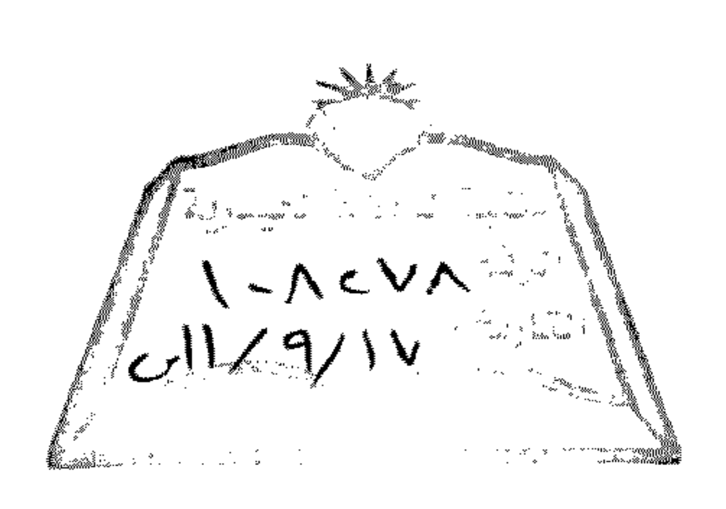
وسائل الشيعة: الحر العاملي/ ت مؤسسة آل البيت عليهم السلام/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ م مهر/ قم/ الناشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

ينابيع المودة: القندوزي/ ت عليّ جمال الحسيني/ ط ١/ ١٤٢٦هـ/ مط أسوة/ الناشر دار الأسوة/ قم.

* * *

فهرست الموضوعات

* * *


١٠٨٢٧٨
١١/٩/١٧



